

الأدب العربي في القرنين  
في القرنين العاشر والعاشر



1. The first part of the document is a list of the names of the persons who have been appointed to the various positions of the Board of Directors of the Corporation. The names are listed in alphabetical order of their surnames.

2. The second part of the document is a list of the names of the persons who have been appointed to the various positions of the Board of Directors of the Corporation. The names are listed in alphabetical order of their surnames.

# الأدب العربي وناريخه

في العصرين الأموي والعباسي

تأليف  
د. محمد عبد المنعم خفاجي  
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيـد

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تمهيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه دراسات واسعة جديدة للأدب العربي وتاريخه في عصرين من أزهى عصور الأدب وأزاهما ، وأحفلها بالبلاغات العربية في الشعر والنثر ، وشتى فنون الأدب ، وهما : عصر بني أمية ، والعصر العباسي الأول .

ولا يزال هذان العصران حتى اليوم في أمس الحاجة إلى الدراسة والبحث للكشف عن مختلف مقومات الأدب ، وبواعثه ، ونوازه ، وأصوله ، فيهما .

وقد أرادت جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية في البيضاء بالمملكة الليبية ، رفعا لمستوى الدراسات الأدبية فيها ، وحرصاً على تقديم مختلف الدراسات الجادة في شتى نواحي المعرفة لطلابها ، أن تجعل هذه الدراسات لأدب العصرين الأموي والعباسي الأول مقررّة على طلبة الفرقة الثانية بكلية اللغة العربية إحدى كليات هذه الجامعة الفتية الطامحة .

وبعناية الله ، واهتمام المسؤولين في هذه الجامعة ، سوف تصبح الشبيبة الليبية المثقفة ، ومن ينتظم في سلكها من أبناء البلاد الإسلامية الوافدين على هذه الجامعة ، مناط الأمل ، ومدار الرجاء ، في تحقيق آمال المستقبل ،

وفي رفع مستوى الدراسات الأدبية واللغوية في العالم العربي والإسلامي .

ولا نملك ما نقوله إلا أن نبتهل إلى الله أن يوفق هـذه الجامعة  
وخطواتها الرائدة في سبيل الثقافة الإسلامية والعربية ، لتكون في  
المستقبل القريب من أهم مراكز العلم والمعرفة في العالم الإسلامي ، بعناية  
الملك المعظم إدريس الأول ، راعي الجامعة وواضع أصولها ، وموجهها  
إلى خير الإسلام والمسلمين ، حفظه الله ورعاه ، ذخراً لليبيا ولنهضتها .

والله بكل جهود الجامعة وجهود الجامعات العربية والإسلامية ، في  
سبيل حرية الثقافة ، بالفوز والنجاح ، إنه أجل ما أول وأكرم مستول ؛  
وما توفيقنا إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجي

٤ من جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ

٢٠ من أغسطس ١٩٦٦ م

## القسم الأول من الكتاب

### الحياة الأدبية في عصر بني أمية

٤١ - ١٣٢ هـ

— أولا —

## الحياة السياسية في العصر الأموي

قيام دولة بني أمية وآثاره السياسية والأدبية

— ١ —

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ - ٦٦١ م على مقاليد الحكم ، وشئون الخلافة الإسلامية ، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق في الشام ، وظلت هي العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م .

ودمشق هي مدينة جلق القديمة التي أشار إليها حسان في شعره :

لله در عصابة نادمهم يوما بجلق في الزمان الأول  
ويسكاد يكون الإجماع على ذلك (١) .

وسموا دمشق : جلق الخضراء ، والغوطة ، وذات العباد ، ولقبت بالفيحاء ، والفيحاء الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بنحو مئتين ميلا ، وتقوم في نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون في التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب .. وهي مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد بردى ، الذي كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة

(١) ٨ دمشق ، محمد كرد علي ، وقيل إن جلق هي كورة غوطة دمشق كلها .

آلاف سنة ، وقد استولى على دمشق في القديم الآشوريون والبابليون  
والفرس والفراعنة والآرمن .

واقترحها اسکندر المقدوني ودخلت في حكم خلفائه ضمن دولة اليونان ،  
ثم صارت أعلى درة في الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسي ،  
وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت  
هجرات السلاسل والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويداً  
رويداً ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور  
الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب والشام وبلاد  
فارس ومصر .

وفتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة - ٦٣٦  
ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطنها وانتصاره على بني  
غسان في يوم فصحهم ، ورفع له للعقاب راية الرسول في أعلى الجبل المطل على  
المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها . فأبو سفيان  
ابن حرب شيخ بني أمية وأحد زعماء قريش كان كثيراً ما يفد عليها ، وله حديث  
طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخاري في صحيحه .

تولى فتح المدينة كل من أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد  
ابن أبي سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح  
نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحاً كلهم في العام  
الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول:  
سلام عليك يا ديار سوريا سلاماً لالقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بزنطة  
على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبي سفيان ، فلما مات عام ٥٢١هـ -  
٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن أبي سفيان من قبل عمر بن الخطاب ، وكان



من قبل بلى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميراً على دمشق عشرين عاماً قبل أن يصبح خليفة وقبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بني أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة للخلافة ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاماً أخرى ، بدأت بتنازل الحسن ابن علي له عن الخلافة ، وانتهت بوفاة معاوية .

تولى مقاليد الخلافة في دمشق طيلة العصر الأموي ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامي كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجيء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر ، .. ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، وجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر ، هم :

- ١ - معاوية بن أبي سفيان ( ٤١ - ٦٠ هـ : ٦٦١ - ٦٨٠ م ) (١) .
- ٢ - يزيد بن معاوية ( ٦٠ - ٦٤ هـ : ٦٨٣ - ٦٨٠ م ) .
- ٣ - معاوية بن يزيد ( ٦٤ - ٦٤ هـ : ٦٨٣ - ٦٨٤ م ) .
- ٤ - مروان بن الحكم ( ٦٤ - ٦٥ هـ : ٦٨٤ - ٦٨٥ م ) (٢) .
- ٥ - عبد الملك بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ : ٦٨٥ - ٧٠٥ م ) (٣) .
- ٦ - الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م ) .
- ٧ - سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ - ٩٩ هـ : ٧١٥ - ٧١٧ م ) .
- ٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان ( ٩٩ : ١٠١ هـ : ٧١٧ - ٧١٩ م ) .

- 
- (١) كان من أعظم ولاته زياد المتوفى عام ٥٣ هـ .
  - (٢) بدأت في عهده ثورة ابن الزبير السياسية عام ٦٤ هـ واستمرت حتى قضى عليها عبد الملك عام ٧٣ هـ .
  - (٣) أشهر ولاته هو الحجاج ( ٤١ - ٩٥ هـ ) .

- ٩ - يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ : ٧٢٠ - ٧٢٤ م).
  - ١٠ - هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ : ٧١٤ - ٧٤٢ م).
  - ١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م).
  - ١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م).
  - ١٣ - مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ - ١٣٢ هـ : ٧٤٤ - ٧٥٠ م).
- هؤلاء خلفاء بني أمية ، شمس دمشق وملوكها وحكامها ، طيلة واحد وتسعين عاما هي مدة حكم الأمويين في العالم الإسلامي .

وقد بنى الخلفاء في دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فانتعش عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطناً رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي ، ووفد إليها الناس في مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين ما صارت به كعبة المسلمين في كل مكان وأعظم مدن العالم وأجلها ، ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، وأبان العرب - كما يقول جستاف لوبون - عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطر حوا النصرانية ، ودخلوا في الإسلام أفواجا ، وتعلموا العربية .

وكان خلفاء بني أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التي فتحت عام ٨٩٢ - ٧١١ م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التي أقام فيها عقبة ابن نافع مدينة القيروان عام ٨٥٠ - ٦٧٠ م ، وصارت منذ إنشائها موطناً من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب ، والشام وبلاد العراق وفارس وخراسان ودهستان

وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٥٩٣ : ٧١٣ م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون في الشام على القسطنطينية عدة مرات ، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط : صقلية ، سردينيا ، مالطة ، واحتلوا قبرص وكريت ورودس ، وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحر بن عبدالرحمن عام ٥٩٩ - ٧١٧ ، واستولى السمع بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها ، وقام عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ووصل بجيشه الكبير إلى بواتيه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقي وجيشه الباسل ، في يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ - ٢ أكتوبر ٧٣٢ م ، وقتل الغافقي ، وانسحب المسلمون ، وفي هذه الهزيمة يقول أديب فرنسي مشهور هو مسيو كلود فارير : « في سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نكبت بها الإنسانية في القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربي طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هي الفاجعة التي أريد أن أمقت ذكرها ، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقي ، ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغت فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمراني الفيلسفي المتسامح السلمي ، ... وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ - ٧٠٦ م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسمرقند والصغد وغيرها ، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٧١٥ م - ٩٦ هـ رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام ، ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك في حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة في عهد سليمان بن عبد الملك ،

ودخلت بلاد النوبة في حكم المسلمين، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا.  
هذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون ، وتركوه  
تراثا خالدا من تراث المسلمين الروحي والفكرى ، ولا يمكن أن ننسى عواصم  
الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والقسطنطينية  
ومكة والمدينة ، والقسطنطينية والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن  
الإسلامية الكبرى ، التى كانت من أجل الحضارة والمدنية وتقدم الفكر  
والثقافة والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية  
والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الممجية إلى المدنية ومن الوحشية إلى  
الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة التى سمعت  
بحكم المسلمين خلال هذه الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى  
كانت تدار على أحدث نظام فى الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى  
على كل الشؤون العامة ، وكان يختار ولاية يديرهم عنه فى إدارة الولاية والأقاليم  
والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ - الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ، ويقم الأمير بالمدينة ،  
وكان يضاف إليه أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير .

٢ - العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان ويقم الأمير فى الكوفة  
بعض السنين وفى البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير  
يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تضاف إلى إمارة العراق أحيانا .

٣ - الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية .

٤ - الشام وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين والأردن ودمشق  
وحمص وقسرين .

٥ - مصر وأفريقية، وتنظم بلاد مصر وشمال أفريقية، وكانت أفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال لها عن مصر، ولما فتحت الأندلس كانت تابعة لأفريقية، وفي بعض الأحيان كانت تستقل بأمير.

وكان كل أمير يختار كذلك ولاية له على الأقاليم والمدن التي في إمارته، ويتمتع بالاستقلال الإداري في إمارته، يقيم الصلاة بنفسه، وإليه قيادة الجند، وجباية الخراج، والقضاء بين الناس.

ومع عسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة .  
بوساطة البريد الذي استعمله معاوية وخلقواؤه .

وفي هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التي لا بد منها لضبط شئون الدولة، ومن بينها : ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخاتم.

وكانت لغة الدواوين في الولايات المختلفة بلغاتها، إلى أن عربت الدواوين في جميع البلاد الإسلامية، وصارت اللغة العربية هي لغة جميعها، في شتى الأقاليم والإمارات في العهد الأموي.

وقد كثرت الأحزاب السياسية في عصر بني أمية، من أمويين وعلويين وشيعة وخوارج وغيرهم، كما انتشرت بواعث سياسية العصبيات القبلية بين العدنانية والقحطانية وغيرهما.. وذلك مما أدى إلى نشأة الأدب السياسي في هذا العصر..

وكانت دولة بني أمية تعزى بالعرب وترفع من شأنهم، ولا تنظر إلى الموالي نظرة رعاية أو تقدير، فدولة بني أمية عربية أعراية (١) وكانت بنو أمية

---

(١) ٢٠٦ / ٣ البيان والتبيين .

لا تستخلف بنى الإمام (١) ولا تباع لبنى أمهات الأولاد (٢)، وذلك كله قد نقضته الدولة العباسية التي يصفها الجاحظ بأنها أعجمية خراسانية .

وكذلك حافظ الخلفاء الأمويون على الصبغة والثقافة العربية ، فنشأوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع ، ويعقدون المجالس الأدبية ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء ، ويكافئونهم بجزيل العطاء وسنى المواهب فوق عطفهم وبرهم بالعرب، وقصر وظائف الدولة عليهم وحدهم من ولاية وقيادة جيوش وتنظيم دواوين إلى غير ذلك من كبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة .

وهكذا شجعت دولة بنى أمية الجنس العربى وألقت فى يده زمام أمور الدولة ، بعكس بنى العباس .

وقد نمت الحواضر الإسلامية الكبرى كالكوكة والبصرة والفسطاط ومكة والمدينة وسواها من الأمصار .

### الأحزاب السياسية وآثارها فى الأدب

١ - كان معاوية رأس الدولة الأموية داهية أريبا حسيفاً ، وكان يعتز بأسرته الأموية اعتزازاً كبيراً لتؤيد دولته الجديدة وملكه الناشئ الفتى . وكان أظهر أعماله أنه نقل الحكم الإسلامى من خلافة شوربة إلى ملك مستبد يحرص على تثبيتته ودعمه وإعلاء صرحه ، ولو فوق جثث الضحايا وأشلانهم .

واستعان معاوية فى هذا بأسرته من بنى أمية وبنى عبد شمس ، كما استعان بالقبائل العربية المقيمة فى بلاد الشام وحواليها ، والى أغدق عليها العطاء ، وهو وال اممر وعثمان على الشام ، ثم وهو يقارع على بن أبى طالب وبجالد

(١) ١٨٠ / ٤ العقد .

(٢) ١٨١ / ٤ العقد . وكان الحجاج يسم أيدى التبط بعلامة يعرفون بها

(٧ : ١٦٥ الحيوان ط الحلبي) .

بالسيوف في سبيل الملك ، ثم وهو خليفة وأمير المسلمين بعد تنازل الحسن ابن علي له عن الخلافة .

وعمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها ببعض ، وتحريض بعضها على الآخرين ، وبذلك أحيا العصية القديمة التي حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم ، كما حاربها أبو بكر وعمر طول عهد خلافةهما رضوان الله عليهما .

لم يكن معاوية يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما إلى أهل بيت الرسول ، ولا بالعرب المقيمين في الكوفة والبصرة لأن الكثير منهم شيعة ، ولكنه جهد في استمالة العرب القاطنين في بلاد الشام وعلى مشارفها ؛ كما جهد في استمالة القبائل اليمنية ، وتزوج من إحدى بطونها ، من قبيلة كلب ، أم ابنه يزيد ، كما جهد في استمالة القبائل القيسية وبعض القبائل المضرية إليه .

وفي سبيل ذلك أكثر من الوعد والوعيد ، وبذل الأموال وفرق العطاء ، وأكثر من الاغداق على أهل الحجاز وبخاصة مكة والمدينة لأنهم أصحاب الرأي النافذ بين المسلمين ، وضاعف عطاء الحسن والحسين أضعافا كثيرة فجعله ألف ألف درهم وكان على عهد عمر خمسة آلاف .

وبذلك استتب الأمر لمعاوية الداهية العبقري ، وكان يقول تصويراً لدهائه وسياسته : والله لو كان بيني وبين للناس شعرة ما انقطعت إن شدوا أرخيت وإن أرخوا شددت .

٢ - ولما مات معاوية لم يخلفه أحد في الملك يشبهه في الدهاء والسياسة ، فافترق المسلمون وشبت الثورات وكثرت الأحزاب : من شيعة أنصار بيت علي في الحجاز والعراق ، وزييريين يشايعون آل الزبير في الحجاز وغيرها ، وخوارج خرجوا على الاستبداد والملك العضوض ، وأمويين يدافعون عن ملكهم ونفوذهم .

ووجد ملوك بني أمية أن لا شيء يعيد إلى دوائهم هيبته واطمئنتانها إلا الاستبداد والعسف والطغيان ، فوكلوا بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي يملأ الأرض رعباً وخوفاً وجوراً ، ووكلوا بالبلاد الأخرى ولاة يأمرهم باليقظة والحزم والدهاء والمسكر والطغيان .

وهكذا ظلت الدولة تنموج بالعصيات إلى عهد انقضائها ، بل إنها كانت السبب الأخير في القضاء عليها وتمهيد الأمر لبني العباس .

٣ - وكان الشعراء يغذون العصيات ويلقون القصائد الجيدة مشيدة بذكر الأحزاب التي ينتمون إليها ومنذدة بمثالب الأحزاب الأخرى ، ومن ذلك أن الهاشمين أخذوا يحرضون الكميث الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، جاء في مروج الذهب للمسعودي أن عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال للكميث : إني قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب ، فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بني نزار من ربيعة ومضر وأطنب في وصفهم وفضلهم على بني قحطان وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قر السماء وكل نجم      تشير إليه أيدي المهتدين  
وجدت الله إذ سمى نزارا      وأسكنهم بمكة قاطنين  
لنا جعل المكارم خالصات      وللناس القفا ولنا الجبين

وقد ذاع هذا القول في النزارية والبنية فافتخر كل قبيل بماله من مآثر .. وفي العصر العباسي قال دعلج بن علي الخزاعي ينقض على الكميث قصيدته ويذكر مناقب اليمن ويعرض بل ويصرح بنقائص غيرهم من قصيدة له :

أفيق من ملامك يا ظعينا      كفاك اللوم مر الأربعينا  
لم نحرزك أحداث الليالي      يشيبن الذوائب والقرونا



وما طلب السكيت طلاب وتر ولكننا لنصرتنا هجيناً  
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فآخرينا

وهكذا قامت أحزاب سياسية في هذا العصر كان لها كبر الأثر في حياة  
الدولة ، ومن بينها حزب بنى أمية وحزب العلويين ، وحزب الزبيريين ،  
وحزب الخوارج ، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه وخطباؤه .  
ونشأ عن إحياء العصبية الممقوتة آثار كثيرة بعضها سياسى وبعضها  
اجتماعى وبعضها أدبى :

أما الآثار السياسية فقد كثرت الخلافات والثورات والحروب بين  
العرب بعضهم وبعض وبين العرب والموالى وبين أبناء وفروع الأمويين  
أنفسهم ؛ وكثر تبعاً لذلك الاضطهاد السياسى لخصوم الدولة .

وأما الآثار الاجتماعية فإنك تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة  
التفكير الجاهل على الناس والساسة ، وبذلك انحرف الأمويون بل الناس  
كلهم عن منهج الإسلام الذى يجعل الناس إخوة متحابين ويفرض على  
الحاكم العدل والمساواة والحرص على حريات الناس جميعاً .

وأما الآثار الأدبية فقد عادت الغنون الأدبية الجاهلية القديمة إلى  
الظهور ، من الفخر الكاذب والمنافرات والمفاخرات المرة بين العرب في  
بجتماعهم الأدبية وعلى الأخص في « المربد » بظاهر البصرة وفي الكناسة  
حوالى الكوفة .

### تلخيص

وفي إيجاز شديد نستطيع أن نلمح الآثار السياسية لقيام الحكم الأموي في استقرار السلطان في أيدي الحزب الأموي الحاكم ، وفي تصارع القوى السياسية في الدولة في هذا العصر التي تتمثل في الحزب الرئيسي وهو حزب بني أمية وفي الأحزاب المعارضة من علويين وخوارج وزيريين وسواهم ، وكانت سياسة الدولة عربية خالصة مما أثار حقد الموالي عليها وكرهيتهم لها ، ونجم عن هذه السياسة قيام الثورات السياسية في عرض البلاد وطولها وعدم استقرار الأمن ، وقيام الدعاية السرية للهاشميين .

وكان لقيام الدولة آثار أدبية أخرى تتجلى في نشأة الأدب السياسي في هذا العصر ، وفي تعدد مواطن الثقافة والأدب ، وفي انتشار اللغة وذيوعها ، وفي تعدد مواسم الأدب وحلقاته في هذا العهد ، وفي إقبال الخلفاء على الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، واغداقهم الأموال الطائلة عليهم ، وفي تنافس الشعراء في مدح الخلفاء والقرب من مصادر المال والسلطان .

وقيام الأحزاب السياسية في هذا العصر أصل كبير تفرعت عنه آثار كثيرة من قيام الشعر السياسي والخطابة السياسية ، ومن تعدد مذاهب الشعراء الفسكورية والسياسية ، وقيام الهجاء بينهم وازدهار فن المدح والحامسة ووصف المعارك ورناء القتلى ، وقد أثمر ذلك كله نهضة الشعر وقوته في هذا العصر الحافل .

## - ثانياً -

### عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها

اشتدت في هذا العصر عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب ونجحت في مظاهرها شتى :

- ١ - إحياء الأدب الجاهلي ، إحياء للعصية وبعثا لها أو بدافع منها ، وإرواء لغلتهم الأدبية ، وبذل الأموال لعلماء اللغة والأدب في سبيل ذلك .
  - ٢ - عقد المجالس الأدبية العامة التي تلمس الأدب والشعر وانقد ، ويسكون حظ كل ذلك من رعايتهم موفوراً .
  - ٣ - كما بذلوا الكثير من عنايتهم في سبيل المحافظة على اللغة وتدوين النحو ووضع النقط والشكل ونقل دواوين الخراج إلى العربية .
  - ٤ - رعاية الكتابة واتخاذ أعلامها كتاباً في ديوان رسائل الخلفاء .
  - ٥ - تسامحهم مع الشعراء وإطلاق الحرية لهم .
  - ٦ - تشجيع الشعراء ورعايتهم ، جلباً لمدهم ، ونشراً لمنافهم ، وتوطيداً لملكهم ، وإحياء لمفاخرهم ومآثر آبائهم . وإغداق العطاء عليهم دون حساب ، واتخاذ الخلفاء شعراء مقربين لديهم .
- فقد أعطى عبد الملك أعرابيا وصف ناقته مائة بعير ، وأعطى آخر وصف المطر ألف درهم . وأعطى الوليد بن عبد الملك امرأة وصفت الغيم بعد المحل مائة دينار .. وأعطى سليمان فرسه وما يحمله ويتجمل به لرجل أحسن وصف الفرس ، وأشبه ذلك كثير .

وكان للشعراء النصيب الأوفى من عناية هؤلاء الخلفاء ، لأنهم كانوا أشد

الناس إذ كاه للعصية وتأليفها لقلوب العرب وجمعاهم على نصره بنى أمية ، فكانت لهم أعظيات في بيت المال كل حسب طبقتة ومنزلته وأثره في مدح الدولة والذود عنها . كل ذلك بينما شعراء بنى هاشم وشيعتهم يستلمون وحي الشعر من حب أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر مما كانوا يستمدونه من أموالهم وأفعالهم .. ومن هذين المدين : المال والمودة ازدهر هذا العهد بالشعر أكثر مما ازدهر به أى عهد سواه .

كان خلفاء بنى أمية يذكرون العصية العربية بكل ما لديهم من قوة ومال ، وكان من أكبر وسائل الاذكاء لإحياء ما خلفه العرب من شعر وحكمة وخطب ، وكان أكثر هؤلاء الخلفاء من أقطاب العلم والأدب ، فكانوا يستقبلون في كل آونة رؤساء العشائر وخطباءها وشعراءها ومن إلى هؤلاء ممن يؤيدون بهم الملك ، ويؤازرون بهم الجماعة ، ويشدون بهم الأعضاد ، وكانوا يستمعون لما يلقيه هؤلاء وما ينقلونه عن أسلافهم من مآثور القول ؛ ويثيدون عليه ثوابا كريما .

كما كان من الأمراء والرؤساء والقادة والولاة من كانوا يغالون في هبات الشعراء والخطباء إلى أبعد حد عرف من كرم العطاء .

ومن هؤلاء عبد الله بن العباس ، وعرابة الأوسى ، وطلحة الخزاعى ، والحجاج الثقفى ، وخالد القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وسواهم .

ولا بدع في ذلك ، فهم عرب يهزم البيان ، ومنهم من كان يتذوق الشعر ويفهمه وينقده كعبد الملك بن مروان ، فوق البواعث السياسية والاجتماعية والدينية ، التى كانت تدعوهم إلى العناية بالأدب والشعر واللغة .

وقد كان الخلفاء والأمراء وغيرهم يحثون الناس على طلب الأدب والشعر واللغة .

قال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن اجتمعتم

إليه كان لكم مالا وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ؛ وقال شبيب بن شيبه :  
اطلبوا الأدب فانه مادة العقل ودليل عن المروءة ، وقال معاوية : اجعلوا  
الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (١) .

وننتقل إلى تفصيل مظاهر عناية الدولة باللغة والأدب في هذا العصر ..

### (١) ذبوع اللغة وقيامها بمطالب الحضارة

علمت مما سبق أن الفتوحات الإسلامية كثرت في العصر الأموي حتى  
وصلت جيوش المسلمين إلى الهند والأندلس ، وحكم العرب هذه البلاد  
المفتوحة وأخضعوها لنفوذهم وسلطانهم وصاروا يحكمونها وأمراءها ونشروا  
فيها دينهم ولغتهم وآدابهم ونزح العرب إلى هذه البلاد المفتوحة فأقاموا  
فيها وعمروها وغالطوا أهلها ونشروا اللغة العربية في كل مكان .

وأخذ أهل هذه البلاد المفتوحة يتعلمون العربية ويدرسونها ويتخذونها  
لغة لهم يتفاهمون بها مع حكامهم وولائهم من العرب ولم يقفوا عند هذا  
الحد من التخاطب باللغة والتفاهم بها بل أجادوا العربية ودرسوا آدابها  
ونظموا الشعر وتفقهوا في شتى العلوم سواء منها العلوم الإسلامية الأصلية  
أم علوم ومعارف أهمهم القديمة المتقدمة التي أذاعوها ونشروها في البيئة  
العربية الإسلامية الجديدة .

يقول ابن خلدون : ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان  
القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها ، لأن الناس  
تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعار الإسلام

---

(١) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان .

وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وأسنتهم في جميع الأقطار والممالك ،  
وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ، وصارت  
الأسنة دخيلة فيها وغريبة .

ولقد قامت اللغة العربية في العصر الأموي بمقتضيات الدين والمملك  
والسياسة إلى حد بعيد مما يتجلى لك فيما يأتي :

(١) حولت دواوين الخراج إلى اللغة العربية في شتى البلاد الإسلامية ،  
وكانت من قبل تكتب بلغة الأقليم التي هي فيه ، فهي في العراق بالفارسية ؛  
وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية ، فحولت دواوين الخراج إلى  
العربية في عهد الحجاج وعبد الملك ، كما حولت دواوين الشام من الرومية  
إلى العربية في عهد عبد الملك أيضا بعد أن رأى من إبدال كتابه سرجون ،  
وكان الذي حولها له في الشام إلى العربية هو سليمان بن مسرور ، فذهب الحزن  
إلى قلب سرجون حتى لقد قال لمن معه من كتاب الروم : اطلبوا الرزق من  
غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم ؛ ولما حول صالح بن عبد الرحمن  
السجستاني للحجاج دواوين العراق إلى العربية (١) ، أراد الكتاب الفرس  
أن يحولوا بالمال بينه وبين ذلك ، فبذلوا له مئتي ألف درهم على ألا يفعل  
فأبى فقالوا : قطع الله أصدك من الدنيا بعد أن قطع أصل الفارسية .  
وتم منذ ذلك الحين نقل ديوان العراق ، وكان الذي يتولى الكتابة  
فيه بالفارسية زادن فروج بن يدي .

---

(١) وفي العقد الفريد : أن قحزم جد الوليد بن هشام القهني هو الذي  
قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ( ١١ - ٣ العقد ) .

وأما ديوان مصر فقد حوله عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ، وكان يقوم بالكتابة فيه بالقبطية انتناش القبطي فصرفه عبد الله وأقام مكانه ابن يربوع الفزاري .

( ب ) كما قامت اللغة بالتعبير عن ألوان الحياة الجديدة الناشئة على العرب في دولة بني أمية فالقصور الباذخة والجيوش العديدة والعلماء والعبيد والحجاب والقهاري والموسيقى والغناء والجيوش والأساطيل والتلاع والبريد وسك النقود وديوان الخاتم وديوان الرسائل وديوان الجند وغير ذلك من مظاهر الملك وألوان المدنية الجديدة ومشاهد العمران والترف ، قد راض العرب لغتهم على التعبير عنها ، وعمما تتطلبه شتى ألوان الحياة ، فلم تعجز اللغة بل نهضت بكل ذلك دون وناة أو فتور ، سواء بما فيها من الألفاظ ومفردات وأصاليب وثروة لغوية ضخمة أم بما عر به العرب من الألفاظ الأجنبية . فوضعوا أسماء للمسميات الجديدة : بنقل بعض الألفاظ العربية عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى ؛ أو بالتعبير عنها بالألفاظ المعربة ، فمن ألفاظ في تمييز الجند وأنواع أسلحتهم إلى مصطلحات الدواوين ، وما تقتضيه الحضارة والعمران والثقافة .

ومن الألفاظ المعربة : الطست والطبق والبسور واللوز والطنبور والفرسخ والبريد والمارستان ، ومنها : الدبابة ، والعرادة ، والمنجنيق ، والثغور ، والعواصم ، والقصبية ، والولاية ، والحكومة ، والسكة ، والدقتر ، والجريدة (١) .

(١) الدبابة : مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن وفيها الجند ، فينقبون وهم في جوفها . والعرادة : شيء أصغر من المنجنيق . والثغر كل عورة منفتحة والفم والأسنان وما يلي دار الحرب وموضع الخفاة من فروج البلدان . والعاصمة المدينة . والقصبية : القصر والمدينة . والسكة بالكسر : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم . والدقتر بفتح الدال وكسرها جماعة الصحف المضمومة . والجريدة سعفة طويلة رطبة أو يابسة أو التي تقشر من خواصها .

(ج) ونهضت اللغة بشتى ألوان العلوم والثقافات وتدوينها دون تقصير  
أرعجز فبدأت النهضة العلمية والفكرية وقام العلماء بتدوين آرائهم فى شتى  
علوم الدين والدنيا تساعدهم على ذلك لغة طيبة مرنة واسعة الجوانب .

(د) كما عبرت اللغة عن شتى نظم الملك والسياسة والقضاء والإدارة  
والأدب والفن حتى ورثنا ثروة ضخمة من آثار هذا العصر الأدبية الرائعة .

## (٢) ظهور اللحن والعمل على مقاومته

### اللحن ونشوء العامية :

١ - علمت أن العرب فتحو كثيراً من البلاد والأمصار، ودخل أهلها  
فى دين الله أفواجا وتعلوا القرآن ودرسوا اللغة العربية وتكلموا بها ،  
فبدأت اللسكنة تظهر فى كلامهم كما بدأ اللحن واضحاً فى نطقهم .

ولاشك أن العربى بمخالطته للدخلاء على العربية ولسانها قد أصابته  
عدواهم وانتقلت إليه آثار من لسانهم ولحنهم .

كما أن نشأة أولاد الأمراء والخلفاء والأثرياء بين أمهات أو مريبات  
أعجميات كان له أثره فى إفساد طباعهم وفطرتهم الأدبية الموروثة .

وفى عهد الدولة الأموية ظهر اللحن والعى وفساد الملكات واللسكنة حتى  
كان الخلفاء والأمراء يدفعون هذه العدوى بترية أولادهم فى البادية وتنقيفهم  
على يد الأساتذة والمعلمين حتى يتعودوا البلاغة والفصاحة من صغروهم .

وكان اللحن يقع فى محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم .. وقد أسرعوا  
بوضع اللحن ثم الشك كل ثم الإعجام حفظاً للآسنة من الفساد والملكات  
من العى .



٢ - ولم يقع في العصر الجاهلي لأن الإعراب جزء من لهجة العربي الفصيح لا ينفصم عنها .

كما أنه لم يقع في عصر النبوة وما بعده من العرب إلا نادراً وذلك لسلامة الملكات وقلة اختلاط العرب بغيرهم وقرب عهدهم بالبداية . روى أن كاتب أبي موسى الأشعري كتب عنه كتاباً إلى عمر فلحن فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك صوتنا، وكان ما لحن فيه قوله في أول الكتاب : هـ من أبو موسى الأشعري . ولحن رجل في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أحاكم فقد ضل .

نعم وقع لحن من الموالى المسلمين في عهد النبوة ، كما وقع من سليمان الفارسي وكان يرتضخ لسكنة فارسية ، وبلال وكان يرتضخ لسكنة حبشية وصهيب وكان يرتضخ لسكنة رومية ، ولكن عذر هؤلاء واضح لأنهم حديثو عهد بالإسلام واللغة ، وشتان بين هذا وبين ما وقع في العصر الأموي .

٣ - ومن اللحنين خالد القسري وكان متقدماً في الخطابة ومتناهماً في البلاغة فخرج عليه المغيرة بن سعيد الكوفي وهو على المنبر فقال : أطعموني ماء (١) وكانت أمه نصرانية .

ومن اللحنين أيضاً الوليد بن عبد الملك أشفق عليه أبوه فلم يرسله إلى البادية فترى في دمشق وتعلم العربية صناعة فعرض له كلامه اللحن فهو مع بلاغته يقول لأبيه : اقتل أبي فديك ، ويقول لغلامه : رد القرمان الصادان ، ويقرأ : يا ليتها كانت القاضية برفع القاضية ، ويقول عبد الملك : أضرب بالوليد جنبنا له فلم نوجهه إلى البادية (٢) .

ومن اللحنين أيضاً عبيد الله بن زياد وكانت فيه لسكنة لأنه نشأ بالأساور مع أمه مرجانة . قال مرة : افتحوا سيوفكم فقال : يزيد بن مفرغ :

(٢) ١٥٤ = ٢ البيان والتبيين

(١) ١٧ = ١ الكامل للمبرد

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

٤ - ويقول عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، وقال غيره : تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض ، ويقول غيره : تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع ونزكه هجنة للشريف . وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرون منه ويعدونه عيباً كبيراً ، حتى لقد قال عبد الملك : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن وأول لحن ؛ سمع بالبادية : هذه عصاتي ، وأول لحن سمع بالعراق : حى على الفلاح .

وقد وقع اللحن لكثير في هذا العصر ، يقول رؤبة وأبو عمرو بن العلاء : إنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن البصري والحجاج ، وغلط الحسن في حرفين من القرآن ، كما نسب للحجاج لحن في بعض المواطن .

وأمثلة اللحن والسكنة كثيرة ، ويقول المبرد في السكنة : هي أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية (١) وتكون من العجم ، ومن نشأ من العرب مع العجم كما يقول الجاحظ (٢) ، ويقال : في لسانه سكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول (٣) ، فهي المعجز عن وضوح اللهجة وصحة مخارج الحروف .

وبعد فإن آثار اختلاط العرب بالعجم قد ظهرت في الألسنة في مظاهر كثيرة هي : اللحن والسكنة ، وضعف الملمكة والطبع ، وقد عملوا على مقاومته ، فوضعوا النحو وأنشكروا الإعرام .

(٢) ٦٩ ج ١ البيان

(١) ٣٦٩ ج ١ الكامل

(٣) ٤٨ ج ١ البيان

### (٣) الحفاظ على العربية

كان اختلاط العرب بالعجم والموالي أثره في الألسنة حيث ظهر اللحن والسكنة وضعفت الملمكة والطبع .

وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرونه للغاية ، حتى قالى عبد الملك بن مروان : شينى صعود المنابر والخوف من اللحن .  
ولاحتراز عنه وضعوا النحو والشكل والإعجام .

#### وضع النحو :

أما النحو فهو العلم الذى يرشد إلى معرفة حركة آخر الكلمة ، وقد كان ذلك ضروريا للسان العربى بعد أن دب اللحن إلى الملمات والألسنة ، ولقد كان العرب فى جاهليتهم يعتمدون على سليقتهم السليمة وفطرتهم العربية الصادقة ، فلم يقع منهم لحن ، ولكن اختلاط العرب بالعجم والموالي بعد الفتوحات الإسلامية جعل وضع النحو ضرورة لا بد منها للمحافظة على القرآن الكريم ولغته الشريفة .

والناس يختلفون فى الداعى الذى حفز القدماء إلى وضع النحو ، وفيمن وضعه اختلافا كثيرا ، مما سنفصل القول فيه .

أما سبب وضع النحو ففيه روايات كثيرة :

١ - قيل إن معاوية كتب إلى زياد يطلب عبد الله ابنه فلما قدم عليه وجده يلحن فردّه إلى زياد وكتب إليه كتابا يلومه فيه على ذلك فبعث زياد إلى أبى الأسود وطلب منه أن يضع شيئا يصلح الناس به كلامهم ويعرفون كلام الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود فوجه زياد رجلا وقال له أقعد فى طريق أبى الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئا من القرآن وتعمد اللحن ، فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته وقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فاستعظم

ذلك أبو الأسود وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت .

ب — وقيل إن أبا الأسود كان يعلم أولاد زياد وهو والى العراقيين يومئذ لجأه يوما وقال له : أصلح الله الأمير إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت أسنتهم أفأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، لجأه رجل إلى زياد وقال : أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون ، فقال زياد : أدع لي أبا الأسود ، فلما حضر قال : ضع للناس الذي نهيتك عنه .

ج — وقيل إن ابنة لآبي الأسود تحدثت إليه فقالت : يا أبت ما أحسن السماء ؟ فقال نجومها . فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها قولي : ما أحسن السماء ؟ ثم غدا على علي رضي الله عنه فحدثه حديث ابنته وقال : إني أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الجراء ، فأملى على رضي الله عنه بعض قواعد الكلام وقال له : انسخ هذا النحو ، فكان أبو الأسود كلما عقد فصلا راجعه فيه أمير المؤمنين فأقره أو هذبه .

د — وقيل إن أبا الأسود دخل على علي رضي الله عنه فوجد في يده رقعة حمراء فقال له ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الجراء فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ثم أتى الرقعة إلى أبي الأسود فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال لآبي الأسود : انسخ هذا النحو واضف إليه ما وقع إليك ، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء كلها ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأرد بذلك المبهمات ، قال أبو الأسود ثم وضعت بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن واخواتها فلم أذكر لكن فلما عرضتها على علي عليه السلام أمرني بهم لكن إلها ، وكنت

كلما وضعت بابا عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى :  
ما أحسن هذا النحو الذى نحوت .

وقيل إن أبا الأسود هو الذى ابتكر التقسيم الأول للكلام وأراه عليا  
عليه السلام فأقره .

هـ - ويروى أيضا أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب  
فقال من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه  
رجل سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال  
الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله تعالى برىء من رسوله  
فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى فدعاه فقال يا أعرابى  
أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا أمير المسلمين إني قدمت  
المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى ؟ فأقرأنى هذا سورة براءة  
فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله فقلت له أو قد برىء الله تعالى من  
رسوله إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر رضى الله  
عنه ليس هكذا يا أعرابى فقال كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن الله  
برىء من المشركين ورسوله ، فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله  
ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ،  
وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو (١)

وأما واضع النحو ، فأغلب الروايات متضافرة على أنه أبو الأسود  
الدؤلى العالم الخالد المتوفى عام ٦٩ هـ ، سواء كان هو الذى ابتكره  
من نفسه أم أن الإمام على بن أبى طالب أرشده إلى الأساس الذى  
بنى عليه .

---

(١) نزهة الألباء ص ٧ وما بعدها .

ويقول عبد القادر البغدادي فيه : وهو واضع علم النحو بتعليم علي رضي الله عنه (١) .

وكان أبو الأسود غاية في الذكاء والحدق والعبقرية وكان من سادات التابعين وصحب علي بن أبي طالب وشهد معه صفين ثم أقام في البصرة واتصل بزياد فكان أثيرا لديه وتوفي عام ٦٩ هـ .

وبعد فسواء كان أبو الأسود وضع النحو بنفسه أم أن عليا وضع له الأساس فبني هو عليه ، فإن لأبي الأسود فضلا عظيما طالدا في هذا المجال ، وكان أبو الأسود يقيم بالبصرة ، فأخذ عنه تلاميذ كثيرون منهم : نصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل . وميمون الأقرن . وكلامهم من البصرة . وعن هذه الطبقة أخذ الخليل ثم سيويه الذي كان من أساتذته الخليل وعيسى بن عمر والآخرين الأكابر ، ولما كانت نشأة النحو في البصرة على يد أبي الأسود وتلاميذه فقد نشأ بصريا ودرس في مساجدها ورجع علماءؤه إلى اللهجات العربية حول البصرة ، ولم تنبغ الكوفة في النحو إلا بعد العصر الأموي فظهرت فيه طبقة الكسائي والقراء ويونس عن أخذوا عن أبي عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين ، ويعتمد البصريون اعتمادا كبيرا على القواعد المستنبطة من القرآن والحديث وفهبح الشعر وما خالف ذلك يعتبر ساقطا ، أما الكوفيون فكانوا يدونون كل ما خالف لغة قريش من لغات القبائل الأخرى ويعتبرون ذلك فرعا من اللغة وكانوا يعتبرون ما خالف الفصح شواذ لا تنبغ في الاستعمال .

ومهما يكن من شيء فإن بدء تدوين النحو والكتابة فيه وانتشار مذهب البصريين النحويين ودراسته إنما كان في عهد بني أمية .

### وضع الشكل :

وزيد بالشكل : الحركات وهى علامات الضم والفتح والكسرة ،  
والسكون .

ولم يكن فى اللغة العربية فى العصر الجاهلى ولا فى صدر الإسلام شكل .  
فلما انتشر الإسلام واتسعت الفتوحات واختلط العرب بالعجم ، وخيف  
على القرآن الكريم واللسان العربى من آثار اللحن ، وضع النحو ، فكان  
عملا جليلا من أبى الأسود .

ولكن النحو لم يصد هذا السيل المتدفق وتلك العدوى المفسدة ، لأن  
فائدته اقتصرت على الدارسين والباحثين والمتعلمين فقط ، أما أكثر الناس  
وجمهورهم فلم يكن يعصمهم من اللحن عاصم واحتيج إلى أمر أكثر من  
النحو فائدة وأسرع حفظا لآلسنة الناس من الخطأ فى قراءة القرآن الكريم .

لذلك كلف زياد والى البصرة من قبل معاوية أبا الأسود الدؤلى أن  
يضع طريقة لإصلاح اللسان لأن الحمراء (١) قد كثرت وأفسدت من السنة  
العرب ، قال زياد لأبى الأسود : فلو وضعت لنا شيئا يصالح به الناس كلامهم  
ويعربون به كتاب الله ، فقال أبو الأسود أو أزيد على المصحف شيئا لم يزد  
السلف !! فقال زياد لقد كتب عثمان المصاحف وما كانت مكتوبة على  
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من شيء تعلمه وفيه صلاح للمسلمين  
إلا وهو خير كله ، فأبى أبو الأسود وقال : أولى بذلك غيرى . وأحب زياد  
أن يحمل أبا الأسود وأن يحفزه إلى العمل فأرصد له فى طريقه من يرفع  
صوته بالقرآن ويلحن فيه ففعل الرجل وقرأ ( وأذان من الله ورسوله إلى  
الناس يوم الحج الأكبر إن الله برىء من المشركين ورسوله ( بكسر اللام )

---

(١) هم الأعمام .

فزن لذلك أبو الأسود وعاد من فوره إلى زياد وقال له: لقد نظرت فرأيت أن من الخير أن أجيبك إلى ما تطلب فابغنى كاتباً فأرسل إليه زياد ثلاثين كاتباً اختارهم فاختار منهم أبو الأسود أفضلهم وقال له: خذ صبغاً أحمر فإذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه وإذا كسرت فانقط واحدة أسفله وإذا ضمنت فاجعل النقط بين يدي الحرف فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين وأخذ يملئ ، والكاتب يكتب وهو يتفقدده حتى أتم المصحف .

ولم يضع أبو الأسود علامة للسكون مكتفياً بأن إهمال الشكل هو السكون وانتشرت طريقة أبي الأسود ، وزاد فيها الناس علامة للتنوين فوضعوا عليه نقطتين واحدة فوق واحدة ، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين ووضعوه فوق المشدد المفتوح وتحت المكسور وعن يسار المضموم ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس والكسرة تحت حذبه ، والضمة على شماله ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة .

وزاد أهل البصرة السكون فجعلوا السكون جرة أفقيه فوق الحرف منفصلة عنه هكذا ( — ) .

ولم تتداول طريقة أبي الأسود إلا في المصحف الشريف ، فلم تتجاوزه إلى غيره ثم جاء الخليل بن أحمد في عهد الدولة العباسية فغير صور الشكل وجعله على هيئة قريية مما هو عليه الآن .

#### وضع النقط :

كانت الحروف العربية خالية من النقط فالصاد والضاد ، والذال والذال ، والراء والزاي كل منها تكتب على صورة واحدة من النقط والإعجام . فاحتجج إلى تمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض فجعل بعضها



منقوطة بنقطة أو نقطتين أو ثلاث والبعض الآخر خاليا من النقط وذلك هو الإعجام ، فهو يتميز الحروف المتشابهة بالنقط منعاً للبس بينها ، والإعجام من أعجمت الحرف إذا أزلت عجمته وبينته ولهذا تسمى حروف الهجاء العربية حروف المعجم ، وقد يخصص الإعجام بالحرف المنقوط إذا شاركه في صورته الخطية حرف آخر مهمل فيقال خاء معجمة وحاء مهملة . واختلف في الزمن الذي وضع فيه الإعجام ، فالبعض يقولون إنه كان في الجاهلية الأدلة الآتية :

- ١ - عثر على كتب قبل زمن عبد الملك بن مروان فيها إعجام بعض الحروف
- ٢ - روى عن ابن عباس أن عامر بن جذرة هو الذي وضع الإعجام .
- ٣ - على أنه لا يعقل أن تبقى الحروف العربية على صورة التباسها هذا إلى عهد بني أمية فان ذلك يؤدي إلى الإفساد واللبس في الكلام . ويقول آخرون إنه وضع في عهد معاوية .

ويقول سواهم إنه رضع في عهد عبد الملك بن مروان ، ويرى أن الذي وضع الإعجام نصر بن عاصم وتبعه غيره فأنتم وانتشر بأمر الحجاج . قيل أزعج الحجاج ما كان يحدث من لبس في تمييز حروف القرآن (١)

---

(١) كانوا يقرأون « ختار كفور » ، « جبار كفور » ، ويحرفون أشاء إلى اسماء ، وعزة إلى غرة ، و « لياه » فيجعلونها أباه . وفي ابن خلكان :

« ففرع الحجاج إلى كتابه وسأله أن يضعوا لهذه الأحرف المختلفة علامات تميزها بعضها عن بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أما كتبها فعبّر الناس بذلك أزماناً لا يكتبون إلا منقوطة » .

ففرع إلى كتابه ليضعوا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض ،  
وندب لذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تليذى أى الأسود ، فنقطوا  
المصحف بصيغ من لون المداد الذى استعمل فى كتابة المصحف ، أما نقط  
الشكل فبقيت بالمداد الأحمر كما صنع أبو الأسود الدؤلى .

ويقال إن النقط كان موجودا من قديم ولكن الناس أهملوه فظهر  
التصحيف فى القرآن حتى فرغ الحجاج إلى نصر بن عاصم فوضع الإجماع .

### ( ٤ ) بدء تدوين العلوم

تمهيد :

فى العصر الجاهلى لم تدون علوم ولا ثقافات لامية العرب وبدأونهم  
وبعدهم عن الحضارة والعلوم والمعرفة .

وفى عصر صدر الإسلام جمع القرآن الكريم أول مرة فى عهد  
أبى بكر ، فكان أول كتاب يكتب فى تاريخ العرب ، وشغلنهم الفتوحات  
وحرصهم على المحافظة على القرآن الكريم ودفع اللبس عنه عن التدوين كما  
صرفهم عنه قرب عهدهم من البداوة .

فلما جاء العصر الأموى دعا المسلمين إلى تدوين العلوم دواع كثيرة  
وساعدتهم على ذلك :

١ - بدء تحضرهم والحضارة تستلزم العلم دائما .

٢ - قربهم من الأمم المتحضرة ذات الثقافات القديمة كالفرس والروم  
ووصول بعض آثار حكمهم وفلسفتهم وتاريخهم إلى المسلمين مكتوبة .

٣ - وجود عناصر كثيرة - تعرف نظام التدوين - داخل الدولة  
الإسلامية ، كالسريان والفرس وسواهما من العناصر الرومانية والإغريقية .

٤ - انتشار الكتابة بينهم .

٥ - حاجتهم إلى حفظ الشريعة وكتابتها وعلومها .

٦ - حاجتهم إلى المعارف القديمة سواء في الطب أم في الفلك أم في غير ذلك من ألوان المعرفة .

٧ - حاجتهم إلى العلوم المختلفة في حفظ نظام الملك وسياسته ، ولرغبتهم في الوصول بدولتهم إلى حد بعيد ، من الحضارة والرقى والثقافة ، يحفزهم على ذلك القرآن الكريم ودينهم المجيد .

وكانت مراكز الثقافة الإسلامية في هذا العصر كثيرة ؛ وأهمها المدينة ومكة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط .

وكان بظاهر الكوفة ، السكناسة ، وبظاهر البصرة ، المربد ، وهما سوقان أديان وعليان رائجان ، وكان المربد مآلف الأشراف (١) ، وسنتكلم عليه بعد قليل .

وسنحدثك عن أهم ما دون في العصر الأموي من العلوم :

١ - التفسير ، وقد رويت فيه روايات كثيرة عن رسول الله والصحابة رضوان الله عليهم وكانوا يناقلون ذلك ، وأول تفسير دون هو تفسير ابن عباس رحمه الله المتوفى عام ٦٨ هـ في الطائف وطبع في مصر في المطبعة الأميرية عام ١٢٩٠ في سفر واحد ، وهو مجموع روايات دونها ابن عباس . ويتصل بالتفسير قراءات القرآن وقد كثرت العناية بها في العصر الأموي

---

(١) ٢١٠ / ٣ العقد ، وروى عن الجارود قال : عليكم بالمربد فإنه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر ويجمع بين ربيعة ومضر (٢٢٣ / ١ البيان والتبيين للجاحظ) .

الذى عاش فيه كثير من القراء كابن كثير م ١٢٠ هـ وعاصم م ١٢٨ هـ ويزيد ابن القعقاع م ١٣٢ هـ .

هذا وللشيعة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن علي بن الحسين ، ويقال: إن أول من دون في التفسير مجاهد م ١٠٤ هـ وتفسيره غير موجود . ولم ينضج هذا العلم إلا في العصر العباسي .

٢ - الحديث : لم تكن تدون أحاديث رسول الله في عهده ولا في عهد أصحابه .

فلما كثرت الفتوحات والحروب الإسلامية وكثرت الثورات والأحزاب السياسية والفرق الدينية ووضع بعض الناس أحاديث على رسول الله ، ويقال إن المهلب بن أبي صفرة كان يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج (١) .

أخذ المسلمون في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، واشتهر من المحدثين في عصر بني أمية : عاصم بن سليمان م ١٤١ هـ بالكوفة ، وخالد الحذاء مولى قريش المتوفى عام ١٤١ هـ ، وشعبة بن الحجاج م ١٦١ وسوام . وأمر عمر بن عبد العزيز - بعد أن استخار الله أربعين يوماً - ابن شهاب الزهري أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فتم ذلك ، وبعث بنسخ منها إلى الأمصار .

٣ - النحو وقد سبق ذكر أمر وضعه وتدوينه وقد وضع الحضرمي كتاباً في الهمز .

٤ - الشعر الجاهلي ، أخذ الرواة والمؤدبون في رواية الشعر الجاهلي وتدوين آثار منه ويقال إن أول من جمعه حماد الراوية ، ثم ألف فيه بعد ذلك المفضل كتابه ، المفضليات .

---

(١) ابن خلكان ١٤٦/٢

٥ - التاريخ ، ويقال إن معاوية استكتب رجلا من أهل اليمن اسمه عبيد بن شربة الجرهمي . بعض أخبار الأرائل فكتبها له . فكان هذا أول كتاب دون في التاريخ وعنى الأمويون كذلك بعلم الأنساب .

٦ - الفقه ، وقد اشتغل به في العصرى الأموى جلة الصحابة والتابعين ، ويقال إن زيد بن علي بن الحسين أملى كتابا في الفقه وأنه أقدم كتاب في هذا العلم في الإسلام .

٧ - أما أصول الدين فيقال إن واصل بن عطاء ألف كتابا في المرجئة وآخر في التوبة وآخر في معاني القرآن .

٨ - وألف يونس بن حبيب كتابا في الأغاني دون فيها أصول الألحان عن معبد وابن سريج .

٩ - وترجموا في الطب والكيمياء ، فقد رأى عبد الملك بن مروان وهو أعلم الأمويين بالأدب وأفقههم في الدين أوراقا في الكيمياء نقلها خالد بن يزيد ( ٨٩ هـ ) فقال له أف لك أنسب الملوك وهمة الموالي ؟ وكان خالد قد عنى بالكيمياء والطب وقبل إنه درس كتبهما عن رجل من السريان يدعى مريانوس وأنه أمر اسطفان القديم بترجمة هذه الكتب إلى العربية .

وبعد فلم تكن العلوم المدونة في هذا العصر إلا بمجموعة روايات لا أثر للتحقيق والدرس والبحث فيها ، ولكن لاخير من ذلك ، فقد كانت النواة الأولى لتدوين العلوم في الإسلام .

وعلى الجملة فقد كان العرب ينظرون إلى تدوين العلوم نظرتهم إلى صناعة الحضر والموالي الصغيرة التي لا يصح لهم أن يحترفوها ، ويأنفون من صناعة التأليف لأنها صناعة الموالي على أيامهم وفي رأيهم .

## (هـ) الحياة الثقافية في ظلال الأمويين

- ١ -

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربي والثقافة الإسلامية حينما تسير الفتوحات الإسلامية ، فحينما يفتح المسلمون البلاد ، تقيم فيها حاميات من جنود المسلمين ، وعلى هذه الحاميات قواد من العرب ، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد ، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش ، وبجانهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية ، وتذيع الأدب العربي ، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية في الذبوع بين سكان البلاد الأصليين بيواضت الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة ، ويقبل من يدخلون في الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب ، والتأدب بأدابهم ، وحفظ أشعارهم ، وتعلم علومهم ، ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب في كثير من البلاد المفتوحة ، وقامت مواطن الأدب في المملكة الإسلامية المترامية الأطراف التي كانت تستظل بظل الأمويين ، وتنتج لإيهم في كل مناسبة ، وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين .

- ٢ -

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة ، ولعل السبب في ذلك كثرة أبناء الموالى في الحجاز وكثرة الترف في مدن الحجاز ، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقهم ، ويروى أنه كان لمغنى مكة مذهب في الغناء ، ولمغنى المدينة مذهب كذلك ، وكان بين الفريقين مفاخرات .

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصي والعذرى ، وقل هنا الهجاء والمدح ، وكان من شعراء مكة : عمر والعرجى وابن قيس الرقيات ( ٣٢ - ١ ق )

وأبو العباسي الأعشى ، كما اشتهر في المدينة الأحوص وإسماعيل بن يسار وإخوته ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعبد الرحمن بن الحكم .

واشتهرت بوادي الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذري . .

وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار ، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين ، وفيها زعماء البيت العلوي : الحسن والحسين ، وأبناء الخلفاء من أمثال: عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن أبي بكر ، وفيها أمثال عبد الله بن الزبير وسواهم من الطامحين في الخلافة والمنارين الأمويين ، وقد استعمل الأمويون مع المعارضة في الحجاز سوط الرهبة والفرع ، وبذروا هناك الأموال الضخمة ، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين في عهد عمر خمسة آلاف درهم في العام صار عطاء كل منهما في عهد معاوية ألف ألف درهم .

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام ٦١١ - ٦٨١ م ، وقتل الحسين في كربلاء من أرض العراق ، واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها في موقعة الحرة المشهورة .

وحكم عبد الله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودي فيها بلقب الخلافة ، وذلك من عام ٦٤٤ - ٦٨٤ م حتى ٧٣ - ٦٩٢ م ، وحاصره الحجاج في مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصاره ، وكان له فضل كبير في ترميم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام ٦٥٥ .

وكانت مجامع المدينة أرقى المجامع الثقافية في العالم الإسلامي وأحفلها بالشعر الغنائي ، وكانت لها شهرة بالترف والثناء واللام والمباح .

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسي وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التي قضى عليها الأميران : زياد بن أبي سفيان المتوفى عام ٥٥٣ - ٦٧٣ م ، والحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى عام ٥٩٣ - ٧١٢ م ، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش .

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموي الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام .

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموي ، وتنازعها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، ولكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل .

وقد امتازت العراق بنشاط الأحزاب السياسية فيه ، وكثرة الفرق الدينية ، واشتهرت مجامع العراق بالتبريز في علوم اللغة ، وذلك :

١ - لشدة الاحتياج إليها في العراق ، لفساد الملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالى بين ربوعه .

٢ - تعدد العناصر والثقافات والأفكار والأجناس في العراق وامتزاجها .

٣ - كان العراق موطن السريانية ، وكان للسريان قواعد في منظمة اللغة والنحو .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة في الأدب والعلم ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها في العمران ، ولقربها من البادية التي عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللمجة . أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايتها .

ومن أشهر مجامع الأدب والشعر في العراق : مربد البصرة ، وكناسة الكوفة .

وكانت أمم مواطن الأدب والثقافة في عصر بني أمية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط :

١ - أما مكة : فهي البلد الحرام ، مولد رسول الله ، ومهبط الوحي ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ، وكان معاذ من



أفضل شباب الأنصار علما وحلمًا ، وشهد المشاهد كأمير رسول الله ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وعن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام ١٨ هـ في الشام .

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر : لقد أخل خروجك بالمدينة وأهلها في الفقه والفتيا ، طبقات ابن سعد ، مجلد ٢ ، .

ومن علماء مكة : عبد الله بن عباس ، وكان يجلس في البيت الحرام ، يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، وهو وتلامذته يرجع إليهم الفضل في شهرة مكة العلمية وتوفي عام ٦٨٨ م .

ومن علمائها : عطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبير ، وثلاثتهم من الموالى ومن التابعين .

وكذلك كان من علمائها من التابعين ومن الموالى من الطبقة الخامسة بها : سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجي وكانا من أماندة الشافعي الذي ولد في غزة ، وحملته أمه صغيرا إلى مكة ، فتعلم الأدب في باديتها ، وحفظ الشعر ، وتعلم العربية ، ونشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها .

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء ، ولا سيما في مواسم الحج ، كما كانت تعقد في المسجد الحرام ، روى المبرد في كامله (١) أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين مורدين ، حتى دخل مجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقالت : أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التي فتح بها عمر صفحة جديدة في تاريخ الغزل ، ونقله من مظهره التقليدي إلى

---

(١) ١٤٤ و ١٤٥ ج ٢ الكامل .

لون قصصى جديد كل الجدة عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينهد :

أمن آل نعم أنت غاد قبكر غداة غد أم رائح منهجر ؟

حتى أتى على آخرها ، فأقبل نافع على ابن عباس ، وقال له : يا ابن عباس  
إنا نضرب إليك أكباد الإبل . نسأل عن الحلال والحرام ، فتتناقل عنا ،  
ويا نيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ( فيخزى ) ، وأما بالعشى ( فيخسر )

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشى فيخسر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال أجل بل إن شئت  
أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال فإني أشاء ، فأنشده القصيدة كلها .

٢ - وأما المدينة : فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدتها  
اللامح ، من لدن الجاهلية - حتى كان النابغة يقول : دخلت المدينة وفي شعري  
عهدة ، وخرجت منها وأنا أشعر الناس ، وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول  
صلوات الله عليه ، وكان له شعراء يناخون عن دعوته ، وبذودون عن رسالته ،  
وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل  
له : وأنت يا أبا حمزة ؟ قال : وأنا . وابن سلام الجمحي حين يتحدث عن شعراء  
القرى العربية ( مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ) يقول : أشعر  
هذه القرى قرية المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر في هجاء قريش خصوم الرسول صلى  
الله عليه وسلم وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم  
أشد من وقع الحسام في غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان ،

وهو ينشد شعره في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أرغاء  
كرغاء البكر ؟ فقال حسان دعني من هذا يا عمر ، فوالله لقد كنت أنشد  
في هذا المكان من هو خير منك فلا يغير علي شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة  
تحمل دائما لواء المعارضة للحاكمين ، وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام  
الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنازع وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان  
يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلمه زبادا ، واستفحل الشر بينه وبين  
عبد الرحمن بن الحكم في المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون  
منه ما يعيبون من رديته ، ويستحسنون من جيده . يروى أن عمر بن أبي ربيعة  
قدم المدينة ، فاجتمع به الأحرص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا  
في ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك  
تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشدد في أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر (١)  
أراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تسكن قد قبحت وأساءت وقلت  
الهجر ، إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع . . ألا قلت كما  
قال الأحرص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بايأتكم ما درت حيث أدور  
وما كنت زوارا ولسكن ذا الهوى وإن لم يزر لا بد أن سيزور  
لقد منعت معروفها أم جعفر وإني إلى معروفها لفقير  
فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحرص الخيلا . فأقبل كثير على

---

(١) اسبطرت : أسرعت . تشدد : تعدو .

الأحوص وقال له : لقد أبطأ آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :  
 فان تصلى أصلك وإن تبني بهجر بعد وصالك لا أبالي  
 أما الله لو كنت حرا لبليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :  
 بزئب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب  
 فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن السكبرياء قد  
 دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرني عن قولك :  
 أهي بدعد ماحيت فان أمت فواكبدي من ذا بهم بعدى ؟ (١)  
 أهلك ويحك من بهم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ،  
 فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرني عن تخييرك لنفسك وتخييرك لمن تحب  
 حيث تقول :

ألا ليتنا ياعز من غير رية بعيران نزعى في الخلاء ونعزب (٢)  
 كلانا به عر فن يرنا يقل على حسننا جرباء تعدى وأجرب (٣)  
 إذا ماوردنا منهلا صاح أهله علينا فما تنفك نزمى ونضرب  
 وددت وييت الله أنك بكرة هجان ، وأنى مصعب ثم نهرب (٤)  
 تكون بغيرى ذى غنى فيضيعنا فلا هو برعانا ولا نحن نطلب  
 فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطررد والمسخ فأى مكروه  
 لم تتمن لها ولنفسك ؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالضعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة

- 
- (١) أنشد البيت في مجلس عبد الملك فنقده وقال : الجيد أن يقول :  
 أهي بدعد ماحيت فان أمت فلا صلحت دعد لدى خلة بعدى  
 (٢) نعزب : نبعد في المرعى .  
 (٣) العر بالضم والفتح : الجرب .  
 (٤) للبكرة الناقة الفتية ، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة . المصعب الفحل  
 الذى يترك فلا يركب .

حاكم ولا يرهبون قوة ظالم ، وبالتنقاد الذين ينقدون فيحسنون . . ومن هنا كانت عيناثرة بالشعر ، ومنبعها فياضا بالأدب ، لا يفيض ماؤه ، ولا يحول رواؤه .

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة ، فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام ، وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه ، وكان بها كثير من الموالى الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت (١) ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) من التابعين ، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور .

ومن علمائها: صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز بن مروان . . ومن علمائها كذلك : ابن شهاب الزهري القرشي ( ٥١ - ١٢٤ هـ ) .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كـ محمد بن إسحاق والواقدي (٢) ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسيرة والمغازي ، وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة في عهد الراشدين ومجتمع الموالى الذين سبوا من مختلف البلاد الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة . ومن برعوا في النادرة والفسكة في المدينة : الغاضري وأشعب ، وفي الغناء معبد .

---

(١) يروى أنه ما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا في القضاء والفتيا والفرائض والقراءات ، وظل كذلك في عهد علي ومعاوية وتوفي عام ٤٥ هـ ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول . هكذا يفعل بالعلماء .

(٢) توفي عام ١٠٧ هـ وله أخبار مكة ، ودلتوح الشام . .

٣ - وأما البصرة والكوفة : فهما أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهر من قديم الحضارة ، تداولت عليه أمم كثيرة متمدنة وتركزت فيها آثارها العلمية والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غني خصب كثرت مياهه وخيراته ، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد عمر بن الخطاب (١) ونزل بهما كثير من الصحابة واختلط فيها العرب بالموالي بالتزواج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبي وسعيد بن جبير من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعري ٥٧٠ هـ وأنس بن مالك من الصحابة م ٩٢ هـ ، ثم الحسن البصري م ١١٠ هـ وابن سيرين م ١١٠ هـ من التابعين.. واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ في علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة في ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو ابن العلاء . والخليل بن أحمد ، والأصمعي ، واشتهر من الكوفيين الكسائي ، وكان بين المدينتين تنافس في اللغة والأدب والعرف وعلم الكلام ، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إثارة للسماع ، وكان يعيش في البصرة الفرزدق وجريز ، وفي الكوفة السكيت بن زبد الأسدي وذو الرمة .

٤ - وأما الفسطاط : فكانت في مقدمة المدن الإسلامية التي ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام ٥٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لهيعة (٩٦ - ١٦٠ هـ) وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يقرنون بمالك وأبي حنيفة لولا أن تلاميذه

---

(١) اختطت البصرة عام ١٤ هـ ، ولم تعمر إلا عام ١٧ هـ ، واختطت الكوفة في هذا العام ١٧ هـ .

أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد .  
ومن علمائها كذلك نافع م ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على القسطنطينية من الشعراء :  
جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم ، وأقام فيها أبو العيال الهذلي  
م ٤٦ هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر في ظلال الحكم الإسلامي عام ٢٠ - ٦٤٠ م بفضل  
عمرو بن العاص ( ٤٧ ق هـ - ٤٣ هـ ٦٦٣ م ) ، وقد فرغ ابنه عبدالله بن عمرو  
ابن العاص ( ٣٦ ق هـ - ٦٨ هـ ٦٨٨ م ) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير ، وهاجر كذلك إليها  
الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم  
وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائباً عن  
ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان من هؤلاء من  
بيت بني أمية : عبد العزيز بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) ، وعبدالله بن  
عبد الملك الذي وليها عام ٨٦ - ٧٠٥ م وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمراً باستعمال  
اللغة العربية في المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تعلم  
العربية ، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجاً . وفي عام ٨٦ هـ حولت  
دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبدالله بن عبد الملك بن  
مروان الذي ولي مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعه الفهمي  
القيسي قبل عام ٩٩ هـ .

ومن علماء مصر في هذا العهد ، أبو عبيدة المغافري ، ونافع المتوفى عام  
١٣٠ هـ ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهلها السنن ، وعبدالله بن عمرو بن  
العاص المتوفى عام ٦٨ هـ ٦٨٨ م ، والليث بن سعد ( ٩٤ - ١٧٥ هـ ) وابن لهيعة  
( ٩٦ - ١٦٦ هـ )

ووفد على مصر في عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث وكثير وابن قيس الرقيات وأبن بن خزيم .

هـ - وأما دمشق : فهي عاصمة الأمويين ومنازة العلم والثقافة والأدب ومقصد الناس من كل حـدب وصوب ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يقدون إليها من كل جهة رغبة في المعرفة ، أو حرصا على مال الخلفاء والأمراء .

ومن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقي .

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحي الشام وتوفي عام ٨٩ هـ . ويقول الجاحظ فيه : كان خطيبا شاعرا كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة : وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات (١) .

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو .

وكان عدي بن الرقاع يعيش في الشام .

وكان في الشام : معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي ورجاء بن حيوة وسوام .

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامي بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية . (٢) .

---

(١) ٩٣ رسائل الجاحظ نشر السنوبي .

(٢) مصادر البحث :

دائرة المعارف الإسلامية في الكلام على : مصر ، القسطنطينية ، البصرة ،



## (٦) سوق المربد وأثره الأدبي

- ١ -

لمربد (١) البصرة أثر غدير قليل في اللغة والأدب والشعر في العصر  
الآوى ، ولا بأس بالإطالة هنا في حديثه .

= الكوفة ، الشام ، دمشق الخ . معجم البلدان لياقوت - خطط المقريزى . عيون  
الأخبار لابن قتيبة - العقد الفريد لابن عبد ربه - وفيات الأعيان لابن خلكان -  
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - فجر الإسلام الجزء الأول - الحضارة  
الإسلامية لمحمد كرد علي - التقاؤ - الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - قصة الأدب  
في مصر ، وهما للخفاجى - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الثانى للشيخ  
محمد الخضرى - أخبار مكة للأزرق - مروج الذهب للمسعودى - خطط الكوفة  
للمسنيين شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى بتعليق الخفاجى وعبد الله  
عبد الجبار - قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار والخفاجى .

(١) هو على وزن منبر ومقود من ربد بالمسكان إذا أقام فيه ، وفي الحديث أن  
موضع مسجد رسول الله كان مربدا ليتيمين في حجر معاذ بن عفراء فجعله للمسلمين  
فبناه الرسول مسجداً ، وفي شعر الفرزدق :

عشمة سال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوارم  
تناه مجازالما يتصل به من مجاورة ، وقد يجوز أن يكون سمي كل واحد من  
جانبيه مربدا ، وقال الجوهري : عني به سكة المربد بالبصرة ، والسكة التى تليها من  
ناحية بنى تميم ، جعلهما المربدين ، كما يقال الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن  
الأحوص . هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤ .. ويلاحظ أن في  
العبارة خطأ مطبعياً في أول سطر من الصفحة المذكورة ، حيث وردت العبارة  
هكذا : سماه ، وصحتها : تناه .

هو ضاحية من ضواحي البصرة ، في الجهة الغربية منها مما يلي البادية بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقاً عامة ، قال الأصمعي : « المربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . وبه سمي مربد البصرة (١) ، وإنما كان موضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه (٢) .

وفي اللسان - في مادة ب ص ر - وقال ابن شميل : البصرة أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها ، فكان المربد كان موجوداً في الجاهلية .

وأخبار المربد في الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق ، وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » . وقد كان المربد في الإسلام - كما يقول أحمد أمين - صورة معدلة لمكاظ الذي كان سوقاً للتجارة ، وكان سوقاً للدعوات الساسية ، وكان سوقاً للآداب - جاء في كتاب « ما يعول عليه » : المربد كل موضع حبست فيه الإبل . ومنه سمي مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه - كان يجتمع العرب من

---

(١) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ومربد الإبل : محبسها ، وقال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : المربد فضاء وراء البيت يرتفق به ، ومربد التمر جريته الذي يوضع فيه (راجع ص ٥١ ج ٤ لسان العرب) وهو الآنذر بلفظة أهل الشام ، والبيدر بلفظة أهل العراق ( ١٥١ ج ٤ لسان العرب ) وأهل المدينة يسمون الموضع الذي يجفف فيه التمر مربدًا وهو المسطح والجرين في لغة أهل نجد ( ١٥١ ج ٤ لسان ، و ٢٢٦ ج ١ صحاح الجوهري ) وهو الجرن بلفظة أهل مصر .

(٢) أحمد أمين - مجلة الثقافة المصرية .

الأفطار ، يتناشدون فيه الأشعار : ويديعون ويشترون وهو كسوق عكاظ ، وقال العيني : « مربد البصرة ، محلة عظيمة فيها ( أى فى البصرة ) من جملة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأفطار ويتناشدون الأشعار ويديعون ويشترون » .

كانت أهم أخبار المربد ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير ، ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها من قبل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أنى الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق المربد بمن فيه . وأصبح المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعائلته . وأصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ، ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ويعظم ما جنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك ويخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجمهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان ابن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلاحق لهما فى الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله ، وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل كبير .

وكان العصر الأموى أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هددوا من النتج واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصدا للعرب يؤمه من أراد النجى وخاصة البصرة ، جاء فى الطبرى : « أن عمر بن الخطاب

سأل أنس بن حجة وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس في البصرة فأتوها ، وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحبون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية : من مفاخرة بالأنساب وتعاضم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف في المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية حكى في النقائض أن زياد بن أبي سفيان ، كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا لبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل : لشد ماعقدت على دراهمك هذه ، أمان والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل ، فخلها ثم أنهبها ، وقال : من أخذ شيئا فهو له وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب ، فلم يزل في هربه يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد .

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم في سوق عكاظ في الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك في الأدب والشعر ، ورأينا المربد في العصر الأموي يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف المربد أجل شعر من هذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغاني أن جريرا

والفرزدق اجتمعاً في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما المعجاج والاخلط  
وكعب بن جميل .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصاً ويخرج إلى المربد  
ويقول قصائده في الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كل منهما ما قاله الآخر  
فيرد عليه قال أبو عبيدة : « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحاً  
تاماً ، وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فبلغ ذلك الفرزدق  
فلبس ثياب وشى وسواراً وقام في مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس  
يسمعون فيما بينهما بأشعارهما ، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح  
والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن في حطمية (١) وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جرير أن الفرزدق في ثياب وشى قال :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحاً كرج (٢) وجلاجله (٣)  
وما زال كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج  
والى البصرة فهدم منازلها بالمربد فقال جرير :

فما في كتاب الله تهديم دارنا تهديم ماخور خبيث مداخله

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس  
يسمعون منه ، جاء في الأغاني : « كان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما  
حلقة بأعلى المربد بالبصرة » .

---

(١) هى الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع .

(٢) هو ما يتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لأصل

له في العربية .

(٣) ١٣٢ ج ٤ الأغاني .

ومما يروى عن الفرزدق في المربد ما حدث به الأصمعي ، قال : سمعت  
أبا عمرو بن العلاء يقول : لقيت الفرزدق في المربد ، فقلت : يا أبا فراس ،  
أحدثت شيئا ؟ فقال : خذ ، ثم أنشدني :

كم دون مية من مستعمل قذف      ومن فلاة بها تستودع العيس  
فقلت : سبحان الله هذا للمتلس ، فقال : اكنتمها ، فلضوال الشعر أحب  
إلي من ضوال الإبل .

ولا شك أن المربد كان له آثار كبيرة في الأدب في عصر بني أمية .  
وقد بقي المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضا آخر غير  
الذي كان يؤديه في العهد الأموي ، غرضا اقتصاديا لا غرضا أدبيا .  
ثم دمره الزنج في ثورتهم السياسية التي بدأت عام ٢٥٥ هـ .

### (٧) الموالى في خدمة الثقافة واللغة

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد بني أمية ، فشملت الأندلس  
وشمال أفريقيا والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وجزءا من الهند ،  
كما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى سوى ذلك من النواحي والبلاد .

وخضعت هذه الأمم كلها للحكم العربي ، سواء منها الدول ذات الحضارة  
أو الدول التي لم تصطبغ بصبغتها ، فوجدوا في الإسلام العدل والأمن والسلام ،  
وأخذوا يتعلمون اللغة العربية لأنها لغة الدين والقرآن ولحاجتهم إليها في  
التفاهم مع الولاة والحكام والعلماء ، وهي فوق ذلك اللغة الأولى في العالم كله  
آنذاك ، فهي لغة الثقافة والآداب والعلوم والفنون والسياسة .

وكان لبعد الموالى عن سياسة الدولة وشتونها العامة بإقصاء الأمويين

لهم ، كما كان لانحذارهم من عناصر متحضرة أخذت بقسط من الثقافة والمدنية والمعرفة ، أثر كبير في تفوقهم في ميدان العلم والآداب .

فجلسوا في مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلومه والحديث وروايته والتاريخ وأيامه ومفاخر العرب وما آثرهم ، كما جلسوا في مجالس الأدباء والشعراء والرواة يثقفون أنفسهم بالشعر ويتأدبون بروايته وينظمه أحياناً .

فكان من الموالى الشعراء كزياد الأعجم وإسماعيل بن سيار وأخيه موسى شهوات وبشار .

وكان منهم العلماء في علوم الدين والشريعة كنافع وربيعة الراى شيخ الإمام مالك وسليمان بن يسار وكان من أعلم الناس وأفقههم وكانوا بالمدينة ، ومنهم مجاهد وعكرمة وعطاء بمكة .

والحسن بن يسار والحسن البصرى وابن سيرين بالبصرة ، ويزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد في مصر . ومكحول بن عبد الله في الشام .

إلى غير هؤلاء من الأعلام في الدين والشريعة والحديث والتفسير واللغة من الموالى في عصر بني أمية .

ولما كانت اللغة القبطية ولغة الروم وآدابها وثقافتها ما تزال باقية في مصر والشام . واللغة الفارسية ما تزال ذائعة في بلاد فارس وبعض جهات من العراق .

فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باللغة الرومية وفي العراق وفارس بالفارسية ، وكان لابد من الاستعانة بالموالى في هذه الدواوين للكتابة فيها ، وظل الأمر على ذلك مدة حتى حولت دواوين (١) العراق إلى اللغة العربية بأمر

---

(١) الديوان الكتاب الذى يكتب فيه أهل العظيمة المرتبات ، ثم نقل إلى =

الحجاج ودواوين الشام في عهد عبد الملك ودواوين مصر في عهد الوليد ابن عبد الملك وبذلك انفسح المجال للعرب في هذه الناحية أيضا .

وكان الذي نقل دواوين الخراج في العراق إلى العريضة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج وكان صالح من الموالي . أما دواوين الشام فكانت بالرومية وكان يتولى أمورهما سرجون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ثم نقلت إلى العريضة على يد سليمان بن منصور . أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية وحول في عهد الوليد بن عبد الملك إلى العريضة على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب إذ كان ديوان الجند والرسائل وجميع مرافق الدولة عربية ماعدا ديوان الخراج فلها حول صارت سائر أعمال الدولة مصطبغة بالصيغة العربية الخاصة .

وبرز الموالي في علوم اللغة والأدب وأقبلوا على الثقافة إقبالا شديدا في هذا العصر . .

### (٨) اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية

١ - اتصل العرب في العصر الأموي بالثقافة اليونانية والرومانية في مصر والشام وشمال إفريقيا ، وكان الأدب في مصر والشام آنذاك متمثلا في أدب العصر الإسكندري الروماني الذي بدأ باستيلاء الرومان على أثينا ثم على الإسكندرية من أيدي البطالسة ، ثم فتحهم لشواطئ الشام وتغلغلهم في البلاد . وكانت الإسكندرية مركزا ثقافيا إغريقيا كبيرا في حوض البحر

---

= المسكان الذي يجتمع فيه الكتاب لذلك، وأول من وضعه عمر فهو أول من دون الدواوين في الإسلام، وكانت مقصورة على الضروري منها لمسكان البدو من الأمة .



الأيض المتوسط ، منذ أسسها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق م ؛  
وازدهرت الثقافة الإغريقية فيها في عصر البطالسة الإغريقين في أصلهم ؛  
وإذا كان الأدب في عهدهم صوره الأدب في العصر الإسكندري اليوناني ،  
فإن الأدب في ظلال حكم الرومان في مصر والشام كان يمثل نزعة الأملاطونية  
الجديدة التي ظهرت في الإسكندرية متأثرة بنزعة الوثنية اليونانية التي خالطها  
شيء من التوحيد الذي عرف في الاسكندرية عن طريق العبريين وكتابهم  
المقدس ، وقد كان في الإسكندرية جماعات كثيرة منهم مع النازحين إليها  
من بلاد اليونان . وكذلك كانت السيادة في الشمال الإفريقي للأدب  
الرومانية التي هي شرح أو تلخيص لأدب الإغريقين القدماء .

وفي العراق وفارس التقت اللغة العربية بالأدب الفارسي القديم الذي  
تأثر بنزعات كثيرة ، تأثر بالأدب الهندي ، وبالأدب الإغريقي كذلك عن طريق  
مدرسة جنديسابور التي أنشأها سابور بن أردشير في القرن الثالث الميلادي  
وصارت مركزاً كبيراً للثقافة اليونانية ، ومركزاً للنازحين من اليونان  
وسهل آسيا الصغرى ، وفي عهد كسرى أنوشروان ( ٥٣١ - ٥٨٧ م )  
هاجرت جماعات كثيرة من الإغريق من آسيا الصغرى إلى جنديسابور  
أيضاً ، فراراً بوثنياتها من اضطهاد الأمبراطور جوستنيان الذي حاول  
إجبار سكان الأمبراطورية على اعتناق المسيحية ، ففروا بعقائدهم إلى  
إلى جنديسابور التي اختلطت فيها الآداب الفارسية بالآداب الهندية  
والإغريقية .

وقد وعى العرب الكثير من فنون هذه الآداب عن طريق الترجمة التي  
قام بها السريان أو أبناء الموالى الذين اختلطوا بالعرب في السكنى والتجارة  
ومختلف جوانب الحياة .

٢ - وأخذت الثقافة العربية الإسلامية الأصلية ، وادها المختلفة من  
علوم دين وعلوم أدب ؛ من حديث وتفسير وفقه وتاريخ ونحو ولغة وأدب

وشعر وغيرها (١) تختلط بالثقافات الرافدة ، وأخذ الأدب يستفيد من هذه الثقافات والآداب كلها على أيدي الموالى الفرس وبخاصة في العراق وخوزستان ، مما ظهر جليا . في آخر العصر الأموى .

ويذهب البعض إلى أن أصول النحو العربى اقتبست من أصول النحو السريانى التى وضعها يعقوب الرهاوى ( ٤٦٠ م ) ، وهو رأى واه فإن النحو العربى كان جديدا محضا لا أثر فيه لاحد ولا لامة .

وكان التقاء الأدب العربى بالأدب الفارسى القديم عن طريق مدرسة جنديسابور حدثا كبيرا حيث بدأ الموالى الأعاجم عملية مزج كبيرة بين الأخيلة الشعرية والحكم والقصص فى الأدبين .

وكان العرب يمثلون مظهرا حضاريا متقدما ، فأنشأوا المكتبات والمدن والمنزهات والمدارس والمنتديات العلمية والأدبية وغيرها ، وكان عبد الحكم الجعفى فى العصر الأموى قد جعل فى بيته دفتار أباح لزواره أن يقرأوا فيها (٢) .

---

(١) فى التفسير كان ابن عباس ( ٦٨ هـ ) ومجاهد ( ١٠٤ هـ ) قد بدأ التأليف فيه ، وفى الحديث كان كذلك عمر بن عبد العزيز ( ١٠١ هـ ) والزهري ( ١٢٠ هـ ) ثم الإمام مالك وابن أبى مليكة ( ١١٩ هـ ) والحسن البصرى ( ١١٠ هـ ) والأوزاعى ( ١٥٩ هـ ) . . وفى اللغة وضعت أصول النحو والصرف وكذلك الشكل والأصنام والنقط وغيرها . . وفى التاريخ كان أبو مخنف الأزدي وعوانة بن الحكم السكبي وهب بن منبه ( ٣٤ - ١١٤ هـ ) وكعب الأحبار ( ٣٢ هـ ) وأبان بن عثمان بن عفان ( ٢٢ - ١٠٥ هـ ) وغيرهم .  
(٢) ٥٢ : ٤ الأغاني .

## (٩) مجالس الأدب في هذا العصر

تعددت مجالس الأدب والشعر في هذا العصر ، وكثرت حلقاتها وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة ، واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر .

فقد كان خلفاء بني أمية عربا ، يطربهم المعنى الرائق . واللفظ الفائق ، ويعجبهم الأسلوب الناضج ، والتعبير البديع ، والتصوير الجميل ، لما فطروا عليه من ذوق حساس ، وسليقة مرهفة ، وبصيرة نافذة ، وذكاة متوقد ، وعلم غزير ، ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها ، ومفاخرها ومثالبها .

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظمر يعلى من شأن الأدب ، وأن تعظم رغبتهم في تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبي ، على نحو ما سجلته كتب الأدب ، ووعته صحائف التاريخ ، ونقله الرواة .

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم ، والإبقاء على سلطانهم ، أن عمدوا إلى إثارة العصبية ، وبعث الخصومات ، وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ، ليشغلو الناس بذلك عن مواثبتهم على الملك ، ومساورتهم على السلطان ، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة ، فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك في أشعارهم ، وتصويره في قصائدهم ، وشغلوها بالحديث عن أجداد القبائل ومغازيها ، رغبة في مدح أو شفاء لحقد ، أو طمعا في عطاء .

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام ، وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة . وألباء أدباء . يميزون جيد الأدب من رديته . ويعرفون صحبته من زائفه . ويقدرّون منازل الشعراء . ويزنون الكلام بمقياس صحيح . فيقبلون الجيد ويثيبون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه ، ذلك لأن لهم من سلاقتهم العربية ، وفطرتهم الأدبية ، وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار ، ما يعينهم على صدق الحكومة ، ويدفعهم إلى حسن التقدير ، وجمال المثوبة . وهل هناك أدل على صفاء الذوق ، وقوة

الملاحظة ، ودقة النقد وصادق التمييز ، مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب ، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات ، وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فدحه بقوله :

إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب  
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب  
فقال عبد الملك : يا ابن قيس ، تمدحني بالتاج كأنى من ملوك العجم ،  
وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله (م) تجلت عن وجهه الظلماء  
ملسكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء  
فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتى ما لا تخفيه ، وهو  
اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة . قال قدامة بن جعفر  
فى ( نقد الشعر ) : ووجه عتب عبد الملك ، إنما هو من أجل أن هذا المادح  
عدل به عن بعض الفضائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة  
إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة .

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن لا تأخذ  
فى المسلمين عطاء أبدا .

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وأمعيتهم فى النقد ، أن  
أبا زيد الأسلى دخل على إبراهيم بن هشام فأنشده : يا ابن هشام يا أبا  
الكرام ، فنفض إبراهيم وقال : إنما أنا أخوهم ، وكأنى لست منهم ، ثم أمر  
به فضرب بالسياط .

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جبالاً من الأشعار ، ومتخير  
القصائد ، منزلة عالية ، ويثيبون عليه ثوبة طائلة ، وأنهم يتجهمون لمواطن  
العيوب ، ويفطنون فى سرعة عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل ، وأنهم قد

يعاقبون على ذلك عقوبة أقفلها حبس العطاء ، وقبض الصلة ، لما أيقن الشعراء من ذلك ، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب ، وبالغوا أعظم المبالغة في تنقيح بنات أفكارهم ، وتهذيب قصائدهم ، لتفتح لهم القلوب المغلقة وتلين النفوس العسيرة ، وتستدر العطايا السنية ، وتستل ما في النفس من حقد دفين ، وغل مقبم .

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب اسماع الجيد من المدح ، والبلغ من الثناء ، وكانوا في نشوة هذا الطرب ، وفي غمرة تلك الأريحية ، يصفحون عن المسيء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعراء .

ولقد كان الخليفة من خلفاء بني أمية ينشد بيتا ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه ، وينبوه مضجعه ، ويبعث في طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ثم يخلع عليهم العطايا ، ويب لهم الجوائز . ويصلهم بأكرم الصلات .

وكان هذا من العوامل التي شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقى الأشعار والبحث عنها لدى عارفها والملمين بها . وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحييت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاروا أن يغفلوه إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمنزل ما يحظى به الشاعر .

ويؤثر عن معارية ، أنه كان يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب ، لشد البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأظفانية :

أبت لي همتي وأنى بلاني	وأخذني الحمد بالثن الريح
وإنعاهي على المكره نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تسترجي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك ، يقول لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه  
كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا . وقال لمؤدب ولده : إذا  
رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى :

بين الجار حين بين عني      ولم تأنس إلى كلاب جارى (١)  
ونظمت جارتى من جنب بيتى      ولم تستر بستر من جدارى (٢)  
وتأمن أن أطالع حين آتى      عليها وهى واضعة الخمار (٣)  
كذلك هدى أبائى قديماً      توارثه النجار عن النجار

وجلس ذات مرة فى عدة من أهل بيته ولده فقال : ليقل كل منكم  
أحسن شعر سمعه ، فذكروا لامرئ القيس وطرفة والأعشى وأكثروا ،  
فقال : أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلت أظفار ضغنه      بحلى عنه وهو ليس به حلم  
إذا سمته وصل القرابة سامنى      قطيعتها تلك السفاهة والظلم (٤)  
وأسمى لكى أبى ويهدم صالحى      وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم  
يحاول رغمى لا يحاول غيره      وكالموت عندى أن يحل به رغم (٥)  
فما زلت فى لبنى له وتعطى      عليه كما تحنو على الولد الأم  
لاستل منه الضغن حتى سللته      وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

- 
- (١) يكفى بعدم أنس كلاب جاره به عن عدم دخوله بيته مراعاة لحرمة أهله .  
(٢) يريد أن جارته تأمن بجانبه فلا تستر منه بالجدار عند خروجه .  
(٣) واضعة الخمار أى ملقيته عن رأسها .  
(٤) سمته : كلفته .  
(٥) الرغم : الذل .

## (١٠) صور من العناية باللغة والأدب

- ١ -

فحطت (١) البادية في أيام هشام بن عبد الملك ، فقدمت العرب من أحياء القبائل ، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه ، وفهم درواس بن حبيب وله أربع عشرة سنة ، عليه شملتان وله ذؤابة . فأحجم القوم وهابوا هشاماً ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره ، فقال لحاجبه : ما يشاء أحد أن يصل إلى إلا وصل حتى الصبيان ١٩

فعلم درواس أنه يرده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن دخولي لم يخل بك شيئاً ولقد شرفني ، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طي ، ولا يعرف الكلام إلا بنشره ، فقال هشام : فأنشر لأبالك ١١ وأعجبه كلامه .

فقال : أصابتنا ثلاث سنين ، سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة نقت (٢) العظم ، وفي أيديكم فضول أموال : إن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها : وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد ، لا حياة للجسد إلا به .

فقال هشام : ماترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً : وأمر أن يقسم في باديته مائة ألف درهم . وأمر لدرواس بمائة ألف درهم . فقال يا أمير المؤمنين أرددوها إلى أعطية أهل باديتي ، فإني أكره أن يعجز ما أمر لهم به

---

(١) لباب الآداب ص ٣٥٣

(٢) النقي : نخ العظام وشحمها ، ونقي العظم : يستخرج نقيه .

أمير المؤمنين عن كفايتهم : قال : فإلك من حاجة تذكرها لنفسك ؟ قال :  
مالى من حاجة دون عامة المسلمين !!

ولما عاد درواس إلى منزله بعث إليه هشام بمائة ألف درهم ، ففرقها في  
تسعة أبطن من العرب ، لكل بطن عشرة آلاف ، وأخذ هو عشرة آلاف ،  
فقال هشام : إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع (١) .

- ٢ -

وسأل (٢) يوماً عبد الملك (٣) بن مروان : من أشجع الناس شعراً ؟ فقبل  
عمرو بن معد يكرب . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

جاشت (٤) إلى النفس أول مرة فردت على أمكروها فاستقرت

قالوا : فعمر بن الاطنابة . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

وقولى كلما جشأت (٥) وجاشت مكانك تحمدى أو تسريحي

قالوا : فعامر بن الطفيل قال ، كيف ! وهو الذى يقول :

أقول لنفس لا يجاد بمثلها أقل مراحاً إننى غير مدبر

قالوا : فن أشجعهم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة ، عباس بن مرداس  
السللى ، رقيس بن الخطيم الأرسى ، وعنترة بن شداد العبسى ، ورجل من  
بنى مزينة ، أما عباس فلقوله :

(١) جمع صنيعة ، وهى المعروف والإحسان .

(٢) مجمع الأمثال ص ٢٢ ج ٢

(٣) كان عبد الملك بن مروان ليبيًا عاقلًا جباراً ، قوى الهيبة شديد السياسة  
حسن التدبير تولى الخلافة سنة ٦٥ هـ فوطد أركانها ، وقتل ابن الزبير وأخاه  
مصعباً ، وكافح حتى استقرت له الأمور ومات سنة ٨٦ هـ .

(٤) جاشت النفس : اضطربت من الفزع ، وأصل جاشت . غشت وفاضت

(٥) ارتفعت من حزن أو فزع .



أشد على الكتبية لا أبالي      أفيها كانت حتى أم سواها  
وأما قيس بن الخطيم فلقوله :  
ولاني لدى الحرب العوان موكل      بتقديم نفس لا أريد بقاءها  
وأما عنتر بن شداد فلقوله :  
إذ تتقون بي الأسنة لم أخم (١)      عنها ولكن قد تضايق مقدمي (٢)  
وأما المزني فلقوله :  
دعوت بني قحافة فاستجابوا      فقلت : ردوا فقد طاب الورود

وقال (٢) عبد الملك بن مسلم : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :  
لأنه لم يبق شيء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه ، ولم يبق لي إلا مناقلة (٤)  
الإخوان الأحاديث ، وقبلك عامر الشعبي (٥) ، فابعث به إلى يحدثنى .  
فدعا الحجاج بالشعبي وجمعه ، وبعث به إليه ، وأطراه في كتابه .  
ففرج الشعبي ، حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب : استأذن لي ،  
فقال : ومن أنت ؟ قال : عامر الشعبي ، قال حياك الله أثم نهض ، وأجلسه  
على كرسيه ، فلم يلبث أن خرج الحاجب إليه فقال : ادخل .  
قال الشعبي . فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسي ، وبين يديه رجل  
أبيض الرأس واللحية على كرسي ، فسلمت فرد السلام ، ثم أوما إلى ،

(١) أخم : أجبن .

(٢) تضايق مقدمي : تضايق الموضع الذي هو قدامي من أن يدنوه أحد .

(٣) أمالي المرتضى ص ١٠١ ج ٣ ، خزائن الأدب ص ١١٨ ج ٢ ، الأغاني

ص ١٦٢ ج ٩ .

(٤) المناقلة في المنطق : أن تحدته ويحدثك .

(٥) هو عامر بن شراحيل كوفي المنشأ ، تابعي جليل القدر وافر العلم ، يقال

لأنه أدرك خمسمائة من الصحابة توفي سنة ١٠٣ هـ .

فقعدت عن يساره ، ثم أقبل على الذى بين يديه فقال : ويحك ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ! فأظلم على ما بينى وبين عبد الملك ، ولم أصبر أن قلت : ومن هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس ! فعجب عبد الملك من عجلتى قبل أن يسألنى عن حالى ، ثم قال : هذا الأخطل فقلت : يا أخطل أشعر منك الذى يقول (١) :

هذا غلام حسن وجهه      مقتبل الخير سريع الزاء  
للحارث الأكبر والحارث الأصغر      والحارث خير الأنام  
ثم لمنند ولمند ، فقد      أسرع فى الخيرات منه لإمام  
خمسة آباء هم مامهم      هم خير من يشرب صوب الغمام

فقال عبد الملك : ردهما على ، فرددتها حتى حفظها ، فقال الأخطل ، من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الشعبي ، قال : صدق ، والله النابغة أشعر منى !

قال الشعبي : ثم أقبل على عبد الملك فقال : كيف أنت يا شعبي ؟ قلت : بخير لازلت به - ثم ذهبت لأصنع معاذيرى لما كان من خلافى على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث .

فقال : مه ! فإننا لا نحتاج إلى هذا المنطق ، ولا نراه منا فى قول ولا فعل حتى تفارقنا ، ثم أقبل على فقال : ما تقول فى النابغة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين قد فضله عمر بن الخطاب فى غير موطن على جميع الشعراء ! وذاك أنه خرج يوما ويأباه وفد غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ، أى شعرائكم الذى يقول :

---

(١) قال النابغة هذا الشعر حين نظر إلى النعمان بن الحارث أخى عمرو بن الحارث الأصغر ابن الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر ابن أبى شمر (مذهب الأغاني ص ٢٣٠ ج ٢)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة      وليس وراء الله للمرء مذهب  
ألم تر أن الله أعطاك سورة      ترى كل ملك دونها يتذبذب  
كأنك شمس والملوك كواكب      إذا طلعت لم يبد منها كوكب  
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة      لمبلغك الواشى أغش وأكذب  
ولست بمستبق أخا لا تلهه      على شعث ، أى الرجال المهذب

قالوا : النابغة ، قال ، فأبيكم الذى يقول :

فأنك كالليل الذى هو مدركى      وإن خلت أن المتأى عنك واسع  
خطاطيف (١) حجن فى جبال متينة      تمد بها أيدى إليك نوازع

قالوا : النابغة ، قال : أبيكم الذى يقول :

إلى ابن محرق أعملت نفسى      وراحلتى وقد هدت العيون  
أتيتك عارياً خلقاً ثيابى      على خوف تظان بى الظنون  
فألفيت الأمانة لم تخنها      كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة ، قال : هذا أشعر شعرائكم . ثم أقبل عبد الملك على  
الأخطل فقال : أنجب أن لك قياضاً (٢) بشعرك شعر أحدهم العرب . وأنجب  
أنك قلته فقال : لا والله ، إلا أنى وددت أنى كنت قلت أبيتا قالمها رجل منا ،  
كان والله مغدق (٣) القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع ، قال وما قال ؟ فأنشده :  
إنا محبوك فاسلم أيها الطلل      وإن بليت وإن طالت (٤) بك الطول  
ليس الجديد به تبقى بشاشته      إلا قليلا ولا ذو خلة يصل

(١) الخطاف : حديدة حجناء تعقل بها البكرة ، والحجن : الاعوجاج (اللسان  
مادة خطف) .

(٢) المقايضة . المبادلة والمعارضة .

(٣) أغدق قناعه . أرسله على وجهه .

(٤) يقال : د طال طولك ، أى عمرك .

والعيش لا عيش إلا ماتقر به      عين ولا حال إلا سوف تفتقر  
والناس من يلق خيراً فاثلون له      ما يشتهى ولا م المخطى الهبل  
قد يدرك المتأني بعض حاجته      وقد يكون مع المستعجل الزلل  
قال الشعبي : قد قال القطامي أفضل من هذا ، قال : وما قال ؟  
قلت : قال :

طرفت جنوب رحالتنا من مطرق      ما كنت أحسبه قريب المعنق  
حتى أتيت على آخرها ، فقال عبد الملك : نسكت القطامي أمه ، هذا  
والله الشعر ، ثم قال : يا شعبي ، أي شعراء الجاهلية كان أشعر من النساء ؟  
قلت : خنساء قال : ولم فضلتها على غيرها ؟ قلت : لقولها :

وقائلة والنعش قد فات خطوها      لتدركه يالهف نفسى على صخر  
ألا نسكت أم الذين غدوا به      إلى القبر ، ماذا يحملون إلى القبر !  
فقال عبد الملك : أشعر والله منها ليلي الأخيلىة حيث تقول :

مهمهمف الكشح والسربال منخرق      عنه القميص لسير الليل محتقر  
لا يأن الناس ممساة ومصبحة      في كل حى وإن لم يغز ينتظر  
ثم قال عبد الملك : يا شعبي لعله شق عليك مسمعته ، فقلت : إى والله  
يا أمير المؤمنين أشد المشقة ، إنى قد حدثتك فلم أفدك إلا آيات النابغة  
في الغلام .

ثم قال عبد الملك : يا شعبي ؛ إنما أعلنك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق  
يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن  
يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق . ثم ردد على  
آيات لى حتى حفظتها ، وأذن لى فأنصرفت ، فسكنت أول داخل  
وآخر خارج .

وقال (١) حماد (٢) الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك . فسكر هشام يحفوني لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد ، فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فكشفت في بيتي سنة ، لأخرج إلان أثق به من إخواني سرأ .

فلما لم أسمع أحدا يذكر في سنة أمنت فخرجت ففصلت الجمعة ، ثم جلست عند باب الفيل . فإذا شرطيان قد وقفا على فقالا لي يا حماد ، أجب الأمير يوسف (٣) بن عمر . فقلت في نفسي : من هذا كنت أحذر ، ثم قلت للشرطي . هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبدا ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان (٤) الأحمر . فسلمت عليه فرد علي السلام ، ورمى إلى كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غيرا مروع ولا متعنع (٥) ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجعلا مهر يا (٦) يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق .

- 
- (١) ثمرات الأوراق ص ١٨٢ ج ١ ، الأغاني ص ٧٥ ج ٦  
(٢) هو حماد بن ميسرة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، كانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره ، وتستزيره ، فيسألونه ويجزلون صلته .  
(٣) لم يكن يوسف بن عمر واليا على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان واليا عليها خالد القسري حتى سنة ١٢٠ هـ ، ثم ولي يوسف بعده .  
(٤) الإيوان : البيت يبنى طولا .  
(٥) غير متعنع . من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .  
(٦) نسبة إلى مهرة بن حيدان أوقبيلة وهم حنظلي عظيم ، ولابل مهرية . منسوبة إليهم .

فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل مرحول (١) فوضعت رجلى فى الغرز (٢) ، وسرت اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت باب هشام ، فاستأذنت فأذن لى ، فدخلت عليه فى دار قوراء (٣) مفروشة بالرخام ، وهو فى مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيبي ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب خز حر ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مقتوت فى أوانى ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحها ، فسلمت فرد على ، واستدنانى فدنوت حتى قبلت رجله ؛ وإذا جاريتان لم أرقبلهما ، مثلهما ، فى أذنى كل واحدة منهما حلقتان من ذهب ، فيها لؤلؤتان تتوقدان .

فقال لى : كيف أنت يا حماد ؟ وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين ، قال أندرى فيم بعثت إليك ؟ لبيت خطر يبالى لم أدر من قاله . قلت : وما هو ؟ فقال :

فدعوا بالصباح يوما فجاءت قينة فى يمينها لبريق  
قلت : هذا يقوله عدى بن زيد فى قصيدة له . قال : فأنشدنيها ، فأنشدته :  
يسكر العاذلون فى وضوح الصبح يقولون لى : ألا تستفيق  
ويلومون فيك يابنة عبد الله والقلب عندكم موهوق (٤)  
لست أدرى إذ أكثروا العذل عندى  
أعدو يلومنى أم صديق  
فطرب ، ثم قال : أحسنت والله يا حماد ، أعد ، فأعدت فاستخفه الطرب

---

(١) مرحول : عليه الرحل (٢) الغرز : ركاب الرحل من جلد ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب .  
(٣) دار قوراء : واسعة .  
(٤) الموهوق : المشدود بالوهم ، وهو الحبل .

حتى نزل عن فرشه ، فقال : سل حوائجك ، فقلت : كائنة ما كانت ؟ قال نعم ، قلت : لإحدى الجاريتين ، فقال لي : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما . ثم قال الأولى اسقيه فسقتني شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت فإذا بالجارتين عند رأسي وإذا عدة من الخدم مع كل واحد منهم بكرة ، فقال لي أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها فأخذتها والجارتين وانصرفت .

ودخل رجل من بني صنعة على عبد الملك بن مروان فقال : والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلب إليك من الذي نتطلب ؟ فلقد ضربنا (١) في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المسكارم ينسب فاصبر لعادتنا التي عودتنا أولاً فأرشدنا إلى من نذهب ؟ فقال عبد الملك : إلى إلى أو أمر له بألف دينار ، ثم أتاه في العام المقبل فقال :

رب (٢) الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد ونما وليس كبان حين تم بناؤه تتبعه بالنقض حتى تهدم فاعطاء ألفي دينار ، ثم أتاه في العام الثالث فقال : إذا استمطروا كانوا مغازير (٣) في الذي يجودون بالمعروف عوداً على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار

---

(١) ضرب في الأرض : سافر .

(٢) رب : زاد وأصلح .

(٣) أغزر المعروف : جعله غزيراً . والمغازير لا يكون إلا جمعاً لمغازير أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما في اللسان والقاموس ، وفي المخصص : سحابة مغزار . غزير فيكون جمعاً لمغزار حتماً .

وقال عامر الشعبي : وفدت سودة بنت عمار بن الاشتر الهمدانية  
على معاوية بن أبي سفيان فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ،  
فقال لها : كيف أنت يا ابنة الاشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها :  
أنت القائلة لأخيك :

شمر لعل أليك يا ابن عماره يوم الطعان وملتقى الأقران  
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند (١) وابنها بهوان  
إن الامام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان  
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسمان  
قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، فدع عنك تذكارك ما قد  
نسى ، قال : هيات ، ليس مثل مقام أخيك نسي . قالت صدقت والله يا أمير  
المؤمنين ما كان أخى خفى المقام ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :  
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار  
وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائي عما استعفيت به ، قال : قد فعلت ،  
فقولي حاجتك قالت :

يا أمير المؤمنين إنك للناس سيد ولأمورهم مقلد . والله سائلك عما  
افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط  
بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيس (٢)  
ويسألنا الجليلة وهذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي ، ولولا  
الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فقال معاوية : أياي تهددين بقومك ؟ والله  
هممت أن أردك إليه على قتب أشرس (٣) فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

(١) هندی أم معاوية .

(٢) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يحشمننا دنایا الأمور .

(٣) القتب : الرجل الصغير . والأشرس . الحشن الغليظ .



صلى الإله على روح تضمنه      قبر فأصبح فيه العدل مدفونا  
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا      فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبي طالب رحمه الله ، قال : ما أرى عليك له أثرا ، قالت : بلى ، أتيتته يوما في رجل ولاه صدقتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين . فوجدته قائما يصلي فانفتل (١) عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلفك ولا ترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا السكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . إذا أناك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام ، فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام . فقال معاوية : اكتبوا بالإنصاف لها والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة أم لقوم عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللاؤم ، إن كان عدلا شاملا ، وإلا يسعني ما يسع قومي . قال هيهات ، لمظلمكم (٢) ابن أبي طالب الجرأة وغركم قوله :

فلو كنت بوابا على باب جنة      لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة      ومثل همدان سنى فتحة الباب  
كالهندواني لم تقلل مضاربه      وجه جميل وقلب غير وجاب  
اكتبوا لها بحاجتها .

---

(١) انفتل : انصرف .

(٢) لمظله الشيء : منحه إياه .

وحبس مروان وهو والى المدينة غلاما من بنى ليث فى جناية جناها  
فأنته جدة الغلام وهى أم سنان بذت جشمة المذحجية فكلمته فى الغلام  
فأغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال  
لها : مرحبا بنابنة جشمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدت لك تشتمينا وتحضين  
علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأحلاما رافرة ،  
لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهمون بعد حلم ، ولا يذتقمون بعد عفو ؛  
وإن أولى الناس باتباع ماسن آباؤه لأنت . قال : صدقت نحن كذلك .  
فكيف قولك :

عزب الرقاد فمقتى لاترقد      والليل يصدر بالهموم ويورد  
يا آل مذحج لامقام فشمروا      إن العدو لآل أحد يقصد  
هذا على كاهلال تحفه      وسط السماء من الكواكب أسعد  
خير الخلائق وابن عم محمد      إن يهدكم بالنور منه تهتدوا  
مازال مذهب الحروب مظهرا      والنصر فوق لوائه ما يعقد (١)

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين وأرجو : أن تكون لنا خلفا ، فقال  
رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل      بالحق تعرف هاديا مهديا  
فاذهب عليك صلاة ربك مادعت      فوق الغصون حمامة قريبا  
قد كنت بعد محمد خلفا كما      أوصى إليك بنا فكنت وفيا  
واليوم لا خلف يؤمل بعده      هيات تأمل بعده إنسيا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق . ولئن تحقق ما ظننا

---

(١) ما مصدرية ظرفية ، تقول : إن النصر لا يفارق لواءه مادام معقودا .

فخطك الأوفر ، والله ماورئك الشنآن (١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء .  
فأدحض (٢) مقالتهم وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا  
ومن المؤمنين حبا قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله والله  
مماثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا  
وضمير قلوبنا كان والله (على) أحب إلينا منك وأنت أحب إلينا من غيرك .  
قال : بمن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاصي . قال : وبم  
استحققت ذلك عندك قالت : بسعة حلمك وكرم عفوكم قال : فما حاجتك  
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنك (٣) بالمدينة تبنك من لا يريد منها  
البراح ، لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ويكشف  
عورات المؤمنين ، حبس ابن ابني فأتيته فقال : كنت وكنت ، فأسمعته  
أخشن من الحجر وألقمته أمر من الصاب (٤) ثم رجعت إلى نفسي باللائمة  
وقلت : لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه فأيتتك يا أمير المؤمنين  
لتسكون في أمري ناظرا وعليه معديا (٥) قال : صدقت لأسألك عن ذنبه  
والقيام بحجته . اكتبوا لها بإطلاقه ، قالت : يا أمير المؤمنين وأنى لي  
بالرجعة ؟ وقد نفذ زادي وكلت راحلتي ؟ فأمر لها براحلة ومنحة .

- 
- (١) الشنآن : العداوة .  
(٢) أدحض حجته : أبطلها .  
(٣) تبنك بالمكان : أقام .  
(٤) الصاب : شجر مر .  
(٥) أعداء عليه : نصره وأعاناه .

وكان لبید (١) بن ربيعة جوادا شريفا في الجاهلية والإسلام ، وكان آلى في الجاهلية أن يطعم ماهبت الصبا . ثم أدام ذلك في إسلامه ، وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، ونزل لبید الكوفة ، وأميرها الوليد بن عقبة ، فبينما هو يخطب الناس إذ هبت الصبا ، فقال الوليد في خطبته على المنبر : قد علمت حال أخيك أبي عقيل ، وما جعل على نفسه : أن يطعم ماهبت الصبا ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت ريحها : فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم انصرف الوليد ، فبعث إليه بمائة من الجزر وهذه الأيات :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه	إذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الأنف أصيد (٢) عامري	طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بما نواه	على العلات (٣) والمال القليل
بنحر الكوم (٤) إذ سحبت إليه	ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما وصلت الهدية إلى لبید شكره ، وقال : إني تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، ثم قال لابنته . أجيبيه ، فلمعري لقد عشت دهرأ وما أعيا بجواب شاعر .

(١) راجع الجمهرة ص ٣٩ ، المستطرف ص ٥٠ ج ٢ ، الأغاني ص ٩٣ ج ١٤ ، بلوغ الأرب ص ٩٢ ج ٣  
ولبید بن ربيعة العامري هو أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات ، ولما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه ، ومات سنة ٤١ هـ .

- (٢) الأصيد : رافع رأسه كبرا .
- (٣) على العلات : على كل حال .
- (٤) الكوم : القطعة من الإبل .

وكان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكثر أهل زمانه وأشدهم عارضة  
ولسانا وطال عمره ونكبه دهره واختلت حاله ، فخرج عشية يتبقل (١)  
لأهله فربه عميلة الفزاري فسلم عليه وقال : يا عم ما أصارك إلى ما أرى ؟ قال :  
بخل مثلك بماله وصون وجهي عن أموال الناس . فقال : لئن بقيت إلى غد  
لأغيرن ما أرى من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة .  
فقال له : لقد غرك كلام غلام جنح ظلام (٢) . فكأنما ألقت فاه حجرا ،  
فبات متمللا بين رجاء ويأس ، فلما كان السحر سمع رغاء الإبل وئغاء الشاه  
وصهيل الخيل ولجج الأموال (٣) فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا عميلة ساق إليك  
ماله ؛ فخرج ابن عنقاء له ، فقسم عميلة ماله شطرين وسأله (٤) عليه ، فأنشأ  
ابن عنقاء يقول :

رآني على ما بي عميلة فاشتكي	إلى ماله حال أسير كما جهر
دعاني فأساني ولوضن لم يلم	على حين لا بد ويرجي ولا حضر
فقلت له خيرا وأثنت فعله	وأوفاك ما أبلت من ذم أو شكر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه	تري رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالخير مقبلا	له سيمياء (٥) لا تفق على البصر
إذا قيلت العوراء (٦) أغضى كأنه	ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر

(١) تبقل ، خرج يطلب البقل .

(٢) جنح الليل أو الظلام : الطائفة منه .

(٣) اللجج : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر .

(٤) سأله : قارعه أي ضرب القرعة .

(٥) السيماء والسياء والسيما والسيما العلامة : يقول : يفرح به من يراه للطف بحياه .

(٦) العوراء : الكلمة القبيحة .

ووفدت بكرة الهلالية على معاوية فاستأذنت فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة  
فدخلت عليه وكانت أسنت (١) وعشى بصرها (٢) وضعفت قوتها ترعش  
بين خادمين لها (٣) فسلبت وجلست فرد عليها معاوية السلام ، وقال كيف  
أنت يا خالة فقالت بخير يا أمير المؤمنين قال غيرك الدهر ، قالت كذلك هو  
ذو غير (٤) من عاش كبير ومن مات قبر . فقال عمرو بن العاص هي والله  
القائلة يا أمير المؤمنين :

يازيد دونك فاحفر (٥) من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا  
قد كنت أذخره (٦) ليوم كربية فالآن أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيد  
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقيا وسعيد  
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطعم أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمة خاطبا  
فالله آخر مدني فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبا  
في كل يوم لا يزال خطيبهم بين الجميع لآل أحد عائبا  
ثم سكتوا فقالت : يا معاوية كلامك أعشى بصرى وقصر حجتي (٧) وأنا  
والله قائلة ما قالوا وما خفي عليك مني أكثر فضحك وقال : ليس بمنعنا ذلك  
من بك ، اذكرى حاجتك قالت أما الآن فلا .

(١) طعنت في السن . (٢) ضعف نظرها .

(٣) أي تمشى مستندة على خادمين وهي ترتعش لكبر السن .

(٤) أي صاحب أحوال متغيرة .

(٥) أي احفر الأرض في دارنا لتخرج منها السيف المدفون .

(٦) في رواية ( قد كان مذخورا ) .

(٧) أعشى بصرى أضعفه ، وقصر حجتي أضعفها .

ودخل حمزة (١) بن بيض على مخلد بن يزيد بن المهلب ، فوعده أن يصنع به خيراً ، ثم شغل عنه ، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه ، وأبطأت عليه عدته ، فقال ابن بيض :

أخلد (٢) إن الله ماشاء يصنع	يوجد فيعطى ما يشاء ويمنع
ولاني قد أمت منك سحابة	فجأت سراياً فوق يدياء تلعب
فأجمعت صرماً ثم قلت لعله	يثوب إلى أمر جميل ويرجع
فأبأسني من خير مخلد إنه	على كل حال ليس لي فيه مطمع
يوجد لأفوام يودون أنه	من البغض والشنان أمسى يقطع
ويبخل بالمعروف عن يوده	فوالله ما أدرى به كيف أصنع
أأصرمه ؟ فالصرم شر مغبة	ونفسي إليه بالوصال تطلع
وشنات بيني والوصال وبينه	على كل حال أستقيم ويظالع (٣)
فأعقبني صرماً على غير إحنة	وبخلاً وقدماً كان لي يتبرع
وغيره ما غير الناس قبله	فنفسي بما يأتي به ليس تقنع

ثم كتبها في قرطاس ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه .  
فدفعه الغلام إليه .

#### (١) الأغاني ص ٢٣ ج ١٥

وحمزة بن بيض : شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خليع ماجن وكان منقطعا إلى المهلب بن أبي صفرة ووالده ، ثم إلى أبان بن الوائيد ، وبلال بن أبي بردة واكتسب بالشعر من هؤلاء مالا عظيماً ، ولم يدرك الدولة العباسية توفي سنة ١٢٠ هـ .

(٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ، ولي إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه . ثم رحل إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ .

(٣) الظلع : العرج .

فلما قرأه سأل الغلام : من صاحب الكتاب ؟ قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : من أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدري ، ولكن من صفته كذا وكذا ، ووصف صفة ابن يعض فأمر به فضرب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسمائة درهم وكساه ، وقال : إنما ضربتك أدباً لك ، لأنك حملت كتاباً لا تدري ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

فقال الرجل : لا والله ، أصلحك الله لا أحمل كتاباً لمن أعرفه ولا لمن لا أعرف ، قال : احذر فليس كل أحد يصنع بك صنيعي .

وبعث إلى ابن يعض ، فقال له : أتعرف مالحي صاحبك الرجل ؟ قال : لا ؛ خذنه مغلد بقصته ، فقال ابن يعض : والله — أصلحك الله — لا تزال نفسه تتوق إلى العشرين سوطاً مع الخمسمائة أبداً ؛ فضحك مغلد ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لا تزال نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً ، قال أجل والله ، ولكن من لي بمثلك يعتبني (١) إذا استعتبته ، ويفعل بي مثل فعلك ثم قال :

وأبيض بهلول إذا جئت داره      كفاني وأعطاني الذي جئت أسأل  
ويعتبني يوماً إذا كنت عاتبا      وإن قلت زدني قال حقاً سأفعل  
تراه إذا ما جئته تطلب الندي      كأنك تعطيه الذي جئت تسأل  
فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

---

(١) يقال : أعطيني فلان ، إذا ترك ما كنت أجد عليه ، ورجع إلى ما أرضاني عنه ، بعد إسقاطه إياي عليه .



## خلاصة

نستطيع أن ندين أسباب عناية الدولة : خلفاء وأمراء وولاة وشعبا ،  
حكاما ومحكومين ، باللغة والأدب في : عروبة الدولة وفي الرغبة الملمحة في  
الحفاظ على لغة القرآن الكريم وعلى مآثر العرب وتراثهم ، وفي ميول الحكام  
إلى الأدب لمكانهم العربية الخاصة .

وقد تجلت هذه العناية بالأدب في مظاهر مختلفة ، من سخاء على الأدب  
وتقريب لرجاله ورغبة في السماع منهم ولهم ، ومن تنافس الشعراء في التقرب  
إلى مجالس الخلفاء والأمراء والولاة ، ومن ظهور الأدب السياسي ، وقيام  
ديوان الرسائل ، وجمع الرواة للشعر ، إلى ميول الخلفاء الأدبية واحتفائهم  
بالأدب ، وعقد الندوات الأدبية التي يشاركون فيها في الحوار الأدبي  
وفي نقد الكلام .

كما تجلت هذه العناية باللغة في حرص الدولة على سلامة المملكات وعلى  
مقاومة اللحن ، وفي جمع العلماء لمتن اللغة ، وفي انتشار اللغة وعالميتها .

وقد أثمرت هذه العناية باللغة والأدب ثمارا كثيرة منها : نهضة الأدب  
والشعر وتعدد فنونهما ، وقيام حركة التجديد في الأدب والشعر ، والنثر  
الفني ؛ وحرص الرواة على جمع آداب العرب ودواوين الشعراء ، وبدء  
حركة التأليف في الأدب واللغة والعلوم وحركة الترجمة إلى العربية .

وسنفصل الحديث في كل هذه الجوانب فيما يلي من دراسات .

## الشعر في عصر بني أمية

### تمهيد :

ازدهر الأدب العربي في عصر بني أمية ، شعره ونثره على السواء ، وتعددت فنونه ، وشمله التجديد في كل مظهر من مظاهره ، واسترعت النهضة التي بلغها آنذاك أنظار النقاد والدارسين .

وكانت الأسباب التي أدت إلى هذا الازدهار ، وإلى تلك النهضة ، كثيرة ومتضافرة : فالدولة عربية الصبغة وملوكها عرب ولغتها هي العربية ، ومواطن اللغة والثقافة والأدب كثيرة في هذا العصر ، وعناية الخلفاء والأمراء والولاة والشعب بالأدب وتشجيعهم للأدباء موصولة ، وكان لإحياء الأدب الجاهلي وروايته وتدوينه أثر في هذه النهضة ؛ وقد أثر القرآن الكريم والحديث النبوي وبلاغات البلغاء من الجاهلية حتى هذا العصر في الألسنة والأذواق وفي الأساليب والألفاظ ، وفي أغراض الأدب ومعانيه وأخيلته تأثيرا كبيرا ، وتعدت مجالس الأدب ومنتدياته وأسواقه في هذا العصر ، ومن أشهرها : سوق المربد بالبصرة ، وسوق كناسة بالكوفة .

وقد كان لازدهار الحياة الأدبية في هذا العصر مظاهره الكثيرة : فن ذبوع الشعر ونهضته ، إلى نهضة النثر الفني متمثلا في الخطابة والكتابة ، إلى ظهور الأدب السياسي والغزل العذري والقصصى وشعر الشعوية الذي ظهر على أيدي شعراء الموالى من مثل نصيب وعبد بنى الحسحاس وهما من أصول حبشية - والحقيطان وهو من أصل زنجي ، وأبي نخيلة وزياد الأعمى وموسى شهوات واسماعيل بن يسار ( ١١٠ هـ ) ، وإخوته وهم من أصول فارسية . . ومن أغراض الأدب الجديدة كذلك : شعر الزهد والحكمة ،

والعقائد ووصف البلاد المفتوحة ، وكذلك فن القصص التاريخي الذي كتبت به السيرة النبوية .

ونهمضة الأدب في هذا العصر ، تجلت آثارها على جميع ألوان الأدب وفنونه .

فقد نبغ الكثير من أعلام الأدباء والكتاب والشعراء ، وأدى الشعر والخطابة والكتابة وسائر ألوان الأدب رسالتها الأدبية في هذا المعترك الحافل بأسباب النشاط ؛ وبجامع العلم (١) والأدب قد تعدت وأثمرت ثمارها في خدمة التراث الإسلامي والأدب العربي .

ولقي الأدب عامة والشعر خاصة عناية من المجتمع العربي الذي كان في ذلك الحين يحل بالأدب والشعر منه منزلة رفيعة ، ولقي نفس العناية كذلك من المغننين ، كما لقي عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده ؛ ولقد أغدق الخلفاء على الشعراء العطاء ، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعرا ، واتخذ كل حزب له شعراء .

ولقد تأثر الأدب عند أهل الأمصار بصورة حياتهم ، فكان لكل حزب سياسي أو طائفة مذهبية من الخوارج والشيعة والزييرية والمروانية والمضنرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر ويخطبون في تأييد نحلتهم ، وخلف مربد البصرة وكناسة الكوفة عكاز في اجتماع الشعراء والخطباء بهما . كما تأثر الأدب في الحجاز بحياة المترفين من شبانه ، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء ، وما زال يستفحل أمره حتى نحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون ولهو .

---

(١) من أعلام هذا العصر : عبيد بن شربة الجرهمي ، محمد بن شهاب الزهري (٥٠ - ١٢٤ هـ) ، ومحمد بن سيرين المتوفى عام ١١٠ هـ ، وهب بن منبه المتوفى ١١٤ هـ .

وتأثر في البوادي بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز في ثوب الفخر والتباهى والتهاجى والتناقض والمدح والثناء ونحو ذلك .

وتأثر عند العذريين بنزعة نفوسهم بخطر في حلة الشعر العفيف الذى يعتبر من أجمل ما قيل من الشعر العربى .

#### نهضة الشعر فى العصر الأموى :

كانت للشعر دولة عند الجاهليين ، وظلت له مكانته عند الرسول وخلفائه بعد الإسلام .

ثم عنى الأمويون به ، وعملوا على ازدهاره ، وبالغوا فى رعايته . ذلك لأنهم عرب يهزم الشعر وتسحرهم بلاغته ويولونه عناية كبيرة ، من جانب ، ولأنه سجل تاريخ العرب وأيامهم ومفاخرهم وآثرهم من جانب آخر ، ولأنه صار لسان الحياة الجديدة ، بما فيها من أحزاب متصارعة . وعصبيات متضاربة ، ورغبات قوية فى إحياء ماضى العرب الأدبى ، وتجديد تاريخهم القومى والعقلى .. ولأنه صار أخيراً وسيلة إلى المال والحياة والعيش الطيب الكريم ..

اشتدت عناية الأمويين - خلفاء وأمراء وولاة وزعماء ، ورؤساء - بالشعر وعظم تقديرهم للشعراء ، وخصومهم بجزيل العطاء ، وعظمهم الصلات ، وعقدوا المجالس لإنشاده وسماعه ، وجلسوا فى الندوات المفتوحة لسماع المحاورات بين الأدباء والشعراء حوله ..

ولا شك أن الشعر قد ازدهر فى هذا العصر ازدهاراً كبيراً .

وكانت مجالس الشعر والشعراء ، فضلاً عن سوق المربد ، وكناسة السكوفة ، مفتوحة ؛ وكان الحديث فيها يدور كثيراً حول الشعراء الجاهليين وأشعرهم ، وحول شعراء بنى أمية والشاعر الأول فيهم .. هذا كله فضلاً عن خصوبة الحركة الأدبية فى العواصم الإسلامية الكبرى ، وخاصة

البصرة والسكوفة، إلى عناية القبائل بالشعر إحياء لتاريخها ومفاخرها وأيامها وملاحمها، وكان شعراء القبائل لسانها الناطق، وقلبها الخافق، وسلاحها الرهيب، وجيشها المدافع عن أحسابها وأعراضها.

وإذا كانت مظاهر نهضة الشعر كثيرة فإن من أسبابها :

١ - تعدد الأحزاب ، فن سياسية كالشيعة والاموية والخوارج والزيرية ، إلى أحزاب دينية ، ومن بينها : المرجئة والجبرية والقدرية .

٢ - تقدير الحكام للشعراء ورعايتهم لهم ، واتخاذ الشعراء ناطقين باسمهم ، ونجد مظهر ذلك في كعب بن جعيل الذي اتخذ يزيد شاعر الشام، حيث كان النجاشي شاعر العراق ؛ وكان مسكين الدارمي من المؤيدين لبيعة يزيد .. وقد هجا الأخطل الأنصار بأمر يزيد حيث يقول فيما يقول :

ذهبت قريش بالمسكارم والعللا      واللؤم تحت عمائم الأنصار

وصار الأخطل بعد ذلك شاعر عبد الملك بن مروان السياسي . كما كان عدى بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك ، وقرب الوليد إليه أيضا أعشى بنى تغلب . وكان عبد الرحمن بن حسان شاعر الأنصار .

ومن شعراء زياد بن أبي سفيان : حارثة بن بدر ؛ وكان من شعراء الحجاج : جرير والفرزدق ؛ ومن شعراء المهلب : كعب الأشقرى ، وحييب ابن عوف والطفيل بن عامر ؛ ومن شعراء بشر ابن مروان : جرير والفرزدق وكثير وأعشى شيبان ؛ ومن شعراء عبد العزيز بن مروان : جميل ، ونهيب ، وكثير ، وابن الرقيات ، وأيمن ابن خريم .

وكان من شعراء مكة أبو العباس الأعمى ، ومن شعراء المدينة الأحرص ، ومن شعراء السكوفة عبد الله الأسدي والكميت ، ومن شعراء البصرة : جرير والفرزدق ، ومن شعراء الجزيرة : الأخطل والقطامي وأعشى تغلب ، ومن شعراء الشام : عدى بن الرقاع ، والأخطل .

٣ - ازدهار الثقافة العربية في مختلف فروع المعرفة والعلم .

٤ - ازدهار الثقافة الأدبية في الشعر والأدب والنقد والتقصص ، وإحياء التراث الأدبي القديم ، وما تبع ذلك من عقد المجالس لسماع الشعر وإنشاده ونقده وروايته ، ومن اهتمام الخلفاء بترية أبنائهم على الشعر وتذوقه ، حتى كان معاوية يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم (١) ، ، وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب أبنائه : أدبهم برواية شعر الأعشى ، ويقول لأبنائه : عايكم بطاب الأدب ، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ، وكان خلف وكثير من الرواة يدرون تلاميذهم على قرض الشعر ، وكثير رواة الشعر في هذا العصر ، ومن بينهم : الشعبي وحمار وأبو عمرو ابن العلاء ، ويونس ، وخلف .

٥ - هذا إلى خصوبة الحياة السياسية وشدة الصراع فيها بين مختلف الأحزاب والعصبيات والطوائف ، وإلى كثرة مظاهر الحضارة ومشاهدها ، وإلى التأثير بالشعر الجاهلي ومناهجه والتأثر كذلك بالقرآن وبلاغته وبالحديث النبوي الشريف وفصاحته أيما تأثر ، وإلى قيام الخصومات الأدبية بين الشعراء ، وإلى اهتمام القبائل بالشعر لإحياء لمفاخرها ومآثرها ، وإلى تأثير الشعراء بأدب الأمم الأخرى وبخاصة الفرس .

وكان من آثار هذه النهضة الشعرية ارتفاع منزل الشعر والشاعر في عصر بني أمية ، ونشأة علوم حول الشعر : كرواية الشعر ونقده وتأليف كتب اختيارات فيه ، ومن آثارها كذلك قيام حركات التجديد في الشعر ، وصقل الشعراء لفنهم وتهذيبهم لأساليب الشعر ونجديديهم في معانيه وسموم بأخيلته .

(١) ٢ : ٤١ وفيات الأعيان .

(٦٤ - ق ١)

وقد بلغ من سيرورة الشعر وذيوه في هذا العصر أن أصبح على كل لسان وفي كل فم ، واحتل بذلك مكانة الصحافة اليوم ؛ وكان أقوى مظهر أدبي في هذا العصر . بل أصبح الفن الأول من بين فنون الأدب في عهد بني أمية .

#### بيئات الشعر في العصر الأموي :

على أن الشعر الأموي إنما كانت بيئاته هي الحجاز ونجد والعراق والشام فهي مهد الشعراء ، وفيها نهضة الشعر ؛ أما مصر وكذلك الشمال الأفريقي فلم تحفل بالشعر ولا بالشعراء في عهد بني أمية لأنها بيئات جديدة في الأدب والشعر ، ولم تسترع انتباه الشعراء كثيرا في هذا العهد .

أما بيئة الحجاز ، فقد اهتم أهلها بالشعر ، وعنوا به وبنقده عناية شديدة ، فكان أن شاع التغني به ، وظهرت فنون جديدة منه : كالغزل القصصي ، وللعزل العذري . وقد أغدق الخلفاء على شباب الحجاز المال والعطاء ، ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة ، فذاع الترف ، وانتشر النعيم ، وكثر اللهو .

وأما بيئة العراق فكانت صبغتها ثورية ، وانطبع شعرها بالطابع الثوري ، وظهر فيه تبعاً لذلك لون جديد هو الشعر السياسي ، الذي كان يدور حول الخصومات السياسية بين الخليفة ومعارضيه من الأحزاب ؛ وقد اهتم ولاية العراق بالشعر وأغدقوا على الشعراء المال ، ومن أشهرهم زياد والحجاج .

وأما بيئة الشام حيث عاصمة الخلافة ومستقر بني أمية ، وحيث المال والترف ، فقد تساقط عليها الشعراء ، طلباً للرفد ، والباسا للعطاء ، وطمعاً في المال ؛ وكانت قصائد التهنئة والمدح والفخر تلقى بين أيدي الخلفاء والأمراء والولاة في دمشق وفي غيرها من مدن الشام العامرة الحافلة بأسباب النشاط .

وأما مصر فلم يبلغ فيها الشعر هذه المنزلة ، مع أن الشعراء كثيرا ما كانوا يفدون على ولائها مادحين . ومثل مصر شمال إفريقيا ، وقد يكون ضياع الشعر فيهما هو سبب ذلك ؛ ويرى أحمد أمين أن الشعر العربي لم ينتقل من بيئته إلى بيئة أخرى ، وأن الشاعر العربي لم يشعر إلا في بيئته ، في الجزيرة العربية وما جاورها ، وهذا خطأ واضح ، فإن مصر وفارس وشمال إفريقيا كانت بعد قليل من هذا العصر من أهم مراكز الشعر ، على أن الاهتمام بالشعراء وبالشعر هو السبب الأول لثمائه دائما ، فإذا قل من يشجع الشعر ويثيب عليه كان في ذلك ضعفه ، ولا شك أن الشام والعراق والجزيرة العربية كانت دائما موضع عناية بالشعر واهتمام بالشعراء ؛ على أن الشعر لا وطن له ، فكما ينشأ في البادية كذلك ينشأ في المدينة ، وإنما مدار ذلك على ما يلقي الشعراء من تشجيع ، وعلى العناية بحفظ الشعر وتدوينه ؛ وانتقال الشعر من بيئة الحجاز إلى الحواضر الكبرى تبعاً لانتقال المسلمين إليها ، أكبر دليل على ما نذهب إليه ، وأقوى رد على أحمد أمين ومن يشايعه .

#### المؤثرات العامة في الشعر الأموي :

١ - الدين : تأثر الشعر بالدين والقرآن تأثرا كبيرا في هذا العصر ، مما أدى إلى التطور في معانيه وأساليبه وبعض أغراضه .

فالشعر الديني في هذا العصر ، وكذلك الغزل العذري فيهما قبسات من روح الإسلام ، وكذلك نجد لجرير مثل قوله :

صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والابرار

وابن الرقيات يقول :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

يتقى الله في الأمور وقد ألهى لمح من كان همه الاتقاء

وجميل يقول :

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعا يتضرع



والطرماح يقول :

إنما الناس مثل نابثة الزر ع متى يأن يأت محصده  
وقطرى يقول :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى  
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى  
والعجاج يقول فى مطلع أرجوزة له :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت  
وأعشى همدان يقول فى الحجاج :

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطفيء نار الفاسقين فتخدما  
هذه الأمثلة القليلة تمثل تأثر الشاعر الأموى فى معانيه وأساليبه بروح  
الدين والقرآن الكريم .

٢ - السياسة : لعبت السياسة دورها الكبير فى الشعر الأموى ،  
وقامت الأحزاب السياسية العديدة ، وكان الشعر السياسى صدى لها ، وتبعه  
كذلك شعر النقائض ، وشعر الشعوية ، وشعر العصيات القبلية .

٣ - الثقافة : اتسعت الثقافة فى عصر بنى أمية ، فشملت الثقافة  
الإسلامية والعربية والأدبية ، وتعددت بيئات الثقافة وهى واطان العلم : فى  
مسكة والمدينة والحجاز والشام وبخاصة دمشق ومصر والقيروان وطرابلس  
وتونس والبصرة والكوفة وسواها ، وتصدر حلقات العلم فى الممالك  
الإسلامية الصحابة والتابعون ، واستفاد العرب من معارف الأمم الأخرى  
فبدأوا فى الترجمة منها إلى العربية ، وأفاد ذلك كله الشاعر العربى ثقافة فى  
أفكاره ومعانيه وأخيلته وثقافته فى فنه الشعرى .

وانظر إلى ذى الرمة وكان قدريا يقول باكتساب الإنسان لأفعال  
نفسه الاختيارية يقول :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان فى بالالباب ماتفعل الخمر

فقل له : هلا قلت : فعولين ، نأنكر ذلك إنكارا شديدا ، لأنه لو قال :  
فعولين لكان جبريا ، وهو راغب عن الجبر إلى القول بالقدر .

واتضحت مناهج الشعر أمام الشاعر الأموي بتأثير الثقافة ، وأخذ  
الشباب يتعلم الشعر كما يتعلم الأدب والخطابة تعلمًا ، وقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا  
في تطور الشعر الأموي .

٤ - الحضارة : ارتقى ذوق العربي ، واتسعت نظراته لمشاهد الحضارة  
في كل مكان نزل فيه .

فن حضارة فنية وحضارة سياسية وحضارة فكرية ، ومن مخالطة  
لأبناء الحضارات القديمة ، واتصال بعلومها وتراثها الحضارى .. إلى  
غير ذلك .

وهذا كله مما أفاد منه الشاعر الأموي سعة الخيال ، ورحابه أفق في  
الأنكار والمعاني ، وتنوعا في الأغراض ، وتجديدا في الأسلوب والأداء .

وفي البيئات الحضرية أخذت لغة الشعر تميل إلى العذوبة والرفة  
والسماحة ، وقصد الشعراء الأوزان السهلة ، وتخيروا الرجز لقربه من  
العقلية الشعبية ... من حيث كان كثير من شعراء البادية يحافظون على الأنماط  
الشعرية القديمة من جزالة وغرابة وخولة معان وغير ذلك .

وكان شعر الموالى يجمع بين ثقافات متنوعة وعقلية ناضجة ؛ لذلك كثرت  
فيه المعاني الجديدة والأخيلة البديعة ، وذهب بعضه في الشعورية ومذاهبها .

وبرق الغناء وتعدد مذاهبه رقت لغة الشعر ، وصار المجال فسيحا أمام  
الشعراء الغنائيين والعذريين والقصصيين .

٥ - الاقتصاد : كثرت الأموال في أيدي الشعراء العرب في العصر  
الأموي ، وكثرت منح الخلفاء والأمراء والولاة لهم ، وعاش الشاعر  
الأموي بذلك في ترف كبير . وكانت الحياة الاقتصادية في عصرهم تسكاد

تبلغ ذروتها رخاء ورفاهية وسعة في التجارة والزراعة والصناعة حتى لم يجد الخليفة عمر بن عبد العزيز من يأخذ الزكاة .. فلا عجب أن يعيش الشعراء كما عاش الناس في عصرهم يتمتعون بفراغ وثناء وجاه ، كان من أثره أن أثرى الشعر ، وتمتع الشاعر بالخيرات الكثيرة في وطنه ، وبسماع الغناء ، واقتناء الجوارى ، وحسن المظهر . . وكان لذلك أثره في حياة الشعر والشعراء في هذا العصر العظيم .

### التطور والتجديد في الشعر الأموي

شمل التطور والتجديد في الشعر الأموي مايلي :

أولا : الأغراض - حيث نشأت أغراض جديدة : كالشعر السيامي ، والغزل العذري ، والغزل القصصي ، وشعر النقائض ، وشعر الشعوية ، وشعر الرجز .

وكانت هناك أغراض تطورت في هذا العصر كشعر المدح والهجاء والفخر والثناء ، والغزل التقليدي والوصف .

ثانيا : من حيث معاني الشعر وأخيلته .

ثالثا : من حيث ألفاظه وأصاليه .

رابعا : من حيث أوزانه وقوافيه .

وستحدث عن كل ذلك بالتفصيل :

#### ١ - أغراض الشعر الأموي

كانت أغراض الشعر الأموي هي أغراض الشعر الجاهلي ، من مدح وهجاء ونفر وثناء ووصف ونسيب وغير ذلك من الأغراض القديمة ، التي نجد لها ممثلة في الشعر الأموي أنهم نمثيل .

ومن البدى أن الشعراء في هذا العصر قد طرّفوا جميع الأغراض التي تناولها الشعراء من قبل كالمديح والفخر والهجاء والرثاء والغزل ، ونحو ذلك من الأغراض العامة التي يتداولها الشعراء في كل عصر ، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من مظاهر الحضارة وألوان الترف ، وتشكلت بصورة البيئة وأحوال المجتمع وظروف السياسة .

وقد نشأت أغراض لم تكن موجودة من قبل ، كالشعر السياسي الذي كان صدى لهذه الخصومات السياسية . والعداوات القبلية ، والمنافرات الحربية ، وكأنواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل ، وهي الغزل العذري والغزل القصصي ، وألوان من وصف البلاد المفتوحة ، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية ، أو دعوة إلى زهد وتقشف ، بما استدعته مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها . وكالشعر الشعبي الذي جد في هذا العصر . وشعر الرجز .

فالأغراض الجديدة هي :

- ١ — الشعر السياسي عند شعراء الأحزاب السياسية كقطري والطرماح ، والكيت وجريز والفرزدق ، والاخلط وعبيد الله بن قيس الرقيات .
- ٢ — شعر الشعوبية أي الذين يسوون بين العرب وغيرهم من العناصر أو يفضلون العجم على العرب ، ومن هؤلاء اسماعيل بن يسار وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسي ، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجي ، وسوام .
- ٣ — الغزل القصصي ومن شعرائه عمر بن أبي ربيعة والحارث المخزومي .
- ٤ — الغزل العذري ومن شعرائه جميل وكثير وقيس بن الملوحة وقيس ابن ذريح ، وتوبة العامري صاحب ليل الأخيلى ، وسوام .

على أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتأثرت بأحوال البيئات ، ففي الحجاز كثرت الترف ، وفاض الثراء ، وشغل شباب الهاشميين بما أتبع لهم من فراغ ونعيم ، عن المطالبة بالملك ، والاشتغال

بالسياسة ، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ومباهدة الجمال ، فشاع لذلك الغزل العذري ، والغزل القصصي .

وفي العراق كثرت الأحزاب واضطربت العصبيات ، واستحكم الخلاف السياسي ، واشتدت المعارضة لبني أمية ، فكان الشعر صورة واضحة لما يعتمل في المجتمع من حياة نائرة ، وفتنة عارمة ، وخصومات عنيفة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الفخر والهجاء ، ويصطبغ بالصبغة البدوية الجولة ، وفي هذه البيئة ولد الشعر السياسي الذي يعد جديداً في هذا العصر .

أما الشام فكان مهد الملك ، ومقر الخلفاء ، ومثابة الشعراء ، وكعبتهم التي يحجون إليها ، حاملين ماجادت به خواطرهم ، وفاضت مشاعرهم ، ثم يعودون وقد احتقبوا سنى الجوائز ، وعظيم الصلات . وفي ظلال الخلافة بالشام جرت ريح الشعر رخاء ، تطرق أبواب أغراضه الأخرى في رفق ويسر : من وصف ومدح ونحو ذلك . وسنذكر عن كل هذه الأغراض بتفصيل :

#### الشعر السياسي :

قامت خلافة الأمويين على أسنة الحراب والرماح وعاشت كذلك مدة حياتها . تجالذ خصوماً أقوياء ، وأعداء ألداء ، يجرحونها بالأسنة ، ويقاومونها بالأسنة ، وكان لكل حزب من خصومها شعراء يتعقبون مثالبها ، وينددون بسياستها ، ويثيرون الحفائظ عليها .

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه ، ويدعو له ، ويؤلف القلوب حوله ، ويهجو خصومه السياسيين ، ويرثي شهداء جماعته .

١ - فمؤلاء الشيعة يقف بجوارهم شعراء كثيرون ، فهذا الكميث (١) ينافع عن بني هاشم ويدافع عن حقهم في الخلافة فيقول من قصيدة له مشهورة :

(١) الكميث بن زيد الأسدي ولد بالكوفة سنة ٥٦٠ هـ ، ونشأ بها وأخذ عن علمائها وأدبائها وررى كثيراً من شعر الأقدمين وأخبارهم . وكان عالماً بلغات =

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب  
ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب  
ولم تلهى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بسان مخضب  
ولا أنا من يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب (١)  
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مرأضب (٢)  
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب (٣)  
إلى نفر البيض الذين يحبهم إلى الله فيما نالتى أتقرب  
بنى هاشم رهط النبي فإننى بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب  
خفضت لهم منى جناحى مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب (٤)  
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء مجنا على أنى أذم وأقصب (٥)

= العرب وأنسابها ومفاخرها ومثالبها حتى لقد ناظر حامدا في الرواية فغلبه وألجمه.  
وقد برع السكيت في الخطابة والشعر ، وتعصب في شعره للهاشميين كأكثر أهل  
الكوفة ، وجاهر بذلك ودافع عن حقهم في الخلافة وندد بحكم الأمويين ، ومجد  
آل البيت ومدحهم غير عابى بغضب بنى أمية ، وقتل عام ١٢٦ هـ ، وكان هارون  
مولى الأزدي رد على السكيت في افتخاره بالعدنانية ، ويفخر بفحطان ( ٧ : ٧٥  
الحيوان - الخانجي ) .

(١) الزجر : الاستدلال على ما يتوقع من الحوادث المستقبلية بأصوات  
الحيوانات وحركاتها وأحوالها ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ولهم فيه قصص  
أشبه بالخرافات .

(٢) السانحات : الطير المتجه من اليسار إلى اليمين والعرب يتفاءلون بها  
ويستبشرون . والبارحات ضده ، والأعضب : المكسور القرن .

(٣) النهى جمع نهيمة - بضم النون فهما - وهى العقل .

(٤) خفض جناح المودة : كناية عن كمال الطاعة والحب والامثال ، والكنف :  
الحى والمؤئل ، وعطفاه : جانباه . ومعنى البيت أن الشاعر يميل إليهم ويصفهم  
مودته ويمجد فيهم أهلاله ومرحبين به .

(٥) الجمن : الترس يتقى به المحارب ضربات عدوه ، وأقصب - على البناء  
للجهول - أشتم وأعاب .

وأرى وأرى بالعداوة أهلها وإلى لأذى فيهم وأؤنب  
فما ساءنى قول امرئ ذى عداوة

- بعوراء فيهم يجتدني فأجذب (١)  
فقل للذى فى ظل عيماء جونة يرى الجور عدلا أين لا أين تذهب (٢)  
بأى كتاب أم بأية سنة ترى حبه عارا على وتحسب  
وقالوا ترابى هواه ورأيه بذلك أدعى فيهم وألقب (٣)  
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم وينصب لى فى الأبعدين فأنصب (٤)  
بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم فلم أر غصبا مثله يتغصب (٥)  
إذا اتضعونا كارهين لبيعة أناخوا لآخرى والأزمة تجذب (٦)  
أقاربنا الأدنون منكم لعله وساستنا منهم ضباع وأذوب (٧)

(١) العوراء : الكلمة النائية أو الفعلة القبيحة . ويجتدني يطلب منى اتباعه .  
فأجذب : أمتنع عليه ، والمعنى : أن الأعداء يشتموننى بسبهم ويحاولون صرفى  
عنهم فلا أستجيب لهم .

(٢) العيماء : الضلالة . والجونة : السوداء . لا أين تذهب . دعاء عليه  
بألا يعرف قصده .

(٣) ترابى : نسبة إلى أبى تراب وهو على وصى الله عنه .

(٤) ينصب لى فيكم - بالبناء للجهول - أعادى وأحارب .

(٥) تجوز : تنفذ وتمضى . يتغصب : يغتصب .

(٦) أتضعونا أخضعونا . أناخوا لآخرى : دبروا الأمر لبيعة أخرى .  
والأزمة : جمع زمام . وتجذب : تؤخذ غلابا ، والمعنى أنهم يكرهون الناس على  
البيعة لأمرائهم واحدا بعد آخر ويتوسلون لذلك بالحيلة والقهر .

(٧) العلة : بكسر العين - الحدث يشغل صاحبه عن رعاية شئونه والأذوب .  
جمع ذئب . والمعنى : أنهم شغلوا الهاشمين بالأحداث المتتابعة من قتل واضطهاد  
وتشريد ، وانطلقوا هم كالوحوش الضارية يبطشون بالاناس ويخيفونهم .

لنا قائد منهم عنيف وسائق يقحمنا تلك الجرائم متعب (١)  
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا وما ورثتهم ذاك أم ولا أب (٢)  
يرون لهم حقاً على الناس واجبا سفاهاً . وحق الهاشميين أوجب (٣)  
والقصيدة هذه هي إحدى هاشميات السكيت ، وهي من عيون الشعر  
العربي وروائعه ، وقد اكتسبت شهرة كبيرة ، وهي إحدى نماذج الشعر  
السياسي الذي نشأ في هذا العصر .

٢ - وهؤلاء الخوارج يقفون دائماً للدولة كالشجى في الخلق ،  
والقذى في العيون ، ترصد لهم الدولة أعنى القوى ، وأنضى الأسلحة ،  
فلا تستطيع أن تخضع لهم شوكة ، أو تضعف لهم قوة ، أو تسكت لهم لساناً .  
فهم بما تغفل في قلوبهم من عقيدة ، واستقر في نفوسهم من مذاهب ،  
لا يفتأون بحالدون الحاكين في عنف ، ويصارعون مخالفين في الرأي ، في  
قسوة مرة وصلابة عنيفة ، وهذا قطري بن الفجاءة يصف موقعة دارت  
فيها رضى الحرب بينهم وبين أهل البصرة ، في يوم دولاب ، وهي بلدة  
بالأهواز ، في قصيدته التي يقول فيها :

لعمرك إني في الحياة لواهد وفي العيش ما لم ألق أم حكيم  
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان قتي في الحرب غير ذميم  
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا نبيح من الكفار كل حريم  
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم  
فهو بهذا يعتبر أهداء حزبه كفاراً ، تستباح دماؤهم ، وبعد قتل  
الخوارج شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم .

---

(١) المراد بالقائد والسائق : الخلفاء والولاة . ويقحمنا : يكافئنا ويحملنا .  
والجرائم : جمع جرثومة وهي التراب المجتمع في أصول الشجر تسفيه الريح فيتأذى  
الناس منه . (٢) ورثناها : أى الخلافة .  
(٣) سفاهاً - بفتح أوله - جهلاً وخفة حلم .



وهذا عمران بن حطان ( ٨٩ هـ ) وكان مغالياً في التعصب على ( عليّ )  
مدح ابن ملجم قاتله :

لله در المرادى الذى سفكت      كفاه مهجة شر الخلق إنسانا  
أمسى عشية غشاها بضربته      مما جناه من الآثام عريانا  
ياضربة من كريم ما أراد بها      إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا  
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه      أوفى البرية عند الله ميزانا

٣ - وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس في ابتداع هذه البدعة ،  
واستئنان هذه السنة ، وإثارة الشعراء وتحريضهم على خصومهم : أثاروا  
الأخطل شاعرهم على الأنصار ، فهجأهم بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها      واللؤم نحت عمائم الأنصار  
نما اضطر النعمان بن بشير الأنصارى إلى الدخول على معاوية ، متألماً  
شاكياً ، قائلاً فى قصيدة له :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة      سترقى بها يوماً إليك السلام  
وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين ، وينتقدون سياستهم ، وكان  
شعراء الأمويين الكثيرون ، يصدون هذه الحملات ، ويردون على هذه  
الانتقادات ، ويمدحون بنى أمية ، ويهجون خصومهم ، فهذا أعشى ربيعة .  
يقول فى مدح عبد الملك وهجاء الزيريين :

آل الزبير من الخلافة كالتى      عجل النتائج بحملها فأحالها  
أو كالضعاف من الحملة حملت      ما لا تطيق فضيعة أحالها  
قوموا إليهم لا تنامو عنهمو      كم للغواة أطلتمو إهمالها  
إن الخلافة فيكمو لا فيهمو      مازلتو أركانها وثمالها  
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقة      فانهض يمينك فافتتح أقفالها

وهذا الأخطل يقول :

أبدى النواجز يوماً صارم ذكر	نفسى فداء أمير المؤمنين إذا
خليفة الله يستسقى به المطر	الخائض الغمرة الميمون طائر
ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر	في نبتة من قریش يعصمون بها
إذا أملت بهم مكروهة صبروا	حشد على الحق عياقوا الخنا أنف
ولا يبين في عيدانهم خور	لا يستقل ذرو الأضغان جهمو
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا	شمس العداوة حتى يستفاد لهم
تمت فلا منة فيها ولا كدر	بنى أمية نعماكم مجللة

وهذه القصيدة تكاد تختصر فنون الأخطل الشعرية كلها ، وهى التى مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير وكان لها ولاخرى مثلها فى الأدب العربى وحياة القبائل العربية شأن عظيم ، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال فى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أوبكروا

وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر فى آثامهم ويتبعهم طرفه كئيباً مولها ؛ فشبه نفسه فى هذه اللحظة بالسكران قد عبثت به الخمر ، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره ، وانتزعت هذه الفرصة فوصف الخمر وصفاً قصيراً جيداً ، ثم انتقل إلى صاحباته اللاتي ارتحلن فشبه بهن تشيباً قصيراً حسناً وألم بشيء من أخلاق النساء وإيثارهن للشباب وانصرفهن عن الكهول والشيوخ ، فقال :

ياقاتل الله وصل الغايات ذا	أيقن أنك بمن قد زها الكبر
أعرضن لما حنى قوسى موترها	وابيض بعد سواد اللمة الشعر

ما يرعون إلى داع لحاجته ولا هن إلى ذى شية وطر  
ثم يصف طريقهم ويخلص من هذا كله إلى مدح عبس الملك وتنهته  
بالفوز وإثبات حقه فى الخلافة فىقول :

إلى امرى لاتعرىنا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفر  
ويعضى فى مدح عبس الملك فىصفه بالبأس والنجدة والجود ، وإيثار  
المسلمين بالخير والمهارة فى تدبىر الأمور ، وقىادة الجيوش وقهر العدو ،  
ويقص من ذلك ماكان فى حرب عبس الملك لمصعب حتى تم له النصر ، فإذا  
أرضى عبس الملك انتقل إلى بنى أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجمله ،  
وصور من أخلافهم ما أعجب به المعاصرون جميعاً حتى عدوا الأخطل فىه  
أشعر العرب وذلك قوله :

حشد على الحق عىافو الخنا أنف إذا ألت بهم مكروهه صبروا  
شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا  
على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبس الملك وأنصار ابن الزبير ،  
ولكن لها آثارا سيئة لم تزل بعد ، وما زال فى المنهزمين مكر وخداع وكيد .  
فالأخطل يحذر بنى أمية من هؤلاء المنهزمين ، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن  
بلائه حين دافع عنهم الأنصار ، فىقول :

بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصرروا  
أخمت عنكم بنى النجار قد علت عليا معد وكانوا طالما هدرروا  
حتى استكانوا وهم منى على مضض والقول ينفذ مالا تنفذ الأبر  
بنى أمية إنى ناصح لكم فلا يدين فىكم آمنا زفر  
والأخطل شديد الحرص على أن نجنى قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر  
عبس الملك ببلاء تغلب فى الحرب فىقول :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أذاك ببطن الغوطة الخبز

ويعنى بعد ذلك في هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة في المواقع المختلفة تصويراً دقيقاً فيه شدة وسخرية لازمة ، حتى إذا فرغ من قيس التفت إلى أنصارهم من كليب رهط جرير - الذى كان يدافع عن قيس بلسانه - فبهجوم هجاء مرامقذعا . وبذلك تنتهى هذه القصيدة الرائعة .

ولقد كان الأخطل من تغلب ، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة وشمال الشام ، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية من قيس ، فزاحت فيها ربيعة كما زاحت فيها العرب اليمنية ، وكانت هذه القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بنى أمية ، فانفقت مصلحة الأمويين والبنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق ، حتى تم النصر لعبد الملك على مصعب بن الزبير .

ومن هنا كان شعر الأخطل السياسى ذا لونين مختلفين ، فأما أحدهما فالدفاع عن حزب بنى أمية والنضال عن سلطانهم وتثبيت حقهم في هذا السلطان ، وأما الثانى فالدفاع عن قبيلته تغلب وحفاظها من عرب اليمن المقيمين في الشام ، والإلحاح في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

وحياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق في فنون من الشعر لم يكده يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه ، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره لللوك ، وكان بحكم هذا الاتصال أيضاً أقدر أهل عصره على النضال السياسى ، وكان بحكم حياته الخاصة في قبيلته واشتراكه الفعلى فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة .

والأخطل من غول الشعراء الإسلاميين ومن رواد الشعر السياسى

في عصر بني أمية ، وهروأبومالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلبي ، ولد في خلافة عمر في قبيلة تغلب التي كانت تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت تدين بالنصرانية ، فأقرها عمر على نصرانيتها ، وقبل منها الجزية ، وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية في الجزيرة ، ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلاً فهجاً امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل ، فلما كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبني أمية احتاج يزيد بن معاوية ولي العهد حينئذ إلى شاعر يهجو له الأنصار ، فدل على الأخطل فكلفه ذلك ، وقبله بعد أن نكل عنه غيره من الشعراء المسلمين تخرجاً من هجائهم ، قبل الأخطل هذه المهمة لنصرانيتها ، فهجى الأنصار وألح في هجائهم وتفضيل قریش عليهم حتى شفى نفس يزيد ، وتعرض هو لخطر عظيم ، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميراً وخليفة حتى مات ، ثم اتصل بخلفاء بني أمية بعده ولا سيما عبد الملك بن مروان ، وفي عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه في الشعر ، حتى هابه المضربون وحسبوا له حساباً ، وحتى أثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعاً ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين ، ذلك أنه ناصر بني أمية وناضل عنهم حزب الزيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل ، وبينما كان نضاله للأنصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الخطوة فيه ، كان نضاله حزب الزيريين أيام عبد الملك عملاً صادقاً مخلصاً يدافع به عن مصالح قبيلته ومكانتها :

وكان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواء من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمق فيه ، وامتاز بإجادة المديح والإبداع في معانيه والتنويع في ضروبه والتريث فيه ، حتى ربما لبث في بعض مدحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يكرر

عليها بالتفحص والاختيار ، حتى يحذف منها ستين ويبقى الثلاثين ، كما امتاز  
لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها . ولم يقصر في الهجاء عن صاحبيه  
كثيراً وفضلهما بقلة التعرض للفحش والبذاءة ، ولكنه كان دونهما في بقية  
فنون الشعر ؛ كالرثاء وغيره ، وليس الأخطل سوى سبع مطولات أدرکهما  
بها . ولذلك لم ير قدما أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما في  
التصرف في سائر أبواب الشعر (١) .

٤ - وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات (٢) يمدح حزب الزبيرين ، ويأسي  
لانقسام قريش ، ويذم الأمويين وأهل الشام ، وينعى عليهم عدوانهم على  
الكمبة المكرمة ، ويمدح مصعب بن الزبير ، فيقول من قصيدة له :  
أيها المشتهى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء  
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

(١) من المصادر لدراسة شعر الأخطل :

شعراء النصرانية بعد الإسلام ، الشعر والشعراء ، جهرة أشعار العرب ، طبقات  
الشعراء لابن سلام ، شعر الأخطل لأنطون صالحاني ، الأخطل لفؤاد البستاني  
بيروت ١٩٢٦ ، الروائع عدد ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ، شعراء البلاط الأموي لعمر  
فروخ ، الأخطل لحنا نمر سلسلة الطرائف الأدبية ، رأس الأدب المسكلك في حياة  
الأخطل لعبد الرحيم محمود ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشي ولد بمكة . ثم انتقل في أول شبابه  
إلى المدينة وظل بها زمناً ، ثم رحل إلى الجزيرة والعراق ، وحينما خرج عبيد الله  
ابن الزبير على الأمويين انضم عبيد الله إليه . وحارب في جيش مصعب . وحرص  
على القتال واشتد في شعره على بني أمية . ولما قتل مصعب وهزم الزبيريون استشفع  
لدى عبد الملك بن مروان حتى عفا عنه ، ثم سافر إلى مصر ومدح عبد العزيز بن  
مروان ، واكتسب لديه حظوة عظيمة ، وأكثر شعره في المدح والسياسة ، وسمى  
بأن قيس الرقيات لأنه تغزل في ثلاث نساء اسم كل منهن رقية ، وتوفي عام ٥٧٥ .

(٧٤ - ق ١)

لو تقنى وترك الناس كانوا غم الذنب غاب عنها الرعاء (١)  
 هل ترى من مخلد غير أن الـ له يبقى وتذهب الأشياء  
 يأمل الناس في غد رغب الدهر ر ، ألا في غد يكون القضاء (٢)  
 عين فابكى على قريش وهل ير جمع ما فات - إن بكيت - البكاء ؟  
 لو بكيت هذه السماء على قو م كرام بكيت علينا السماء  
 معشر حتفهم سيوف بنى العدا لات يخشون أن يضيع اللواء (٣)  
 ترك الرأس كالثغامة منى فكبات تسرى بها الأنباء (٤)  
 مثل وقع القدم حل بنا فالـ ناس مما أصابنا أخلاء  
 ليس لله حرمة مثل بيت نحن حجابـه عليه الملاء (٥)  
 خصه الله بالكرامة فالبا دون والعاكفون فيه سواء  
 حرقتـه رجال لحم وعك وجذام وحمير وصداء (٦)  
 فبنيناـه بعد ما حرقوه فاستوى السمك واستقل البناء (٧)

- (١) تقنى - بضم أوله - تدبر وتولى وتذهب ، وأصله أن المدبر يولى الناس قفاه . والرعاء : جمع راع .  
 (٢) رغب الدهر : رغبته .  
 (٣) الحتف : الهلاك والموت . والعلات : جمع علة - بالفتح فيهما - وهى الضرة ، وبنو العلات أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى ، والمراد هنا الأقارب مطلقا . واللواء : السيادة والملك .  
 (٤) الثغامة - كالثغامة - شجرة بيضاء الزهر ، والمراد : أن هذه النكبات قد أشابت رأسه من شدة هولها .  
 (٥) الملاء : جمع ملاة - بضم الأول فيهما - وهى الثوب اللين من قطعة واحدة . والمراد : الستر .  
 (٦) لحم - بفتح فسكون - وجذام - بضم أوله - ، وحمير يكسر فسكون - ، وصداء - بضم الأول - قبائل وأحياء يمنية . وعك - بفتح أوله - نزارية .  
 (٧) استوى : استقام . والسمك : السقف . واستقل : ارتفع .

إنما مصعب شهاب من الأملج من كان همه الإلتقاء (١)  
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء (٢)  
يتقى الله في الأمور وقد أفاد تشمل الشام غارة شعواء (٣)  
كيف نوم على الفراش ولما تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى  
أنا عنكم بنى أمية ومزور ر وأتم في نفسى الأعداء (٤)  
إن قتلى بالطف قد أوجعتنى كان منكم لئن قتلتم شفاء (٥)

والشاعر هنا كإبراهيم يذكر ذلك العهد القديم في أسف شديد ، لافتراق  
الرأى واختلاف الهوى . وهو يفخر بملك قريش ويرى أنه قوام الدولة ؛  
وحياة الشعوب الإسلامية ، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي في  
حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته ، وهو إذاً إنما يمدح مصعب بن الزبير  
ويناصره لأنه ماض في هذه السنة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش  
وحدها ، وعبيد الله بن قيس الرقيات مبتكر في الشعر السياسي حسن الابتكار .

وكان عبيد الله بن قيس الرقيات قرشياً من بنى عامر بن لؤى وكان  
حريصاً قبل كل شيء على أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة ، وإلى أن  
تكون أهواء قريش وتلفه ، وآراؤها مجتمعة ... وابن الرقيات من أطف  
الشعراء الأمويين روحاً ، وأعذبهم أسلوباً ، وأيسرهم شعراً ، وأخفهم ظلاً ..

(١) الشهاب : الكوكب . وتجلت : زالت وانكشفت .

(٢) الجبروت : القسر والطغيان .

(٣) شعواء : شديدة منتشرة .

(٤) تذهل : تشغل وتغنى . والبرى : جمع برة - بضم الأول فهما - وهى  
الخلخال ، وتطلق كذلك على القرط والسوار . والعقيلة : الكريمة المخدرة .  
والعنواء : البكر .

(٥) الطف : موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب بن الزبير  
وجيش عبد الملك بن مروان . وانتهت بقتل مصعب وكثير من رجاله .



وبعد فهذا اللون من الشعر بحر زاخر . تلاطمت أمواجه ، وتدافعت أنباجه في هذا العصر المضطرب بألوان العصبيات السياسية والقبلية ، وحسبنا هذه القطرات التي تشف عن أهم عناصره ، وأوضح مناحيه ، من مدح مشوب بالتحريض . أو هجاء توحى به الاحقاد ، أو جدل حول فكرة سياسية ، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية ، فهو بهذه الألوان المتعددة ، والمعاني المتنوعة ، والكثرة الزاخرة ، يعد غرضاً جديداً في هذا العصر .

#### شعر الشعوية :

ولقد كانت قسوة الدولة على الموالي في هذا العصر واعتزازها بكل ما هو عربي ، واحتقارها لكل ما هو أعجمي ، وأنفتها منه ، مما جعل الموالي يضمرون العداوة للعرب ، وإن منعتهم قوة الدولة ، وعنفوان سلطانها ، أن يظهر وابهذه العداوة وأن يعلنوا تلك الخصومة ، ولقد كان يجري دلي ألسنتهم أحياناً ما يعبر عما يستكن في نفوسهم من ضغينة وموجدة على العرب ، ويحاولون أن يظهر وامج قومهم ، في عصبية لأجناسهم واعتزاز بشعوبهم . وقد سمي هؤلاء « شعويين » (١) . ومن هنا بدأ يظهر لون جديد من ألوان الأدب ، وغرض مستحدث من أغراض الشعر ، هو الشعر الشعوبي ، وقوامه الطعن على العرب ، والاعتزاز بالأعاجم وخاصة الفرس ، والإشادة بمحضارتهم ومجدهم وما كان لهم من ملك وسلطان .

وقد اتسع هذا اللون من الشعر اتساعاً شاملاً في العصر العباسي حتى خلف ثروة ضخمة من الشعر العربي .

---

(١) نسبة إلى الشعوب جمع شعب ، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة ؛ أو من الشعوب في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » ، على أن المراد بالشعوب المعجم وبالقبائل العرب .

ومن شعراء الشعوية في العصر الأموي : إسماعيل بن يسار ( ١١٠ هـ )  
وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسي ، والحقيقان الشاعر وهو من  
سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجي .

دخل إسماعيل بن يسار على هشام بن عبد الملك في خلافته ، فأنشده  
شعرًا منه :

إني وجدك ما هودي بذى خور      عند الحفاظ، ولا حوضي بمهدوم  
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به      ولي لسان كحد السيف مسموم  
أحى به مجد أقوام ذوى حسب      من كل قرم بتاج الملك معموم (١)  
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً      والهرمزان : لفخر أو لتعظيم ؟  
أسد الكتائب يوم الروح إن زحفوا  
وهم أذلوا ملوك الترك والروم  
هناك إن تسألني تنبي بأن لنا      جرثومة قهرت عز الجرائم  
فغضب هشام ، وقال : أعلى تفخر ، وإياي تنشده قصيدة تمدح بها نفسك  
وأعلاج قومك ؟ غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ،  
ثم نفاه من وقته إلى الحجاز (٢) .

وقال إسماعيل في قصيدة أخرى :

رب خال متوج لي وعم      ماجد مجتدي كريم النصاب  
إنما سمى الفوارس بالفر      من مضاهاة رفعة الأنساب  
فازكي الفخر يا أمام علينا      وازكي الجور وانطق بالصواب  
واسأل إن جهلت عنا وعنكم      كيف كنا في سالف الأحقاب

(١) القرم : السيد الكريم . معموم : معتم بالهمة .

(٢) الأغاني ص ١٢ ج ٤

الغزل (١) :

شاع الغزل في العصر الأموي ، وتعددت ألوانه ، واتسعت مظاهره : بل إنه أخذ مظهرا جديدا لم يكن له من قبل ، فقد وجد شعر الغزل - مستقلا لا يشركه غرض آخر ، وظهرت وحدة الغرض في القصيدة الغزلية كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفهمهم على الغزل ، لا يقولون في غيره ، ولا يطرئون بابا آخر سواه ، فكل خاطرة من خواطرهم ، وكل نزعة من نزعاتهم لا تنصل إلا بالمرأة ، وكل لفظة من ألفاظهم لا تصف إلا جمالها الفاتن ، وحديثها المذب ، وحبها المبرح ، ووصالها الحلو ، وصدها المصني ، وقد انقسم الغزل في هذا العصر أقسامًا ثلاثة :

---

(١) الغزل والنسيب والتشبيب ليست بمعنى واحد . أما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وليس فيما ذكرته في شيء ، وقد نبه على ذلك قدامة في نقد الشعر ( ٧٣ نقد الشعر ، و ١١ : ٢ العمدة ) ؟ فالغزل التصابي والاستمثار بمودات النساء ( ٧٣ نقد الشعر ) ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صباية ( ١١٠ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي لمحمد هاشم ) ؛ والنسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ( ٧٣ نقد الشعر ) فهو أثر الحب وتبريح الصباية ( ١١٠ محمد هاشم ) ؛ والتشبيب يجوز أن يكون من ذكر الشبية وأعله من الارتفاع ويجوز أن يكون من الجلاء يقال شب الخمار وجه الجارية إذا جلاها ووصف ماتحته من محاسنه ( ٢٢١ : ٢ العمدة ) وهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم والأطلال ( ١١٠ محمد هاشم ) .

وفي رأي أن الغزل والنسيب والتشبيب ثلاثها بمعنى واحد هو وصف الجمال والحب وأثرهما في النفوس وتصوير عواطف الشاعر أمامها ، وآماله وآلامه التي يقاسيها في سبيلها ، ويسير على ذلك الرأي الأستاذ محمود مصطفى ( ٢٧٥ الأدب العربي في العصر الإسلامي ) .

١ - الغزل التقليدي :

وهو هذا النوع من الغزل الذي ينظمه الشاعر في وصف المرأة أو الحزين إليها ، أو ما يكون له معها من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، وإطماع وامتناع : وإن لم يبرح به هوى ، أو يستبده به حب ، أو تضنيه صبا .

وهذا النوع ليس جديدا في هذا العصر ، وإنما كان استمرارا لمذهب الشعراء القدامى من الجاهليين ، كما ظل كذلك في جميع العصور . ومعظمه فتحت به القصائد ، وقد يكون غزلا مستقلا يعبر عن مشاعر النفس وحنيئها إلى من تحب .

وشعراء هذا اللون كثيرون في هذا العصر ، منهم جرير والفرزدق والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وذو الرمة ، وغيرهم .

ومن القصائد المشهورة في هذا الباب قصيدة ابن الدمينه الدالية . . وفيها يقول ابن الدمينه عبد الله بن عبيد الله العامري النخعي الشاعر الأموي المشهور (١) يحن إلى نجد :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ؟ لقد زادني مسراك وجدا على وجد (٢)  
أن هتفت ورقاء في رونق الضحى  
على فنن غص النبات من الرند

(١) شاعر من شعراء بني أمية رقيق النسيب ، مجيد في الغزل ، مشهور في روائع قصائده الغزلية . والدمينه أمه .

(٢) الصبا : القبول . وهي تهب من قبل الشرق ، وهجت : ثرت . ومسراك : سيرك ، يقول : متى هبت أيتها الريح فقد زادني سيرك شوقا وجددا لي هبوبك ما كنت أقاسيه من تباديح الغرام والوجد .

بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن جزوعاً أبديت الذي لم تكن تبدي (١)  
وقد زعموا أن الحب إذا دنا يمل .. وأن النأي يشفي من الوجد (٢)  
بكل تدأويننا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد  
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود  
وفي هذه الآيات تبدو خصائص الغزل الأموى واضحة من الرقة  
والعذوبة والجمال وفرط الصبابة ، ولوغة الهيام ، وكثرة إرسال العبرات .

والغزل يتطلب الرقة والعذوبة ، وقد كان ابن الدمينه هنا موفقاً في  
اختيار الفاظه وأساليبه ، التي تمثل قلباً آده الحب ، وصدرأ انطوى على  
أنبل العواطف الإنسانية وأكرمها ؛ وكأنما كان ابن الدمينه في هذه الآيات  
مثلاً لتأثير الإسلام والقرآن في الأدب ، فإن هذه الروحية الصادقة ، وتلك  
العاطفة المشتعلة ، وهذه المشاعر المؤثرة كل ذلك أثر من آثار روحية  
الإسلام وتأثيره الشديد في نفوس الشعراء .

(١) يخاطب نفسه لاثماً لها ومنكراً عليها فيقول : أتسكين بكاء الضحى  
وتظهرين الجزع ، لأن حماسة سمعت على غصن ضحى وعهد الناس بك أنك جلد  
دائم الصبر . وهتفت : صاحت . وورقاء : حماسة في بياضها سواد ، ورونق  
الضحى : حسنه . والفنن : الغصن الغض الناضر الطرى ، والرند : ضرب من  
الشجر . ومعنى البيتين : أتسكى كما يبكي الحزين أو الطفل الوليد لأنك سمعت  
ورقاء تهتف في الضحى على أليفها الحبيب ، وقد كنت ليس من عادتك البكاء  
أو الحزن .

(٢) أى زعم الناس أن الدنو من المحبوب وطول الإقامة معه يورث  
الحب ملالاً وأن النأي عنه يحدث في النفس سلوا ، وقد تدأويننا بكل واحد  
من ذلك فلم ينجع الدواء وتفاقم الداء إلا أنى وجدت القرب خيراً من البعد  
لأن فيه إحياء للأمل ، على أن تقارب الدار لا يجدى شيئاً إذا كان المحبوب  
لا يرعى وداً ولا يحفظ عهداً .

يحن الشاعر إلى نجد ، ويكي لفراق أحبابه ، ويصبو إليهن فيه ، ومن ثم استقبل صبا نجد ، وسألها عن وقت هبوبها من هذا الوطن الحبيب ، وبها ما حملته نفسه من وجد على وجد ؛ ومن شأن الحب المفارق أن يقف على السبل يتنسم الريح ، ويستنشى بها عند مانهب عليه قادمة من ديار أحبابه ، يؤثر مسراها في نفسه وأعماق وجدانه ، ولو لا سذاجة الخيال في شعر ابن المدينة لظننا أنه شاعر مترف متحضر ؛ ومن مظاهر هذه السذاجة قوله :  
وبكيت كما يبكي الوليد ، . ومن مظاهر الترف والجمال في الألفاظ قوله :  
هتفت ورقاء - رونق الضحى - فن غص النبات ؛ إلى غير ذلك كله ، ومن مظاهر هذه السذاجة كذلك وصفه لخيرته ، حيرة هذا الحب المحروم من يحب ، على البعد والقرب على السواء ، وذلك في بيته . . وقد زعموا ، والبيت الذي يليه .

ومن مشهورات قصائد هذا الغزل التقليدي كذلك قصيدة الصمة بن عبد الله القشيري .

والصمة بن عبد الله القشيري شاعر غزل عفيف مقل نشأ بالبادية فترقى على الشجاعة والمروءة وعزة النفس ودرج في معاهد الصبا مع ابنة عمه ريا فأحبها وكلف بها ، ثم خطبها إلى أبيها فاشتط في المهر ، وركب أبوه رأسه فأبى أن يدفع المهر كاملا ، وتمادى الشيخان فيما ذهبا إليه ، فرأى الشاعر المتيم أن الإقامة بينهما لوم ، وعزم أن يرحل إلى الشام لعل النأى عن دار الأحبة يسليه عنهم ويشفيه من جوى الحب ، فلما كان في بعض الطريق ووجد دارها قد فابت واعترضت الجبال بينهما وتحركت بنات الشوق وهتفت دواعي الصبا كاد قلبه يطير وكبده من شدة الوجد تذوب ، وقال هذه الأبيات التي تعبر عن الحزن العميق والداء الدفين . قال الصمة :

حننت إلى ريا ونفesk باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا      وتجزع أن داعي الصباية أسمعاً (١)  
 قفا ودعا نجدا ومن حل بالحي      وقل لنجد عندنا أن يودعا (٢)  
 بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا      وما أحسن المصطاف والمترعا  
 ولست عشيات الحى برواجع      عليك ولكن خل عينيك تدما  
 ولما رأيت البشر أعرض دوننا      وجالت بنات الشوق يحزن نزعا (٣)  
 بكى عيني اليسرى فلما زجرتها      عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا  
 تلفت نحو الحى حتى وجدتني      وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعا (٤)

(١) الحنين : ألم الشوق . المزار مكان الزيارة . والشعب القبيلة . وحسن مبتدأ ، وأن تأتي فاعل سد مسد الخبر ، ويجوز أن يكون مبتدأ وحسن خبره . وقوله أن داعي الصباية : أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وداعي الصباية أسمع خبره . ومعنى البيتين : حننت إلى ربا وأنت آثرت البعد عنها وليس بحميل أن تختار الفراق طائعا ثم تجزع لأن داعي الشوق أسمعك وحرك منك مشاعرك .  
 (٢) يخاطب رفيقيه في السفر ويسألها أن يقفا لتوديع نجد وساكني الحى منه ، ثم قال : قليل لنجد وساكنيه التوديع لأن حقهما أعظم من ذلك . والحى : موضع فيه ماء وكلا يمنع منه الناس . والمعنى : ولايست عشيات الحى برواجع عليك ، إنك وإن أفرطت في الجزع فإن أيام وصلك لانكاد تعود ، فتوجع لها وإبك في آثارها تجد في البكاء راحة بما تعاني من الوجد ومن حرقة الحب .  
 (٣) البشر جبل . وأعرض : أبدى عرضه . وجالت تحركت ، وبنات الشوق مسياتهن ، والمعنى لما تباعدنا عن نجد وحجز بيننا وبينه هذا الجبل وتحركت بنات الشوق نوازح كثيرة الحنين ، بكى عيني الصحيحة وهى اليسرى ، فلما سألتها أن تكف شاركمتها أختها في البكاء ، وأشار بهذا إلى عصيان نفسه عليه وأن اللوم يزيد ما تماديا .  
 (٤) الليت صفحة العنق . والأخدع عرق فيها . يقول ما زلت ألتفت نحوهم حتى وجدتني وجع العنق ، واتصب ليتاً على التمييز ، ثم قال : وأتذكر أوتأتى بالحي ، حين كان الدهر مسعدا والحبيب مسعفا مقارباً ثم اثنتى على كبدي واضعا يدي عليها مخافة تصدعها ، شوقاً إلى وصلها وحسرة على ما فاتني منها .

وأذكر أيام الحى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا  
وهذه القصيدة من اختيارات أبى تمام ، صدر بها باب النسيب ، وهى  
جديرة بذلك ، فهى على قلة آياتها تصور لك الحنين إلى الإلف ، وحيرة نفوس  
المحبين وتمثل العادات العربية التى تطوى القلوب على الصبابة ، وتنحكم فيها  
الخيلاء السكاذبة وتعبر عن شعور المرء بالكرامة وتحمله فى سبيلها مالا  
يطبق من الآلام .

إن الشاعر فى هذه الآيات لا ينجأ إلى الخيال ليؤثر عليك بل يندر أن  
تجد فيها صورة خيالية . إنما اتخذ الحقيقة وسيلة للتعبير عن معانيه ، وهى  
مع ذلك تؤثر فىنا تأثيراً قوياً لصدقها فى التعبير عن شعور صاحبها وقرب  
معانيها من نفوسنا وعذوبة ألفاظها على ألسنتنا وحسن نغمها وجمال جرسها  
فى مسامعنا .

وتصور هذه الآيات نفوساً كريمة حكم عليها القضاء ولعبت بها الأهواء  
فخرجت من ديارها ونزحت عن أوطانها وغلبها حنين لا يدفع ولوعة من  
أثر الفراق لا تقالب ، وأصحابها لا يملكون إلا أن يرسلوا عبرات تخفف عن  
نفوسهم ألم الحب وتطفى ما يتقد بين جوانحهم من نار الفراق .

ومن هذا الغزل قول أبى صخر الهذلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر  
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الدهر  
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعداك الحشر  
عجبت لسمى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ومن الغزل الذى كانت تفتتح به القصائد قول ابن قيس الرقيات بمدح  
عبد العزيز بن مروان حيث قال فى مطلع قصيدته :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه وميله فى الهوى وفى لعبه



وهذا ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة الأشعري ، فيقول في المطلع :  
أراح فريق جيرتك الجمالا كأنهم يريدون احتمالا  
وهذا جرير يمدح الغزل مع دينه وعفته فيقول :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا      وقطعوا من حبال الوصل أقرانا  
حي المنازل إذا لا نبتغي بدلا      بالدار دارا ولا الجيران جيرانا  
إن العيون التي في طرفها حور      قتلنا ثم لم يحيين قتلانا  
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به      وهن أضعف خلق الله إنسانا  
يا حبذا جبل الريان من جبل      وحبذا ساكن الريان من كانا  
وحبذا نفحات من يمانية      تأتيك من قبل الريان أحيانا

## ٢ - الغزل القصصى :

جرى بعض من شعراء هذا العصر في ميادين اللهو والمجون ، مستجيبين لما يتردد في نفوسهم من شهوات عارمة ، ونزوات طارئة ، فراحوا يتتبعون الحسن في كل مكان ، ويترصدون الجمال في كل موطن ، ويطاردون النساء في كل واد . لا يحجزهم قيد من دين ، ولا فرق من سلطان . وأخذوا يقصون ما قارفوا ، ويصفون ما شاهدوا ، أو يتخيلون ما يشتهون من متع تنزع إليها غرائزهم : ويصورون ذلك قصائد رائعة تفيض بالعبث والمجون ، وتزخر باللذات العارمة ، وتثير الفتنة النائمة ، وتوقظ الشهوة الغافية .

وقد شاع هذا اللون الماسجن من الشعر في الحجاز ، ولعل السبب في ذلك أن خلفاء بني أمية قد احتجزوا هناك شباب الهاشميين ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وأغرقوهم بالخيرات الكثيرة ، وساطعوا عليهم الفراغ والغنى . ليصرفوهم عن شئون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شرفوا بالنعم ،

وأنخموا بالتلف ، وضاقوا بالفراغ ، انصرفوا إلى مجالس الغناء ، وتبع  
النساء ، ومغازلة الحسان ، والتعرض لمن في كل مكان .

وهكذا شاع هذا اللون وذاع ، حتى شغل الناس به ، وفتن النساء  
بروعته وسحره ، وحتى كانت كل امرأة محجبة محصنة ، تتمنى أن يقال فيها  
شعر ، تنبأى به على أترابها ، وتفخر على لداتها .

والشاعر القصصى ، لا يتعلق قلبه بامرأة واحدة ولا يقف حياته على  
محبوبة بعينها ، وإنما يقطف من كل بستان زهرة يانعة متأرجة ، فهو يهيم  
بامرأة يعجبه حسننها ويستهو به جمالها ، حتى إذا رأى أخرى أعجبه منها معنى  
آخر ، طار إليها ، وتعلق بها ، وهكذا لا تشبع نفسه ، ولا يقنع حسه .

وقد شاع في هذا النوع الإباحى من الغزل الفن القصصى ، وهو وإن  
اتكأ على دعامة جاهلية من شعر امرئ القيس ، فقد استكمل عناصر  
القصة ، وحبك أطرافها ، واستوفى شخوصها ، ورسم لها الألوان  
والظلال ، التى تستثير المشاعر ، وتميج العواطف . وزعيم هذه الطائفة عمر  
ابن أبى ربيعة .

ومن شعراء الغزل القصصى أيضا الحارث بن خالد المخزومي ، ومن أشهر  
قصائد الغزل القصصى قصيدة عمر بن أبى ربيعة العينية .

يقول عمر بن أبى ربيعة فيها من غزله القصصى حيث تغزل وقص  
حديثا طريفا له مع بعض النسوة :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا بيطن حليات دوارس بلقعا (١)

---

(١) الطلل : ما بقى من آثار الديار ويجمع على طول وأطلال . والمتربع منزل  
القوم فى وقت الربيع . وحليات - بضم الحاء وفتح اللام وتشديد الياء . اسم موضع ،  
ودوارس : جمع دارس وهو الذى عفا وتغيرت معاملته . والبلقع : الفقر .

إلى السفح من وادى المغمس بدلت معالمة وبلا ونكباء زعزعا (١)  
 فيخلن أو يخبرن بالعلم بعدما نكأن فؤادا كان قدما مفجعا (٢)  
 بهند وأتراب لهند إذ الهوى جميع وإذ لم نخش أن يتصدعا (٣)  
 وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه كما صفق الساقى الرحيق المشعشعا (٤)  
 وإذ لا نطيع العاذلين ولا نرى لو اش لدينا يطلب الصرم مطمعا (٥)  
 تنوعتن حتى عاود القلب سقمه وحتى تذكرت الحديث المودعا (٦)  
 فقلت لمطربين بالحسن إنما ضررت فهل تستطيع نفعا فتنفعا  
 وأشریت فاستشرى وإن كان قد صحا فؤاد بأمثال المها كان موزعا (٧)  
 وهيجت قلبا كان قد ودع الصبا وأشياعه فاشفع عسى أن تشفعا (٨)  
 فقال تعالى انظر فقلت وكيف أبى أخاف مقاما أن يشيع فيشنعنا (٩)

(١) المغمس - بفتح الميم وكسرها مشددة - موضع معروف ، والوبل المطر  
 الشديد العظم القطر . والنكباء : الريح المنحرفة عن مهمها ؛ والززع الشديد .  
 (٢) نكأن الجرح : قشره قبل تمام برئه .  
 (٣) جميع : مجتمع .  
 (٤) صفق الشراب : قلبه ونقله من إناء إلى آخر ليرق ويصفو . والرحيق :  
 الخالص من الخمر . والمشعشع . المزوج بالماء .  
 (٥) الواشى : السائر بين الناس بالسعاية والنيمة . والصرم : الهجر والقطيعة .  
 (٦) تنوعتن : وصفن . والحديث المودع : الذى جرى عند الوداع .  
 (٧) أشریت : أغريت . واستشرى الفؤاد : عظم وجده واشتد لهيبه .  
 والمها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية . وموزعا : مغرى مولعا .  
 (٨) الصبا - بكسر أوله - جهله الشباب والفتوة . وأشياع الصبا : نواذعه  
 وملاذاته .  
 (٩) يشنع : يقبح ويفظع .

- فقال اكنفل ثم التثم فأت باغيا  
فأني سأخفي العين عنك فلا ترى  
فأفبلت أهوى مثل ما قال صاحبي  
فلما تواقفنا وسللت أشرفت  
تباهن بالعرفان لما عرفني  
وقرب أسباب الصبا لمتيم  
فلما تنازعنا الأحاديث قلن لي  
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
- فسلم ولا تكثر بأن تتورعا (١)  
مخافة أن يفشو الحديث فيسمعها  
لموعده أزجي قعوداً موقعا (٢)  
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا (٣)  
وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا (٤)  
يقبس ذراعا كلما قسن إصبعا (٥)  
أخفت علينا أن نفر ونخدعا (٦)  
إليك وبيننا له الشأن أجمعا (٧)

- (١) اكنفل البعير وتكفله إذا أخذ كساء فعقد طرفيه ثم التي مقدمه على  
كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، وركب بين العقدة والسنام ، وهذا الكساء يسمى  
بالكفل . والتثم : شد اللثام على وجهك لتستتر به عن عيون الناس . ولا تكثر  
بأن تتورعا : ولا تهيب وكن جريئاً .
- (٢) أهوى : يقال هوت العقاب على الصيد إذا انقضت عليه ، وهوى الرجل  
إذا أضعف في سيره وجد فيه ، وهذا المعنى الأخير هو المناسب هنا . وأزجي  
القعود : أسوقه وأدفعه . والبعير الموقع : الذي تنتشر فيه آثار الدبر لكثرة  
أسفاره .
- (٣) زهاها : أخذها الزهو والتهيه والإعجاب بحسبها وجمالها ، وتتقنع تلبس  
القناع ، والمعنى : أن الزهو بجمالهن والتهيه بحسن وجوههن منعهن من التقنع  
والتستر .
- (٤) تباهن : تصنعن البلاهة والقفلة عن معرفتي ، أكل وأوضع يقال : أكل  
الرجل بعيره إذا أعياه وأجهده ، وأوضعه : حمله على السير السريع .
- (٥) معنى البيت : أمهن قد بادلتهم الغرام وسهلن له سبله : وكلنا أقبلن عليه  
قليلاً أقبل هو كثيراً .
- (٦) تنازعنا الأحاديث : تبادلناها .
- (٧) هو خاله الخريت . وكان عمر يتخذه رسولاً بينه وبين النساء .

فما جئتنا إلا على وفق موعد      على ملا منا خرجنا له معا (١)  
 رأينا خلاه من عيون ومجلسا      رميث الربا سهل المحلة عمرعا (٢)  
 وقلن : كريم نال وصل كرائم      فحق له في اليوم أن يتمتعا

والدارس لغزل ابن أبي ربيعة يرى فيه عذوبة وخلابة ، وهو يشبه  
 من بعض الوجوه غزل امرئ القيس ، وينحون نحو في قص ما يدور بين  
 المحبين من أحاديث الهوى ، وما ينعمون به من وصال وملذات وإن كان  
 شعر امرئ القيس أجزل وأغنى وأقوى أسلوباً وأحكم نسجاً ، وشعر  
 عمر أكثر تصرفاً وابتداعاً واقتناناً ، فهو بحق زعيم شعراء الغزل ، وباعت  
 هذا الفن كغرض مستقل في الأدب العربي .

والناقد يرى ألفاظ هذه القصيدة عذبة سائغة ، ومعانيها بيّنة واضحة  
 لا تحتاج إلى شرح وبيان ، وحسب الأديب أن يقرأها فيجد لها لذة  
 وحلاوة ، وروعة وطلاوة ، وتنفذ معانيها إلى قلبه لبساطتها وروعة تأثيرها  
 وسلاسة تصويرها ، وجمال قصصها . .

#### رأية عمر في الغزل القصصى :

ورأية عمر أشهر قصائد في الغزل القصصى ، فهذه القصيدة للشاعر الأموى  
 ابن أبي ربيعة الذائع الصيت ( ٢٣ - ٩٣ هـ ) مشهورة بين الأدباء والنقاد  
 والدارسين . يتخذونها عنواناً لشعر عمر بن أبي ربيعة ، وإن كان في شعره  
 الكثير مما هو أجمل منها وألطف موقفاً في النفس ، وفي هذه القصيدة يتمثل  
 روح عمر وما فيه من خفة وظرف ، كما يتمثل حظه الغريب من تيسير

(١) الملاء كجبل : التشاور والاتفاق .

(٢) الرمث - بكسر أوله وسكون ثانيه - نبت ترعاه الإبل وتقبل عليه .  
 ورميث الربا : رباه مكسوة بالرمث ، وممرع : خصيل كثير الكلاء .

الشعر وتسهيبه واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التي لا تبلغ بها السهولة إلى الإسفاف ولا تصل بها القوة إلى الغظة والغرابة ، والتي تمثل أحسن تمثيل لغة قريش في هذا العصر ، وهي قصيدة صغيرة ممتعة مؤثرة مطلعها :  
أمن آل نعم أنت غاد فبكر      غداة غد أم رانح فمجر ؟  
والقصيدة نظمها عمر على طريقته المبتكرة القصصية ، ولما سمعها جرير قال : مازال يهذى هذا القرشي حتى قال الشعر .

بدأها الشاعر بذكر صاحبته «نعم» ، وسؤال نفسه أهو منصرف عنها في يوم من الأيام ، ثم يذكر حاجته إليها وكلفه بها ، وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سلوه عنها ، وعجزه عن الصبر عن لقائها :

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع      ولا الحبل موصول ولا القلب مقهر  
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع      ولا نأبها يسلى ولا أنت تعبر

ثم يذكر الشاعر أن هناك عقبة دون ما يريد من حب «نعم» ، لو عرضت لغيره لانهى عن هذا الحب إلى بأس مريح ، ولكنه لا يرعى ولا يزدجر ، ولا يفكر فيما يعترض حبه من صعاب ، وهذه العقبة هي أنه لا يستطيع أن يزور نعماً أو يدنو منها حتى يحس من ذى قرابة لها بنضاله وحقداً عليه ومكراً به وتهيؤاً لإيذائه ، وهو مع ذلك يتجنب أو يحاول أن يتجنب زيارتها رفقا بها وإشفاقاً عليها ، فقد عرف حبه إياها وتبعه الرقباء لا يفارقونه ، فهم يشهرون به إن زارها ويشهرون به في شيء من النكر لا يحبه :

ألكني إليها بالسلام فإنه      يشهر المسمى بها وينكر  
فانظر إليه كيف يتجنب زيارة نعم مخافة التشهير والنكير ، ثم لا يلبث هو أن يشهر بها نفسه فيقول :

بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان : أهذا المشهر ؟  
ثم انظر إليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حوار إذا عرض لمن  
رجل كن يعرفه فأنكره لما تغير من شأنه :

فني فانظري أسماء هل تعرفينه أهذا المغيري الذي كان يذكر  
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن وعيشك أنساء إلى يوم أقبر  
فقال : نعم ، لاشك غير لونه سرى الليل يحى نفسه والتهجر  
لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير

فنعم تنكره ، وأسماء تعرفه ، وتعلم ما كان من تغييره بكثرة ما هو  
فيه من سرى الليل وسفر النهار ، ثم يدفع هو عن نفسه ويصدق ما ذهبت  
إليه أسماء من تعليل ، فيقول إن نعماً إنما رأت رجلاً لا يستقر ، فهو متعرض  
لحر الشمس ، متعرض لبرد الليل ، أخو سفر ، جواب أرض ، تنقاذفه  
الفلوات ، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل ، لولا أن عليه بقية من نعمة ، ثم  
يستلذ هذا التشهير لما فيه من ذكرى محبة إليه فيمضي فيه ، ويستأنف قصة  
حلوته كثر أمثالها في شعره حتى عرف بها ، وحتى ذكر كلها قرىء مثلها في  
شعر شاعر آخر . وبجمل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبة ليلة وهي نازلة  
مع أهلها بذي دوران فتجشم سرى الليل ، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار  
بينهما من حوار في أسلوب قصصي رائع إلى أن يقول :

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ألم تتق الأعداء والليل مقمر  
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أو ترعوى أو تفكر  
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لىكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وعلى هذا النحو من الغزل القصصى أو القصص الغزلى ، يمضى عمر بن  
أبى ربيعة فى كل شعره ، وسواء أكان قصصه هذا تصويراً لما وقع أم خيالاً  
صرفاً أم مزاجاً من الحق والخيال ، فهو يصور على كل حال حياة المترفين

في الحجاز وميولهم وأهواءهم ومذاهبهم في التعبير عن هذه الميول والأهواء ، كما أنه يصور حياة بعض نساء العرب وميولهن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن .

وعمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل القصصي في عصر بني أمية بل في الشعر العربي إلى هذا العصر الذي نعيش فيه .

وقد ولد في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ، ونشأ في أسرة غنية من بني مخزوم في مكة نشأة حسنة ، فيها ترف ونعمة ، وكان أخوه الحارث بن أبي ربيعة رجلاً صالحاً تقياً ، وكان من ولادة عبد الله بن الزبير على البصرة ، ولما شب عمر بن أبي ربيعة انصرف إلى الشعر عن كل شيء إلا حياة المترفين ، وكان فيما يقول الرواة يقضي عامه بمكة في لهو وقول للشعر ، حتى إذا كان موسم الحج خرج من مكة في زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة ، وتعرض للنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ولم يكن يتحرج أن يرقهن أثناء الطواف بالكعبة حتى إذا انصرف عن مكة قال فيهن الشعر ، وظل كذلك إلى أن مات .

ولقد ابتدع عمر في الشعر فناً جديداً كل الجدة ، إذ جعل الغزل غرضاً يقصد لنفسه لا لشيء آخر كما جعله الشعراء الغزلون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرفاً ولكنها كلها طريفة ، وأظهر ما يمتاز به هذه الطرق أنها كانت قصصية ، فلم يكن عمر يتحدث عن النساء كما تعود الشعراء أن يتحدثوا عنهن ، وإنما كان يتحدث عن نفسه ، ويقص ما وقع له معهن ، أو ما تخيل أنه قد وقع له معهن ، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية قصيرة ، ولكنها من العذوبة والرفقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحبس والقلب بحيث تملأك إعجاباً بها وإطمئناناً إليها ، ولم يكن في أكثر حالاته يقص كما يقص غيره من الشعر ، وإنما كان يبعث في قصصه حياة قوية ، فينطق



الأشخاص ويحدث بينهم من الحوار الدقيق ما يلد ويسحر ، ولو أتبع له أن يطيل وينوع لوصل إلى اختراع الشعر التثليل من بعض النواحي . وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك في أنه لا يجمع كل ما قال عمر .

ولقد كانت العرب تفر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا في الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضا ، وكان أكثر الشعراء الإسلاميين يحجمون عن التشبيب بالنساء امتثالاً لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الإسلامية ، وكان أكثر تشبيبهم في بكاء الأطلال ومنازل الأحباب .

فلما ظهر عمر سالك في الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء في منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهم لبعض وتلاوهم وما يعتدن قوله من الكلام والعبارات في أسلوب يغلب عليه القصص ، وحكاية ما شاهده في شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق ؛ وبهر الشعراء بهذه الطريقة ، حتى قال فيه جرير : وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعلمت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره في قلوب الخلق وأهل اللها أولع به المغنون والمغنيات من أقبان والموالي إنشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعي الأنصار : ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر ابن أبي ربيعة (١) .

(١) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مروت بحبك عبد الله وأنا داخله منزله وهو بفنائته ومعى دفن فقال : ما هذا معك ، ودعاني فجئت وقلت شعر ابن أبي ربيعة ، فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، إن لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر السكان هو ، فارجمي به ، ففعلت .

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الكبير في القرن الأول للهجرة ،  
أطرف شخصية أدبية في الأدب العربي القديم ، وحياته وشعره صورة فنية  
متميزة للحياة العربية في بيئة الحجاز في أزهى عصوره الإسلامية ، وما أجهل  
الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصى ، وزعيم مدرسة  
الغزليين في هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذي عاش لاهجوا  
ولا يمدح ، وإنما ينظم في فنه الشعرى الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقا  
في الشعر العربى ، الذى كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة  
إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين في القديم  
والحديث اهتماما لم ينله الكثير من الشعراء اللاحقين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضع عناية الأدباء واهتمام  
القراء ، فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازى معاصر يجعل لبحثه  
أهمية فوق أهمية الموضوع نفسه .

وإني لأضع بحث الشاعر الحجازى إبراهيم الفلالى عن شاعر الحجاز  
الخالد فى صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة  
الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش فى هذه  
البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

== ومن المصادر لدراسة عمر بن أبي ربيعة وشعره :

الأغانى ١ : ٣٠ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ابن خلكان ١ : ٣٧٨ ، عمر بن  
أبي ربيعة لجبرائيل جبور ، وهل يخفى القمر لرثيف خورى ، شاعر الغزل للعقاد ،  
حب ابن أبي ربيعة لوكى مبارك ، التطور والتجديد فى الشعر الأموى لهوق  
ضيف ، حديث الأربعاء ١ : ٣٧٢ ، الشعر الفنائى فى مكة - شوق ضيف ، الأدب  
القصصى لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالي الشاعر في صدر كتابه يصور منهجه في كتابه للقراء : «ستجد (١) أيها القارئ العربي المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك في محاضرة ألقى في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ، وسوف تجد في تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازي تطورات المجتمع في فترة من تاريخ موطننا - الحجاز - الذي قام بنشر الدعوة الإسلامية ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازي ، ولعلك تجد شبيها بين تطوره في ذلك العهد وتطوره في العهد الحاضر ، ولعلك أيضا تلمس كيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور ، فقسهم في بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى في اللغة والغناء والموسيقى وابتكارهم في هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثراً خالداً مازال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور .»

ويلتفت الفلالي الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر ، فيقول بعد قليل من كلامه الأول : «ولعلك واجد في محاضرتي شيئاً لم تجده فيما قرأته عن عمر في كل ما كتب عنه (٢) .»

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التي أدت لذيوع موجة الغناء والمرح في الحجاز في عصر عمر ، من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازاً شديداً في حديثه عن نشأة عمر ، وما كان أحراره بأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة التي لا تترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالي في جلده على البحث وفي ذكائه والمعبته .

---

(١) ص ٨ وما بعدها

(٢) ص ١٢

ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه ، وانتقاله إلى مكة ، ويدفع عن عمر ما يلصقه به الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر قد عرف لنفسه مكانتها ، فلم يتبدل في شعره ، ولم يرنا خشا في الكثرة الكاثرة مما نظم (١) .

وينتهي المؤلف الشاعر الفلالي من هذه الجوانب كلها ، ليبثدي حديثا عذبا جميلا عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان «مذكرات يومية يسجل فيها حياته» (٢) الخاصة ، وما أطرف الجوانب الغامضة التي كشف عنها الفلالي في كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه ، القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته في الشعر الحجازي ، وحكمه الكثيرة في شعره ، ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات .

ومع ذلك فإن حديث الفلالي عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الموقف والظروف التي كتب فيها ، ولكن مع هذا الإيجاز الشديد الذي لجأ إليه المؤلف ، أعتقد أن قارئ هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لا يخرج بها حينما يقرأ ما كتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته .

وهناك آراء متعددة في الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير . ومع ذلك فإنني أزعج أن الفلالي لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجبا أدبيا كبيرا ، وهو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره مرة أخرى ، وهذه هي رغبة عمر ، يقول :

---

(١) ص ٤٨

(٢) ص ٥٢

أمن آل نعم أنت غاد فبكر  
 نهم إلى نعم فلا الشمل جامع  
 ولا قرب نعم إن دنت لك نافع  
 إذا زرت نعم لم تزل ذو قرابة  
 عزيز عليه أن ألم ببيتها  
 بآية ماقلت غداة لقيتها  
 قفى فانظري أسماء هل تعرفينه  
 فقات نعم لا شك غير لونه  
 لن كان إياه لقد حال بعدنا  
 رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت  
 أخاسفر جواب أرض تقاذفت  
 قليل على ظهر المطية ظله  
 وأعجبها من عيقها ظل غرة  
 ووال كفاهما كل شيء يههما  
 ثم يقول:

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت  
 وغاب قدير كنت أرجو غيوبه  
 مصابيح شبت بالعشاء وأنور (٤)  
 وروح رعيان ونوم سمر (٥)

(١) المشهر : الذى شهر أمره ، مدفع أكنان : موضع .

(٢) نسبة إلى جده المغيرة .

(٣) التهجر : السير فى الهاجرة .

(٤) أنور : جمع نار ، ويقال أنور أيضا .

(٥) رعيان : جمع راع - سمر : جمع سامر - روح رعيان : أى روحوا

ابلهم عشاء .

ونفضت عني النوم أقبلت مشية إلى  
 خفيت إذ لافيتها فتولدت  
 وقالت وعضت بالبنان : فضحتني  
 أريتك إذ هنا عليك ألم تخف  
 فوالله ما أدري أتعجيل حاجة  
 فقلت لها : بل قاذي الشوق والهوى  
 فلما تقضى الليل إلا أقله  
 أشارت بأن الحى قد حان منهمو  
 فما راعنى إلا مناد برحالة  
 فلما رأت من قد تثور منهمو  
 فقلت أباديهم فإما أفوتهم  
 فقالت : أنحقيقاً لما قال كاشح  
 فإن كان ما لا بد منه فغيره  
 أقص على أختي بدء حديثنا  
 لعلمها أن تبغيا لك مخرجا  
 وأن ترجبا سرباً بما كنت أحصر (٥)  
 فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم  
 فقالت لأختها أعينا على قى  
 من الحزن تذى عبرة تتحدر  
 أنى زائراً والأمر للأمر يقدر

(١) الحباب بضم الحاء : الثعبان . أزور : مائل .

(٢) عزور : موضع بمكة .

(٣) أباديهم : : أظهر عليهم .

(٤) يؤثر : يحكى .

(٥) السرب ، بالفتح الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر ، كفروح : ضاق ذرعاً .

فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا أنلى عليك الهم فالخطب أيسر  
يقوم فيمشى بيننا متسكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظمر  
فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص كعبان ومعصر (١)  
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ألم تنق الأعداء والليل مقمر  
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أو ترعوى أو تفكر (٢)

وقال يزيد بن الطثرية :

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله  
ومن هابنى فى كل شىء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

٣ - الغزل العذرى :

الغزل العذرى هو الذى يصدر عن عاطفة صادقة ، وحب عميق ،  
وصباية متأججة ، وهوى مشتعل ، ملك على المرء قلبه ، وسلب لبه ، وطفى  
على جميع مشاعره ، وصرفه عن الحياة وشهواتها ، وسلط كل ما فيه من  
عاطفة وإحساس إلى المعبودة التى لا يرى فى الحياة أجمل منها ، وإن لم تكن  
من أجمل النساء ، فلما يعيش ، وعليها يقف حياته وفنه ، وحبه وشعره .  
وعمداد هذا اللون الصدق فى العاطفة ، والعفة فى القول ، والتفانى فى المحبوب  
والضراعة فى الحب ؛ فلا يتناول الشاعر الواثق مفاتن الجسم ، ولا محاسن  
الأعضاء ، ولا ما يثير الشهوة ، أو يناقض العفة . وإنما يعتمد على المعانى  
الروحية والنوازع القلبية ، ويشكو ما يكابد من آلام البعد ، وقسوة  
الحرمان والصد ، وتجهم الأيام ، ومعاكسة الزمان ، وقد تقنعه النظرة العاجلة ،  
أو الوعد المكذوب كما يقول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله

(١) المحن : الترس ، المعصر : المرأة واهقت العشرين .

(٢) السادر : الذى لا يبال ما يصنع .

بلا وبالا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله  
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لانلتقى وأوانه  
فم ولون حزين باك ، يستثير الشفقة ، ويبعث الرحمة ، ويدعو إلى  
الثناء يزهد صاحبه فى الحياة ، حتى يسترخص كل غال فى سبيل من يحب ،  
ويستعذب كل ألم من أجله ، ويتمنى لنفسه أسوأ الأمانى ، وأنكد الحالات  
وشر ألوان الضرر ، مادام ذلك من أجل المحبوبة :  
ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

وهذا اللون الذى يقف فيه الشاعر حياته وحبه وشعره على محبوبة  
واحدة ، هو الذى يعرف بالحب العذرى ، نسبة إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة  
بدرية من بنى قضاة ، اشتهر شبابها بالحب البرىء الصادق ، والهوى  
الغفيف المفضى ، والموت فى سبيل المحبوب . حتى قيل لرجل منهم : ما بال  
العقيق يقتلكم يا بنى عذرة ؟ فقال : لأن فىنا جمالا وعفة . وهذا النوع لم  
يكن له وجود قبل هذا العصر ؛ فهو بهذا يعد جديداً كل الجدة . ومن  
أظهر شعرائه : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلي العامرية ، وقيس  
ابن ذريح صاحب لبنى ، وكثير هزة على المشهور . ومن أمثله قول  
جميل ( ٥٨٢ ) :

وما زلتو يا بنى حتى لو اننى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا  
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا  
وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا  
ولا زادنى الواشون إلا صباة ولا كثرة الناهين إلا تماديا  
وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى

وإن شئت بعد الله أنعمت باليا  
وأنت التى ما من صديق ولا عدى يرى نضو ما بقيت إلا رثى ليا  
أقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات إليك كاهيا



وهذه دالية جميل في الغزل :

- ألا ليت أيام الصفاء جديد      ودعها تولى يابسين يعود (١)  
فنفنى كما كنا نكون وأنتم      صديق وإذا ، تبذلين زهيد (٢)  
وما أنسى م الأشياء لأنسى قولها      وقد قربت نضوى : أمهر تريد (٣)  
ولا قولها : لولا العيون التي ترى      أتيتك فاعذرنى فدتك جدود (٤)  
خليل ما أخفى من الوجد ظاهر      ردمى بما أخفى الغداة شميد (٥)  
ألا قد أرى والله أن رب هبرة      إذا الدار شعلت بيننا ستزيد (٦)  
إذا قلت : ما بى يابينة قاتلى      من الحب ، قالت : ثابت ويزيد (٧)

(١ ، ٢) جديد : تعود جديدة ، ونفنى : نقيم ، وتكون : توجد ، وما تبذلين : أى ما تنيلين من الوصل . يقول : ليت عهد الصفاء والسعادة التي ارتضعنا أفاريقها تعود فنرقل في حلل السعادة ونحتسى كشوس الرفاهية وتصبح كما كنا بالأمس وقد قرت منا العيون وأثلجت الصدور .

(٣) م الأشياء : من الأشياء ، والنضو : المهزول من الحيوان ، يريد ناقته ، المعنى : مهما أنسى من شيء فلست أنسى قولها لى وقد قربت ناقتي : أتريد مصر ؟ (٤) الجدود : جمع جد بالفتح ، وهو أبو الأب . المعنى : ولا أنسى أيضا قولها : لولا خشية العيون والرقباء لحظيت بلفائك أما وإنى لأستطيع ذلك فإننى أدعوك بالسلامة وأقتديك بالأهل .

(٥) الوجد : الحب الشديد ، والغداة ما بين الفجر وطلوع الشمس . يريد أن ما يعتلج في نفسى من الجوى والحب عنيف عارم يكاد يذيب حشاشتى ، وبنيء عن ذلك ما يفيض أحيانا من شجوني .

(٦) العبرة : الدمعة أو الحزن من غير بكاء ، وشطت : بعثت ، وستزيد : خبر عبرة ، والجملة خبر أن المخففة . والمعنى : إننا إذا افترقنا وضرب النوى بيننا بجرانه فسيكثر بكائى وتشتد لوعتى .

(٧) ثابت : باق . والمعنى : إذا قلت لها إن الحب سيمقتلنى قالت : لأنه باق وسيزيد أيضا .

وإن قلت : ردى بعض عقلى أعش به

- مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد (١)  
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبا فيما يبيد يبيد (٢)  
جزتك الجوازي يابئين ملامة إذا ما خليل بان وهو حميد (٣)  
وقلت لها : بينى وبينك فاهلى من الله ميثاق له وعمود (٤)  
وقد كان حبكم طريفا وتالدا وما الحب إلا طارف وتليد (٥)  
وإن عروض الوصل بينى وبينها وإن سهلتها بالمنى لصعود (٦)  
فأقنيت عيشى بانتظارى نوالها وأبليت ذاك الدهر وهو جديد (٧)  
ألا ليت شعرى هل أيتن ليلته بوادى القرى إلى إذن لسعيد (٨)

(١) ردى بعض عقلى : كناية عن طلب وصالها . والمعنى : تتدال عليه ، ونشمخ بحبا ، فإذا نشد وصالها خيبت أملها .

(٢) يبيد . يبلى ويزول . والمعنى : لم أنل ما طلبت من وصالها ، ولا الحب يفنى لاستريح .

(٣) الجوازي جمع جازية ، وهى المكافأة والبيت دعاء . والمعنى : إذا جوزى الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك فى نفسى سوى العتب والوم .

(٤ ، ٥) الطارف : الجديد ، والتليد : القديم . والمعنى : قلت لها على رسلك يا بئسمة كيف تعرضين عنى وتصعرين خدك لى وقد تعاهدنا من قبل على الحب منذ أمد طويل ولا زلت أهم بك وجدا .

(٦) العروض : الطريق فى عرض الجبل ، وصعود مرتفع . والمعنى : إن الوصل صعب المنال مهما تسهله بالوعود .

(٧) النوال : الوصال وأبليت الدهر : كناية عن كثرة مصارفته وذبول شبابه . والمعنى : لقد طال انتظارى وصالها وقضيت شبابى فى سبيل حبها والظفر بها .

(٨) ليت شعرى : ليت على أى أيتنى أعرف ، ووادى القرى : بالحجاز شمال المدينة . المعنى : يتمنى المبيت بهذا الوادى حيث كان الأحبة يقيمون .

- و هل أمبطن أرضا تظل رياحها لها بالثنايا انقاويات وئيد (١)  
 و هل ألقين سعدى من الدهر مرة و ما رث من جبل الصفاء جديد (٢)  
 و قد تلتقى الأهواء من بعد ياسة و قد تطلب الحاجات و هى بعيد (٣)  
 سبتنى بعينى جوذر و وسط ررب و صدر كفائور اللجين و جيد (٤)  
 فن يعط فى الدنيا قرينا كئلهما فذلك فى عيش الحياة رشيد (٥)  
 يموت الهوى منى إذا ما لقيتها و يحيا إذا فارقتها فيعود (٦)  
 يقولون : جاهد يا جميل بغزوة و أى جهاد غير من أريد ؟ (٧)  
 لكل حديث يذهن بشاشة و كل قتييل يذهن شهيد (٨)

(١) الثنايا : جمع ثنية و هى طريق فى الجبل أو الجبل نفسه ، و القاويات : الخايات ، وئيد صوت شديد . والمعنى : هل أحيا ثانية فى تلك الأرض الخالية التى تعرف فيها الرياح حيث كنت أعيش ناعما بالهوى العنرى .

(٢ ، ٣) رث : بلى ، و دما ، مبتدأ خبرها : جديد . والمعنى : هل أحظى بقاء سعدى مرة و يعود و صلنا و يتجدد حبنا بعد أن رث حبله ربما يسبح الدهر بذلك .

(٤) سبتنى أسرتنى ، و الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، و الررب القطيع من بقر الوحش ، و الفائور : الطست و الجففة ، و اللجين : الفضة ، و الجيد : العنق و هو مبتدأ خبره محذوف تقديره : لها . يقول : تبتل فؤادى و ملكك على أقطار نهائى بجمالها الأخاذ و لحظ عيونها النفاذ و جسدها الرعوب الررب البض .

(٥) القرين : الصاحب و الزوج ، و رشيد : موفق . والمعنى أنها راتعة حقا فن يوفق إلى مثلها جمالا و قنمة يتمتع بالعيش و تنأ له الحياة .

(٦) يموت الهوى : يفتر الحب ، و يحيا : يشتد . والمعنى : اننى إذا حظيت بوصولها تقمت غلتى و شفيت أوامى و جفت حدة الوجد ، فإذا افرقتنا يعتلج الجوى عارما بين أضالعى .

(٧ و ٨) جاهد بغزوة : يريد به نسيان حبه بالجهاد ، و لبشاشة : السرور و البهجة . والمعنى : يطلب اليه أصحابه أن يقطع حبل وصاله و ينسى حبه بالجهاد =

### تأثيرة كثير المشهورة فى الغزل العذرى :

وكثير عزة شاعر أموى مشهور فى الغزل والنسيب ، ويعد من خول الشعراء ومقدمهم فى العصر الأموى ، وتأثيرته مشهورة شهدها النقاد ، وهى فى الغزل . وقد توفى عام ١٠٥ هـ . . . قال كثير عزة :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا      فلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت (١)  
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا      ولا وجعات القلب حتى تولت (٢)  
فقد حلفت جهداً بما نحررت له      قريش غداة المأزمين وصلت (٣)

== والانشغال بالغزو فيجيبهم أنه لا يجاهد سوى هذا الحب ، على أنه كيف يتسنى له السلو وهو يشمل بسلاف حديث الأحبة العذب ، بل لا تثير على من قضى نحبه فى جهن .

وهذه مصادر لدراسة جميل وشعره :

الأغاني - طبقات الشعراء لابن سلام ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، جميل بثينة للعقاد سلسلة اقرأ عدد ١٣ ، الحب العذرى لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، أعلام الأدب فى عصر بنى أمية .

(١) الربع : الدار ، والقلوص : الناقة الشابة . وعقل البعير قيده - يسأل رفيقه أن يقف معه ساعة فى منزل حبيبته وفاء لها وقياماً بحقه من الدعاء والبكاء فيه لخلوه من ساكنته ، ولأن له فى نفس الشاعر ذكريات ماضية .

(٢) ما كنت أعرف آلام الحب قبل الاتصال بها ولا تباريح الغرام حتى شقيت بفراقها والبعد عنها .

(٣) الجهد : الطاقة والمراد المبالغة ، والنحر الذبح . والمأزمان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مسكة ومنى ، يقول : حلفت عزة بالذى تنحر له الذبائح وتقدم له القرابين لتقطعنى .

أناديك ماجج الحجيح وكبرت      بفيفا غزال رفقة وأهلت (١)  
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها      كناذرة نذراً فأوفت وحات (٢)  
فقلت لها يا عز كل مصيبة      إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت (٣)  
ولم يلق إنسان من الحب ميعة      نعم ولا غمما إلا تجلت (٤)  
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت      من الصم لو تمشى بها الصم زلت (٥)

(١) أناديك أجالسك وهو جواب القسم حذف منه لا ، مثل قوله تعالى :  
« تالله نفثت نذراً فأتيت بها » والحجيح جمع حاج ، وفيفا غزال : مكان بمكة .  
والرفقة الأصحاب . وأهلت : رفعت صوتها بالتلبية والدعاء .  
أى لا أجالسك أبداً ما قصد الناس مكة للعبادة وتوجهوا إلى بيت الله  
ذاثرين معتمرين .

(٢) الجبل الوصل والعهد والنذر : ما أوجبه المرء على نفسه . وحلت .  
خرجت من العهد فيه . والمعنى أن عزة في قطيعته كأنها تقوم بواجب عليها فهي  
تفعل ذلك مبادرة إليه حريصة عليه .

(٣) وطنت النفس الكذا : مهدتها له وأعادت لها لاحتفاله . وذات :  
سهلت ولانت . والمعنى : أن المصائب وإن عظمت إذا تلقاها المرء بالصبر عليها  
هان أمرها واحتمل عبوها .

(٤) الميعة : الشدة الغم الكرب ، تجلت : زالت وانكشفت ، والبيت  
مكمل لسابقه - يقول كل غمرات الحب تنكشف وكل آلام الغرام تزول فالنأى  
يسلى واليأس يريح .

(٥) الصم : جمع أصم وهو الصليب ، والصم الوعول جمع وعل وهو  
التيس الجبلى - يقول : قد أعرضت عنى لا تجيب ندائى كأنى أدعو صخرة صلبة  
ملساء لا تستقر عليها الوعول ، يصف أعراض عزة وعدم اصغائها وعطفها عليه  
فيفشها بالصخرة في أنها لا تسمع نداء ولا تجيب دعاء .

- صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة      فن مل منها ذلك الوصل ملت (١)  
أباح حتى لم ترعه الناس قبلها      وحلت تلاعالم تكن قبل حلت (٢)  
فليت قلوصى عند عزة قيدت      بجبل ضعيف غر منها فضلت (٣)  
وغودر في الحى المقيمين رحلها      وكان لها باغ سواى فبلت (٤)  
وكنت كذى رجلين رجل صحيحة  
ورجل رى فيها الزمان فضلت  
وكنت كذات الظلع لما تحاملت      على ظلعها بعد العثار استقلت (٥)

- (١) الصفوح : المعرضة الهاجرة يعنى أنها بخيلة بوصلها .  
المعنى : أن عزة امرأة هاجرة نافرة لأن طبعها البخل فن سئم منها هذا الخلق  
قاطعته ، وهذا البيت يصور لك طبع المرأة للعشوقة ودلالها .  
(٢) الحى : ما يحصى ويدافع عنه . والمراد قلب الشاعر الذى احتلته ،  
ويرعاه الناس : يدخلون إليه ، والتلاع : جمع تلعة وهى الأرض المرتفعة .  
والمعنى : أنها غزت قلبا بمتاعها عن النساء لم تستطع امرأة قبلها غزوه ، والبيت  
استعارة تمثيلية .  
(٣) غر : قطع . والمعنى : يتمنى كثير أن تغل ناقته حتى يطول مقامه  
عند عزة .  
(٤) رجل الناقة : ما يوضع على ظهرها كالسرج ، باغ : طالب .  
بلت : ذهب ، وهو من تمام البيت الأول .  
(٥) شلت يبت . والظلع عيب فى المشى . تحاملت على ظلعها : تكلفت الناقة  
السير على رغبتها . استقلت : استقام مشيا . يقول : كنت فى إقبالها تارة وإدبارها  
أخرى وفى طمعى فيها ويأسى منها كرجل صحت منه رجل ومرضت أخرى فإن  
أراد الحركة بالصحيحة جذبته المريضة وهو تصوير لحاله فى حبه وأنه صار الى  
حال لا يمر ولا يحلو . ومعنى البيت الثانى أن الأمل واليأس ظلا يختصمان الى أن غلب  
اليأس منها فانصرف عنها فهو كظالمة حاولت مرارا أن تسهر مع ظلعها حتى =  
(٩٢ - ١٠١)

أريد الثواء عندها وأظنها إذا ما أطلنا عندها المكث مات (١)  
 فما أنصفت أما النساء فبغضت إلى وأما بالنسـ وال فضنت (٢)  
 فإن تكن العتي فأهلا ومرحبا وحققت لها العتي لدينا وقلت  
 وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادح لو سارت بها العيس كات (٣)  
 خليلي إن الحاجة طلحت قلو صيكا وناقتي قد أكلت (٤)  
 فوالله ثم الله ما حل قبلها ولا بعدها من خلة حيث حلت (٥)  
 وما مر من يوم على كيومها وإن عظمت أيام أخرى وجلت

= استقام لها السير . وهناك معنى آخر وهو: أنه كان في بقائه عندها كرجل أشل عاجز عن الحركة أو كسناقة عرجاء تنهض بعسر ومشقة ، يتمنى ما يعطل سفره فيبقى عند محبوبته عزة .

(١) الثواء الإقامة . يقول : إنها امرأة ملول وظنى أنها لا تحمل طول المقام عندها .

(٢) لقد بغضت بجمالها النساء إلى فلم يكن لغيرها موضع من فلي ولا نصيب من حبي وقد بخلت بوصلها .

(٣) العتي : الاسم من الإعتاب . المنادح : الأماكن الواسعة البعيدة . والعيس : الإبل البيض يحاط بياضها مشفرة ، كالت أعيت عن السير - والمعنى : إن كانت تنسك مني أمرا وتريد أن أنزع عنه فذلك لها وهو علينا يسير وإن كانت تريد القطيعة فالأرض واسعة والنساء غيرها كثير ، وكل غانية عزة .

(٤) طلحت : أكلت وأتعبت . والحاجة لقب عزة يخاطب رفيقين فيقول : إن عزة أنكنت ناقتيكما كأنتعت ناقتي - يصور مبلغ ما يعانيه في حب عزة وطلبها .

(٥) انه لم يمر عليه في حياته يوم هنئ كيوم وصالها . وإن كانت هناك أيام أخرى حافلة بالسرور . ولك أن تقول : لم يمر يوم في الآلام والأهوال كيوم عرفها فيه .

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده فلا القلب يسلاها ولا العين ملت (١)  
فيا عجبا للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وطنت كيف ذلت (٢)  
ولاني ونهياى بعزة بعد ما تخلت مما بيننا وتخلت (٣)  
لكالمرتبجى ظل الغمامة كلها نبوأ منها للمقبل اضمحلت  
وكانت لقطع الجبل بينى وبينها كناذرة نذرا فأوفت وحلت

والشاعر هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، وقد أكثر الشعر في محبوبته عزة بنت حميد فنسب إليها وعرف بها . كان يتشيع ، يعتقد أن علياً وبنيه أحق الناس بالخلافة . وكان مع تشيعه يفد إلى بني أمية بمدحهم ويأخذ جوائزهم ، والرواة يحدوثون أنه كان قصيراً دميماً ناقص العقل وبقرته إلى حميل والمجنون وأضرابهما من شعراء الغزل المقدمين فيه . والقصيدة في الذئب وهو باب له مكانة في الأدب العربي ومنزلة سامية في النفوس ، لأنه يتعلق بأسمى عاطفة إنسانية هي الحب . ورواة الأدب يتحدثون عن هذه القصيدة فيرفعون من شأنها ويشيدون بكثير من أجلها ، ويعدون من عيون الشعر الغزلي ، فيقولون تائية كثير كما يقولون رائية عمر وعينية قيس ، وأنا أقرأ هذه القصيدة فلا تقع في نفسي ولا أجد لها ما وجد هؤلاء الرواة ، بل أجد فيها صورة صادقة لكثير القصير الذي يطاول الطوال ، الضعيف الذي يباطش الأفوياء ، الدعي في عشقه وتشيعه ومذهبه وكل ما يتصل به حتى أيه الذي ينسب إليه وعشيرته التي يعتز بها .

- 
- (١) الشاهق : المرتفع . أى أصبحت عزة في أعلى مكان من قلبه ، فلا القلب يستطيع السلو ، ولا العين تمل النظر إليها .  
(٢) اعترافه : صبره على آلام الحب - يتعجب الشاعر من صبره على ما يقاسيه من آلام ومن نفسه كيف استعذبت المذلة في الغرام .  
(٣) التهيام : الهيام وهو جنون العشق . تخلى من الشيء : تركه . الغمامة : السحابة أو البيضاء خاصة ، نبوأ المكان نزل فيه . المقبل : النوم نصف النهار .



قد يكون عذر هؤلاء أن مقاييس الجودة عديم هي أن اللفظ يستعمل فيها وضع له وأن الأسلوب عربي جار على ما ألفته العرب في طرائق تعبيرها وأن القافية لا عيب فيها ووزن الشعر صحيح مستقيم ، لكن ذلك لا يكفي في الحكم لها بالخلود والصدارة في ديوان الشعر .

إنها لا تصور شعوراً بالحب صادقاً ولا نفساً بنار العشق محترقة ولا إنساناً صافي الطبع مرهف الحس قوى العاطفة ينقلك إلى الجو الذي يعيش فيه ، فترثي له وتشفق عليه إن لم تشاركه في آلامه التي يقاسيها .

إنها لا تصور نفس شاعر متميم قد استعبده الحب وأضناه الغرام ، إنما تدل على إنسان مدع للعشق ، يظهر لك حيناً أنه متهاك في هواه ، ويتراعى حيناً آخر أنه جلد قوى لا يبالي بقطع أواصر المودة ، فهو مكافئ لمن يحب وصلاً بوصلاً وهجراناً بهجران .

وقد يخدعك فتظن أنك أمام شاعر متبول ، يهذى في إثر صاحبتة ، فهو يرسل أنات محزونة ويخرج زفرات مكشوفة وليس كذلك ، إنها الصيغة المحكمة والنسيج المتين ، فيلتبس عليك صدق الشاعرية بصدق الشعور ، إن ما يبدو في هذه القصيدة من سيما الحب لا يرجع إلى عاطفة مشبوبة ، ولا إلى نار بين الجوانح مضطربة ، ولا إلى موجدة ثور حيناً وتحتني حيناً ، إنما يرجع إلى تقليد لبعض الشعراء العذريين أمثال جميل والمجنون ، فإن شعر الغزل في هذا العصر قد صار صناعة يتعاطاها من لم يعرف الهوى ولم يذق ظلم حبيب ولم يكتبو بنار الحب . وأقف بك على بعض هنات ترجع إلى المعنى وأخرى إلى اللفظ . يقول كثير :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

نعم إن المصائب تهون إذا هيئت النفوس لقبولها ، فلو أنه قال هذا المعنى في الاستهانة بنكبات الدهر أو توطين النفس على الموت في الحروب أو الاستخفاف بكل ما يعترض الإنسان في هذه الحياة من صعاب لكان

معنى رائعاً ولـكان قد وضعه فى موضعه اللائق به ، وبعبارة أخرى لو كان ذكره فى باب الشجاعة لكان شاعراً خليقاً بالتقدير ، ولكنه ذكره فى باب الغزل فى مقام يحمل فيه التذلل فى الهوى ويستعذب فيه الأنين والشكوى وإظهار أن كل ما فى الحياة من خطوب يمكن احتياها والصبر عليها إلا مفارقة الأحباب فتلك النائبة العظمى التى لا تطاق .

وكل مصيبيات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب وما يؤخذ عليه أيضاً فى هذه القصيدة قوله :

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادح لو سارت بها العيس كلت ونحوه مما يدل على عدم المبالاة بالهجر وقلة الاحتفال بإعراض الحبيب ، فإنه لو كان محباً صادق الصباة عاشقاً قوى العاطفة لكان حديث الفراق يروعه مخافة أن يكون فراق الأحبة مقروناً به ، يروى أن كثيراً لى الأحوص فقال له : لقد قلت فأحسننت فى كثير من شعرك ولكن خبرنى عن قولك : فإن تصلى أصلك وإن تعودى لهجر بعد وصل لا أبالى أما والله لو كنت من خول الشعراء لبليت ولو كسر أنفك ، هلاقت كما قال نصيب :

بزئب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملىنا فما ملك القلب والذى عابه على الأحوص وقع هو فى أسوأ منه ، فإن هو من خول الشعراء الذين يصورن المرأة بأنها مطلوبة ممتنعة وأنهم لا يستطيعون هجرها والبعد عنها ولا يتصورون الحياة بدونها وإذا وجدوا فى نفوسهم شيئاً من عوامل السلو أعانوا عليها وخاصموها حتى تنزل على حكم الهوى : وإذا وجدت لها وساس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها بل ربما حدثهم أنفسهم التى برح بها الشوق أنهم قادرون على السلو عنها والتسلل بأخرى سواها فإذا بدا ما يحبون وهت عزائمهم ونقضوا ما أبرموه :

لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها      بتانا لأخرى الدهر ما طالع الفجر  
فما هو إلا أن أراها فجأة      فأبته لا عرف لدى ولا نكر  
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها      كما قد تنسى لب شاربها الخمر  
ويعنى من بعض إنكار ظلمها      إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر  
مخافة أنى قد علمت لأن بدا      لي الهجر منها ما على هجرها صبر  
وأنى لأدري إذا النفس اشرفت      على هجرها ما يبلغن بي الهجر  
فيا حها زدنى جوى كل ليلة      ويا سلوة الأيام موعذك الحشر

وأحب أن أفق بك عند تلك الأمنية البدوية الساذجة :

فليت قلوصى عند عزة قيدت      بحبل ضعيف غر منها فضلت  
يود أن يقيم بجوار غزة فيشتمى أن تفضل نافته في الصحراء ضللا  
بعيدا ويكون في إقامته عندها كرجل أشل يعجز عن الحركة والنهوض أو  
كناقة عرجاء لا يستقيم لها المسير إلا بعد عناء . وهى على سذاجتها بداوتها  
خير من أمنية تصورها هذه الآيات التى قالها كثير :

وددت وبيت الله أنك بكرة      هجان وأنى مصعب ثم نهرب  
كلانا به عر فن يرنا يقل      على حسنهما جرباء تعدى وأجرب  
تكون لدى مال كثير مغفل      فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب  
إذا ما وردنا منملا صاح أهله      علينا فما نفك نرمى ونضرب

قد تمنى كثير من الشعراء مثل هذه الأمانى وكلم تغلب عليها بداوة المعنى  
وسذاجته ، وتطبع بطابع الأنانية وحب الذات ، فن أسوئها قول الشاعر :

من أجلها أتمنى أن يلاقينى      من نحو بلدتها ناع فينعاها  
كما أقول افتراق لاجتماع له      وتضمم النفس ياساً ثم تسلاها  
ومن أحسنها :

تمنيت من حسبي علياً أننا      على رمث في البحر ليس لنا وفر

على دائم لا يعبر الفلك موجه ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر  
فنفضى هموم النفس في غير رقة ويغرق من نخشى نيمته البحر  
ثم انظر إلى هذا البيت :

خليلى إن الحاجبية طلحت قلو صيكا وناقى قد أكلت  
ألسنت ترى اضطرابا فى الوزن منشؤه أنه أدخل القبض فى حشو الطويل  
فاختل النظم ونباعنه السمع وهو فى الوقت نفسه سخيى المعنى ، أليس محموله  
أننا تعبنا فى طلب هذه المرأة ، فأكل السامعين والقارئى بذكر القلوص  
والنافة وأكلت وطلحت ، مع ما فى إسناد هذين الفعلين إليها من فساد الذوق  
ورداة الطبع .

والقصيدة فيها محاسن استمالت المتقدمين فقدموه بها ، فهمى تصور لك  
الغزل فى عهد بنى أمية وأنه صار فناً مستقلاً يقصد إليه الشعراء ، وتقدم لك  
صورة حسية رائعة تصور منازل الاحباب مر بها عشاق معاميد فوققوا  
يسكون زمانا موليا قضوه فيها ثم ولى بآمالهم وأحلامهم ولم تبق إلا  
ذكرىات هذا الماضى تصور لك حبيباً ظالماً ، سرفا فى ظله هاجراً فاسيا فى  
هجره لا يسمع لشكاة ولا يرق لأنين ، تمثل الظن البكاذب والرجاء الخائب  
والحبيب الميؤوس منه ، فتراه بعينك وتلمسه بيدك فيخرج من حيز المعقول  
إلى دائرة المحسوس واضحا لا لابس فيه ولا غموض . فى هذه القصيدة صور  
بيانية رائعة فقد أكثر فيها من التشبيه والتبيل حتى ند البيت الخالى منها .  
إنك حين تقرأ هذه القصيدة وتعرف الوجوه الفنية فيها تميل إلى رأى  
القائلين بأن الشعراء فى عصر بنى أمية كان فيهم من يتوخى ضروبا من البديع  
ويتعمد أن يجتمع له فى شعره فنون من البيان .

ولم تمنعه شاعريته من الوقوع فيما يشبه أن يكون خطأ قد يرجع إلى  
الضرورة الشعرية كالتعبير بهم فى مريض الغاء فى قوله ثم أبكيا حيث حلت ،

وكالحشو في قوله لو تمشى بها المعصم رلت ، وفي قوله : غداة الأرمين وقوله  
بفيضا غزال ، وكالتهايت في قوله : فوالله ثم الله ؛ والفصيحة على كل حال تعتبر  
من القصائد المشهورة في اللغة العربية وشعر العرب .

وهذا مجنون لبلى : يقول فيما يقول من غزله العذرى :

ألا أيها البيت الذى لأزوره      وإن حله شخص إلى حبيب  
هجرتك إشفافاً وزرتك غائفاً      وفيك على الدهر منك رقيب  
سأستعيب الأيام فيك لعلها      يوم سرور في الزمان تثوب

ويقول أيضا مجنون لبلى قيس بن الملوح العامري (٦٧ هـ) :

أعد الليالى ليلة بعد ليلة      وقد عشت دهرأ لا أعد الليالى  
أراني إذا صليت يمت نحوها      بوجهي وإن كان المصلى ورائيا  
تمر الليالى والشهور وتنقضى      وحبك مايزداد إلا تماديا  
خليل لاواقه لأملك الذى      قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا  
فضاها لغيري وابتلاني بحبها      فهلأ بشيء غير لبلى ابتلانيا ؟  
أمضروبة لبلى على أن أزورها      ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟  
ولو كان واش بالجمامة داره      ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا  
وإني لأخشى أن أموت فجأة      وفي النفس حاجات إليك كما هيا  
وإني ليثني لقاؤك كلما      لقيتك يوما أن أبشك مايا  
وقالوا به دام عياء أصابه      وقد علمت نفسى مكان دوائيا

ويقول قيس بن ذريح :

تمنيت أن تلقى لبيناك والمنى      تعاصيك أحيانا وحيننا تطاوع  
ومامن حبيب وامق لحبيبه      ولاذى هوى إلا له الدهر فاجع  
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى      بلبنى وصدت هنك ماأنت صانع؟

فواكبدى من شدة الشوق والاسى      وواكبدى إني إلى الله راجع  
نهارى نهار الوالدين صباية      وإبلى تنبو فيه عنى المضاجع  
أففى نهارى بالحديث وبالمنى      ويجمعنى بالليل والهم جامع  
كان بلاد الله مالم تكن بها      وإن كان فيها الناس فقر بلاقع  
ألا إنما أبكى لما هو واقع      وهل جزع من رشك بينك نافع  
لقد ثبتت فى القلوب منك محبة      كما ثبتت فى راحتين الأصابع

وفى هذه الأبيات نجد مسحة حزينة باكية ، ودموعا غزاراً يسكبها الشاعر على حبه ، وهياما شديداً بلبناه وذكرياته معها . ونجد عاطفة صادقة ، ومشاعر متأججة ، ووجدانا متوقداً بالإحساس ، ملتهب الالم . وهذه هى عناصر الغزل العذرى الذى ينبغى فى القرن الأول الهجرى ، وكان من أعلامه : مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح (١) ، وجميل ، وكثير ، وسوالم .

وقيس فى البيت الأول يخاطب نفسه مولها حزينا فيقول : تمنيت لقاء محبوبتك لبنى ، والخط يعاصيك حيناً ويطاوعك حيناً آخر ، وفى البيت الثانى يقول فى حكمة عالية : أنه مامن حبيب وفى لحبيبتيه ، ولا صاحب هوى غالب على قلبه ، إلا الدهر فاجع له ، مفرق لوصاله ، مشتت لحبه وأحبابه . وفى البيت الثالث يزداد قيس توله فى حبه ، وتفجعا فى تهبامه فيسائل قلبه : خبرنى ياقلب ماذا أنت فاعل إذا فرق الدهر بينك وبين أحبابك وشطت النوى بلبنى ، وطال الفراق بها ، ولم يعد لك أمل فى وصالها ولقائهما ؟ وفى البيت الرابع يصف متوجعا حزينا ولهه وحزنه وحيرته وما داخل قلبه من حبه وكبده من شدة الشوق والاسى ، وما أروع ما يقول : « وواكبدى إني إلى الله راجع ، يريد أن يقول : إنه ميت لا محالة من شدة الحزن

---

(١) كان قيس من حاضرة المدينة وكان يثزل فى ظاهرها (١٨) الفرج بعد الشدة لتتوخى ط الخانمى .

والشوق ، وإن مصيره إلى الله لاريب ، وأمره بيده - تعالى - يصرفه كما يشاء .  
وفي البيت الخامس يتحدث عن نهاره في الحب و ليله ، نهاره المملوء بالحزن  
لفراق لبناء ، و ليله المملوء بالآلم حتى لا يكاد يستقر به المضجع ، فهو في  
سهاد وقلق وهموم موصولة لانهاية لها .

وفي البيت الذي بعده يصف كيف يقضى نهاره بالحديث عن لبني والمنى  
في لقاءها ، وكيف يتخلو بالليل إلى همومه وأحزانه حتى لم يبق فيه وليس  
معه إلا الهم والأسى وكأنما جمعه بهم جامع لا يغالب وقد لا يتنازع .  
وما أروع ما يصور في البيت السابع من شدة حبه للبنى فالدنيا كلها صحراء  
جرداء إذا خلت من محبوبته وقفر موحش إذا لم تكن لبني فيها . . وفي  
البيت الثامن ، يقول : إن بكائي وحزني للفراق الذي حدث والهجر الذي  
كان ، ولكن لا ينفع الجزع والبكاء ، لأنه لا يرد ما مضى ، فقد وقع الفراق  
ولا حيلة له في ما وقع ، ولقد كان قيس جزعا حزينا وهو ولبنى في وصال ،  
فإذا ينفع الجزع والفراق اليوم سريع ، والوصال غير متوقع ، والنوى  
قد باعدت بينه وبينها .

وقيس في القصيدة كلها حزين دافع العينين استبد به الآلم والأسى والحيرة  
والجزع ، لفراق لبني ، الدنيا كلها تبسكى معه ، والبلاد كلها موحشة إذا لم  
تكن لبني فيها ، وليس له من راحم إلا الآمل والمنى في أن يعيد الدهر  
ما بينهما من وصل مقطوع .

وما أروع ما يصور الشاعر من همومه وأحزانه في ليله ونهاره ، وما اعتري  
كبده من شدة الشوق وقلبه من شدة الوله ، ونفسه من كثرة الحنين . هذا هو  
الشاعر في حكمته في البيت الثاني وفلسفته في البيت الأخير ، وفي حيرته  
وآلمه وأحزانه في أبيات القصيدة كلها .

ولقد نشأ في عصر نبى أمية ، وبتأثير البيئة والإسلام والروح العربية

الأصيلة فن جديد من الغزل هو الغزل العذري ، نسبة إلى قبيلة عذرة المشهورة بالهيام والجمال والتصوف الروحي في الحب ، وهذا الغزل يقف عليه الشاعر قصيدته ، ويملؤها وجدا وحنينا ، وبكاء وأنينا وأحزانا وأشجانا وعفة ، وطهرا ووصفاً لآلام الروح وتباريح الفؤاد وعذاب النفس في الحب ، وهكذا كانت هذه القصيدة (١)

#### أغراض أخرى :

وهناك أغراض متعددة ، قال فيها الشعراء ما كثروا ، وصوروا ما جادوا ، لم يتخلفوا عن أقرانهم ، ولم يضعفوا في ميدانهم ، وإنما نهضوا سباقين ، وجالوا في كل فن منها مبرزين ، ومن هذه الأغراض :

#### الوصف :

ومن نماذجه الكثيرة قول أبي النجم يصف فهود عبد الملك بن مروان :  
فهبى ضوار من مضرّيات  
تريك آمافاً مخططات  
سوداً على الأشداق شائنلات  
تلوى بأذنان موقّعات

وقال الفرزدق يصف ذئباً :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهنا فأتاني (٢)

---

(١) راجع عن قيس : ٨ : ١١٢ الأغاني ، ٣٩٩ الشعر والشعراء ، ٢٠٧ الموشح ١ : ٣٤-٤٧ حديث الأربعماء ، ١٢٠ المؤلف ، ٣٨٩ و ٧١٠ اللآلئ ، الآمال ، ١ : ٣٣٦ جورجى زيدان ، ١٩٤ و ٢٠٠ و ٢٠١ ج ٢ بروكلمان .  
(٢) أطلس : أغبر اللون . عسال : مضطرب في مشيته ، موهن : نحو من نصف الليل .



فلما أتى قلت : ادن ، دونك ، إننى  
فبت أقد الزاد بينى وبينه  
وقلت له لما تكشر ضاحكا  
تعش ، فإن عاهدتى لا تخوننى  
وأنت امرؤ - يا ذنب - والغدر كنتما  
ولو غيرنا نهبت تلتبس القرى  
وكل رفيق كل رحل ، وإن هما  
وإياك فى زادى لمشتوكان  
على ضوء نار مرة ودخان (١)  
وقائم سبى من يدى بمكان  
نكن مثل من - يا ذنب - يصطحبان  
أخين كانا أرضعنا بلبان  
رماك بسهم أو شبابة سنان (٢)  
تعاطى القنا قوماهما ، أخوان

ويقول الأخطل فى وصف الخمر :

وتظل تتحفنا بها قروية  
فإذا تعاورت الأكف زجاجها  
لبريقها برقاعه ملثوم  
نفحت فشم رياحها الموكوم

ويقول الوليد بن يزيد :

من قهوة زانها تقادمها  
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها  
فقد تجلت ورق جوهرها  
فهى بغير المزاج من شرر  
كانها فى زجاجها قنس  
تذكر ضياء فى عين مرتقب  
فهى عجوز تعلو على الحقب  
من الفتاة الكريمة النسب  
حتى تسدت فى منظر عجيب  
وهى لدى المزج سائل الذهب  
تذكر ضياء فى عين مرتقب

ويقول الأخطل كذلك فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف  
إذا شرب الفتى منها ثلاثا  
مشى قرشبة لاشك فيها  
تفسى الشاربين لها العقولا  
بغير الماء حاول أن يطولا  
وأرخصى من مآزره الفضولا

(١) أقد : أقطع .

(٢) الشبا : الطرف .

وقال يصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه  
نهاده أحياناً وحيناً تجره  
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره  
وآخر مما نال منها محمل

ولشاعر يصف مدينة همذان :

وكيف أجيب داعيكم ودوني  
جبال الثلج مشرفة الرعان  
بلاد شكلها من غير شكل  
والسنها مخالفة لسانى (١)

وقال حندج بن حندج المرى :

فى ليل صول تنهى العرض والطول  
كأنما ليله بالليل ، وصول  
لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به  
وإن بدت غرة منه وتحجبل  
لساهر طال فى صول تملله  
كأنه حية بالسوط مقتول (٢)  
متى أرى الصبح قد لاحت مخيله  
والليل قد مزقت عنه السرايل (٣)

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني - طبع ايدن سنة ١٣٠٢ ،  
صفحة ٢٣١ .

(٢) صول : بلد فى الخزر من بلاد الترك ، والغرة : بياض فى جهة  
الفرس ، والتحجبل بياض فى قوائمه وقوله : لساهر الجار والجرور متعلق  
بقوله : بدت ، ويعنى به نفسه ، والتمليل القلق - ومعنى الأبيات : يصف ليل  
تلك البلد بتناهى الطول وأنه إن ظفر بالصبح أو بدت له غرته فلا يفارقه  
لأنه بات فيه قلقاً منزجاً كأنه حية مضروبة بالسياط .

(٣) المخايل الطلائع والعلامات والسرايل أراد بها الظلام ، وجملة متى  
أرى الصبح استفهام فى موقع التنى والشكول المشدود ، والراكذ الساكن -  
ومعنى الأبيات : يتمنى ظهور علامات الصبح وأنه أطوله كالمربوط لا يتحرك  
وأن نجومه ثابتة لا تزول كأنها قناديل معلقة .

ليل تحير ما ينحط في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول  
نجومه ركذ ليست بزائلة كأنما هن في الجو القناديل  
ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن من داره صول  
الله يطوى بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول (١)

وقال ذو الرمة (٤٥ - ١١٧ هـ) يصف الصحراء بالليل :

ودوية مثل السماء اعتسفتها وقد صبغ الليل الحصا بسواد  
بها من حسيس القفر صوت كأنه غناء أناسي بها وتصادى  
ويقول في وصف الفلاة بالليل كذلك :

للجن بالليل في حاقانها زجل كما تجاوب يوم الريح عيشوم (٢)  
هنا وهنا ومن هنا لمن بها ذات الشبائل والإيمان هينوم  
دوية ودجى ليل كأنهما بم ترأطن في حاقانه الروم

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها،  
وهو عمر بن أبي ربيعة : وهذه الأبيات في حماسة أبي تمام وهي في  
ديوان عمر :

خيروها بأتني قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرأ  
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً : ليتته تزوج عشرأ

(١) ما أقدر الله : لفظه تعجب ومعناه الطلب والتفتي ، والشحط : البعد ،  
والحزن : اسم موضع والبساط : الأرض الواسعة والربع الدار - ومعنى  
البيتين : انه يتمنى أن يجمع الله بينه وبين من يحب على بعد ما بينهما من الدار  
حيث لانداني بين من داره الحزن ومن داره صول ، وأن يطوى شقة البعد بينهما  
ليرى الدار ومن فيها .

(٢) صوت هينة تسمع ولا تفهم .

وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرى سترأ  
ما قلبي كأنه ليس منى وعظامى كان فيهن فترا  
من حديث نما إلى فطيم خات في القلب من تلظيه جمرأ

وقال حطان بن المعلى يصف حاله وحال بناته :

أنزلى الدهر على حكمه من شأخ عال إلى خفض  
وغالى الدهر بوفر الغنى فليس لى مال سوى عرضى  
أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يرضى  
لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض<sup>(١)</sup>  
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض<sup>(٢)</sup>  
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض  
لو هبت الريح على بعضهم لا تمتنع عيني من الغمض<sup>(٣)</sup>

#### شعر الحساسة :

قال قطرى بن الفجاءة الخارجى :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال وبحك لن تراعى  
فإنك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

- 
- (١) الرغب : الشعر اللين الصغير، وكنتى بهذا عن الضعف والصفير . رددن الخ . أى تتابعن وكثرن كل واحدة جنب الأخرى .  
(٢) المضطرب : الاضطراب والحركة . المعنى . لولا خوفى من ضياعهم لكان لى مجال واسع فى الأرض وإنما لزمتم مكانى بسببهم .  
(٣) المعنى : أنه لا يطمئن الا اذا كانوا سالمين بأجمعهم :

فصبراً في مجال الموت صبراً      فما نيل الخلود بمستطاع  
ولا ثوب البقاء بثوب عز      فيطوى عن آخر الخنع اليراع (١)  
سبيل الموت غاية كل حي      وداعيه لأهل الأرض داع  
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم      وتسليه المنون إلى انقطاع (٢)  
وما للمرء خير في حياة      إذا ماعد من سقط المتاع

وقال سعد بن ناشب :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً      على قضاء الله ما كان جالباً  
وأذهل عن دارى وأجعل هدمها      لعرضى عن باقى المذمة حاجباً  
ويصغر فى عيني تلادى إذا انشنت      يمينى بادراكى الذى كنت طالباً  
فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها      تراث كريم لا يبالى العواقب  
إذا هم ألقى بين عيفيه عزمه      ونكب عن ذكر العواقب جانباً

والشاعر هنا في هذه القصيدة غاضب ساخط واثار أبي، ملئت نفسه غضباً  
وسخطاً لهدم داره والاعتداء على كرامته وعدم الحفاظ على شرفه، فهو  
مصمم على مقابلة قوة الوالى بقوته وبسيفه لا يفكر في الأمر ولا يتدبر  
فيه لايهمه النتائج ولا يبالي بها يريد أن يفتدى عرضه بأى ثمن وبأية تضحية  
لايهمه من الأمر شيء إلا أن يسترد شرفه المهان وكرامته المسلوكة وعرضه  
المستذل، وهو يتهاذى في السخط والغضب فيعلن أن داره تراث لرجل  
كريم لا يبالي العواقب بخوض الحروب ويقتحم المخاطر ولا يثنى عن  
اقتحامها ولا يريد له صاحباً إلا سيفه في المعارك التي يرمى نفسه فيها، انه إذا  
عزم على الأمر لم تقف في سبيله عقبة ولم تثنه عنه اشدائد والخطوب بل  
إنه غر رزام وقائدها في الحروب يعزم على الأمر فينفذ ما عزم عليه دون  
تردد أو احجام أو تفكير في النتائج مشيره نفسه وصاحبه سيفه . وما أروع

(١) الخنع . الذل والضم ، واليراع : الجبان المستطار .

(٢) يعتبط : يمت شاباً .

ما مثل لتصميمه وعزمه وتنفيذه لما هم به في قوله ، إذا هم ألقى بين  
عينه عزمه . .

والشاعر هنا منقاد لطبيعته البدوية فهو ميال للانتقام كاره للنظام خارج  
على القانون ذاهل عن ماله وداره في سبيل المحافظة على عرضه ، ذو عزيمة  
ماضية لا تعترها حيرة ولا تثنى عقبة ، شجاع يخوض الجيوش ويقتحم  
العقبات ، واثق بنفسه معتمد على بأسه ، يركب الهول وحيداً لا يصحبه إلا سيف  
صارم ، رعى وده ويحفظ عهده فلا يخون في شدة ولا ينبو عن ضريبة .  
مستبد برأيه ، يعضيه منفرداً ، فلا يحتاج إلى مشير يبصره بالصواب ويرشده  
إلى قصد السبيل ، لأن ذلك في رأيه عجز تأباه كرامته وتفر منه سجيته ،  
متوعد لأميره الذى هدم داره مصمم على أخذ ثأره ، مهما ركب في طريقه  
من أهوال ، فهو يمهل أمره ولا يهمله ، يربص به الأيام على فرصة تمر  
فيذهزها وخصاصة تظهر فيهجم عليه منها . ولئن عجز الآن عن الانتقام  
فطالب الثأر لا ينام .

ومعاني الشاعر هنا ترجع في جملتها إلى الوصف بالشجاعة وقلة المبالاة  
وإمضاء العزم والاستبداد بالرأى وانتهاز الفرص للأخذ بالثأر ، وهى  
معان تلائم أشد الملائمة باب الحماسة من أبواب الشعر العربى ، وألفاظها  
جزلة قوية ، وأسلوبها متين رصين خال من التكلف برىء من التعقيد .

ويؤخذ على الشاعر هنا أنه ترك الفكر في العواقب فترك عظمها مما يتحلل  
به الرجال وهو الحزم ، والعرب تقول : روتحزم فإذا تبينت فاعزم .  
ومن كلامهم : قبل الرماء تملأ الكنان . فلا شك فيه أن الإقدام على الضرر  
وركوب الأمر على الخطر مما لا يحمده عاقل ومما ينكر الدين .

ونحن هنا لاندم شعره ، إنما ندم فكره ورأيه ، ولكنه عبر عن رأيه

( ١٠٢ - ق ١ )

بأسلوب قوى ، وخيال خصب وعاطفة ثائرة ، وانفعال شديد . . أما رأيه  
فيناقضه قول الشاعر :

وأوقف عند الأمر لم يتضح له وأمضى إذا ما شك من كان ماضيا

وكان سعد بن ناشب من شعراء العصر الإسلامي ، عاش في دولة بني أمية ،  
ونسبه يرجع إلى نبي مازن بن مالك بن عمرو من تميم ، وهو غير مشهور  
الذكر بين شعراء عصره ، لقلة آثاره الأدبية ، وندرة المروى عنه ، وشعره  
في المرتبة الثانية ، ولعل سبب اختيار قصيدته هذه ، ماتضمنته من معاني  
الاعتزاز بالنفس ، وإباء الغنم .

وقد نظمها هذه القصيدة حين اتهم في قتل وهرب ، فأمر قاضي البصرة  
بهدم داره ، تنكيلا وإرهابا ، وكان من عادة الأمراء يومئذ ، هدم دار من  
يتهم هو أو أحد قبيلته في قتل ، أو يأتي بحدث يستنكره الحكم الطغاة .

وقد روى أن سعدا ، دخل يوماً على الحجاج فقال : أيها الأمير ،  
عصى عاص من عرض العشيرة ، فخلق (١) على اسمي ، وهدمت دارى ،  
وحرمت عطائي ، قال الحجاج : هيات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يحنى عليك وربما تعدى الصحاح مبارك الجرب  
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف (٢) صاحب الذنب

قال : ولكنى سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال :  
إنه يقول :

( يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا نفذ أحدنا مكانه إنا نراك من  
المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ) .

---

(١) وضعت عليه دائرة لمنع عطائه . (٢) المذنب . (٣) اكتب له ورقة .

فطلب الحجاج كاتبه فأقْبى به ، فقال له : افكك لهذا عن اسمه ، واصكك (٣) له بعبائه ، وابن له منزله . ومر منادياً ينادى في الناس ، صدق الله ، وكذب الشاعر .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بعزمه على غسل العار الذي لحقه ، بهدم داره ، وذكر أنه لاتهمه الديار ولا الأوطان في سبيل احتفاظه بعزته وإبائه ، وأن نجاحه في مطالبه ووصوله إلى أغراضه - ومن هذه الأغراض الثأر لنفسه - لا يعادله شيء مهما غلت قيمته ، ثم أرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وذكر ما اتصف به من جسارة وشجاعة ، وما عرف به من شدة المراس . وقوة الشكيمة ، والقصيدة توشك أن تكون صيحة من الصيحات البدوية ، وصدى لنغمة من نغمات الجاهلية إذ أن صاحبها قريب المكان من الصحراء ، حديث العهد من الحمية الجاهلية .

ومعانيها صورة منقولة عما تغنى به الشعراء من قبله ، وترديد رددته من سبقوه ، من الفخر بحماية الأعراض ، والغضب من شأن المسال ، واقتحام ميادين الهلكة من غير خوف ولا وجل . وقد كرر الشاعر معنى عدم المبالاة بالعواقب ( ثلاث مرات في قصيدته ، فقد ذكر ذلك في البيت الأول والرابع والآخر .

ويبدو على ألفاظ القصيدة خشونة البداوة ، وبمناز أسلوبها بما عرفت به التراكيب في هذا العصر ، من المتانة والقوة .

وأما قطري في قصيدته السابقة فهو يقف في المعركة ، ويشترك في القتال ويناش الأبطال ، وتبدأ نفس الشاعر البطل تفزع من هول الحرب وشدة النضال ، ولكن الشاعر يعيدها إلى طمأنينتها وإلى ثباتها وصلابتها ، حتى يطالبها بالصمود والاستتار بالموت ، والنضال من أجل العقيدة والدفاع عن المذهب والرأى ، وقطري يصور كل ذلك تصويراً رائعاً .

ففي البيت الأول يقول الشاعر أنه حدث نفسه في المعركة لتثبت وتقدم



على القتال بعزيمة قوية وقلب رابط الجأش فلا تقزع ولا تجبن . . كل ذلك والهول شديد ، والفزع محيط بالناس من كل جانب والأبطال تتصارع والنفوس تطير من الهول شعاعا .

وفي البيت الثاني يسلى الشاعر نفسه ويسرى عنها بأن الأجل مكتوب وأن العمر مقدور وأن الإنسان مهما تمنى أن يزيد عمره وتطول حياته فإن يغنيه هذا التنى شيئا ولن يمدله في عمره دقيقة ولا يوم ولا أقل من ذلك ولا أكثر . وفي البيت الثالث يسأل نفسه الصبر في مجال الموت ويحثها عليه لأن الخلود في الحياة محال مادام لا بد من الموت .

وفي البيت الرابع يقول الشاعر لنفسه إن الحياة وطول العمر ليس بما ينعم به ويمز به الإنسان ولا يستحقه إلا الجبناء والأذلاء .

وفي البيت الخامس يقول : إن الموت نهاية كل الأحياء وإن المنادى به سوف ينادى به على كل الناس - جميعا ، إذا أن سيبه لا بد أن ينال كل الناس . وفي البيت السادس يقول الشاعر : إن من لم يدركه الموت شابا يسأم من الحياة ويناله طول الأرصاب ولا بد أن يسله - في يوم من الأيام - الموت إلى أجله المقدور .

والبيت السابع يقول فيه : إن الحياة لقيمة لها ولا فائدة منها إذا ما هرم الإنسان وصار جسما هليلا وعد حيثئذ من الأشياء التي لا يحسب لها حساب . والآيات كلها نغم واحد وفكرة موصولة ، ودعوة إلى الشجاعة والدفاع عن رأى والاستهانة بالموت ، والشاعر متأثر فيها بالعاطفة الدينية وبالحكمة الإسلامية وبروح القرآن الكريم .

وكان قطري أحد أعلام الشعراء الأمويين وهو قطري بن الفجاءة المازني أحد رؤس الخوارج - وزعمائهم الأشداء وقادتهم الأكفاء وأحد

الأبطال الفرسان كان شاعرا متحمسا لرأيه ومذهبه ، وخطيبا بليغا مؤثرا .

في شعره عاطفة التضحية ونغمة الإخلاص والفناء في العقيدة وحب الجهاد والتفاني في الدفاع عن الشرف والعرض ، مع حماس شديد ، ورقة نفس وإباء . . .

وأسلوبه قوى جزل بليغ ، وكان قطري من أفصح العرب بيانا وأبلغهم لسانا نشأ متادبا بأداب الإسلام منطوية جوانحه على الإخلاص له وحب تعاليمه .

واشتهر بالورع والتقوى ، ولما رأى مظالم بني أمية خرج عليهم أيام عبد الله بن الزبير وقاتل جيوشهم ، ونكل بجيوش الخلافة الأموية وسلم عليه أتباعه بالخلافة حتى قتل بطبرستان عام ٧٩ هـ .

#### الهجاء :

ومن هجاء الفرزدق لجرير :

ولو ترى بلوم بنى كليب	نجوم الليل ما وضعت لسارى
ولو لبس النهار بنو كليب	لدنس لؤمهم وضع النهار
وما يندو عدى بنى كليب	ليطلب حاجة إلا بجار

وقوله كذلك في هجاء جرير :

فإن تك كلباً من كليب فإنى	من الدارمين الطوال الشقاشق
هم الداخولون البيت لاتدخلونه	على الملك ، والحامون عند الحقائق
ونحن إذا عدت معد قديمها	مكان النواصى من وجوه السوابق

ومن قصائد الهجاء المشهورة قول جرير يهجو الراعي النيرى في قصيدته  
التي مطلعها :

أقل اللوم عاذل والعنابا وقولى إن أصبت لقد أصابا  
ومنها :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا  
ففض الطرف إنك من نمر فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن نماذج الهجاء قول قنبر بن ضمرة :

أن يسمعوا رية طاروا بها فرحاً منى وما سمعوا من صالح دفنوا  
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا  
جهلاً علينا وجبنا عن عدوم لبست الخلتان : الجهل والجبن  
وقال عبد الرحمن بن الحكم .

لما الله قيساً قيساً هيلان إنها أضاعت ثغور المسلمين وولت  
فشاوول بقيس في الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية سلت  
وقال مالك بن أسماء في الهجاء :

لو كنت أحمل خمر أيوم زرتكمو لم ينكر السكب أنى صاحب الدار  
لكن أتيت وريح المسك يفغنى وعبر الهند أذكيه على النار  
فأنكر السكب ربحى حين أبصرنى وكان يعرف ريح الزق والقار  
وقال الطرماس يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت  
ولو أن برغوثاً على ظهر نملة يكر على صنئ تميم لولت

وقد انتشر الهجاء في هذا العصر انتشاراً كثيراً ، لكثرة أسبابه ، وتعدد  
دواعيه ، فقد كان هناك هجاء سياسى بين شعراء الأحزاب كما أسلفنا ، وهجاء

شخصى بين الشعراء أنفسهم ، دعت إليه المنافسة على أبواب الخلفاء والولاة أو العصبية للقبيلة .

ولقد أخش الشعراء في هذا الباب ، وألحوا على ذكر المثالب والعيوب ، ونبشوا ما حرص الإسلام على دفته ، من إثارة الخصومات ، وبعث العداوات وأشهر ضروب المهاجمة في العصر الأموي المهاجمة بين جرير والفرزدق والأخطل ، فقد قذفوا كل عرض ، وانتسكوا كل حرمة . وشجعهم على ذلك حرص الخلفاء على أن ينصرف الناس باستماع هذا الشعر ، والخلاف فيه ، عن معارضتهم في السياسة ، ومنازعتهم على السلطان .

والدارس لما فاضت به قرائح الشعراء في هذا العصر يرى أنهم لم يتورعوا ولم يحجزم تقى ولادين ، عن رمى المحصنات . وقذف الأعراض حتى كان الناس يستجيرون بقبر غالب أبي الفرزدق من هجائه فيجبرهم . وكان جرير كذلك مولعا أشد الولع بالوقوف في الأعراض ، ويعد النساء شطر الهجاء ومادة الإقذاع ، حتى يقال إنه دعا رجلا من شعراء بني كلاب إلى مهاجمته . فقال الكلابي : إن نسائي بامتعتن ولم تدع الشعراء في نسائك مترفقا .

ولكثرة ما أثم الشعراء ، وما خاضوا فيه من إفك وإثم ، أحس بعضهم بشاعة ما أجرم ، وشناعة ما قذف من عرض ، وهتك من ستر ، وخرق من حرمة ، حتى إن الفرزدق نسك في آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكذب في شعره ، ولا يشتم مسلما .

ومن الهجاء هذه القصيدة الدالية للفرزدق ، وهو أحد الشعراء الثلاثة ، الذين حملوا لواء الشعر في العصر الأموي ، والفرزدق بخاصة أحييا ثلث اللغة العربية في شعره ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقيل بن بني مجاشع بن دارم التميمي وكنيته أبو فراس ؛ ويقال إن الأبيات للبرج التميمي وكان الحجاج قد وجهه لقتال الأزارقة فهرب إلى الشام وقال هذه الأبيات ، ونسبت إلى مالك بن الربيع في كتاب الكامل للبرد :

إن تنصفونا يال مروان نقرب منكم وإلا فاذنوا ببعاد (١)  
فإن لنا عنكم مراحا ومذهبا بعيس إلى ربح الفلاة صوادي  
نخيسة بزل تخايل في البرى سوار على طول الفلاة غوادي (٢)  
وفي الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب  
وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

(١) تنصفونا تعاملونا بالعدل . واذنوا اعلبوا من أذن بالشئ يأذن إذا وأذنه بالفتح فهما علم به - يقول : إن عدلتم في معاملتنا أقنأمعكم وفى ولايتكم وعلى ولاء لكم ، وإن جرتم فأعلبوا أنا قادرون على الخروج عليكم والبعد عنكم .

(٢) مراحا : مصدر ميمي من راح الرجل يروح ويريح روحا ويريحاً ذهب وتباعده . والعيس الإبل البيض يخاطب بياضها شقرة والذكر أعيس والإثني عيساء . والصوادي العطاش من صدى كتعب عطش . ونخيسة مروضة مذلة اسم مفعول من خيس الدابة راضها وذلك . وبزل بضمين سكن للضرورة جمع بزول كصبور وصبر من بزل البعير طلع نابه فهو وهى بازل وبزول وذلك إذا بلغ التاسعة . والبرى جمع برة حلقة تجعل فى أنف البعير . والتخايل والاختيال المرح والنشاط . والسوارى السائرة بالليل من سرى يسرى . والغوادي السائرة بالنهار . والمعنى : إن خرجتم فى معاملتنا عن العدل ابتعدنا عنكم وخرجنا من ولايتكم إلى فلاة لم تنلها قدرتكم . لم يبلغها سلطانكم بابل نجيبة تحن إلى الصحراء منقاداً لأمرنا موقوفة على إرادتنا قادرة قوية على قطع المسافات البعيدة ، مطيقة ، تواصل سرى الليل بسير النهار .

(٣) المنأى مكان النأى وهو البعد والمذهب مكان الذهاب ، وأوطنت مبنى المجهول يقال أوطنت الأرض ووطنتها توطئنا واستوطنتها إذا اتخذتها وطناً تقيم فيه . يقول : فى الأرض أما كن فسيحة تنجيك من احتمال الضيم وكل بلاد أقت بها وطاب لك العيش فيها هى كسقط رأسك ومحل ولادتك :  
تلقى بكل بلاد إن أقت بها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران  
كشف لك فى هذا البيت أن نفسه تطيب بالسفر وتسو عن الأهل والبلد إذا لم تجد عدالة تعيش فى ظلها ولم الإقامة فى دار يسودها الظلم ؟

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن خلفنا حفير زياد (١)  
فباستأبى الحجاج واستعجزه عتيد بهم ترتى بوهاد (٢)  
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إباد  
زمان هو العبد المعز بذله يراوح صبيان القرى ويفادى (٣)

### التقائض في عصر بني أمية (٤)

فن جديد من الشعر في العصر الأموي ، استلزمه الجدل السياسي والقبل  
والاجتماعي والأدبي، ونبغ فيه كثير من الشعراء كجربير والفرزدق والأخطل

(١) الجهد الطاقة وخلفنا تركنا ورامنا . وحفير زياد نهر حفرة زياد بن  
أبيه . يقول : إذا فارقت بملكته وتباعدت عن سلطانته وجلوزت حدود عمله  
فلا قدرة له على .

(٢) عتيد مصغر عتود وهو مارعى وقوى من أولاد المعز وأتى عليه حول .  
والبهم أولاد المعز الصغار الواحد بهمة للذكر والأنثى . وباسته متعلق بفعل  
محذوف وهي من شتائم العرب المفحشة وعتيد منصوب على الذم . والمعنى : أنه  
في خسته ودناءته ورياسته لأمثاله أشبه بعتود مع بهم .

(٣) يقول : لولا عبد الملك بن مروان وبنوه لظل الحجاج معلم كتاب وهم  
يذكرون أن الحجاج كان معلما بالطائف وكان لقبه كليبيا وفي ذلك يقول الشاعر :  
أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر  
رغيف له فلكه ماترى وآخر كالقمر الأزهر

والعرب تحط من أقدار المعدلين وتضرب بهم المثل في الضعف وتنتهي عن  
مشاورتهم ، روى الجاحظ أنهم كانوا يقولون : لا ينبغي لعاقل أن يشاور أحداً  
من خمسة : الغزال والقطان والمعلم وراعى العنان والرجل الكثير المحادثة للنساء ،  
وتلك بقية من أميتهم .

(٤) هي جمع تقيضة من نقض البناء أى هدمه ، ونقض الحبل أى حله ، قال  
تعالى : ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، ونافضته مناقضة  
أبطلت كلامه وأثبتت بما يغيره .

يقول أحدهم قصيدة في موضوع وغالبا ما يكون الفخر أو الهجاء، فيهب الآخر للرد على الشاعر والأخذ بالنار منه، فينظم قصيدة على نمط القصيدة الأولى وزنا وقافية غالبا، يبطل فيها معاني الشاعر الأول وكل أفكاره، بعكس المعارض، والمعارضة التي هي تأييد لكل أفكار القصيدة المعارضة، وتخالف المنافرة أيضا، التي هي أن يفخر الرجلان بشعرهما ويحتسكان إلى آخر ليفصل بينهما في القضية.

وإذا كانت النقائض القبلية قد وجدت في العصر الجاهلي فيما قبل في يومى الكلاب الأول، والكلاب الثاني، والنقائض الدينية قد وجدت في عصر النبوة بين حسان وابن الزبيرى وضرار بن الخطاب مثلا، فإن النقائض الأموية فن سياسى وأدبى جديد نشأ بتأثير الحاجة إليه في شئون السياسة والعصية والأدب، فالجانب السياسى والأدبى منه جديد كل الجدة، أما الجانب القبلى الاجتماعى فهو تطور للجدل القبلى الجاهلى القديم.

وقد اشتدت معركة الهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل ودخل فيها الكثير من الشعراء الأمويين، وفي هذه المعركة قيلت أكثر النقائض المأثورة التي جمعها أبو عبيدة (٥٢١٣ : ٨٢٨ م)، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق ونشرها أنطونى ييفان في ثلاثة أجزاء، ونشر الأب أنطون صالحانى نقائض جرير والأخطل.

والنقائض تصور الشعر الأموى تصويرا قويا واضحا، وتمتاز هذه النقائض بماسادها من روح الإسفاف والمبالغة، ونهش الأعراض والتعرض للحرمان والكرامات : مماثلة نقائض هؤلاء الشعراء، ومما لاداعى لتسجيل صورة لها فهي معروضة في جميع كتب الأدب الأموى، وبخاصة في كتاب النقائض لأبي عبيدة.

ومن طريف صور شعر الهجاء قول شاعر يهجو امرأته وقد طلقها :

رحلت أنيسة بالطلاق وعتقت من رق الوثاق (١)  
بانت فلم يأم لها قلبي ولم تبك المآق (٢)  
ودواء مالا تشتهي ه النفس تعجيل الفراق (٣)  
لو لم أرح بفراقها لأرحت نفسي بالإباق (٤)  
وخصيت نفسي لا أريد د حليلة حتى التلاق (٥)

### الفخر :

ومن نماذجه هذه الصورة الشعرية للطرماع وهي تجمع بين الفخر والحكمة ، قال شاعرنا الطرماع يصور شقاءه بالثام :

لقد زادني حبا لنفسي أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل (٦)

- 
- (١) قوله « بالطلاق » موضع الباء نصب على الحال : أى رحلت ومعها طلاقها ، يقول : كنت كالأسير الموثق ففككت وثاقى .
- (٢) جعل البكاء المآق مجازاً ، وهو جمع موق ، وهو طرف العين الذى يلى الأنف ، وهو مخرج الدمع ، ولذلك جعل الفعل لها .
- (٣) يريد تعجيل فراقه ، فجعل اللفظ عاما والمراد الخاص ، وعلى هذا قوله « من رق الوثاق » يريد وثاقها .
- (٤) « الإباق » الحرب ، والراحة وجدانك الروح بعد مشقة ، و « ماله » رواح ، أى راحة ، والتراويح فى رمضان منه ، وكذلك تراوحته الأمطار ، وافعل ذلك فى سراح ورواح .
- (٥) الحليلة : الزوج ، سميت بذلك لأنها تحاله : أى تنازله . حتى التلاق : إلى وقت تلاق الخلق فى يوم القيامة .
- (٦) غير طائل : أى لا قيمة له ولا وزن له ، والمعنى زادنى بغضا إلى كل رجل لاخير فيه حبا لنفسي .



وأنى شقي باللاثام ولا ترى شقيا بهم إلا كريم الشئائل (١)  
 إذا ما رآنى قطع الطرف بينه وبينى فعل العارف المتجاهل (٢)  
 ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق فى عينيه كفة حابل (٣)  
 أكل امرئ الذى أباه مقصرا معاد لأهل المكرمات الأوائل (٤)  
 إذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل (٥)  
 وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل (٦)

والطرماح من طى نشأ بالشام واتبع آراء الأزارقة من الخوارج وكان  
 صديق الكميث الشاعر مع شيعية الكميث ، وأنشد للكميث يوما للطرماح  
 قول الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترختى عنان القصائد  
 فقال الكميث : إى والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة

- (١) أى وزادنى حبا لنفسي شقائى باللاثام ينتقصوننى ويزدروننى ، ولا يشقى باللاثام إلا كرام الناس وأفاضلهم .  
 (٢) رآنى أى أبصرنى . قطع الطرف أى رد طرفه عنى وقطع نظره إلى .  
 المتجاهل الذى يدعى الجهل وليس بجاهل ، والمعنى . إذا رآنى قطع نظرى عنى  
 وة كلف الجهل .  
 (٣) ملأت عليه الأرض أى ضيقتها عليه . كفة الحابل الحفيرة التى تنصب  
 الحبال فيها لأنها تجعل كالطوق . الحابل صاحب الحباله ، والمعنى : ضاقت على العذر  
 الأرض بما رحبت وصارت فى نظره أضيق من كفة الحابل  
 (٤) أكل امرئ وجد أباه عاجزا عن نيل ما يكسبه من الفضائل وبينه  
 يعادى أهل المجد والشرف والسابقين .  
 (٥) المسعاة : السعى . اضطنى بوزن افتعل من الضنى أى أنه يضنى إذا ذكر  
 صنيع والده لقبحه ومع هذا يشتم أهل الفضائل .  
 (٦) القنا الرماح . القنابل : جماعات الخيل . والمعنى : العز بالقوة والغلبة  
 على الأعداء .

وكان شاعرا مجيدا من فحول الشعراء الإسلاميين عاش في عصر بني أمية وحارب الأمويين بسيفه ولسانه حتى لقي ربه .

وفي هذه الأبيات السمعة يصور الطرماح شخصيته ونفسه وفضائله ويذكر كيف حقق عليه اللثام وعاداه كل إنسان لم يستطع الوصول إلى منازلته في الفضل والعزة .

وفي البيت الأول يقول: إنني أزداد حبا لنفسي حين أراني بغيضا مكروها من كل امرئ غامل عاجز عن السعي عن درك المجد الذي أدركته .

وفي البيت الثاني يقول: وبما زادني حبا في نفسي أنني أراني أشقى باللثام من الناس وبأخلاقهم ولا يشقى بهم إلا كرام الناس .

وفي البيت الثالث يصور تجاهل اللثيم لشخصية الطرماح فيقول: إنه يعرف الشاعر ولكنه يتجاهل وجوده حقدًا يملأ قلبه وبغضاء تشتعل نارها في نفسه وجوانحه لخموله مع ذبوع ذكر الشاعر ومجده . وكما يقول الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود  
لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وفي البيت الرابع يقول الطرماح: إن شخصيته أحاطت بهذا اللثيم المتجاهل من كل مكان وسدت عليه رحاب الأرض بما وسعت فهو يملأ عليه الأرض كلها حتى إنها لتضيق بهذا اللثيم وكأنها من الضيق حفرة صغيرة .

وفي البيت الخامس يتعجب الشاعر من حقد هؤلاء اللثام ويقول: إن كل إنسان وضع ليس له مجد ولا حسب يصبح معاديا لأولى الفضائل والأدب والحسب من الناس .

وفي البيت السادس يقول: إن هذا اللثيم إن ذكرت سيرة أبيه ناله الألم والعننى والفرع لسوء أصله وقبح فعله ، ولكنه لا يتأله هذا الألم وهو يشتم الناس ويسب أهل الفضل والفضائل منهم .

وفي البيت السابع يقول الشاعر: إن المذعة والعزة لا تكتسب إلا بالرماح  
والقتال فالعز بالقوة والغلبة على الأعداء، وهو معنى واحد تناوله هذا الشاعر  
الأموي فصوره أحسن تصوير ووضحه أكمل توضيح وأبان عنه إبانة كاملة.

#### وصف الانفعالات النفسية :

قال رجل من شذاذ بني تميم يدعى أبا النشناس (١):

وسائلة أين الرحيل وسائل	ومن يسأل الصعلوك أين مذهبه (٢)
مذاهبه أن الفجاج عريضة	إذا ضن عنه بالنوال أقاربه
وللموت خير للفتى من قعوده	عديما ومن مولى أعاف مشاربه
ليدرك ثارا أو ليكسب مغنا	ألا إن هذا الدهر ترى عجائبه
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى	ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعض معذرا أو مت كريما فإننى	أرى الموت لا يبق على من يطالبه

#### الممدح:

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أتصحو ؛ أم فؤادك غير صاح	عشية هم صبحك بالرواح (٣)
تقول العاذلات : علاك شيب	أهذا الشيب : يمنعنى مراحى ؟ (٤)
تعزت أم حزرة ثم قالت :	رأيت الواردين ذوى امتناح (٥)

(١) كان أبو النشناس من ذؤبان تميم وقتيائهم ، وكان يعترض القوافل  
بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها .

(٢) الصعلوك الفقير الذى لا مال له .

(٣) تصحو : تترك الباطل . الرواح : الذهاب عشية . ويصح أن تكون  
أم بمعنى بل .

(٤) المراح : الاختيال والتبختر .

(٥) أم حزرة : زوج جرير . امتناح : عطاء .

تعلل وهي ساغبة بنيتها بأنفاس من الشيم القراح (١)  
 ساءتاح البحور لجنيني أذاة اللوم وانتظري امتياحي (٢)  
 ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح  
 أغنى - يافداك أبي وأمي - بسبب منك إنك ذو ارتياح (٣)  
 فإني قد رأيت على حقاً زيارتي الخليفة وامتداحي  
 سأشكر إن رددت على ريشي وأنبت القوادم في جناحي (٤)  
 أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (٥)  
 وقوم قد سموت لهم فدانوا بدم في ململة رداح (٦)  
 أبحت حمى نهامة بعد نجد وما شيء حميت بمسنباح (٧)

ومن شعراء المدح جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، ومنهم أبو دهل  
 الجعفي القرشي ، وأمه من هذيل ، مدح معاوية وعبد الله بن الزبير ، وكان  
 ابن الزبير ولده بعض أعمال البين ، ورثي الحسين بن علي وابن الأزرق ،  
 ووفد على سليمان بن عبد الملك (٨) .

- 
- (١) تعلل : تشغل وتلهي ساغبة جائعة الشيم البارد من الماء القراح الصافي .  
 (٢) متح الماء استقاء واستخرجه من البئر والمراد العطاء الذي يناله من عبد  
 الملك بن مروان المشبه بالبحر عطاء .  
 (٣) السبب العطاء ذو ارتياح أي إلى النكرم .  
 (٤) القوادم جمع قادمة الريش في مقدم الجناح وهي كبار الريش وضدما  
 الخواقي والمراد إن أعزرتني .  
 (٥) المطايا جمع مطية ، الراح جمع راحة بطن الكف .  
 (٦) سموت لهم : خرجت إليهم محاربا . دانوا خضعوا . دم خيل سود ،  
 الواحد أدم . الململة الكثيرة المجتمعة وداح كتيبة ثقيلة .  
 (٧) أبحت حلت . الحمى ما يحميه الإنسان ويمنعه - إشارة إلى حروبه في بلاد العرب  
 (٨) ١١٤ - ١٤٥ : ٧ الأغاني .

### الرثاء :

ونماذجه كثره في الشعر الأموي : قال جرير يرثي زوجته :

ولولا الحياء لما جنى استعمار	ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد أراك كسيت أجل منظر	ومع الجمال سكينه ووقار
والريح طيبة إذا استقبلتها	والعرض لادنس ولا خوار
وإذا سريت رأيت نارك نورت	وجها أغر يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا	والصالحون عليك والآبرار

وقال كعب الغنوي يرثي أخاه :

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً	كأنك يحميك الشراب طيب
فقلت نحول من خطوب تتابع	على كبار والزمان يرب
لعمري لئن كانت أصابت منية	أخى فالمنايا للرجال شعوب
فإني لبأكيه وإني لصادق	عليه وبعض القائلين كذوب
أخ كان يكفيني وكان يعينني	على نائبات الدهر حين تنوب
هو العسل الماذى ليناً وشيمة	وليث إذا لاقى الرجال قطوب
كعالية الرمح الرديني لم يكن	إذا ابتدر الخيل الرجال يخيب
وداع دعايا من يجيب إلى الندى	فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقالت أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس أمير الين للخليفة على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في رثاء طفليه ، وكان معاوية قد بعث قائده بسر بن أرطاة إلى الين ، ففر من وجهه عبيد الله ، فعمد بسر إلى طفليه الصغيرين فذبحهما بمدة ، فقالت أمهما ترثيهما :

يا من أحس بابني اللذين هما	كالدريتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بابني اللذين هما	سمعى وقلبي ، فقلبي اليوم مزدلف

يامن أحس بابني اللذين هما مخ العظام ، فخرى اليوم مختطف  
نبتت بسرأ ، وما صدقت مازعموا

من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا  
أنحى على ودجى ابني مرفقة مشحودة ، وكذلك الإثم يقترب  
حتى لقيت رجالا من أرومته شم الأنوف لهم فى قومهم شرف  
فالآن ألعن بسرأ حق لعنته هذا لعمر أبى بسر هو السرف  
من دل والهة حيرى مدله على صبيين حلا ، إذ غدا السلف

وقال عبدالله بن عمر الأموى (١) يرثى بنى أمية حين نكسهم العباسيون  
وهى من روائع الرثاء للدول :

تقول أمامة لما رأت نشوزى عن المضجع الأنفس  
وقلة نوى على مضجعى لدى هجمة الأعين النعس  
أبى : ما عراك ؟ فقلت المهموم منعن أباك فلا تبلى (٢)  
عرون أباك فخبسناه من الذل فى شر ما محبس  
لفقد العشيرة إذ نالها سهام من الحرب لم تبا مس  
رمتها المنون بلا أنفصل ولا طائشات ولا نكس (٣)  
بأسهمها الخالسات النفوس متى ما اقتضت مهجة تخنس (٤)

(١) شاعر مجيد من شعراء قريش أدرك الدولة العباسية ويكنى أبا عدى ،  
ويلقب بأقبلى ، وكان رغم انتسابه الى بنى أمية يميل الى بنى هاشم .

(٢) أبلى الرجل : يئس من رحمة الله .

(٣) فصل السهم : حديدتها . ونكس : جمع فكس - بكسر النون وسكون  
الكاف : أضعف السهام ، ومعنى البيتين : أن المنون رمتها بسهام لانفصالها ولا  
هى طائشة ولا ضعيفة .

(٤) خنس النفس : أخذها من حيث لا تتقى . وخنس : اختفى واتقضى .

( ١١٢ - ق ١ )

فصرعاهم في نواحي البلا      د تاقى بأرض ولم ترمس<sup>(١)</sup>  
 كريم أصيب وأنوابه      من العار والذام لم تدنس<sup>(٢)</sup>  
 وآخر قد طار خوف الردى      وكان الهمام فلم يخس  
 فكم غادروا من بواكي العيو      ن مرضى ومن صبية بؤس  
 إذا ما ذكرتهم لم تتم      لحر الهوم ولم تجلس  
 يرجعن مثل بكاء الحما      م في مأتم فلق المجلس  
 فذاك الذي غالى فاعلى      ولا تسألني فتستجس  
 أفاض المدامع قتلى كدا      وقتلى ببسكة لم ترمس<sup>(٣)</sup>  
 وبالزايين نفوس ثوت      وقتلى بنهر أبي قرطس  
 أولئك قومي تداعت بهم      نواب من زمن متعس  
 أذلت قيادي لمن رامني      وألقت الرغم بالمعطس  
 فما أنس لا أنس قتلام      ولا عاش بعدهم من نسي

ومن أشهر قصائد الرثاء في هذا العصر قصيدة لمالك بن الريب يرثى نفسه ، وكان قد خرج للغزو في جيش سعيد بن عثمان إلى خراسان فأدركته المنية ، وهو عائد من هناك :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة      بحجب الغضا أزجي القلاص النواجيا  
 فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه      ولبت الغضا ماشى الركاب لياليا  
 لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا      مزار ولكن الغضا ليس دانيا  
 ألم ترني بعث الضلالة بالهدى      وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا  
 تذكرت من يبكي على فلم أجد      سوى السيف والرمح الرديني باكيا  
 وأشقر محبوك بجر لجائه      إلى المساء لم يترك له الموت ساقيا

(١) ترمس : تقبر . (٢) الذام : النم .

(٣) كدا الثانية السفلى مما يلي باب العمرة ببسكة .

ولكن بأكناف السمينة نسوة      عزيز عليهن العشيّة مايا  
صرّيع على أيدي الرجال بقفرة      يسورن قهرى حيث حم قضائيا  
ولما زامت عند مرو منيني      وخل بها جسمى وحانت وفانيا  
أقول لأصحابي ارفعوني فإنه      يقر بعينى أن سهيل بداليا  
فيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا      براية إني مقم لياليا  
أقبما على اليوم أو بعض ليلة      ولا تعجلاني قد تبين شائيا  
وقوما إذا ما استل روى فميشا      لى الصدر والأكفان ثم ابكياليا  
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى      وردا على عيني فضل ردائيا  
ولا تحسداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعاليا  
خذاني فخراني ببردى إيسكا      فقد كان قبل اليوم صعباً قياديا  
أقلب طرفي فوق رحلى فلا أرى      به من عيون المؤنسات مراعيما  
وبالرمل منا نسوة لو شهدني      بكين وفدين الطبيب المداويا  
وما كان عهد الرمل عندي وأهله      ذميا ولا ودعت بالرمل قاليا  
فهن أمى وابنتاها وخالتى      وباكية أخرى تهيج البواكيا  
وعندما تريد أن تتعرف إلى المعاني التي أراد الشاعر أن يصورها في تصيدته  
تجده يقول :

١ - ألا ليتني أعرف ، وأنا مشرف الآن على التلف والهلاك : هل  
أمد بأسباب السلامة والبقاء ؟ فأعود إلى وطني الغضا لأبيت ولو ليلة واحدة  
بأكنافه ، أسوق كما كان شأني في أوقات الصحة والسلامة هذه النوق الطوال  
القوائم المسرعات في السير .

٢ - ولكن من أين لي هذا ، وأنا على ما أنا عليه من وشك التلف



والهلاك؟ فليت الركب الذى كنا فيه لم يقطع جانب الغضا وناحيته ، وليت الركاب التى سارت بنا إذ قدر لها أن تقطعه سارت بنا فيه ليالى كثيرة لا هذا الزمن اليسير الذى فارقتاه فيه .

٣ - لقد كان لى فى أهل الغضا لو كان الغضا قريبا منى موضع زيارة يشقى غلة الشوق إليهم ، ويسلبنى عما أصابنى ونزل بى ، ولكن من أين لى هذا؟ والغضا بعيد ليس بقريب .

٤ - قد يسلبنى عما صرت إليه ، وما نزل بى ، أنى استبدلت الهدى بالضلال ، وأصبحت غازيا فى جيش سعيد بن عثمان ، يعنى بعدما كان من فتكك ، وقطعه للطريق .

٥ ، ٦ - تذكرت كما يتذكر من يدرك الموت من يبكى على من الأهل والأحباب فلم أجد إلا هذه الأشياء الملازمة لى ملازمة الأمل والأحباب : سبنى ورمى ، وفرسى الذى تركه موتى بما قدم من أسباب ضعفى ، وعجزى بلا كافل يكفله ، ولا ساق يسقيه .

٧ - وليس معنى هذا أنى لا خليل لى من الناس يبكىنى . فإن هناك حيث قوى بالسمنية نسوة يعز عليهن ما نزل بى فى هذه العشية .

٨ - أنا صريع ملقى على أيدى الرجال بأرض خالية لا عشير بها ولا أنيس ، وفى هذه الأرض سيسوون قبرى لأن بها قد وقع ونزل بى القضاء .

٩ ، ١٠ - وحين ترامت لى ، وظهرت عند هذه المدينة الخراسانية - مرو - أسباب منيتى بادية شيئا فشيئا ، واختل جسمى واضمححل ، وأنى حين موتى لم أجد من سبيل إلى الاتصال بأهلى ووطنى سوى رؤية هذا النجم العربى الذى يطلع على قوى . فأنا أقول لأصحابى : ارفعونى لأراه فتقر به عينى . وذلك كقول القائل :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني  
نعم . وأرى الهلال كما تراه ويعلموها النهار كما علاني

١١ - فيأصاحبي رحلي ، ورفيقي سفري . إنه لم يبق من وجه لسفري مثلي  
فأنزلا بي في مكان مرتفع لتسروا به قبرى فإني مقيم ليالى كثيرة متطاوله .

١٢ - امكثا على رعايتي ، والقيام بشأني سائر هذا اليوم ، أو سائر  
وبعض الليل . فإني لن أجارز هذين الوقتين ، ولا تعجلا بفراقى فإنه لا وجه  
للبل منى . فشأني كما قد ظهر وتبين نذير بموت قريب غير بعيد .

١٣ - وقوما إذا ما نزعتم روحي بما يجب لى عليكما من حق الصحبة :  
من تهية السدر لحنوطى وغسلى ، ومن تهية أكفاني وابكيا لموتى ،  
وعلى فراقى .

١٤ - واحفرا مضجعى بأطراف الاسنة ، فإنها هى مامعكا أو لان  
الفرسان من أمثالى لا ينبغي أن تحفر قبورهم إلا بها وافعلاني ما تقتضيه  
السنة : من ردرداني على وجهى .

١٥ - وأنها كما ياصاحبي - بارك الله لكما فى كل ما آتاكما - أن تحسداني  
على هذه الأرض الواسعة التى انفردت بمرضها وحدى .

١٦ - إذا ما أردتما إنفاذ وصيتي لكما بتجهيزي ، ودقنى فخراني بثوبى  
إليكما . فإن ذلك أصبح ميسوراً لكما بعد موتى ، أما قبله فما كان أحد يطمع  
فى مثل ذلك منى .

١٧ - إني ليعاودنى فى هذا الموقف الحاسم من مواقف الفراق الذى  
جرت العادة فى مثله أن تحيط بالإنسان عيون المؤانسات المراعات من  
الحبايب المشفقات الحانيات ، ذكراهن ومشهدهن . فأحول بصرى من حول  
رحلى مكذبا لعللى لعللى أرى منهن واحدة فلا أجد . فياللوعة الوحدة ،  
وياالفعل النوى ، وياالوحشة الفراق والاختراب .

١٨ - بمواطني ومنازل أهلي منهن نسوة لو حضرنني ، ورأين ما بي لبكين  
على مصابي ، ولقلن للطبيب : فداؤك الآباء والأمهات ، وكل ما يكون من  
الغداء لو شفاه الله بعلاجك .

١٩ - وما كان هذا العراق الذي أعانيه لو طئ لآني ذمت عهده والعيش  
فيه ولا لآني ودعت من فيه كارها له أو كارها لي ، وذلك كقول القائل :  
فوالله ما فارقتم قالبا لكم ولكن ما يقضي فسوف يكون

٢٠ - فن هؤلاء المؤنسات المراعات اللواتي لو حضرن حالي لبكين  
على وفدين الطبيب المداوي ، من لا يشك في مودته ، وحبه لي: أمي وأختاي  
وغالتي وزوجي التي لن تجد فقدا كفقدي ، ولن تبكي أحداً مثلي فهي تهيج  
ببكاها كل من حضرها فتثيره على البكاء والانتحاب .

وكان مالك بن الرب المازني التيمي شاعراً إسلامياً مجيداً نشأ في بادية  
بنى تميم قرب البصرة ونظم الشعر الرقيق الجيد ونال الناس بالشعر والهجاء  
فطلبه الولاة وفرمنهم ثم أخذه معه سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان  
من قبل معاوية . ولما عاد مالك من خراسان مرض ، فنظم هذه القصيدة  
الرائعة يذكر فيها مرضه وغربته ، وينعى نفسه ، ويرثيها .

ويروى أن مالك بن الرب كان من أجمل العرب جمالاً وأبينهم  
بياناً ، فلما رآه سعيد أعجبه فقال له : ويحك يا مالك ما الذي يدعوك إلى ما يلغيني  
عنك من العداة وقطع الطريق ؟ قال أصلح الله الأمير : العجز عن مكافأة  
الإخوان ، قال : فإن أغنيئك واستصحبتك أن تكف عما تفعل وتتبعني ؟ قال  
نعم أصلح الله الأمير ، أكف كفا ما كف أحد أحسن منه فاستصعبه  
وأجرى عليه خمسمائة دينار في كل شهر ، وكان معه حتى قتل بخراسان .

## ٢ - أساليب الشعر الأموى وألفاظه

١ - الأسلوب في اللغة الطريق وعنق الأسد والسطر من التخييل والوجه والمذهب والفن ، والأسلوب الأدبي يعرفه ابن خلدون في حديث طويل بأنه المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القباب الذى يفرغ فيه (١) ، فهو يراه في الصورة الأدبية الممتازة التى يحتذىها الأدباء والشعراء وينسجون في أدبهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحدثين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الانعاش والتأثير ، أو هو طريقة التفكيك والتصوير والتعبير (٢) ، ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لئيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه ؛ ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في نفس القارئ أو السامع ، ويذكرون أن له غرضين : نقل الحقائق أو المعاني إلى ذهن السامع أو القارئ ، ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير .

ونعرفه نحن بأنه نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه ، والطريقة التى يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه ، وما يؤثر في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة في شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة ، وتورية وتدريج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التى يسير عليها في صياغته من تقديم أو تأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطالة إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، وما يراعىه الكاتب والشاعر من أوصاف في بدء كلامه وفي فصوله وخاتمته .

(١) ٥٧٠ مقدمة ابن خلدون . (٢) راجع ٣٣ - ٣٩ الأسلوب للشايب .

والأسلوب هو الوسيلة التي ينقل بها الأديب والشاعر فكرته وعاطفته وآراءه ومعانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير .

ويمتاز أسلوب الشعر بمافيه من حرارة وعاطفة وقوة تأثير ، ولطف تخيل ، وما يشتمل عليه من طبع وصدق وإخلاص وقدرة على إلهاب المشاعر ، وتأجيج العواطف ، وإثارة الانفعالات النفسية العميقة .  
إن الشعر موسيقى خالدة أبدية ، لألحانها أثر في القلب ، وهزة في النفس والوجدان ، لا يعدلها أثر .

٢ - ولقد تأثر الشعر العربي في عصر بني أمية بعوامل متعددة ، كان لكل عامل منها أثره الخاص في ألفاظه وأساليبه :

١ - فقد التفت العربي إلى القرآن الكريم ، وجعل يستظهر آياته ، ويتملى من بلاغته ، ويعجب بأساليبه البارة ، وأساظه العذبة ؛ وديباجته المشرقة ، واستمع إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يلتصع فيها من جوامع الكلم ، وسلامة الأسلوب ، وإشراق البيان ، فكان لهذا أثره في تهذيب لفظ الشعر وأسلوبه ، وترقيق حواشيه وصفاء ديباجته .

٢ - وإلى جانب ذلك عنى القوم برواية الشعر الجاهلي واستنظامه ، وإحياء آداب القدماء ، بما تنطوى عليه من جزالة الألفاظ ، وضخامة الأساليب ، فكان لابد أن تتأثر لذلك أذواقهم . وتنطبع عليه ألسنتهم ، ويظهر ذلك في منطقتهم .

٣ - ثم كان هناك شعراء غمرتهم الحضارة ، واستولى عليهم القرف ، وعاشوا في ظلال النعيم الذي أتبع لهذه الدولة . وللحضارة أثرها في رقة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وسهولة الأسلوب .

٤ - كما كان هناك شعراء آخرون عاشوا في البادية ، أو عاشوا بروح البادية ، وانطبعت في نفوسهم صورها الخشنة ، وأطياها الجافية ، فكانوا

بدوين في تفكيرهم ومنطقهم وأسلوب شعرهم ولم يغيروا من مناهجهم في الشعر شيئاً أكثر مما صنع الخضر دون .

ومن هنا وجدت في الشعر نزعات مختلفة ، ومذاهب متباينة وألوان متعددة كانت نتيجة لاختلاف هذه العوامل :

فهناك من الشعر ما يروعنا بجلالة جرسه ، ورقة لفظه ، وعذوبة أسلوبه وسماحة منزهه ، وتدفق الأنغام الشجية التي تنساب من بين ثناياه . وهو الشعر الذي تأثر بأدب الإسلام ، أو عاش في الحواضر المترفة . ومن أصحاب هذا النوع شعراء الغزل الحجازيون : كعمر وجبل والأحوص ، وبعض شعراء الأمصار كجرير ، الذي كان الفرزدق يقول فيه : ما أحوجنى مع فسوقى إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى .

وكذلك تجد في الشعر الأموى ما يطالعنا بجزالة لفظه ، وقوة أسلوبه ، ومتانة تركيبه ، وغرابة منزهه ، ووعورة مسلكه ، وبدانة سمته ، وذلك هو الشعر الذى تغذى أصحابه بآثار الجاهليين ، وارتضوا أفريق القدماء ، وعاشوا بروح البادية ، وانطبعوا بطابعها ، كالفرزدق وذو الرمة والقطامي والأخطل وقطرى بن الفجاءة .

٣ - ومن السمات البدوية التي شاعت في هذا العصر ظهور الأراجيز وكثرتها فقد عنوا بها عناية جعلتها تقرب من القصائد في أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البدوى ينظم منها بضع مشطورات يحدو بها الإبل أو يصفها أو يصف ظلياً أو ظلياً أو ثوراً وحشياً ، أخذ الفحول من الرجازين يطولون الأراجيز وينحون بها منحنى القصائد ، ويضمنونها أغراضها من المدح والهجاء والتفخر والثناء ، وصاروا يمهّدون لهذه الأغراض بالنسيب ، وذكر الديار وآثارها ، والظعن وحدودها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة .

ويرى بعض الأدباء كابن قتيبة أن الأغلب العجلى أول من اتخذ الرجز صناعة فنية ، وأطال فيه ، وجرده . أما أبو عبيدة فيذكر أن العجاج هو

أول من أطاله وقصده وشبب فيه ووصف الرحلة ، إلى الممدوح كما فعل الشعراء بالقصيدة ، فكان في الرجاز كأمريء القيس في الشعراء .

ومن الرجازين في العصر الأموي غير العجاج والأغلب العجلي : روبة ابن العجاج ، وأبو النجم ، ودكين . . . ومن أمثلة الرجز قول أبي النجم :

إني وكل شاعر من البشر      شيطانه أنثى وشيطاني ذكر  
فما رأني شاعر إلا استسر      فعل نجوم الليل عين القمر  
عيشي تميم واصغري فيمن صغر      وباشرى الذل وأعطى من عشر  
وأمرى الأثني عليك والذكر

### ٣- المعاني والأخيلة

أما معاني الشعر في هذا العصر فهي المعاني التي تدار لها الشعراء قبله ؛ بيد أنهم توسعوا فيها ، وزادوا عليها بما تهيأ لهم من مظاهر الحياة ، وألوان الحضارة ، وسعة الثقافة ، والاختلاط بأمم ذات حضارات ومعارف متنوعة ، بل إن من هذه الأمم من تم نصجها الأدبي ، واستوى فنه العربي ، فقال الشعر بالعربية متأثراً بثقافته وما ورث من أفكار ومعان وأخيلة .

ومن هنا غلبت على معاني الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار ، وكثرت الحكم والأمثال ، وتنوعت التشبيهات ، وسما الخيال ، وبدت صبغة الجودة واضحة في بعض المناحي والأغراض .

والخيال ملوك خصة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء تخيلاً وتصويراً يرضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب الروعة والجمال عرضاً مؤثراً نحسبه حقيقة أو كالحقيقة الملموسة ، يأخذ الشاعر الأشياء المألوفة التي يراها الناس جميعاً ثم يعمل فيها خياله فيخرجها

في صورة جديدة لم نكن نتوهمها ، فليس الخيال دائماً مجافاة للحقائق وبعداً عن المؤلف وقدرة على الإغراب والإتيان بما لا يسكون ، بل المهم أنه مرآة تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاها من كل شائبة وأخرجها لإخراجاً جديداً والخيال عادم للحقيقة وغايته تصوير ما حجب عنا من حقائق الوجود . وهو في حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن في انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها ، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة في الحياة المحيطة به مما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلاً فلهذا كرتة بدقة ثم يركز ذلك في ذهنه وأعماق شعوره تركيزاً تاماً ، يأخذ في الغوص في أغوار الذهن على التفاصيل ودلائلها ، مستغرقاً في نشوته الروحية وفي تأملاته ، وفي تصوره وتخيله استغراقاً تاماً يساعده على نشر المطوى من الملاحظات وأظهارها في فن جميل وآية من سحر القريض وهذا الاستغراق وتلك النشوة والغبطة بالتعبير عن النفس يفجران ينبوعاً من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشعرية وآثاراً من الفن والجمال ، فإدانة الشعر الأولى في العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل ويأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويحس به الإنسان ، وهذه العواطف هي البنايع المصادقة للشعر (١) ، وهي التي يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسعى ليركب الصور المودعة في العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فناً شعرياً يعبر

---

(١) والقدماء من النقاد يختلفون في مادة الشعر اختلافاً كبيراً ، فالجاحظ يراها في الأسلوب والنظم كما يداننا على ذلك قوله : والمعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخدير اللفظ وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير ( ٤ / ٣ الحيوان ) ، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر في الدلائل ، أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هي المعاني ( ١٤ نقد الشعر ) ، والآمدى وابن خلدون يربانها في الألفاظ ( ١٨٣ الموازنة ، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون ) .



عنها ويوضح ما خفي منها ، فليس الشعر صوراً وألفاظاً وعبارات ، إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صنّاع وملسكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة في صور من الألفاظ والأساليب ، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها ، فإذا كانت صور الخيال ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية كان الأثر الأدبي متكلفاً مصنوعاً لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكما وإحساس العاطفة قوياً نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصور جديدة احتيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة في الذاكرة وألفت تأليفاً جديداً سمى خيالاً مبتدعاً ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذي يصورها ويثبتها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خافت خيالاً رائعاً ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلوداً فعلينا أن نعتي بهذيب الشعور ليسكون إدراك الشاعر للحياة صادقاً عميقاً وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبي موهوباً ملمهاً ، فالخيال أنفع المواهب والملسكات في فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والعواطف الإنسانية .

## طوائف الشعراء الأمويين

انقسم الشعراء الأمويون طوائف ، من حيث أغراضهم الشعرية ، ومن حيث اتجاهاتهم الفنية :

(١) فهم من حيث الأغراض جماعات ثلاث :

١ - أما الأولى فشعراء الغزل : وقد مر بنا ذكر الكثير منهم ، ونماذج من أشعارهم ومذاهبهم في الغزل . ومن أشهرهم : جميل بن معمر المتوفى عام ٨٨٠ ، وكثير عزة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ونصيب ، والأحوص .

ويمتاز شعر الغزليين على وجه العموم بالركة والعذوبة والسهولة .

٢ - والثانية الشعراء السياسيون : الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والعصبيات القبلية ، وإذاعة المفاخر والمثالب ؛ ومن هؤلاء : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والكميت ، وابن قيس الرقيات ، ممن انتموا إلى الأحزاب السياسية يؤيدون أصحابها . وينصرونهم بقوة البيان ويشيدون بدعواتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، ويجمعون حولهم القلوب ، ويفرقون في سبيل مذهبهم الوحدة ، حتى صار شعرهم غذاء للعصبيات ، ومادة للمفاخرات والمهازات ، يروى أن الهاشميين حرصوا للكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، قال المسعودي في مروج الذهب : إن عبيد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال للكميت : إني قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض مانح ، فأنشده قصيدة ذكر فيها مناقب بني نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب في وصفهم وفضلهم على بني قحطان ، وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قر السماء وكل نجسم تشير إليه أبدي المهتدين  
وجدت الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنين  
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبين

٣ - والثالثة: الشعراء الهجاءون : الذين أكثروا من الهجاء ، وعاشوا عليه ، وتبادلوا المناقضات ، يحبون بها العvisية ، ويؤثرون العداوة ، ويتبارون في فنون الهجاء المقذع ، والتباهي بأحساب الجاهلية وآثرها وأيامها ونبتش مادفته الإسلام من مثالب القبائل ومعايبها ، ومن هؤلاء : جرير والفرزدق والأخطل والراعي والبعيث .

(ب) وهم من حيث اتجاهات الشعراء الفنية ، في عصر بني أمية انقسموا جماعات وطوائف :

١ - فالأولى ، شعراء البادية : الذين لم يتأثروا بالحياة الجديدة كبير تأثر ، ولم يغيروا من غيشتهم تغيراً يذكر : فظلوا يحاكون نمط الجاهليين في نظم القريض أسلوباً وألفاظاً ومعاني وخيالات ، ومن هؤلاء : ذو الرمة والرماح بن ميادة ، سمع الفرزدق ذا الرمة ينشد ، فوقف عليه ، فقال : كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس ؟ قال : ما أحسن ما تقول ، قال فما لي لأذكر مع الفحول ؟ قال : قصر بك عن غايتهم بكأوك في الدمن ، ووصف الأبعاد والعطن .

ولذلك كان شعر هذه الطبقة بدوياً جزلاً نفح الألفاظ والأساليب .

٢ - والثانية ، شعراء الأمصار : كمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة ، ممن كانوا عرباً خلصاً ، وقد تأثر هؤلاء ببنيتهم وعصرهم وبالقرآن الكريم وبالثقافات التي ذاعت بينهم ، وأنى شعرهم حضرياً رائعاً سلساً في جزالة ، وإن امتاز شعر الحجاز بالركة والسلاسة أكثر من غيره ، ومن هؤلاء : ابن قيس الرقيات ، وجرير والأخطل والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

٣ - والثالثة ، الشعراء الموالى : الذين كانوا من أصول غير عربية :  
كنصيب . وعبد بنى الحساس ، وقد كانا من عنصر حبشى ، وكرباد الأعجم  
والبغيث وأبى نخيلة وموسى شهوات وهم من أصول فارسية .  
ولا شك أن شعر هؤلاء كان صورة لما ورثوه من دماء وثقافة ومشاعر  
وأفكار وخواطر ووجدانات . . فبدت فيه المعانى الجديدة ، والآخيلة  
والتشبيهات الغريبة ، واضحة ملبوسة .

( ج ) بعض الشعراء الأمويين :

- ١ - أبو وجزة الشاعر ( توفى عام ١٣٠ هـ <sup>(١)</sup> ) معد بنى سعد بن بكر .  
وكان رسول الله مسترضعا فيهم عند حليلة السعدية .
- ٢ - عقيل بن علفة من ( ذبيان <sup>(٢)</sup> ) - شاعر أموى مقل مجيد .
- ٣ - شبيب بن البرصاء من ذبيان <sup>(٣)</sup> ، شاعر أموى فصيح ، عاش  
فى البادية .
- ٤ - يزيد بن الحكم <sup>(٤)</sup> شاعر أموى ، وكان شاعر ثقيف فى الإسلام .
- ٥ - عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب <sup>(٥)</sup> ،  
قتله أبو مسلم .
- ٦ - المتوكل اللبثى <sup>(٦)</sup> وهو شاعر اسلامى مجيد ، من الكوفة .

---

(١) ٢٣٩ - ٢٥٣ : ١٢ الاغانى .

(٢) ٢٥٤ - ٢٧٠ : ١٢ الاغانى ويروى أنه قال لإسحاق بن يحيى : بالرفاء  
والبنين والطائر المحمود : فقال له يابن علفة . إنه يكره أن يتال هذا ، فقال عقيل  
لبن أخى ماتريد إلى ما أحدث ، إن هذا قول أخوالك فى الجاهلية لا يعرفون غيره .

(٣) ١٧١ - ٢٨٠ : ١٢ الاغانى . (٤) ٢٨٦ - ٢٩٦ : ١٢ الاغانى .

(٥) ٢١٥ - ١٣٨ : ١٢ الاغانى . (٦) ١٥٩ - ١٦٨ : ١٢ الاغانى .

٧ - أرطاة بن زفر ، شاعر إسلامي فصيح ، وكان امرأ صدق ، شريفاً في قومه ، جواداً ، وهو من ذبيان (١) .

٨ - أبو دهب وهب الجمحي ، قال الشعر في آخر خلافة علي ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير (٢) ولأه ابن الزبير بعض أعمال البين ، وكان سيد شريفاً ، وذكر الجاحظ شعرا له (٣) ، وينسب هذا الشعر ليزيد بن معاوية يتغزل به في رابعة ، وينسب كذلك للأحوص .

٩ - دكين بن رجاء بن فقيم ، راجز إسلامي أموي معاصر للفرزدق وجريير ، مدح عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة (٤) .

١٠ - عمرو بن أحمد الباهلي : شاعر أدرك الإسلام فأسلم وغزا مغازي الروم ، وتوفي على عهد معاوية أو في عهد عثمان بن عفان عن سن عالية ، وهو كثير الغريب صحيح الكلام (٥) .

---

(١) ١٩-٤٤ : ١٢ الأغاني .

(٢) ٦ : ١٥٠ الأغاني .

(٣) ٤ : ١٠ الحيوان .

(٤) ٢٨٧ الشعر والشعراء طبع أوروبا ، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٠ الشاهد ٤٥ .

(٥) راجع ص ٩٤ البديع لابن المعتز تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي .

## الفرزدق شاعر العصر الأموي

ولد الفرزدق حوالي سنة ١٩ هـ في خلافة عمر رضى الله عنه ، وكانت عشيرته من بني مجاشع بن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطها عند الفتح ، وكانت لهم خطط ودور بالبصرة ينزلونها في بعض فصول السنة ويتبدون في بعضها الآخر .

وكان أبوه غالب بن صمصمة ينزل السيدان من بادية البصرة بالقرب من كاظمة على ماء كانت تنزل حوله قبائل شتى من قيس و تميم . وكانت البصرة في أول أمرها تعتبر معسكراً للمقاتلة من العرب لا يخالطهم فيها إلا مواليهم ، فكانت بذلك بيئة غريبة . فنشأ الفرزدق مابين السيدان والبصرة فصيح اللهجة ملأ بدقائق اللغة حافظاً غريبها عالماً بأخبار العرب وأيامها وأيام تميم وخاصة أيام بني دارم في الجاهلية والإسلام ، وحجب إليه الشعر منذ طفولته فنظمه فأعجب به أبوه ، وكان من شيعة أمير المؤمنين على ، فأنه عقب فراغه من وقعة الجمل ومعه ابنه الفرزدق ، فسأله عنه فقال : « هذا يوشك أن يكون شاعراً مجيداً » ، فقال : « أقرئه القرآن فهو خير له » . فزال كلفة أمير المؤمنين تعمل في نفس الفرزدق دهرأ طويلاً حتى عمل بها بعد أن جاوز الثلاثين .

وكان أبوه غالب كريماً متلافاً سيداً شجاعاً ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر حتى مات في إمارة زياد وخلافة معاوية ودفن بكاظمة ، وكذلك كان جد الفرزدق صمصمة من أكرم الناس في الجاهلية وأشرفهم ، وكان شاعراً مقلداً يلقب بمحمي الموءودات ، لأنه كان إذا علم برجل يهيم برؤا ابنته للفقر اشتراها منه بناقتين لقوحيان وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ستين وثلاثمائة موءودة لم يشاركه في هذه المكرمة أحد ، حتى أنزل الله

تحریم الواد فی القرآن . ووفد علی النبی صلی الله علیه وسلم وأسلم وعلمه آیات من القرآن ، وسأله : هل له فی فداء المومودات من أجر ؟ فقال له : هذا من البر ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام .

فبذلك یفتخر الفرزدق علی جریر ، لأن آباءه كانوا أذلاء ، وفطر الفرزدق علی الهجاء من صغره . قال عن نفسه : «كنت أهاجی شعراء قومی فی خلافة عثمان بن عفان ، فكان قومی یخشون معرفة لسانی منذ یومئذ .

وهجا جریر البعیت وقومه مجاشعا وهم رطط الفرزدق أيضا فاضطر الفرزدق إلى الرد علیه وقال :

لعمری ائن قیدت نفسی لطالما	سعیبت وأرضعت المطیة للجمل
ثلاثین عاماً ما أرى من عماية	إذا برقت إلا شددت لها رحلی
فإن یك قیدی كان نذراً نذرته	فما بی عن أحساب قومی من شغل
أنا الذائد الحامی الذمار وإنما	یدافع عن أحسابهم أنا أو مثلی

ثم هجا جریراً وهجا جریر ، فما یقول قصیده حتی ینقضها علیه جریر ، ولا یقول جریر قصیده حتی ینقضها الفرزدق ، وتورط معهما فی تهاجیهما أكثر من ثمانین شاعراً منهم الأخطل ، فظهر جریر علیهم کلمهم وأسقطهم وثبت له الفرزدق والأخطل . ومات الأخطل وبقي الآخران ینسابان سائر حیاتهما . وكان جریر فی العشر السنوات الأولى من تهاجیهما یقیم منعزلاً بالبادية بالیمامة یرسل بالقصائد إلى من بالبصرة من بنی یربوع . والفرزدق مقيم بالبصرة حیث الرواة وجمهرة العرب ، فأرسلت إليه یربوع وأحضرتة إليها فكانا یتهاجیان . فإما أن یتلاقیا بالمربد وقد یؤدی ذلك إلى اقتتال بنی یربوع وبنی المجاشع ، وإما أن تجتمع یربوع ورواة جریر علیه بالمربد ، وتجتمع مجاشع ورواة الفرزدق علیه بمقبرة بنی حصن ، والناس یسعون فیما بینهما بأشعارهما بالبصرة .

وفي خلال تهاجيهما بهجو كل منهما بعض أنصار الآخر أو من يتعرض له ، فهجا الفرزدق في أول تهاجيهما بنى فقيم وبنى نهشل ، فاستعدوا عليه زياداً ، وهو والى العراق من قبل معاوية ، وكان رجل جد ، فطلبه زياد فهرب إلى المدينة المنورة وعليها سعيد بن العاص ، وهو وال على المدينة لمعاوية ، ومدحه فأمنه سعيد ، فأقام في المدينة يختلف إلى قيانها ويستمتع إلى غنائهم ، ولم تطل الأيام حتى عزل سعيد وولى مروان بن الحكم ، فأخذه بما كان يقول وينشد من أخبار قومه وأرسل يطلبه . فلما جاءه قال : « أتدرى ما مثلك ؟ حديث تحدث به العرب أن ضبعاً مرت بجى قوم ، وقد رحلوا ، فوجدت امرأة ، فنظرت وجهها فيها ، فلما نظرت قبح وجهها ألقتها وقالت : من شر ما طرحتك أهلك أو أكن من شر ما طرحتك أميرك ! - يريد زياداً - فلا تقيم بالمدينة بعد ثلاثة أيام ، فخرج يريد اليمن . فلما كان في أثناء الطريق علم بموت زياد فخر ساجداً ورجع .

ولما مات معاوية وخالف أهل المدينة على يزيد ، وكان أهل الكوفة الحسين بالخلافة واستنصوه إلهم سار إليهم في أهل بيته ، فلقبه الفرزدق في الطريق قادماً من العراق ، فسأله الحسين عن أهل الكوفة ، فقال له : « يا ابن رسول الله قلوبهم معك وسيوفهم مع أعدائك ! ، ومضى كل لطيفته .

ولما دعا عبد الله بن الزبير بمكة لنفسه بايعه أهل العراق ، وبعث إليهم أخاه مصعباً ، وكانت تميم البصرة فيمن دخل في دعوته ، ومنهم رهط جرير والفرزدق . فولى ابن الزبير على البصرة الحارث بن أبي ربيعة المخزومي القرشي الملقب بالقباع ، وهو أخو عمر بن أبي ربيعة ، وكان متنسكاً يروى عنه الفقه والحديث ، فأغضبه تساب جرير والفرزدق ، وكره منهما إذاعة الفاحشة بين المؤمنين ، فهدم الدارين اللتين كانا ينزلانهما بالبصرة لينتھيا ، فذلك حيث يقول الفرزدق وكان قد هرب منه .



أحارث داري مرتين هدمتها وأنت ابن أخت لا تخاف غوائله  
وقبلك ما أحييت كاسر عينه زياداً فلم تقدر على حباله  
فأليت لا آتيه تسعين حجة ولو كسرت عين القباع وكاهله  
وفي ذلك يقول جرير :

أحارث خذ ماشئت منا ومنهم ودعنا نفس مجدأ تعد فواضله  
فما في كتاب الله تهديم دارنا بهديم ماخور خبيث مداخله

ثم لما انتسك قتل ابن الزبير وماجت العراق بالفتن اختفى خبرهما حتى قتل عبد الملك بن مروان مصعباً ، وولى أخاه بشراً على العراق ، وكان أديبا يحب الشعراء ويعجبه أن يغرى بينهم فجعل من أخص مادحيه الفرزدق وجريراً . فلما مات وآلت ولاية العراق إلى الحجاج كانا من مادحيه . ثم اتصلا بعبد الملك بن مروان وزاحما الأخطل في مدحه ، إلا أن الأخطل صانع الفرزدق وناصره على جرير كما علمت . وبقي الفرزدق وجرير يتكسبان بالشعر ، بمدح عبد الملك وإخوته والحجاج وولائه زمن عبد الملك والوليد وسليمان وهشام ، إلا أن الفرزدق لسوء سيرته وجهامة طبعه كان الولاية يحبسونه ويضطهدونه . ومن هؤلاء عمر بن عبد العزيز ، نفاه مرة عن المدينة ، وحبسه مالك بن المنذر إلى البصرة من قبل خالد بن عبد الله القسري . ولما كبر الفرزدق خمدت فيه ثورة الشر وتنسك وتاب وتوفي بالبصرة عام ١١٠ هـ ودفن في مقبرة بني تميم بعد أن عمر نحواً من مائة سنة .

نشأ الفرزدق مع أبيه وأهل بيته يقيم بالبصرة بعض السنة ويباديتها بسيدان وكاظمة من ناحية سيف البحر بقية السنة ، فجاءت أخلاقه في جملتها خليطاً من أخلاق أهل البدو وأخلاق أهل الحضار ، وهو إلى جفاء أهل البدو وغلظ طباعهم أقرب .

ولم يكن أهل بيته الأدنون وضعاء الأنفس ساقطى الهمة كأهل جرير

وأبيه عطية ، بل كانوا أغنياء كراما إلى حد الإسراف ، وبخاصة أبوه غالب . وعمر الفرزدق طويلا ورويت له أخبار كثيرة نستخلص منها عامة أخلاقه :

كان الفرزدق باراً بأبيه متفانيا في محبته موثقاً له في حياته وبعد مماته ، حتى لقد كان يحير من يعود بقبر أبيه غالب بسكاظمة . وكان في استطاعته أن يعيش في مال أبيه رخي البال حتى العيش لو لم يستمتع إلى تحريش السفهاء بينه وبين الناس . على أن انطباعه على الشعر منذ طفولته ولد فيه حب الانتصار والغلب والمباهاة ، وهي أخص صفات البدوى . ولم تكن المغالبة في الشعر إلا بالهجاء والسباب والافذاع في القول . فخرج الفرزدق شريراً سليط اللسان عريضا للشر يبادى من لم يبادئه به . وكان ذلك سبباً في تأديب الولاة له بالحبس والثني والتشريد مراراً فلم ينتفع بتأديبهم . يخافه الأشراف والعلماء فداروه بالمال والمقال .

وكان مع ذلك جباناً فروقة كثير الحرب من الولاة ممن يرى منه الجذ في الانتقام منه . وكان فاجراً لا يتورع عن ريبة . وربما تاب عن قذف المحصنات واقرار المحظور ثم يعود . وحج مراراً وحده أو مع بعض الأمراء وأقام بمكة أو بالمدينة . فلم يؤثر ذلك في تهذيبه .

وكان الفرزدق مع مدحه خلفاء بني أمية يتشيع لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسره أحياناً ويظهر أحياناً على فلتات لسانه . على خلاف ما كان عليه أهل البصرة من النصب لعلى وآله لأنهم كانوا عثمانية منذ واقعة الجمل . ولعله ورث التشيع من أبيه غالب منذ قدومه على وتعريفه أن ابنه من شعراء مضر فأمره أن يحفظه القرآن ، فما زالت كلمة أمير المؤمنين تختلج في صدره حتى قيد نفسه ليجمع القرآن بعد أن حج وتاب . وكان يقدم على السيدة سكينة بنت الحسين متيمناً مستنحاً .

وكان الفرزدق غوراً إلى حد الغلو بنفسه وآبائه كثير التحدث عنهم

في شعره ، وما من قصيدة له إلا غلب عليها نغمه بآبائه لا يبالى أكانت في مدح خليفة أم سوقة أم هي في هجاء أم رثاء .

وكان نزر الكلام في المدح قليلا في الفخر فجعل جرير يظلم عليه أحيانا من هذه الناحية ، والفرزدق كأكثر الشعراء قليل الوفاء - مدح الحجاج في حياته وهجاء في مماته .

وقال الفرزدق الشعر منذ طفولته فأعجب به أبوه غالب إذ لم يكن هو شاعرا . ولم يقل الشعر أحد من أهل بيته من هذه الطبقة ، وإنما كان صمصمة جده يقول المقطعات الهينة المقدار ، يقولها في شأن نفسه ، وقد قيل للفرزدق : « مالك وللشعر وما كان أبوك غالب شاعرا ولا كان صمصمة شاعرا . فنأين لك هذا ؟ » قال : من قبل خالي العلاء بن قرظة الذي يقول :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكه أناخ بآخرينا  
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيليقي الشامتون كما لقينا

وظهر لشعره من أول أمره روعة وقوة أسر . وقد انتحى به ناحية الهجاء لما فطر عليه من طبيعة الشروحب اللجاجة ولدادة الخصام . فهاجى شعراء قومه ، فلقوا منه شراً مستطيراً وتخوفه الأشراف وصانعوه . وأطمعه ذلك في اتخاذ الشعر حرفة يتكسب بها وقد كان له في مال أبيه وقومه غنية أى غنية . . .

وكان الفرزدق قوى الذاكرة لحفظ من شعر الجاهلية والإسلام الكثير العزيز . وجمع من اللغة وتاريخ العرب في جاهليتها عامة وأيام قومه خاصة ما لم يبرز فيه شاعر من أهل زمانه حتى ولا جرير والأخطل .

وكان طويل النفس في الهجاء والمناقضات والفخر ، حتى لتزيد بعض أبيات قصائده فيها على المائة ، قصير النفس في المدح فلا يسكاد مدحه يبلغ ثلث ما في القصيدة من النسيب والفخر .

ومع فحولته في الشعر وحسن تأتبه ومواناته له فإنه كان يحسد من دونه من الشعراء على البيت أو الأبيات القليلة يقع له فيها المعنى البديع ، وخاصة إذا كان الشعر في غر لا يراه الفرزدق يليق بهذا الشاعر فيغصبه أبياته ويقول له : « أنا أولى بها منك ، » ويضمها إلى شعره فلا يستطيع الشاعر أن ينكرها عليه لعجزه عن مجاراته .

وشعر الفرزدق السياسي ويشمل مدحه وهجاءه ونقائضه ، ذو شهرة كبيرة ، ومكانة عالية ؛ ونماذجه كثيرة .

وأسلوب الفرزدق قوى شديد الأسر . ولذلك قبل : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر لسهولة شعر جرير وعذوبة أسلوبه .

وقد أكثر النقاد في الموازنة بين جرير والفرزدق ، يفضل بعضهم جريراً ، ويفضل الآخرون الفرزدق ، ويقف الباقيون في أمر تفضيل أحدهما على الآخر ؛ وجملة الأمر أن جريراً والفرزدق احتلا الصدارة في زمانهما ، وكانت منزلتهما عالية عند الملوك والولاة والشعب ، وأن جريراً تفوق في مدائحه ، والفرزدق تفوق في غفره .

وللفرزدق قصة شعرية فريدة في بابها وتعد من صور القصة الشعرية في الأدب العربي ، وتمثل سبق الشعراء العرب القدامى إلى هذا الفن ، وهي في قص قصة ذئب مع الشاعر ، قال الفرزدق .

وأطلس عسال ، وما كان صاحباً      دهوت لنا رى موها فأتاني (١)  
فلما دنا قلت أدن ، دونك لمتى      وإياك في زادي لمشتركان  
فبت أقد الزاد بيني وبينه      على ضوء نار مرة ودخان

---

(١) الأطلس : الذئب في لونه غيرة تميل إلى السواد . عسال : يضطرب في مشيته .  
الموهن نحو نصف الليل ، وقال الأصمعي : موحين يدبر الليل أي آخر الليل .

وقلت له لما تكشر ضاحكا      وقائم سيفي من يدي بمكان  
تعش فإن عاهدتي لا تخوتي      نكن مثل من ياذنب يصطحبان  
وأنت امرؤ ياذنب والغدر كنتما      أخين كانا أرضعا بلبان  
ولو غيرنا فبهت تلتمس القرى      رماك بسهم أو شبة سنان (١)  
وكل رفيق كل رحل، وإن هما      تعاطى القنا قوماهما ، أخوان (٢)

---

(١) شبة السنان : طرفه أو حده .  
(٢) القنا : الرماح .

## الأخطل شاعر بني أمية

غياث أو غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ، وكنيته أبو مالك ، وقد كان مالك أكبر أولاده ، والأخطل هو ذو الخطل أو الطويل الأذنين المسترخيهما .

وأشهر معاني الخطل : الخنثى والسرعة والحق والطول والمنطق الفاسد المضطرب والكلام الكثير الفاسد ، والاضطراب في الإنسان والقرس والرج .

وقد ولد الأخطل في الحيرة من أبوين تغليبيين وكانت ولادته سنة ٦٤٠ ميلادية . وقد كانت قبيلة تغلب جرة القبائل العربية ، ومن أمنعها وكانت تقيم في أرض الجزيرة أي بين دجلة والفرات .

في هذه القبيلة العزيزة نشأ الأخطل عزيزاً منيعاً . وقد تحلى بفصاحة شعرائها وتغنى ببطولة فرسانها وشجعائها وشاء الله أن تموت أمه وهو لم يزل صغيراً ، فتزوج أبوه بامرأة غيرها . وكل إليها تربية ولده غياث ، وقد ولدت زوجة أبيه لإخوة له من أبيه .

ولم يزل الأخطل يتعاطى الشعر ، وبخاصة الهجاء ، حتى لمع نجمه على صفر منته وبات الناس يحسبون له حساباً ، وقد أدت به جرأته إلى الاصطدام بشاعر تغلب كعب بن جعيل ، ولم يزل به حتى تغلب عليه وأسكته بل أخمله وانزع منه لقب شاعر تغلب الفحل ، ولما بلغ الأخطل أشده تزوج بزوجته الأولى أم مالك التي ولدت له مالكا وغيره .

وفي إبان ذلك العهد كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية يوم ظهر الأخطل ، فأمها الشعراء من كل حذب وصوب ، وفي جللتهم شاعرنا ، طمعاً في أعطيات خلفائها الذين فتحوا باب بيت المال على مصراعيه للشعراء .

وغيرهم من المؤيدين والمناصرين ، وحدث أن شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية أول الخلفاء الأمويين ، الأمر الذي أحفظ ابنه يزيد فدخل على أبيه غاضباً وذكر له ما كان من أمر عبد الرحمن ، فهدأ أبوه روعه واستمعه له ريثما يقدر عليه وفد الأنصار ، أما يزيد فلم يرقه مسلك أبيه هذا بل طلب إلى كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار فقال له كعب : « أراى أنت إلى الكفر بعد الإيمان ؟ والله لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن سأدلك على غلام فى الحى كافر كأن لسانه لسان ثور ، يعنى الأخطل ، وربما كان كعب يرمى إلى إيقاع الأخطل فى التهلكة ، ولكنه أعلى منزلته من حيث لا يحتسب ، فطلب يزيد من الأخطل أن يهجو الأنصار ، فتهيب هذا الموقف فى البدء ، وخشى غضب معاوية غير أن يزيد أكد له أنه يحميه ، ودله على المواطن التى يهجوها الأنصار فجهام بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

خلوا المسكارم لستم من أهلها      وخذوا مساحيكم بنى النجار  
إن الفوارس يعلمون ظهوركم      أولاد كل مقبح أكار  
ذهبت قریش بالمسكارم والعلی      واللوم تحت عمام الأنصار

ولم تسكد قصيدة الأخطل هذه تنتشر حتى أحدثت ضجة بين الأنصار الذين هاجوا ، فدخل أحد شعرائهم ، النعمان بن بشير ، على معاوية ساخطاً ثم كشف عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين أترى لؤماً ؟ فدهش معاوية وقال : « لابل أرى كرمأ وخيراً ما ذاك » ؟ فقال النعمان : « زعم الأخطل أن اللوم تحت عمامتنا ، نخشى معاوية سوء المغبة واسترضى النعمان بأن وهبه لسان الأخطل وأمر رجال الشرطة بأن يقبضوا على الأخطل ويسلبوه إلى النعمان ليفعل بلسانه ما يشاء إلا أن يزيد أنقذه من ذلك العقاب ، ولم يزل يسترضى والده حتى رضى .

ولما تولى يزيد مقاليد الخلافة ظل الأخطل على موالاته ونصرته له ليس

بشعره فحسب بل يحمل قبيلته التغلبية على الانضمام إلى القبيلة الكلبية في  
محاربة القبائل القيسية الموالية للزبيريين أعداء بني أمية ، وعندما قضى يزيد  
نحبه حزن عليه الأخطل كثيرًا ورثاه ، وخلف يزيد ولده معاوية الثاني ثم  
مروان بن الحكم ، وظل الأخطل نصير الأمويين وشاعرهم المفضل .

ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، وكان عبد الملك يؤثره ويقدمه ،  
وقال له يوما : أنت شاعر أمير المؤمنين ، ويوما : أنت شاعر بني أمية ،  
ومرة أخرى : أنت شاعر العرب .

ودخل على عبد الملك وأنشده رائيته الرائعة التي مطلعها :  
خف القطين فراحوامتك أو بكروا      وأزعجتهم نوى في صرفها غير  
وهي القصيدة التي هناها عبد الملك بظفره في العراق حيث قتل مصعب  
ابن الزبير وقضى على أنصاره القيسيين فسر الخليفة منه وأجازه . ونستجلى  
عما تقدم ما كان الأخطل من منزلة عالية عند الأمويين ولقد كان نفسه عارفا  
بهذه المنزلة فأخذ يمتن عليهم ويدل في شعره مظهرًا فضل قومه عليهم كما جاء  
في قصيدته الرائية المذكورة :

بنى أمية قد ناضلت دونكم      أبناء قوم هم آروا وهم نصروا  
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا      لما أذاك ببطن الغوطة الخبر  
ولما كانوا جمعوا حولهم كلمة العرب ، فكل من الطرفين إذا كان لاغنى  
له عن الآخر لأنه كان متممًا له ، وقد كان الأخطل مع بني أمية مصداقًا  
لما قال أبو تمام الطائي :

ولولا خلال سننها الشعر ما درى      بغاة المعالي كيف توثى المكارم  
وكان حال بني أمية مع الأخطل مطابقاً لقول أحد الشعراء المتأخرين :  
لولا الكرام وما سنوه من كرم      لم يدر ناظم شعر كيف يمتدح  
وبقي الأخطل على ولائه الأمويين حتى قضى نحبه ، إنما اختلف



المؤرخون على الزمن الذى مات فيه ، والأرجح أنه توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك سنة ٧١٠ م فيكون قد عاصر معاوية الأول ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك وأخاه سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام ابن عبد الملك .

وكان الأخطل كثير الاعتداد بشاعريته ، فقد ذكر المرتضى فى أماليه أن عامراً الشعبي - القاضى والعالم النقاد - دخل يوماً على الخليفة عبد الملك بن مروان فرأى الأخطل بين يديه ، ولم يك قد تعرف إليه بعد ، وبعد أن سلم وجلس سأل عبد الملك الأخطل . ويحك من أشعر الناس ؟ فقال الأخطل : « أنا يا أمير المؤمنين ، فغضب الشعبي وسأل الخليفة : « من هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس ، قال : الأخطل ، فالتفت الشعبي إلى الأخطل وقال له : يا أخطل أشعر منك الذى يقول :

هذا غلام حسن وجهه      يستقبل الخير سريع التمام  
للحارث الأكبر والحارث الأصغر      والحارث خير الأنام  
لخسة أبانوم مامم      هم خير من يشرب صوب الغمام

وهى أبيات من قصيدة للناطقة الذبياني ، فقال الأخطل : « من هذا يا أمير المؤمنين ؟ ، قال الشعبي ، عندها تراجع الأخطل وقال : « صدق والله ، الناطقة أشعر منى ، وفى رواية أنه قال : « إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرياً أن أقول كما قلت . »

ويمرف للأخطل حفاظه على عروبتة بأسلوبه اللغوى الفصيح ، ذلك الأسلوب الذى تغلب عليه المسحة الجاهلية ، فهو وعز الألفاظ شديد الأسر كالشعر الجاهلى ، بل ربما زادت وعورة ألفاظه ؛ فى بعض القصائد

على وعورة ألفاظ بعض الشعراء الجاهليين كهـمـرو بن كلثوم وعنـثـرة العبـسى وغيرهما ، وهذا ما دفع أباعـمـرو بن العـلـاء أحد كبار النقاد المشهورين إلى قول كلمته المأثورة : ولو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً . .

خلف الأخطل بعده شعراً غزيراً تألف منه ديوان كبير ، أما شعره فيقسم إلى قسمين اثنين : سياسى وخمري ، وفيه قصيدة واحدة فقط في الرثاء قالها في يزيد بن معاوية ، ويتخلل شعره السياسى والخمري شيء من الشعر الوصفي قاله في الخمرة ونهر الفرات ، والصيد وحمار الوحش ، وما إلى ذلك .

وكانت مدائحه السياسية كلها في بنى أمية وعملهم ، وأشهر بمدوحه يزيد بن معاوية ووالده ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، ثم الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على الحجاز والعراق ، وعكرمة الفياض كاتب بشر بن مروان عامل الكوفة ، وفي الديوان شعر يمدح به الأمويين عامة والمروانيين خاصة ، وكان شعره أرجع صفقة صفقة بها أعداؤهم وناهشو أعراضهم من الأنصار والقيسين والسكبيين وغيرهم ، فكان لعمله هذا الأثر العظيم في تثبيت دعائم الدولة الأموية وإرساء قواعدها ، وإكثار أنصارها ومريديها ، إذ لا يخفى ما كان للشعر من الهيمنة والسيطرة على عقول الناس وقلوبهم في ذلك العهد ، ويجمل بنا هنا أن نسرد شيئاً من تلك الأماديح ، قال يمدح الخليفة عبد الملك بن مروان في قصيدته الرائية المشهورة :

إلى امرئ لا تعرينا نوافله	أظفـره الله فـلـهـنا له الظفر
الخائف الغمر والميمون طائرته	خليفة الله يستسقى به المطر
ثم استقل بائفال العراق وقد	كانت له نعمة فيهم ومدخر
في نعمة من قریش يعصبون بها	ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافاً الخنا انف	إذا أملت بهم مكروهة صبروا

أعطاهم الله جداً ينصرون به      لاجد إلا صغير بعد مختصر  
هم الذين يبارون الرياح إذا      قل الطعام على العافين أوقرتوا  
بنى أمية نعماكم مجللة      تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك :

لولا الوليد وأسباب تناولني      بهن يوم اجتماع الناس بالثم  
إذا لكنت كن أودى وواده      أهل القرابة بين اللحد والرحم  
بنى أمية قد أجدت فواضلكم      منكم جياذى ومنكم قبلها نعى  
لولا بلاؤكم فى غير واحدة      إذا لقمت مقام الخائف الزرم  
لولا تناولكم إياى ما علقت      كفى بأرجائها القصوى ولا تدمى  
لقد خشيت وشاة الناس عندكم      ولا صحیح على الأعداء والسكلم

وبمثل هذا الشعر كان أبو مالك يمدح بنى أمية وينشر فضلهم فى الآفاق  
فيسير ذكرهم مع الركبان ويتحدث بجودهم كل لسان .

ويقول الأخطل فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف      تنسى الشاربين لها العقولا  
إذا شرب الفتى منها ثلاثا      بغير المساء حاول أن يطولا  
مشى قرشية لاشك فيها      وأرخى من مآزره الفضولا

ويقول الأخطل فى مدح بنى أمية :

إن يحملوا عنك فالأحلام شيمتهم      والموت ساعة يحمى منهم الغضب  
كانهم عند ذاكم ليس بينهم      وبين من حاربوا قرى ولانصب  
كانوا موالى حق يطلبون به      فأدركوه وما ملوا وما لعبوا

## الكيميت بن زيد الأسدي

٦٠ - ١٢٦ هـ

### ألوان من حياته :

الكيميت شاعر غزل مشهور ، من شعراء الدولة الأموية ؛ وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء ، ومن يضرب بهم المثل في البلاغة والبيان ، ذلكم هو الكيميت بن زيد الأسدي .

وموطن الكيميت هو الكوفة ، والكوفة من أشهر البلاد الإسلامية ، وأذيعها صينياً في اللغة ، والأدب ، والشعر ؛ وهي مجال الصراع السياسي بين الشيعة وبنى أمية ، وكانت عاصمة علي ، وبقر بها قتل الحسين بكر بلاء ، وأكثر أهلها شيعة يتعصبون لعلي وآل بيته . ووالد الكيميت هو زيد بن خنيس ابن مجالد من أسد من مضر من نزار ، وقومه بنو أسد مشهورون بفصاحة اللغة وسلامة الملكات .

ولد سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها ، بمدرسة العلم ، والأخذ عن الأعراب . وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فتخرج أعلم أهل زمانه في ذلك ، وأقر له حماد الراوية بالسبق عليه ، وقال الكيميت الشعر وهو صغير ، وكان لا يذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفته - تعليم صبيان الكوفة بالمسجد - . ولما حصف شعره وقوى أسره ، ولاسيما في قصائده التي أعلن فيها تشييعه لبنى هاشم وآل علي ، أخذ يتصل بالولاة ، والهاشميين ، يمدحهم وينال جوائزهم .

الكُميت شاعر بني هاشم السياسي :

ولما قال الكُميت (١) بن زيد الأسدي الهاشمي ، قدم البصرة ، فأتى  
الفرزدق ، فقال : يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك !  
قال : ومن أنت ؟ فانتسب له ، فقال : صدقت ! فما حاجتك ؟ قال : نفث على  
لساني ، فقلت شعرا ، وأحببت أن أعرض عليك ماقلت ، فإن كان حسنا  
أمرتني بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتني بستره ، وسترته علي . فقال :  
يا بن أخي أحسب شعرك على قدر عقلك ، فمات ماقلت راشداً ، فأنشده :

طربت - وما شوقا إلى البيض (٢) أطرب

ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

قال : بلى : فإنك في أوان اللعب فالعب ، فقال :

ولم يلهمني دار ولا رسم (٣) منزل ولم يتطربني بنان مخضب  
قال : فما يطربك يا بن أخي ؟ فقال :

وما أنا بمن يوجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب (٤)  
قال : فما أنت ؟ ويحك ! وإلى من تسموا فقال :

ولالسانحات (٥) البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

---

(١) خزائن الأدب ص ٢١٧ ج ٤ ، المسعودي ص ١٩٠ ج ٢

(٢) البيض : جمع بيضاء يريد النساء .

(٣) رسم : أثر ، يتطربني : يحماني على الطرب .

(٤) الزجر للطيور : هو التيمن والتشاؤم بها ، والغراب أعظم ما كانت العرب  
تطير به . وهذا نوع من العيافة .

(٥) السانح مارلاك ميامنه ، والبارح : مارلاك مياسره ، وكان أهل نجد  
يقيمون بالاول ويتشاءمون بالثاني ، وأهل العامة بالعكس . والأعضب :  
الثور المكسور القرن ، وكانوا يتشاءمون به .

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه . فقال :  
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يطلب  
قال : من هم ؟ ويحك اقال :  
إلى النفر البيض (١) الذين بجهم إلى الله فيما ناسى أتقرب  
قال : أرحنى ، ويحك ! من هؤلاء ؟ قال :  
بني هاشم رهط (٢) النبي فباتى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب  
قال : لله در بني أليك ! أصبت وأحسنت ؛ إذ عدلت عن الزعاف  
والأوباش ، إذن لا يصرد (٣) سهمك ، ولا يكذب قولك .  
ثم مرفها ، فقال له : أظهر ثم أظهر ، فأنت والله أشعر من مضى ،  
وأشعر من بقى .  
فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين ، فأذن له ليلاً ،  
وأنشده قصيدته « من لقلب متيم مستهام ، فلما بلغ من الميمية قوله :  
وقتل بالطف (٤) غودر منهم بين غوغاء أمة وطغام  
بكي أبو جعفر ، ثم قال : يا كمي ! لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن  
لك ما قال رسول الله لحسان بن ثابت : لازلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت  
عنا أهل البيت !  
فخرج من عنده فأتى عبد الله بن الحسن علي فأنشده فقال له : إن لي ضيعة  
أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك  
شهوداً ، وناولته إياها .

(١) البيض : المشهورون من الأشراف .

(٢) الرهط : القوم والقبيلة .

(٣) صرد السهم : أخطأ أو نفذ حده ، ضد .

(٤) الطف : موضع قرب الكوفة ، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام .

فقال : بأبي أنت وأمي ! إني كنت أقول الشعر في غيركم ، أريد بذلك الدنيا والمال ! ولكنني والله ما فلتت فيكم إلا الله ! وما كنت لأخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمنا ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه .

فأخذ السكيت الكتاب ومضى ، فسكت أياما ، ثم جاء إلى عبد الله فقال : بأبي أنت وأمي ، يا بن رسول الله ، إن لي حاجة ، قال : وما هي ؟ وكل حاجة لك مقضية ، قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ، قال : هذا الكتاب تقبله ، وترتجع الضيعة ! ووضع الكتاب بين يديه ! فقبله عبد الله .

ونهب مع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١) فأخذ ثوبا ، فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ، ويقول : يا بني هاشم ، هذا السكيت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبنى أمية ، فأثيروه بما قدرتم ! فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دراهم ودنانير ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلى عن جسدها . فاجتمع من الدنانير والدرهم ما قيمته مائة ألف درهم .

فجاء بها إلى السكيت فقال له : أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا ، وقد جمعنا هذا المال ، وفيه حلى النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك . فقال : بأبي أنت وأمي ! قد أكثرتم وأطيتتم ، وما أردت بمدحى إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لأخذ لذلك ثمنا من الدنيا ، فأرده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى ، فقال : إن أبيت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئا يفض من بعض الناس ، لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب فنسكافئك بما نحب . فابتدأ السكيت ، وقال قصيدته التي يذكر

(١) من زعماء آل البيت ومن رجالات قريش ، أقام بالكوفة ورشحه أهلها للملك وبويع بالولاية ، وحاربه بنى أمية ، فتوجه إلى خراسان ، ولكن أباه مسلم حبسه ، ثم أعمل تديره في قتله (راجع ١٢٧ ج ٢ أعلام الأدب في عصر بنى أمية لحفاجي) .

فيها مناقب قومه من مضر، وربيعة وإياد وأنمار (١) ويكثر فيها من تفضيلهم، ويطنب في وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان .

فثارت العصبية في البدو والحضر، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بني أمية، إلى بني هاشم . ومن هذه القصيدة :

وجدت الله إذ سمي نزارا وأسكنهم بمكة قاطنينا  
لنا جعل المسكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبيننا (٢)  
وكان السكيت من شعراء مضر وأسسها المتعصبين على القحطانية ،  
المقارعين، العالمين بالمثالب .

#### السكيت يهجو العباسية وآثار ذلك في حياته :

وكان حكيم بن عياش الأعور الكلبى ولماً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجهيهم، وكان السكيت يقول : هو والله أشعر منكم، قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسري (٣) محسن إلى فلا أفدر أن أرد عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك ، فخمى السكيت لعشيرته ، وقال قصيدته المذهبة : ألا حييت عنا يا مريتنا ، وهي التي هجا فيها أهل اليمن (٤) ، وبلغ خالد أخبرها ،

#### (١) الأغاني ١١٠ ج ١٥

(٢) نقض دعبل هـ - هذه القصيدة على السكيت ، وذكر مناقب اليمن وفضايلها وملوكها ، وذلك في قصيدته التي منها :

أفئق من ملامك يا ظعننا كفاك اللوم مر الأربعينا  
ألم تحزنك أحداث الليالي يشين الذوائب والقرونا

(٣) هو والى الكوفة لهشام وقد وليها عام ١٠٥ هـ ، وعزل عنها عام ١٢٠ هـ ، وحبس وصودرت أمواله ، ثم قتل في عهد الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦ هـ .

(٤) كان هارون مولى الأزدي يرد على السكيت ويفخر بقحطان (٧ : ٧٥ : الحيوان - ط الخانجي) .



فقال : لا أبالي ما لم يجر لعشيرتي ذكر ، فأنشدوه القصيدة وفيها ذم لعشيرة خالد ، فأحفظته عليه ، ثم قال : فعلها ، والله لأقتله ! ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن ، وتخبرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعا ، فلما أنس بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدن الشعر فأنشدنه قصائد السكيت بن زيد الأسدي ، قال : وفي أي بلد هو ؟ قلن : في العراق ، ثم بالكوفة . فكتب إلى خالد - وهو عامله على العراق - : ابعث إلى برأس السكيت بن زيد ، فبعث خالد إلى السكيت في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام ، واعتذر إليهم من قتله ، وآذنه في إنفاذ الأمر فيه في غد . ثم قال لأبان بن الوليد البجلي - وكان صديقا للسكيت - أنظر ما ورد في صديقك ، فقال : عز علي والله ذلك .

ثم قام أبان ، فبعث إلى السكيت رسالة مع غلام له وأركب الغلام فرسا وقال له : أنت حر إن أدركت وأديت إليه الرسالة والفرس لك . وفي رسالته إلى السكيت : قد بلغني ما صرت إليه وهو القتل ، إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حبي (١) ، فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ، ولبست ثيابها وخرجت ، فإني أرجو ألا يؤبه لك . فأرسل السكيت إلى أبي وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بني عمه من أسد ، فدخل عليه حبيب في حبسه ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسد رأيه .

ثم بعث السكيت إلى حبي امرأته فقص عليها القصة وقال لها : أي ابنة عم ، إن الوالي لا يقدم عليك ، ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك

---

(١) هي زوج السكيت .

له ، فألبسته ثيابها وإزارها ، وقالت له : أقبل وأدبر . ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبدأ في كتفك ؛ فأخرج على اسم الله - وأخرجت معه جارية لها - فخرج ، ولم يلتفت إليه الحرس وسار حتى دخل منزل أبي الوضاح . ولما مضى على السجن وقت نادى السكيت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراك إلا أم لك افشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خاله ، فأخبره الخبر ، فأحضر حبي ، وقال لها : يا عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين ، وأخرجت عدوه لأمثلك بك ، ولا صنعن ولا فعلن ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ما سبيلك على امرأة منا خدعتنا نخافهم ، وخلى سبيلها ! وسقط غراب على الحائط فنعب ، فقال السكيت لأبي الوضاح : إني لما أخذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال : سبحان الله ! هذا ما لا يكون إن شاء الله ، فقال له : لا بد من أن نحولني ، فخرج به إلى بني علقمة - وكانوا يتشيعون - فأقام فيهم ، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب .

وأقام السكيت مدة متوالياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل ؛ وكان عالماً بالنجوم متهدياً بها ، فلما صار سحيراً صاح بالفتيان : هروا (١) ، وقام هو يصلي ، ثم رأى واحداً منهم شخصاً ، فتضعض (٢) له ، فقال السكيت : مالك ؟ قال : أرى شيئاً مقبلاً ، فنظر إليه ، فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يد جزور فترقمها (٣) ، ثم أهروا له ياناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال السكيت ماله ؟ ويله ! ألم نطعمه

(١) أصل التهويم والتهوم : هو الرأس من النعاس .

(٢) تضعض : خضع وذل .

(٣) ترق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

ونسقيه؟ وما عرفني بما يريد ، هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق ، تيامنوا  
يا فتيان ، فتيامنوا ، فسكن عواؤه !

### الكُميت في الشام :

ولم يزل الكُميت يسير حتى جاء الشام ، وتوارى في بني أسد وتميم ،  
ورحل إلى أشراف قريش - وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعد بن العاص -  
فشدت رجالات قريش بهضمها إلى بعض ، وأنوا عنبسة ، فقالوا : يا أباحالد ،  
هذه مكرمة قد أتاك الله بها ، هذا الكُميت بن زيد لسان مضر ، كتب  
أمير المؤمنين في قتله ، فنجنا حتى تخلص إليك وإلينا . قال : فروه أن يعود  
بقبر معاوية بن هشام ، فضى الكُميت ، فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى  
عنبسة ، فأتى مسلبة بن هشام فقال له : يا أباشاكر مكرمة أنيتك بها تبلغ  
الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفي بها وإلا كتمتها قال : وما هي ؟  
فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحك بما لم يسمع بمثله ، فقال :  
على خلاصه .

ودخل على أبيه الخليفة هشام - في غير وقت دخول - فقال له هشام :  
أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هي مقضية إلا أن يكون الكُميت ، فقال :  
ما أحب أن تستثنى علي في حاجتي . وما أنا والكُميت ؟ فقالت أمه : والله  
لتقضين حاجته كائنه ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها (١) ،  
قال : هي الكُميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ،  
وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولاً لم يقل مثله ، قال : قد أمنتته وأجزت  
أمانك له ، قال : فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا .

---

(١) التطر : الجانب والناحية .

### في مجلس هشام :

وعقد المجلس وارتجل الكميت في هذا المجلس خطبة ماسمع بمثلها قط .  
وامتدح بنى أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالا حتى إنه لم يجمع منها  
إلا تلك الأبيات التي حفظها الناس في هذا المجلس ، وقد مثل عنها الكميت  
فقال : ما أحفظ منها شيئا إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله في المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال :  
« أما بعد ، فإنني كنت أتهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على  
خطلها ، واستنفرني وهلها ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ،  
مهرعا عن الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان  
وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العاية . فاغسل عني  
يا أمير المؤمنين الحوبة بالثوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم ، .  
ثم أنشد قصيدته التي أولها :

قف بالديار وقوف زائر

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقوف بها وأنتك غير صاغر  
درجت عليها الغاديات الرانحات من الأعاصير (١)

وفيها يقول :

والآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر  
لجعل هشا يغمز مسئلة بقضيب في يده ، ويقول : اسمع اسمع .  
وفيها يقول :

لم قال فائلكم لعا لك عند عثرته لعائر

(١) الأعاصير : جمع إعصار ، وهي الرياح تثير السحاب ، أو التي تهب من  
الأرض كالعمود نحو السماء . والأمل في الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحدوث  
الياء كالفتاح في المفاتيح .

وغفرتمو لذوى الذنوب      ب من الأكابر والأصاغر  
أبنى أمية إنكم      أهل الوسائل والأوامر  
نقى بكل مله      وعشيرتى دون العشائر  
أتم معادن للخلافة      كابرأ من بعد كابر  
بالسعة المتتابعين      خلافتنا وبخير عاشر  
وإلى القيامة لا ترا      ل شافع منكم وواتر<sup>(١)</sup>

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته ، فقال : « إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته ، ومناط المنتجعين من لائح حيوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استمالة غضبه بجهل الجاهلين . فقال هشام : ويلك يا كميث أ د من زين لك الغواية ودلاك فى العماية . قال : « الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما . »

قال له : فانت القاتل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضرورها      ويا حاطباً فى غيرك حبلك تحطب

قال : بل أنا القاتل :

وجدنا قريشاً قريش البطاح      على ما بنى الأول الأول  
بهم صلح الناس بعد الفساد      وحيص من الفتق مارعبلوا<sup>(٢)</sup>

قال هشام : فانت القاتل :

لا كعبد المليك أو كوليده      أو سليمان بعد أو كهشام  
من يمت لا يمت فقيداً ومن      يحى فلاذو إل ولا ذو ذمام

(١) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منكم فيكون شفعاً فى العدد أو وترا .

(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رعبل الثوب : مزقه .

وياك يا كيت ! جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة . قال : بل أنا  
القائل :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعة  
أجاع الله من أشبهتموه وأشبع من يجركو أجيعة  
بمرضى السياسة هاشمي يكون حياً لأمته ربيعا  
قال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولي الكاذب ...  
قال : بماذا ؟ قال : بقولي الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقباً ووجها فضيرا  
وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسى له رقيقاً نظيرا  
وكساه أبو الخلائف مروا ن سقى المسكارم المائورا  
لم تبهم له البطاح ولكن وجدت لها معانا ودورا

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم  
قال : لقد رضيت عنك يا كيت ، فقبل يده : وقال : يا أمير المؤمنين ، إن  
رأيت أن تزيد في تشربي فلا تجعل لخالد على إمارة قال : قد فعلت  
وكتب له .

#### الكيت بعد العفو عنه :

وقد أراد الكيت أن يبعد عنه نطاق المراقبة والشبهات ، فأخذ يمدح  
هشاما بعد عفو عنه ، ويمدح الأمراء والولاة ورجال الدولة ، وينال  
جوانزم ؛ ورجع الشاعر إلى الكوفة بعد أن نال العفو ، ونال الأمن  
والأمان من أن تمتد إليه يد خالد وإلى الكوفة ، وقد مدح خالد  
إبعادا لشره عنه .

ولما عزل خالد وولى الكوفة بعده يوسف بن عمر الثقفي عام ١٢٠ هـ ،  
صمت الكميت خوفا من بطش الوالى الجديد .

ومع أن الكميت مدح يوسف إلا أنه لم يسلم من مكروه ، إذ قتله جند  
يوسف وهو فى مجلسه ينشده مدحه عام ١٢٦ هـ

يرى أن الكميت لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالده  
للقسرى أشار فى مدحه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه  
الجعفرية (١) ، وهو على المنبر . قال الكميت :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن      كن حصنه فيه الرتاج المضرب (٢)  
وما خالد يستعظم الماء فاعرا      بعدلك والداعى إلى الموت ينعب (٣)  
وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتمصبوا لخالد ووضعوا  
ذباب سيوفهم فى بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

---

(١) أتباع أبي جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرتاج : الباب العظيم ، وهو الباب المخلوق  
وفيه باب صغير . ومضرب : عليه ضربة ، وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

(٣) فاعرا : فاتحا فه . العدل ( بالكسر ) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب  
الغراب . والمعنى أن خالدا الذى استطعم الماء لا يساوبك فى مقام القتال حين  
يرفع المنادى إلى الحرب صوته .

## شعر الكميت وشاعريته

### آراء النقاد في الكميت :

كان حماد الراوية يصف شعره بأنه خطب ، يريد أنه يشتمل على الحجاج والمناظرة والجدل والإقناع والبرهان ، وهذا وإن كان حماد يريد به الذم إلا أنه أبلغ الجوانب في شاعرية الكميت في رأينا .

وسئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهلين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ، ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجريز ، والأخطل . ف قيل : يا أبا محمد ، ما رأيك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأولين والآخرين . . وفيه يقول أبو عكرمة الهذلي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للسان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم : حبيهم إلى الناس ؛ وأبقى لهم ذكراً . وقيل : في الكميت خصال لم تكن في شاعر :

كان خطيب بني أسد ، وفقه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان نساباً ، وكان جدلياً ، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك . وقال الفرزدق فيه : هو أشعر من مضي ومن بقى (١) .

### شاعرية الكميت وبواعثها

#### بواعثها :

كانت شاعرية الكميت قوية متأججة ، ومواهبه خصبة مشتتة ، وكانت هناك أسباب وبواعث عديدة تقوى من شاعريته ، وتصل من ملامكته ، وتهذب من فطرته الشعرية :

---

(١) كان محمد بن سهل راوية للكميت ( ٧ : ١٨ الحيوان - ط الخانجي ) .



١. -- وأولى هذه الأسباب وراثته للبلاغة والشعر عن قومه بنى أسد المشهورين بالشعر من قديم ، ومن أشهر شعراء بنى أسد فى الجاهلية عبيد ابن الأبرص ، وفى الإسلام الكميت .

٢ — وثانى هذه الأسباب استعداده الفطرى لقول الشعر والتبوع فيه ، وميله إليه ، ورغبته فى نظمه .

٣ — وثالث هذه البواعث بيئة السكوفة الأدبية ، وكثرة من نبغ فيها من الأدباء والشعراء ، وكثرة عناية العلماء فيها بالشعر ، فوق ما لوقها المشهور ، كمناسة السكوفة ، من أثر فى نهضة الشعر وفى ازدهاره .

٤ — ورابع هذه البواعث الظروف السياسية التى كان يعيش فيها الكميت مما جعل لكل حزب شاعرا أو شعراء يدافعون عنه ، وذلك مما شجع الكميت على قول الشعر والتبوع فيه . وعلى تجويده فى الجانب السياسى وهو الأهم من بين موضوعات الشعر فى عصره .

٥ — وخامس هذه الأسباب هو عقيدة الكميت الشيعية التى دفعته للدفاع عن الشيعة ومدح زعمائهم ورتاء شهدائهم وقراع أعدائهم ، ونضال بنى أمية المعتدين عليهم .

٦ — وسادس هذه البواعث هو ثقافة الكميت الأدبية الواسعة ، التى جعلت منه شاعرا عالما منسابة جدليا مناظرا راوية ناقدًا واسع العلم بالشعر وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكان يبذحمادا الرواية السكوفى فى هذا المضمار ، ويروى أنهما كانا يتناظران فى الشعر وروايته ، فكان الكميت يبذحمادا فى هذا المجال .

#### أهم أغراض الشعر عند الكميت :

١ — كان أهم أغراض الشعر عند شاعرنا الكميت هو الشعر السياسى الذى تجلى فى هاشمياته ، التى اشتملت على كل أغراض الشعر من فخر ومدح وهجاء ورتاء وحماسة .

والكميت في هذا الجانب من شعره قوى الشاعرية ، مشتمل الخيال ،  
ثائر العاطفة ، محتدم الخيال ، متلاحم الأسلوب ، غزير المعاني ، كثير  
الإجادة ، كثير الحكمة وضرب المثل ، يدعو إلى العدالة في الحكم ، وإلى  
الإنصاف في السياسة ، وإلى الاستماع أصوات الشعوب . ولقد كان الكميت  
شاعرا مخلصا لعقيدته الشيعية ، ومأمدا للأمويين إلا لون من ألوان التقية  
أو الدهاء السياسي ، وهذا مما يميزه الشيعة ، ويفسر ذلك ما روى عن  
المستهل بن الكميت ؛ قال : قلت لأبي : يا أبت ! إنك هجوت السكبي ،  
ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألاخرت بعلی وبنی هاشم  
الذين تتولاہم . قال يا بني : أنت تعلم انقطاع السكبي إلى بنى أمية ، وهم أعداء  
على عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد  
عرضت عليا له ، ولا أجد له ناصرا من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية  
وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته .

٢ - وللكميت شعر آخر غير الهاشميات ، ويشتمل على أغراض عديدة  
من وصف وغزل ومدح ، والشاعر في هذا اللون من الشعر متوسط  
الشاعرية ، لا يبدى غيره من الشعراء .

وجملة الأمر أن الكميت كان شاعرا مطبوعاً على قول الشعر ، ونظمه ،  
في كل وقت وكل غرض .

وكان سليم مملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر  
الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم  
إلى ذلك عليه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب  
ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراس ،  
أو تعداد المناف . فاجتمعت بذلك للكميت أسباب السكال في شعره :  
رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

وكان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم في جودة شعره حتى

لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعد ذلك من دعاياه ، ويدعى أن الكميت يسرق كلام الشعراء .

وقد أحدث شعر الكميت آثاراً سياسية بعيدة المدى حتى لقد عد هذا الشعر من أقوى العوامل في حياة دولة بني أمية وفي نهايتها ، يقول صاحب الأغاني : « ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء الين متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته ، وبعد وفاته ، حتى ناقض دعبل وابن أبي عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بني هاشم عنها ، ، ولقد كان ذلك في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة . ويقول الجاحظ في بيان المدى الذى بلغه شعر الكميت من التأثير في سياسة الدولة : ما فتح للشيعه الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هم لم تصلح لحي سواهم      فإن ذوى القربى أحق وأوجب  
يقولون لم يورث ولولا تراثه      لقد شركت فيه بكيل وأرحب (١)

#### هاشميات الكميت :

هى ست قصائد قالها الشاعر في الدفاع عن الهاشميين ، ونضال خصومهم من بني أمية ، وتبلغ نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات تبلغ نحو العشرين بيتاً .

وأولى هذه القصائد قصيدته الميمية التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام      غير ما صبوة ولا أحلام  
وثانيتها قصيدة البائية :

(١) هما حيان من ممدان .

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب      ولا لعبا منى وذو انشيب يلعب  
وثالثها قصيدته البائية أيضا التي مطلعها :  
أنى ومن أين أبك الطرب      من حيث لا صبوة ولا ريب  
ورابعها قصيدته اللامية :  
ألا هل عم في رأيه متأمل      وهل مدبر بعد الإساءة مقبل  
وخامسها قصيدته البائية :  
طربت وهل بك من مطرب      ولم تتصاب ولم تلعب  
وسادسها قصيدته العينية :  
نفى عن عينيك الأرق الهجوعا      وهم يمتري منها الدموعا  
وللهاشميات منزلة كبرى في الأدب والنقد والشعر وقد جعل الخوارزمي  
من جهلها ليس بمحدود من بين الشعراء .  
وسمة الهاشميات الواضحة هي تمجيد آل البيت وذكر المظالم التي لحقت بهم  
في عصر آل أمية والدفاع عنهم ، وذكر فضائلهم ، ومثالب خصومهم .

#### مصادر لدراسة الكميّ :

وقد تحدث عن الكميّ كثير من الأدباء والنقاد منهم أبو الفرج  
الأصمغاني في كتابه « الأغاني » ، (١) ، وابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » ،  
وصاحب خزائن الأدب (٢) ، وصاحب الجهرة (٣) . ولأستاذ الصعدي  
كتاب « الكميّ شاعر العصر المرواني » ، وقد نشر قصائده الهاشميات  
في هذا الكتاب . ونشرها كذلك الأستاذ محمد شاكر الحياط ،  
والمستشرق هروفتس .

وتحدث عن الهاشميات شوقي ضيف في كتابه «التطور والتجديد في الشعر الأموي» (١) .

وقد درس عبد الحسيب طه الأستاذ في كلية اللغة العربية السكيت وشاعريته وشعره في كتابه «أدب الشيعة» دراسة واسعة قيمة خصبة (٢) .

وقد ترجم له المؤلف في الجزء الثاني من كتابه «أعلام الأدب في عصر بني أمية» ، وكثيرون من مؤرخي الأدب في هذا العصر : كالزيات ، ومحمود مصطفى ، وأصحاب الوسيط ، والمفصل ، وغير هؤلاء .

١ - من هاشميات السكيت قوله :

ألا هل عم في رأيه متأمل . وهل مدبر بعد الإساءة مقبل (٣)  
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النعسة المنزمل (٤)  
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى

مساويهم لو كان ذا الميل يعدل  
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنحل  
كلام النبين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل  
رضينا بدنيا لانريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل  
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة (٥) مما نخاف وممقل (٦)  
أرانا على حب الحياة وطولها يجد بنا في كل يوم ونهزل

---

(١) ص ٢٣٣ - وما بعدها من المرجع المذكور .

(٢) راجع ص ٢١١ وما بعدها من المرجع المذكور - طبعة ١٩٥٦ بمطبعة السعادة بمصر .

(٣) أى أما أن للعاقل أن ينتبه وللنائم أن يستيقظ .

(٤) الملتف . (٥) وقاية . (٦) ملجأ .

٣ - ومن الهاشميات هذه القصيدة التي نذكر بعضها منها :

من لقلب متم مستهام	غير ما صبوة ولا أحلام
طارقات ولا اذكار غوان	واضحات الحدود كالآرام (١)
بل هواي الذي أجن وأبدى	لبنى هاشم فروع الأنام (٢)
للقربين من ندى والبعيد	ن من الجور في عرى الأحكام
والمصدين باب ما أخطأ الله	اس ومرسى قواعد الإسلام (٣)
والحماة الكفاة في الحرب إن	لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن محل الناء	س فاوى حواضن الأيتام
والولة الكفاة للأمر إن طر	ق يتشنا بمجهمض أو تمام (٤)

ويقول في وصف رسول الله منها :

أسرة الصادق الحديث أبي القا	سم فرع القدامس القدام
خير حي وميت من بني آ	دم طراً مأومهم والإمام

وفيا يذكر الحسين ، فيقول :

وقتل بالطف غودر منه بين غوفا أمة وطفام (٥)

- 
- (١) طارقات : وصف الأحلام ، والاذكار : التذكر . غوان : جمع غانية ، وهي المرأة الجميلة .
- (٢) أجن مضارع جن (كنصر) : أستر وأخفى ، ومثله أجن (كأكرم) . فروع : جمع فرع وهو أعلى الشيء .
- (٣) مرسى قواعد الإسلام : من أرسى الشيء بمعنى ثبته وأقره .
- (٤) طرقت الجبل : إذا خرج شيء من المولود وبقي شيء . اليتن . المولود الذي خرجت رجلاه قبل رأسه ويديه . المجهمض : الذي ألقته أمه قبل تمامه .
- (٥) الطف : موضع قرب الكوفة .

(١٤م - ١ق)

تركب الطير كالمجاسد منه مع هاب من التراب هيام (١)  
وتطيل المرزآت المقاليت عايه القعود بعد القيام (٢)

٣ - ومن هاشميات السكيت أيضا قوله :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا وهم يمتري منها الدموعا  
دخيل في الفؤاد بهيج سقما وحرناً كان من جذل منوعا  
لفقدان الخضارم من قريش وخير الشافعين معا شفيعا (٣)  
لدى الرحمن يصدع بالمشاق وكان له أبو حسن قريبا (٤)  
حطوطاً في مسرته ومولى إلى مرضاة خالقه سريعا  
واصفاه النبي على اختيار بما أعيى الرفوض له المذيعا  
ويوم الدوح دوح غدیر خم أبان له الولاية لو أطيعا (٥)  
ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا  
فلم أبلغ بها لعناً ولكن أساء بذاك أولهم صنيعا  
فصار بذاك أقربهم لعدل إلى جور وأحفظهم مضيعا  
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا وأقومهم لدى الحدثنان ريعا (٦)  
تناسوا حقه وبغوا عليه بلا ترة وكان لهم قريبا (٧)

(١) المجاسد : الثياب المرعفة . الهيام : الذي يتساقط من نفسه .

(٢) المقاليت : جمع مقلاة وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد .

(٣) يعني بخير الشافعين النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) القريع : المختار .

(٥) الدوح : الشجر العظيم ، وغدير خم : موضع بين مكة والمدينة قال فيه

النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : اللهم وال من والاه ، الحديث .

(٦) الحدثنان : صروف الزمان ، والريع : الطريق . ويحتمل أن يكون ريع فعل

ماض بمعنى أفرع .

(٧) الترة . الثأر : والقريع : السيد .

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا (١)  
ألا أف لدهر كنت فيه هداً طائعاً لكم مطيعاً (٢)  
أجاء الله من أشبعته وه وأشبع من مجوركم أجيعاً  
ويلعن فذ أمته جماداً إذا ساس البرية والخليعاً (٣)  
بمضى السياسة هاشمي يكون حياً لأمته ربيعاً (٤)  
وليثاً في المشاهد غير نكس لتقويم البرية مستطيعاً (٥)  
يقيم أمورها وينب عنها ويترك جذبها أبداً مريعاً (٦)

ألوان من شعر السكيت في غير الهاشميات :

١ - قال السكيت يمدح خالد بن عبد الله (٧) :

لوقيل للجدود من حليفك (٨) ما إن كان إلا إليك ينتسب  
أنت أخوه وأنت صورته والرأس منه وغيرك الذنب  
أحرزت فضل الفضال (٩) في مهمل فكل يوم بكفك القصب (١٠)

(١) المهند : السيف ، والقطيع : السوط .

(٢) الهدان : الجبان .

(٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح ، يعني به قاتل علي ، والخليع : الوليد بن عبد الملك .

(٤) الحيا : المطر والخصب ، والربيع معروف وهو يعم الناس بالخير فيكون مثله . (٥) النكس : الدق المقصر .

(٦) المريع : الخصب .

(٧) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ هـ .

(٨) حليفك هو الذي يعاهدك على أن يكون أمركا واحداً في النصر والحماية

(٩) المباراة في الرمي .

(١٠) هو كل نبات ذى أنابيب والواحدة قصبية ، وأحرز القصب أو قصب السبق غلب .



لو أن كعباً (١) وحاماً (٢) نشرّا      كأننا جميعاً من بعض ما نهب  
لا تخلف الوعد إن وعدت ولا      أنت عن المعتفين (٣) تحتجب  
مادونك اليوم من نوال ولا      خلفك للراغبين منقلب (٤)

٢ - وهذا مثال لغزل الكميّ وهو غزل ضعيف متكلف ، يروى أن  
الكميّ وفد على الخليفة يزيد بن عبد الملك (٥) في دمشق ، ومدحه فقال  
له الخليفة : يا أبا المستهل ، هذه سلامة القس جارية حاذقة عرضت علينا ،  
أفترى أن نبتاعها ؟ قال الكميّ : إى والله يا أمير المؤمنين ، فما أرى أن لها  
مثلاً في الدنيا فلا تفوتك ، قال الخليفة فصفها في شعر حتى أقبل رأيك ؛  
فقال الكميّ :

هى شمس النهار فى الحسن إلا      أنها فضلت بقتل الظراف  
زانها دلهما وثغر نقى      وحديث مر تل غير جاف  
خلقت فوق منية المتمنى      فاقبل النصيح يا بن عبد مناف  
فضحك يزيد ، وقال : قد قبلنا فضحك يا أبا المستهل ، وأمر له بجائزة .  
ولما سمع خالد هذه الأبيات أمر للكميّ بمائة ألف درهم .

٣ - ويروى صاحب الأغاني أن الخليفة هشاماً وقعت له رقعة فيها  
أبيات تشتمل على هجاء خالد القسرى ، وهى :

- 
- (١) هو كعب بن مامة من إباد أحد أجواد العرب المضروب بهم المثل  
فى الكرم .  
(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات  
قبيل الإسلام .  
(٣) طلاب المعروف والرزق .  
(٤) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .  
(٥) تولى يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ ، ومات ١٠٥ هـ .

تألق برق عندنا وتقابلت      أناف لقدر الحرب أخشى اقتبالها (١)  
فدونك قدر الحرب وهي مقرة      لكفيلك واجل دون قدر جمالها (٢)  
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حده      فنلها برسل قبل ألا تنالها (٣)  
فتجشم منها ما جضمت من التي      بسور أهرت نحو حالك حالها  
تلاف أمور الناس قبل تفاقم      بعقدة حزم لاتخاف انحلالها  
فأبرم الأقوام يوما لحيلة      من الأمر إلا قلدوك احتيالها  
وقد تخبر الحرب العوان بسرها      - وإن لم تبح - من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالآيات  
فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الآيات ، فأجمعوا جميعاً من  
ساعتهم أنه كلام السكيت بن زيد الأسدي .

#### ع - ملحمة السكيت :

ومن شعر السكيت ملحمة طويلة باثية رواها أبو زيد في كتابه  
« الجهرة » ، وجعلها إحدى الملححات السبع التي رواها في كتابه ، وهي من  
الشعر السياسي الذي كان ينظمه السكيت ليناضل به بني أمية ويندد بحكمهم  
للعالم الإسلامي ، وتبلغ ستة وخمسين بيتاً :

ألا أرى الأيام يقضى عجيبها      بطول ولا الأحداث تقضى خطوبها  
ولا عبر الأيام يعرف بعضها      ببعض من الأقوام إلا لبديها

(١) يقال : « اقتبلت الأمر إذا استأنفته » ، يريد بتقابل الأتافي القدر  
الاستعداد للحرب وإنما جعل الحرب قدراً لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب  
القدر عند الغليان .

(٢) الجمال : خرقه ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفيلك : أى خاضعة  
لها ، يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

ولم أر قول المرء إلا كنبه به وله محرومها ومصيبها  
وما غبن الأفوام مثل عقولهم ولا مثلاً كسباً أفاد كسوبها  
وما غبن الأفوام عن مثل خطة تغيب عنها يوم قبلت أريها  
ولم أر باب الشر سهلاً لأهله ولا طرق المعروف وعثاً كثيها  
وأكثر ما في المرء من مطمانه وأكثر أسباب الرجال ضرورها  
ولم أجد الميدان أقداء أعين ولكننا أقدأوها ما ينوبها  
من الضيم أو أن يركب القوم قومهم  
ردافاً مع الأعداء ، إلباً ألوبها

ومنها :

رمتني قريش عن قسي عداوة وحقد كأن لم تدر أني أريها  
توقع حولي تارة وتصيني بنبل الأذى عفواً جزاها خسيها  
رمتني بالآفات من كل جانب وبالدرياء مرد فهر وشيها  
بلا ثبت إلا أقاريل كاذب يحرب أسد الغاب كفتاً وثوبها

إلى أن قال :

إذا نحن منكم لم نل حق إخوة على إخوة لم يخش غشاً جيوها  
فاية أرحام يعاذ بفضلها وأية أرحام يؤدي نصيبها  
جمعنا نفوساً صاديات إليكم وأفئدة منا طويلاً وجيها  
وهل يعدون بين الحبيب فراقه نعم داء نفس أن يبين حبيبها  
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر عزاء إذا ما النفس حن طروبها  
وإن لم يكن إلا الأسته مركباً فلا رأى للمضطر إلا ركوبها  
ستذكرنا منكم نفوس وأعين ذوارف لم تعنن بدمع غروبها  
إذا وأدتنا الأرض إن هي وأدت وأفرخ من بين الأمور مقوبها  
وأصكت در الفحل واسترعت به حراجيج لم تلقح كشافاً سلوبها

وبادرهـا دفء الكفيف ولم يعن  
على الضيف ذى الصحن المسن حلوبها

ويبدو أن الكفيت قال هذه الملحمة في عهده الأول قبل أن يقول  
هاشمياته ويأخذه بنو مروان بالشدة ، لأنه يهدد في هذه الملحمة ويتوعد  
ويخاطب بنى مروان بشيء من الشدة ، لا يبلغ شدته فى الهاشميات  
ولا يناسب حاله بعد أن عفا هشام عنه لأنه عاش بعد عفووه عنه خائفا  
يلين ويدارى ويجتهد فى الإرضاء والبعد عما يوجب السخط كما يقول  
بعض الباحثين .

---

## مسكين الدارمي

شاعر أموي شريف من سادات قومه بني دارم ، عمر إلى أواخر  
العصر الأموي ، وهو شاعر مقل ، على أنه من الفحول قل أن تجد في شعره  
سفسافا أو مرذولا ، وكيف يكون ذلك وهو من النابتين في ببحوحة  
العروبة في بطون بني تميم ، وقد ألهم بنو أمية جذوة الشعر وفتحوا اللثام  
باللثام ، وأندوا أصوات الشعراء ، بما يبذلون من جزيل العطاء .

وهو ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن  
عدس بن دارم . وسمى بالمسكين لما جاء في شعره ، وهو :

أنا مسكين لمن أنكرني      ولمن يعرفني جسد نطق (١)  
لا أبيع الناس عرضي إني      لو أبيع الناس عرضي لنفوق  
فسمى مسكيناً ، وكأنه مل هذا اللقب من بعد فصار يسلي نفسه ويقول:  
سميت مسكيناً وكانت الحاجة      إني لمسكين لربي راغب

ويثبت خلاف ما تتطلبه المسكنة من الخول فيقول : إنه وإن سمي  
مسكيناً معروف في الناس ذائع ، وإن الأسماء علامات ترتفع بأصحابها فيقول:

وإن أدع مسكيناً فلست بمنكر      وهل تنكرن الشمس ذر شعاعها (٢)  
لعمرك ما الأسماء إلا علامة      منار ، ومن خير المنار ارتفاعها

وكان مسكين ، ممن قضت عليهم مناحي السياسة ودواعي الاقتصاد  
وحب الحياة أن يكون من المتعصبين لبني أمية ، يدافعون عن دولتها ولا سيما  
في عهد معاوية . وقد كان خلفاء هذه الدولة وعلى رأسهم هذا الخليفة قد  
اشترى السنة الشعراء فأحدثوا معنى من التكسب بالشعر ، وانتكسب به ، عملاً  
على تحقيق الأهداف السياسية كما هي عادة الملوك والأمراء والسادة والرؤساء .

---

(١) نطق كثر النطق .

(٢) ذر بمعنى طلع .

وكانت السنة الشعراء هي العامل الأول إذ ذاك في توطيد الملك ، فهمى  
أسرع انتشاراً وأعمق أثراً وأطول رواية وأكثر تعميراً أمن الجرائد السيارة اليوم  
وقد وقف مسكين هذا نفسه موقفاً مشهوراً في التاريخ لولاه ما استقر  
الملك لآل أبي سفيان ولا نقل من معاوية إلى ابنه بعده . لقد كان هذا  
الانتقال يشكره عليه القوم حتى من أصحاب الخليفة معاوية وجلسائه وكبار  
رجال الدولة (١) وإن شئنا يشكره هؤلاء يقل الأمل فيه ، لذلك احتال  
يزيد حتى عمل مسكين قصيدة ، وأنشدها أمام الخاصة من وجوه بني أمية  
في مجلس معاوية محتج فيها بالمقدمات الشعرية ، وبورطهم بقضاء الشعر  
الذي لامرء له ، وهكذا الشعر :

برى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

احتج مسكين بمقدماته الشعرية التي تقول : إن الخلافة لله يبوئها حيث  
يريد ، ثم ينتقل من هذا إلى أن المنبر إذا خلاه ربه فإن الأمير يزيد ، ويقرر  
ذلك بأنه على الطائر الميمون والجد صاعد وسكل أناس جدود . ويهنيء  
الخليفة قبل أن يسكون خليفة ، ثم يدعو له بتخايد بيت الملك فوقه تشيد له  
أطناب وعمد . وتوقد في كنفه النيران للقرى ، وعلى قدور كالجوابي تحتها  
أناف ركود ... وسكت الناس فاطمأن معاوية ومضى .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي  
ويصله ويقوم بجوائجه عند أبيه ، فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك  
وخاف أن لا يمالئه عليه الناس ، لحسن البقية فيهم ، وكثرة من ترشح للخلافة ،  
وبلغه في ذلك ذرور كلام (٢) كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم  
وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبيتنا وينشدها معاوية في  
مجلسه إذا كان حافلاً بوجوه بني أمية ... ودخل مسكين والخليفة جالس وابنه  
يزيد عن يمينه وبنو أمية حواله وأشرف الناس في مجلسه فثقل بين يديه وأنشأ يقول :

(١) ١٨ : ٧١ الأغاني . (٢) أي طرف منه .

إن أدع مسكينا فإني ابن معشر      من الناس أحمى عنهم وأذود  
إليك أمير المؤمنين رحلتها      تثير القطا ليلا وهن هجود  
وهاجرة ظلت كأن ظباءها      إذا ما انتقتها بالقرون سجود  
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر      ومروان أم ماذا يقول سعيد  
بني خلفاء الله مهلا فإنما      يبوئها الرحمن حيث يريد  
إذا المنبر الغربي خلاه ربه      فإن أمير المؤمنين يزيد  
على الطائر الميمون والجد صاعد      اسكل أناس طائر وجسدود  
فلازلت أعلى الناس كعبا ولا تنزل      وفود تسامبها إليك وفود  
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً      تشيد أطناب له وعمود

وعند ذلك قال معاوية : ننظر فيما تقول يا مسكين ، ونستخير الله ، ولم  
يتكلم أحد من بني أمية إلا بالإقرار والموافقة ، ثم وصله يزيد ووصله معاوية  
فأجز لا صلته . وإن جديراً بمن وهب ملكاً أن يحكم فيما يريد وأن لا يغلي  
له شيء في المملكة .

هذا موقف من الشعر السياسي لمسكين وضعه حيث ترى .

على أن معاوية كان قبل هذا الموقف لا يحفل به ، ولا يقدره قدره ، إلا  
أن يكون يزيد هو الذي يشفع له ، وكأنما كان في يزيد إحساس باطن  
أو اعتقاد كامن بأن مسكينا يترشح لهذا الموقف .

وتحدثوا جميعاً أن مسكينا قدم على معاوية يطلب عطاء بما كان يهب  
معاوية للوؤلة قلوبهم عنده ، فأبى عليه ، وكان أول أمره لا يفرض إلا  
لليمن ، فخرج مسكين وهو يقول : حناً لمعاوية بطوى معنى التهديد للخليفة مع  
التسليم لنفسه :

أخاك أخاك إن من لا أخاله      كساع إلى الهيجا بغير سلاح  
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه      وهل ينهض البازي بغير جناح  
وما طالب الحاجات إلا مغرر      وهل نال شيئاً طالب بكناح

على أن معاوية لم يعطف عليه إلا بعد حين . ويظهر أن ذلك المعنى  
السياسي - مع ما كان من تهاوش بين الشعراء وتنافس على الخطوة في ميدان  
المجادة - كان له أثره في التهاجي بين الشعراء . فقد بثه في الشعر في ذلك العهد  
مع نقص الوازع الديني وإحياء ما أمات الإسلام من الجاهلية الأولى ،  
وكثرت المخاصمات بين الشعراء : بكريز والفرزدق ، والأخطل والبعيث ،  
ومسكين شاعرنا الذي منى بالتهاجي بينه وبين الفرزدق ، والفرزدق شاعر  
أموي كريم النفس ، لا يبالي أن لا يصيب مرضاة هؤلاء الخلفاء اعتزازاً  
بمجد قومه ، وبدينه ، لهذا كان يتمصّب لآل البيت العلوي ، ويفخر شأنهم في  
أحرج المواقف ، وأمام الخلفاء الأمويين أنفسهم ، على أنه كان من علو  
النفس بحيث يقول في مجلس سليمان الخليفة وقد تنافس الشعراء في مدح  
الأمير ، يقول الفرزدق مفتخراً بأبيه :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب  
إذا أبصروا ناراً يقولون ليها وقد خصرت أيديهم نار غالب

وكان مسكين غير ذلك ودون ذلك ، فوقع بينهما ما كان بين شعراء ذلك  
العصر ، وكان بينهما شعر يجمع بين الهجاء والفخر شأن ذلك النوع من  
الشعر ، وكانت نهاية ذلك يوم مات زياد بن أبيه وكان محسناً إلى مسكين  
ومسيئاً إلى الفرزدق ، إلى حد أنه مازال هارباً يتنقل بين مكة والمدينة حتى  
مات زياد فقرت بلابله ، وكان سبب ذلك أن الفرزدق هجا بني فقيم فأرقت  
فيهم ، فاستعدوا عليه زياداً وهو على العراق ، فلهذا مات زياد رثاه  
الفرزدق معرضاً بشاعرنا بقوله :

أمسكين أبكى الله عينك إنما جرى في ضلال دمعها فتحدرا  
بكيت على عالج بميسان كافر ككسرى على عداته أركقبصرا  
أقول له لما أناني نعيه به لا بظي بالصريمة أعفرا



ورد عليه مسكين بقوله :

ألا أيها المرم الذي لست قاعدا      ولا قائما في القوم إلا انبرى ليا  
فجنتي بعم مثل عمي أو أب      كمثل أبي أو خال صدق كخاليا  
كعمرو بن عمرو وأوزرارة في الندى      أو البسر من كل فرعت الروايا  
ولمسكين أغراض أخرى كالحكم والفخر والشباب والشيب ، وهذه  
بعض أبيات له في الحكم :

ولست إذا ما سرني الدهر ضاحكا      ولا خاشعا ما عشت من حادث الدهر  
ولا جاعلا عرضي لمالي وقاية      ولكن أقي عرضي فيحرزه وفري  
أعف لدى عسري وأبدى تجملا      ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر  
وأني لاستحيي إذا كنت معسرا      صديقي وإخواني بأن يعلموا فقري  
وأقطع إخواني وما حال عهدهم      حياء وإعراضا وما بي من كبر  
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه      ومن يحى لا يعدم بلاء من الدهر

## رابعاً - النثر الأموى<sup>(١)</sup>

- ١ -

النثر الأدبي أو الفني هو الكلام الذى يصور العقل والشعور ، ولا يتقيد بوزن أو قافية .

ويرى الباحثون من الأدباء المحدثين ، ومن بينهم الدكتور طه حسين ، أن القرن الأول الهجرى لم يكن فيه نثر فنى يعتد به ، إنما كان الشأن للشعر ، وقد احتذى الدكتور فى ذلك حذو الأستاذ مرسية الفرنسى ، وهو أول من ذهب إلى ذلك ، وإلى أن النثر الفنى فى الأدب العربى يبتدىء بآبن المقفع ، وابن المقفع فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبى فى اللغة العربية ، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا رأى وبأن الشعر أمضى من النثر الفنى فى آداب اللغة العربية ، وأذاع ذلك فى كثير من مؤلفاته ، وقد ثار بعض الباحثين فى وجه هذه النظرية وهاجوها .

وهذه النظرية - وهى أن الشعر سبق النثر الفنى فى الوجود - نجد أصولها عند أرسطو فى كتابه « الشعر » فهو يقول فيه :

« والأقدم من الأشعار الأنصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد فى النفوس بالتخييل الشعرى ، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك ، وهى نوع من أنواع النثر ، وقد عمم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم ، فذهبوا إلى أن الشعر أمضى من النثر الفنى وجوداً ، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولد زيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التى عبرها النثر إلى الشعر عند العرب .

---

(١) مجلة الديار اللبنانية عدد ٣١ آذار ١٩٥٩ م .

ونحن لا نميل إلى هذا الرأي الجديد ولا نؤيده ، فالقرآن أثر من آثار  
النثر الفنى ، وكذلك السكتب الدينية والأدبية القديمة التى يشير إليها القرآن  
السكرىم ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فنى قبل الميلاد بكثير :  
فاليونانيين آثار كبيرة فى الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة ، وللرومانين  
آثار فيها قبل الميلاد وبعده ، فلماذا لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة  
قرون ؟ مع أن لعبد الحميد الكاتب آثارا كبيرة فى النثر الفنى وهو قبل ابن  
المقفى على أى حال ، والقديما من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر ، فابن  
رشيق يقول : وكان الكلام كله منشورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم  
أخلاقها وطيب أعرافها ، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام ،  
فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ... وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهاوى  
وسواه .

وإذا فالنثر الفنى فى الأدب العربى وجد قبل القرآن بقليل وصاحب  
نزل القرآن وتأثر به تأثرا عظيما ، ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح  
الإسلامى ، واحتذوهم فى ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره فى النثر الفنى  
منذ آخر القرن الأول الهجرى على أيدى بعض الكتّاب .

كان كثير من الكتّاب والموالى يعرف اللغة الفارسية (١) ، وبعضهم  
كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر فى النثر .

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال الفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب  
النبي ، والحبشية من خادم النبي ، والقبطية من خادمه ، وتعلم السريانية بأمر  
الرسول السكرىم ، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود كما يقول أحمد أمين (٢) ،  
وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب ،  
وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الاسكندر إلى  
العربية مما يدل على معرفته للغة غير اللغة العربية ، وله رسائل فى مائة ورقة

---

(١) ٢٩٥ : البيان والتبيين للجاحظ . (٢) ١٧١ ج ١ فى الإسلام .

كما يقول ابن النديم في الفهرست (١) ، وكان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسي إلى العربي ، وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية ، وقد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي نحوها إلى اللسان العربي ، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية ، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة ، ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسي على الخصوص في تطور الكتابة والنثر الفني في أدب لغتنا العربية ؛ ويقول الجاحظ عن غيلان الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك : إن له رسائل بليغة (٢) . والظاهر أن غيلان كان يعرف الرومية .

وعبد الحميد الكاتب هو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وهو أول من فتق أكام البلاغة ، وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة فهد سبيلها ووضع معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة في بدئها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى . فكان بذلك شيخ الكتاب ، وبحق لقد قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد .

ثم ازداد أثر الفارسية في النثر الأدبي ؛ فنقل الفرس إلى العربية القصص الغرامية كما نقلوا الغزل بالمذكر إلى الشعر العربي .  
وظهر ابن المقفع ( المتوفى عام ٥١٤٣ ) وأحدث أثره في النثر الأدبي ، وفي تطوره ، وكان ابن المقفع من عنصر فارسي ، وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية .

---

(١) ص ١١٧ الفهرست لابن النديم .

(٢) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين .

وابن المقفع هو إمام المُنشئين في آخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، وكان إمام الطبقة الأولى من الكتّاب في العصر العباسي ، وهي الطبقة التي أدركت الدولتين ، ومن شخصياتها : يحيى بن زياد الخثاعي وعمار بن حمزة وأبو أيوب وزير المنصور وكتّابه ، وقد آخى ابن المقفع في طريقته بين التفكيك الفارسي والبلاغة العربية ، وكان مقدما في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير . فأدبه وإن كان عربي اللفظ والأسلوب فهو أعجمي الفكر والتأليف ، فقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة عرفت به وأخذت عنه ، وتظهر زينته في ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها ، من حيث يغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية ، كما تشيع فيه الحكمة التي يرونها بعدوثة ألفاظه وسلامة أسلوبه ، وحقا لقد كان أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني مع وضوح الغرض وسمو الأسلوب ، وهو أكثر كتّاب عصره تألقا في صوغ الجملة فكان يقوم في النثر بما كان يقوم به زهير في الشعر ، وهو أحد الكتّاب الذين لم يلتزموا السجع فكان في كلامهم قليلا ، ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في مواضع بسيرة ، وقد اهتموا ببسط المعاني وتأكيدها وتركوا مذهب الإيجاز الذي كان شائعا في القرن الأول إلى الإطناب وتنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات وتوخي الإفهام .. وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربي بالترجمة ، فهو الذي ترجم كاتيلة ودمنة مما ينم على جهل بذله المترجم في تحرير الخصائص الهندية الصميمة التي للكتاب الأصلي ، بنشاشترا ، ليحمله ملائما للذوق العربي ، وأضاف إليه فصولا جديدة في مواضع مختلفة .

ولقد تهباً للنثر الأدبي في هذا العصر من العوامل والمؤثرات ، مانهض به ، ورفعته إلى الازدهار والقوة :

١ - فقد استقر العرب بعد اضطراب ، واجتمعوا بعد تفرق ، وتحضروا بعد بدو ، واجتمع لهم من سلطان الملك ، وسبب الحضارة . وثقافة الفكر وتنظيم الحياة ، ما جعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب ، وأسلوب رشيق وفكرة مرتبة ، ومعنى تمتلك به النفوس ، ونجذب الأئمة .

٢ - ومن الأسباب التي جعلت ثمر هذا العهد قوى العبارة جزل الأسلوب ، شديد الأمر ، ضخم المظهر ، لائحونه روعة الأداء ، ولا تتخلف عنه نصارة البلاغة ، أن دولة بني أمية قامت بجد السنان ، وقوة البيان ، وكما كان السيف من أسلحتهم في توطيد الملك ، واستلاب الحكم ، والاستيلاء على شئون المسلمين ، كان البيان القوي يحاول أن يخادع الناس ، وأن ينتزع من صدورهم ما يؤمنون به ، من أحقية آل البيت ، وأن يجتذبهم إلى سياسة الأمويين ، ويخضعهم بالقول المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث . وهذا أفاد النثر تهذيباً وصقلاً ، وعاد عليه بكثير من الجودة وحسن البهاء ، وصفاء الروق .

٣ - وكذلك استفاد القوم من بلاغة القرآن ، وروعة بيانه ، وسمو أسلوبه ، ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهذيب منطقهم ، وتطور أساليبهم ، أكثر مما استفاد أسلافهم . ذلك أن هؤلاء الأسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة الأحداث الملية ، ومقارعة الخطوب المدلحة ، عن حفظ القرآن وزديده واستظهار الأحاديث النبوية وثريلها . فلم يكن أحد منهم يجد من فراغ وقته واتساع الفرصة أمامه ، ما يمكنه من حفظ ( ١٥٢ - ١٥٣ )

القرآن ، بل كان قصارى ما يستطيع أن يحفظه آيات يؤدي بها صلاته ، وقيم بها عبادته . حتى كان أنس بن مالك يقول : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا ، ؛ وإذا صح ماروى من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة ، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة ، والشواغل الصارفة ، من تمكين للدين ، ونشر للوائه ، ومجاهدة لأعدائه .

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب فانصرفوا بكل ما فيهم من رغبة مستعرة ، وميول مشبوبة منهومة ، إلى كتاب الله يستظهرون آياته ، ويفهمون حكمه وعظاته ، وينصتون إلى ما فيه من سحر البلاغة وروعة البيان ، وسمو التعبير ، وجمال التصوير ، وماذا يمنعهم من ذلك ، وقد يسر لهم ذكره ، وهبث لهم أسباب الحصول عليه ، ثم رأوا أعلام الصحابة يتصدون لتعليم المسلمين ، وشرح ما غاب عنهم من معاني الكتاب ، والإفاضة في بيان ما يحمله إليهم من كريم الآداب ، وجميل العظات ، فابن عباس ( ٥٦٨ ) يجلس لذلك بمكة ، تضرب إليه أكباد الإبل ، وتقطع له الصحارى والقيافي . وزيد بن ثابت ( ٤٥ هـ ) بالمدينة يشرح للناس حديث الوحي ، ويصهرهم بأحكامه ، وينير لهم من سبل الهداية ما يرغبهم في العلم ، ويدعوهم إلى التفقه في الدين ، والانتهال من مناهل الشريعة . وهكذا .

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي من البلاغة في الذروة والسمام . فجعلوا يتلقفونها ، ويصغون معجبين إلى لحن القوة ينساب في كلماتها ، وإلى إشراق البيان ونصاعته وسماحته ، ينضر مبانيها .

رددوا هذه الأحاديث ، واستدلوا بها في كل ما يعرض لهم من شأن ، أو يقع لهم من مشكلات ، وبدأوا يدونونها ، ويجمعون ما تفرق منها في صدور الرواة ورؤوس الثقات ، حتى تم لهم جمعه في عهد عمر بن عبد العزيز ...

ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التي شاموا بروقها ، واستنشقوا عيبرها ،  
من كلام رب العالمين ، وآثار أفصح المرسلين .

٤ - وكذلك استجد الأمة من مظاهر الملك ، وانفسح لديها من آفاق  
الحياة ، ونهيا لها من عوامل النمو والتطور ، ما يدعو إلى تهذيب اللغة  
ورقي الأساليب .

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم  
ويصرفهم بعض الشيء عما كانوا فيه من توغل في العبادة . فقد وجد الخلفاء  
والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم ، وتهييجهم إلى الطاعة ، وإثارة  
مشاعر الخوف والتقوى التي قد تهميها زخارف الدنيا ، ويغطي عليها  
ما تزاخم لديهم من مفاتن الحياة ؛ ولهذا رتب معاوية الوعاظ في المساجد ،  
يذكرون الناس حين تلتابهم غفوة ، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين  
تميل بهم هفوة . ويقصون عليهم على نظام السكتاب الكريم ما حل بغيرهم  
من الأمم حين جانبوا الحق ، وتنكبوا الهداية . وكان من أشهر هؤلاء  
الوعاظ الحسن البصري ومحمد بن سيرين .

وكان هؤلاء يعمدون إلى الإفاضة في الآيات القرآنية والأحاديث  
النبوية التي تبصر الناس بما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في آخرهم . ولا ينكر  
أحد ما لهذا من أثر بالغ في تهذيب اللفظ وروعة المعنى ، ودقة الفكرة ،  
وقوتها فإن العظة دائماً لا تقع من النفس موقفاً مقبولا ، ولا تأخذ مكانها  
من القلب في أسر وسماحة ، إلا حين تلبس ثوباً براقا من اللفظ الجميل  
والأسلوب المونق والفسكر المرتب .

ه - وقد رأى خلفاء بني أمية أن الناس قد بداخلهم الخلق على هذا  
السلطان الذي اغتصبوه ، ويتردد في نفوسهم الرد من أجل هذا الملك  
الذي سلبوه ، فأرادوا أن يصرفهم عن مثل هذه الأفكار برواية مترك  
العرب من شعر ونثر ، بعد أن كادت الحروب والغزوات والانصراف إلى



الدين الجديد تقطع ما بينهم وبين ذلك من الصلات . وقد بالغوا في الالتفات إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها . ويظهرون نفائسها . ويحيون ما كاد يندرس من أعلامها ، وأخذوا يشجعون الرواة ، ويغدقون عليهم سنى الجوائز ، وعظيم الهبات ، وبوسعون لهم في مجالسهم ويؤثرونهم بعطفهم ، والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولى على نفوسهم بلاغتها ، يأخذ بالبابهم رونقها ، وينطبع في أذهانهم ما تتميز به من الجزالة وشدة الأسر ، وضخامة اللفظ ، وهذا سر ما نلحه في أدب هذا العصر من قوة وخولة ومن أصالة الملصكة ، واقتدار بالغ على الأداء والتصوير .

٦ - ومن البين أنه لا بد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصال المعارف أثر قوى في تهذيب ألفاظهم ، وترتيب أفكارهم ، وصقل مداركهم .

ومن هنا رأينا نثرا لا يعتمد على الفكرة الطارئة ، ولا اللمحة العارضة ، ولا الخاطر العابر ، إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحجج واتزان المنطق .

وهذه العوامل جعلت النثر الأدبي رائع الأسلوب ، قوى المنهج محكم الأداء والتصوير . .

وهكذا ، وفي عصر بني أمية ، بدأ النثر الفني يسير إلى نهضته الأدبية الرائعة ، وظهر أثر الثقافة الأدبية فيه ظهورا واضحا ، وكانت هذه الثقافة متنوعة تشمل :

١ - القرآن الكريم الذى أثر في ملكات العرب وهذب من ألسنتهم ، ورفق من مشاعرهم وطباعتهم ، في عصر صدر الإسلام . ثم زاد هذا التأثير في العصر الأموي : بحفظ العرب له ، وقرائتهم إياه ، بعد أن انتشرت مصاحف عثمان في الأمصار ، وبطول الفترة التى قضوها في الإفادة من بلاغة القرآن ، بعد أن استراحوا من الفتوحات وهداية الشعوب إلى الإسلام .

٢ - حديث رسول الله ، وكان المسلمون يحفظون منه الكثير ، ثم دون ووزع على الأمصار في عهد عمر بن عبد العزيز ، فانتسعت إفادة الناس منه ، وتأثرهم ببلاغته .

٣ - مجالس القصص والوعظ ، التي كانت ثقافة أدبية عامة ، وقد كان يتحدث فيها للناس كل بليغ وخطيب وأديب يسحر القوم ببلاغة وبيان .

٤ - الأدب والشعر الجاهلي ، الذي اجتهد بنو أمية في إحيائه وتشجيع روايته وتدوينه ، وتقريب روايته إليهم . . وقد أكسب إحياءه النثر الفني قوة وجزالة وروعة وبلاغة .

٥ - أدب البلغاء والفصحاء منذ ظهور الإسلام ، وهو كثير جدا ؛ وكان له أثره في تقويم الألسنة ، وتهذيب الملكات ، وكانت خطب الوفود التي تقرأ على قصور الخلفاء والأمراء دروسا كبيرة في البلاغة والبيان ، ويروى أن شباب الكتاب كانوا إذا حضر وفد لهشام حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم<sup>(١)</sup> كما كانت مجالس المؤدبين والرواة والشعراء والنقاد حافلة بالكثير من مظاهر النشاط الأدبي ، مما كان له أثره الجليل في تقويم الأذواق وإرهااف المقاعر ، وتهذيب الملكات .

٦ - وقد أفاد العرب من اختلاطهم بالموالي والعناصر الأجنبية ، فسمعوا عن ثقافات الأمم القديمة ، ورويت لهم ، وتحدثوا بها في مجالس سمرهم ، مما أكسب العقول عمقا وفهما ومعرفة وثقافة . وظهر أثر ذلك في تقدم العلوم ونهضة الفنون والآداب ، وكان للأسرى المسلمين في بلاد الروم أثر كبير في ذلك .

---

(١) ١٧٩ / ٣ العقد الفريد .

خصائص أسلوب النثر الأموي :

ويمكننا أن نقول إن من أهم هذه الخصائص :

- ١ - إثارة خيال السامع باستخدام المجازات القوية .
- ٢ - الإكثار من الالفاظ القوية البالغة التأثير .
- ٣ - دقة التعبير وصفائه وخلوصه من شوب اللسكنة والعجمة واللعن إلا قليلا .

٤ - ترك التزام السجع لما في ذلك من التكلف المكروه ويرى أن معاوية أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : هو أهون على من ذرة أو كلب من كلاب الحرة ، ثم قال : اخذ من كلاب الحرة ، واكتب من الكلاب ، كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع (١) ؛ وكانوا يقسمون الكلام إلى فصول وفقر صغيرة يجمعها غالبا الازدواج والتقارب في الوزن .

٥ - الاهتمام بأساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وتداولها في القوة والبلاغة والبيان .

وقصارى القول مايلي :

- ١ - أن العوامل التي أدت إلى ازدهار النثر الفني كثيرة منها :  
أولا : نضوج الثقافة العربية الإسلامية من علوم الدين واللغة والأدب ، وإقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها . واحتداؤهم حذرهما .
- ثانيا : رواية أصول الأدب العربي شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكم وسيما وقصصا وأخبارا وأنسابا . والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ؛ وقد شمل ذلك شعر العرب القدامى والإسلاميين وخطب

---

(١) رسائل الجاحظ .

الرسول ووعاياه ، وخطب الخلفاء والأصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم  
ومأثور كلامهم ، حتى هذا العصر ، وبخاصة خطب الإمام علي بن أبي  
طالب وحكمه .

ثالثا : أثر القرآن الكريم والحديث النبوي في تهذيب الألسنة وترقيق  
الطباع ، وإنضاج الملكات .

رابعا : اتصال العقل العربي بالثقافات الأجنبية وتأثره بأداب الفرس  
واليونان والرومان والهند وغيرهم .

٢ - أما أثر الثقافة الفارسية في النثر الفني : فقد كانت هذه الثقافة  
تتجمع في البصرة ، وتجد في حلقائها متسعا للدراسة ، ومجالا للفهم والاستزادة  
والترجمة ، فظهر بشار والشعراء الذين هم أصل من فارسي ، كما ظهر ابن المقفع  
وغيره من الكتّاب الذين يرجعون إلى أصول فارسية ، وقد تمثلت الثقافة  
الفارسية وتأثيرها في النثر الفني في عبد الله بن المقفع بترجمته لأصول  
الآداب الفارسية إلى اللسان العربي من أمثال كيلة ودمنة والتاج والآداب  
الصغير والكبير وخداينامه وغيرها . . فقد غذت هذه الترجمات النثر الفني  
بكثير من الموضوعات الجديدة والأغراض الجليطة والحكم والمعارف المفيدة .  
٣ - وأما أثر الثقافة اليونانية الرومانية : فقد تمثل هذا الأثر في اتصال  
الكتاب في الشام بهذه الثقافة واستفادتهم منها وترجمتهم لها ، وأخدم منها  
كل مفيد في تلقيح النثر الفني وإخصابه .

والممثل لهذه الثقافة هو عبد الحميد الكاتب كما يرى الدكتور طه حسين  
الذي ذهب إلى أن ثقافة عبد الحميد كانت يونانية ، وأنه تأثر بثقافة اليونان  
ونقل بعضها منها ، وأخذ عنها ، وأكسبه ذلك منزلة عالية في النثر الفني  
العربي<sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع : الفن ومذاهبه في النثر لشوقي ضيف : ومن حديث الشعر  
والنثر لطه حسين ، ورسائل البلغاء جمع محمد كرد علي ، والنثر الفني لوكي مبارك ،  
ومجلة الأدب والفن من مقال في النثر وتطوره للبستشرق جب .

## ١- الخطابة في العصر الأموي

- ١ -

الخطابة (١) فن من فنون النثر ، ولون من ألوانه ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير .. فهي كلام بليغ ، يلقي في جمع من الناس ، لإقناعهم برأى ، أو استمالتهم إلى مبدأ ، أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم .

والخطابة ضرورية لكل مجتمع ، في سلمه وحرابه ، فهي أداة الدعوة إلى الرأى ، والتوجيه إلى الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين ، والزعماء والمصلحين . فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية .

وإنما تقوى الخطابة وتنهض في عصور الحرية ، وفي ظلال الديمقراطية حيث يستطيع الناس أن يعبروا عن آمالهم وآلامهم ومشاعرهم وأفكارهم .. ففي ظلال الحرية تتقارع الآراء ، وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبادئ وتتنافس المذاهب ، وتتعدد الخصومات ، وفي ذلك كله غذاء للخطابة ، ومدد لها ، وداع إليها .

والخطابة قديمة قدم حياة الجماعات ، وجدت في الأمم القديمة كقديما المصريين واليونان والرومان ، وازدهرت في بعض العصور ، التي كان يشمل الناس فيها جناح من الحرية ، كالليونان في القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ،

---

(١) يقول مؤلف نقد النثر : الخطابة مأخوذة من خطبت .. واشتق من ذلك الخطب وهو الأمر الجليل ، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم ، والخطبة الواحدة من المصدر ( الخطابة ) والخطبة ( بكسر الخاء ) : اسم الخطوب به ( ٩٤ و ٩٥ نقد النثر ) .

حيث نشأ . د بيركليس ، ثم د ديمستين ، ، وكالعرب في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي .

والخطب إمامية أو قضائية أو دينية أو اجتماعية تلقى في المحافل العامة .

ويمتاز الأسلوب الخطابي بشدة الإقناع وروعة التأثير ، وقصر الجمل ، والازدواج أو السجع بينها ، ومراعاة المقام وحال السامعين . كما يمتاز بجمال الأسلوب ، وجودة المعاني وتغيرها ، ويقول قدامة في نقد النثر : « يجب أن يكون الخطيب عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له .. فقد قيل : لكل مقام مقال ، (١) .. » وأن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سبيلته ، غير مستكره لطبيعته ، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام مجنه وقبح موقعه ، (٢) .

ويقول قدامة بن جعفر كذلك في كتابه « نقد النثر » : « من أوصاف الخطابة : أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتهجد ، وتوشح بالقرآن وبالأسائر من الأمثال ، فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها ، وتعظم به الفائدة فيها ، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله في أولها : « البتراء » ، وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال : « الشوهاة » ، ولا يتمثل الخطيب في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر ، فإن أحب أن يستعمل ذلك في الخطب القصار ، والمواعظ والرسائل فليفعل ، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة ، فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر في كتابه إليه ، ولا بأس بذلك في غيرها من الرسائل .

وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول ، وأوقاته ، واحتمال

---

(١) ٩٦ ص نقد النثر طبعة ١٩٣٩ (٢) ١٠٥ المرجع .

المخاطبين له ، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة ، فيقهر عن بلوغ  
الإرادة ، ولا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز ، فيتجاوز مقدار الحاجة  
إلى الإضجار والملالة ، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة ،  
ولا كلام الملوك مع السوق ، بل يعطى كل قوم من القول بمقدارهم ، ويزنهم  
بوزنهم ، فقد قيل : « لكل مقام مقال » .

وإذا رأى من القوم إقبالا عليه ، وإنصاتا لقوله ، فأحبوا أن يزيدهم ،  
زادهم على مقدار احتياهم ونشاطهم . وإذا تبين منهم إعراضا عنه ،  
وتثاقلا عن سماع قوله ، خفف عنهم . فقد قيل : « من لم ينشط لكلامك  
فارفع عنه مثونة الاستماع منك » . وليس يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة  
إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه  
قادراً ، وبالإطالة إذا احتاج إليه ماهرأ . وقد وصف بعضهم البلاغة بما  
قلناه فقال — وقد سئل عنها — : « هي الاكتفاء في مقامات الإيجاز  
بالإشارة ، والاقتدار في مواطن الإطالة على الغزارة ، وقال الشاعر في  
هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال جعفر بن يحيى : « إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ،  
وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذراً ، فبين ما يحمد من الإيجاز ، وما يحتاج  
إليه من الإكثار .

فأما الموضع الذى ينبغى أن يستعمل كل واحد منهما فيه : فإن الإيجاز  
ينبغى أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوى الأفهام الثاقبة ، الذين يجتزون  
بيسير القول عن كثيره ، وبجمله عن تفسيره ، وفي المواعظ والسنن  
والوصايا التى يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لا ترى فى الحديث عن الرسول  
صلى الله عليه وسلم والآئمة شيئاً يطول ، وإنما يأتى على غاية الاختصار

والاختصار . وفي الجوامع التي تعرض على الرؤساء ، فيقفون على معانيها ولا يشغلون بالإكثار فيها . وأما الإطالة : ففي مخاطبة العوام ، ومن ليس من ذوى الأفهام ، ومن لا يكتفى من القول بيسره ، ولا يفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره ، ولهذا استعمل الله عز وجل في مواضع من كتابه تكرير القصص . وتصريف القول ، ليفهم من بعد فهمه ، ويعلم من قصر عليه . واستعمل في مواضع أخرى الإيجاز والاختصار لذوى العقول والأبصار .

- ٢ -

ولقد رفع القرآن من منزلة النثر ، فاحتلت الخطابة المنزلة التي كانت للشعر من قبل ، لأن العقيدة الجديدة - وهي ماضى - تستلزم الخطابة وتستدعيها ، فضلا عن كثرة التنازع السياسى والدينى بعد عصر عمر . فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثرا فى الخطابة إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية ، وظهر الكثير من أعلام الخطباء ، وإمامهم الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه ، وكان ازدهارها نتيحة لمؤثرات كثيرة منها :

١ - الدعوة الإسلامية العظمى والخصومة بين أنصارها ومعارضها استدعت رقى الخطابة .

٢ - رفع الإسلام من شأن العقل ، وخفض من غلواء العاطفة .

٣ - الرقى السياسى والاجتماعى ، إذ أصبحت العرب أمة واحدة ، لها رئيس أعلى ، ونظمت شئونها الاجتماعية تنظيما استدعى الخطابة ، سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله ، أم من أفراد الأمة وخطبائها ، أم فى مجالس القضاء والشورى والفصل فى الأمور .

٤ - سلامة الملكات وقوة الطباع وعدوبة الألسنة ، والقدرة على



الارتجال ، وذبوع آثار بلاغة القرآن والحديث في النفوس والعقول والأذواق (١) .

٥ - كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول وبعد مقتل عمر ، وما يستلزمه ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية .

٦ - كثرة الحاجة إليها في شئون الدين والاجتماع والسياسة إلى غير ذلك من أسباب رقي الخطابة ونهضة قوتها في هذا العصر الكريم .

- ٤ -

أما في العصر الأموي فقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والادبية تساعد إلى حد بعيد على ازدهار الخطابة ورقيها في عصر بني أمية :

١ - فالثورات السياسية ، وكثرة الحروب والفتوحات ، واشتداد الخلاف بين الأحزاب التي نشأت وكثرت في هذا العهد من شيعة وأمويين وخوارج وزبيريين وروافض وسواهم ، والتنازع بين العقائد والمبادئ ، كل ذلك عمل عمله في نهضة الخطابة وسموها .

٢ - وقربهم من العصر الجاهلي أمدهم بسلامة الملكات ، وبلاغة القول ، كما أمدهم الإسلام والقرآن الكريم بمصافة الرأي ، وسلامة الفكرة وحسن البيان مما كان له أثره في الخطابة الأموية .

(١) وإذا كان قد ورد عن بعض الرجال في هذا العصر آثار قليلة جدا من العمى والعجز فهذا نادر ضئيل جدا . كما ورد في الكامل أن يزيد بن أبي سفيان ولأه أبو بكر ولاية في الشام فصعد على المنبر فتكلم فارتج عليه ، فقطع الخطبة . وقال : سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عي بيانا ، وأتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال ، فكان ذلك منه بلاغة ما بعدها بلاغة احتذار ، بما أشاد به عمرو بن العاص حين سمع هذه الكلمات .

٣ - والحرية التي كان يمتدق العربي أنها جزء من فطرته ونفسه ، كانت تدفعه إلى القول ، دون خوف من خليفة . أو حذر من ذي سلطان ... إلى قوة العقيدة وشدة الحاجة إلى الخطابة .

وكانت موضوعات الخطابة في هذا العصر كثيرة متعددة ، تزيد بما استجد في شئون الدين والسياسة والاجتماع .

فاستعملت في الدعاية السياسية عند الفرق والأحزاب <sup>(١)</sup> ، وفي الجدل الديني عند الخوارج والشيعة وسواهما ، وفي الوفاة على الخلفاء وولائهم ، وفي المناقضات والمفاخرات والمحاورات التي كانت تدور بين العصديات المختلفة في السياسة والاجتماع والآداب . كما كان الخلفاء والولاة والأمراء يستعملونها أداة للوعيد والإنذار والتهديد . وكثير اصطناعها فوق ذلك في أغراض الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال ، أو وصية بمعروف ، أو توضيح حكم ديني ، أو تهنئة بفوز ..

ولقد كان الأمويون يعلون الفتيان الناشئين الخطابة ، ويدربونهم عليها واستمر ذلك مذهباً للعباسيين أيضاً ، حكى الجاحظ في « البيان والتبيين » ، قال : مر بشر بن المعتمر ( ٢١٠ هـ ) على إبراهيم بن جبلة ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى انفتيان صحيفة من تحبيره وتنميته ، فإذا فيها من كلام كثير :

يُنْبَغِي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ .

---

(١) راجع كلام الجاحظ عن خطباء الخوارج ٢١٤-٢١٦ : ٣ البيان والتبيين ط الخانجي ، وحديثه عن خطباء البيت الأموي ( ١ : ٤٥-٤٨ و ٩٨-١٠٤ ) البيان والتبيين ط الخانجي .

مما يدل على أن شأن الخطابة عظيم في هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها ، بل كان شباب الكتاب إذا قدم وفد على دمشق حضروا لاستماع بلاغة خطباتهم لشيوخ حب الخطابة فيهم (١) .

ولقد ظهر في خطابة هذا العصر تلك العوامل التي كانت تتنازع الأمة ، فإن دولة بني أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفي الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معولهم على السياسة ، فبان ذلك في خطاباتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل الساف الصالح ، حتى لقد غلا بعضهم ، فترك حمد الله في أولها كما فعل زيادة في خطبته البتراء . وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببيت شعر من أن يحلى خطبته بشيء من كلام الله .

على حين نرى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تجعله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله : بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ( وأشار بيده نحو الشام ) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ( وأشار بيده نحو الحجاز ) ونمسكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ( وأشار بيده نحو العراق ) .

وهكذا تبدو في خطاباتهم النزعة السياسية ، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم ، وربما غلا بعضهم ، فترك الحمد في أول الخطبة ، كما صنع زياد

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٦٧

في خطبته البتراء ، وهذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليه ضخامة اللفظ ، وقوة الأسر ، والعنف في الخطاب ، والمبالغة في الوعيد والتهديد والإسراف في السب والشتم ، حتى لقد استن معاوية سنة سيئة ، هي سب ( على ) على المنابر في خطب الجمعة ، وظلت تلك السنة مرعبة ، حتى أبطلها الخليفة الورع : عمر بن عبد العزيز ، وجعل مكانها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

وبجانب ذلك ظهرت النزعة الدينية ، وكانت تتجلى واضحة في خطب الجماعات التي تناوى الخلفاء وترى أن بنى أمية لا يصاحون لقيادة الأمة ، ولا لحكم المسلمين . وتتميز خطابة هؤلاء بالنزاهة الحمدا في أولها ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والافتباس منه ، حتى إن بعضها كان كله اقتباسا منه .

كما يشيع في هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها ، والتخويف من الآخرة وأهوالها ، ونحو ذلك من ألوان التأثير الدينى الذى تتطامن له النفوس وتخبث القلوب ، وترق المشاعر .

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية ، هي في الواقع خطب سياسية ، تهدف إلى تغيير الأوضاع ، وقاب الأنظمة ، ومناوأة الحاكمين . وإنما رسمت بهذه السمة ، لأنها تشع ببردة الدين ، وتصطبغ بصبغته ، للتأثير على النفوس ، والوصول إلى الأئمة ، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية ، متمكنة من نفوسهم ، ولهم رسالة خاصة يعملون على تحقيقها .

وكان من سنة الخلفاء والولاة أن يخطبوا الناس بأنفسهم يوم الجمعة ، حتى جاء الوليد ، وكان كثير اللحن ، عسر اللسان ، فأتاب عنه من يخطب

الناس ، فأخذت الخطابة منذ ذلك الحين تقل عناية بني أمية بها ، ويولون عنايتهم للكتابة الفنية .

#### أشهر الخطباء :

وقد نبغ في الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المصاقع .  
فن الأمويين معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز .

ومن ولايتهم : زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسري ، والمهلب بن أبي صفرة .

ومن العلويين : الحسين بن علي ، وحفيده زيد .

ومن الخوارج : عمران بن حطان ، وقطري بن الفجاءة ، وأبو حمزة الإباضي .

وكان إلى جانب هؤلاء : عبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب . . ومن رؤساء القبائل : صعصعة بن صوحان ، وسحبان بن وائل ، وخالد بن صفوان ( المتوفى سنة ١٣٥ هـ ) وسواهم . . .

## نماذج للخطابة

١ - خطب الحجاج بالكوفة عام ٧٥ هـ فكان مما قال :

أنا ابن جلا (١) وطلاع الثنايا متى أضـع العمامة تعرفوني  
والله يا أهل العراق ، إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها (٢) ،  
وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العائم واللحي (٣) .

إنى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٤) ؛ ولا يغمز جانبي  
كـتـنـازـ التين (٥) ، ولقد فررت عن ذكاه (٦) وفقشت عن تجربة . وإن  
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنفاته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى  
أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً (٧) ، فرماكم بى لأنكم ظالموا أوضاعكم (٨)

(١) قال صاحب لسان العرب : ابن جلا رجل مشهور بالفتك فيكون  
سحيم قد قال ذلك على التشبيه أى أنا كابن جلا فى الغارة والشدّة ٥ .  
(٢) ينزع كضرب ومنع ، أدرك . شبه رؤوس العصاة المخالفين لأوامر  
أمرهم بالتمار التى تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .  
(٣) إنما تكون الدماء بين العائم واللحي من الضرب بالسيوف فى الجباه  
وأحرار الوجوه .

(٤) القعقة صوت الجلود اليابسة ، الشنان جمع شن ؛ وهو الجلد اليابس (كسهم  
وسهام) والمراد لأفزع مما ينزع ذوى العقول .

(٥) أى لست بضعيف لين الجانب .  
(٦) فر الدابة كشف عن أسنانها ، الذكاه تمام السن أو حدة ، والمراد هنا  
المعنى الثانى .

(٧) الكنفانة : جعبة السهام ، عجم العود : عضه ليبلو صلابته ، أمرها من  
المرارة وهى طعم شجر المرار ، المكسر : اسم مكان ، وهو موضع الكسر .  
(٨) الأيضاع السرعة فى السير .

( ١٦ م - ١ ق )

في الفتنة ، واضطجعتم في مرقد الضلال والله لأحزنكم حزم السلسلة (١) ، ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل (٢) ؛ فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، (٣) .

٢ - وخطبت في أهل الكوفة السيدة زينب (٤) بعد مقتل الحسين أخيها رضوان الله عليه فقالت :

« يا أهل الكوفة ... أتبيكون ... ؟ فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة ... إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوت أنسكا ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، ألا ساء ما تزرون ... إى والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها (٥) بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ومدار حجبتكم ، ومنار محبتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ .. لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ... أتعجبون لو أمطرت السماء دماً ... ؟ ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون ... أتدرون أى كبد فريتكم (٦) ، وأى دم سفكتكم ، وأى كريمة أبرزتم ... لقد جئتم شيئاً إدا ،

(١) السلسلة : شجرة شائكة يعسر خرط ورقها فيشد بمضنه إلى بعض ، ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها .

(٢) غرائب الإبل : أى الإبل الغريبة عن مواطنها ، وهى تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا شفقة لأنها لانهم الضارب .

(٣) راجعها في البيان والتهيين ٢ : ٣٠٨ ط الخانجي .

(٤) هى بنت الإمام على ، وأمها فاطمة الزهراء ولدت في شعبان عام ٥٥ هـ ، وتزوجت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ( ١ - ٨٠ هـ ) ، ودخلت مصر في أول شعبان عام ٦١ هـ ، وتوفيت في ١٤ رجب ٦٢ هـ .

(٥) لن ترحضوها : لن تغسلوها وتطهروها .

(٦) قطعتم .

تسكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ..  
يا عمدها ، هذا حسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطوع الأعضاء .. يا عمدها ..  
بناتك سبايا ، وذريتك قتلى .. يا أهل الكوفة العذاب الآخرة أخزى  
وأنتم لا تبصرون .. كلا إن ربى وربكم بالمرصاد ..

٣ - وقالت ليزيد وقد مثلت أمامه بعد مقتل الحسين :

« أمن العدل - يا ابن الطلقاء - تخدرك بناتك وإماءك وسوقك بنات  
رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ، قد هتكت ستورهن ، وأحملت  
أصواتهن ، مكشحات تجرى بهن الأباعر ، وتحذو بهن الأعادى من بلد إلى  
بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب  
من رجالهن ؟ .. وكيف يستبطن في بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن ،  
والإحن والأضغان ؟ .. أتقول : « ليت أشياخى يبدرو شهدوا ، غير متأثم  
ولامستعظم ، وأنت تنكث ثنايا أبى عبد الله بمخضرك ؟ .. ولم لاتكون  
كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشاة يهرافك هذه الدماء الطاهرة :  
دماء نجوم الأرض من آل عبد المطالب ؟ ! وازدنى على الله وشيكا وردهم ،  
وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى ، وأنت لم تقل : لاهلوا واستهلوا فرحاً ..  
اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا .. »

أيزيد .. والله ما فريت إلا فى جلدك ، ولا حوزت إلا فى لحمك ؛  
ومترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عثرته ولحمته من  
حواله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعب : « ولا تحسبن  
الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما  
آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع  
أجر المؤمنين ، .. »

« وستعلم أنت ومن بؤاك ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكم



ربنا والخشم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك ؛ فبئس للظالمين بدلا ..  
هنا لك تعلم أينما شر مكانا وأضعف جندا .. مع أنى - والله - أستصغر  
قدرك وأستعظم تقريعتك ، غير أن العيون عبرى ، والصدور حمرى  
وما يجزى ذلك أو يغنى وقد قتل أخى الحسين ؟ .. ألا إن حزب الشيطان  
يقربنا إلى حزب السفهاء . ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله .

٤ - وقالت أمامه أيضا :

« صدق الله يا يزيد .. ( ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا  
بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ) .. أظننت - يا يزيد - أنه حين أخذ علينا  
بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن  
بنا هواناً على الله ، وأن بك عليه كرامة .. ! » وتوهمت أن هذا لعظيم  
خطرك ، فشعخت بأنفك ، ونظرت فى عطفك جذلان فرحا ، حين رأيت  
الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك . إن الله إن أمالك فهو قولهم :  
« ولا يحسن الزواكى يعتامها عسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا فى الحياة مغنا  
لتجدتنا عليك مغرما حين لا نجد إلا ما قدمت يداك تستصرخ بآبن مرجانة  
ويستصرخ بك ، وتتعدى وأتباعك عند الميزان . وقد وجدت أفضل  
زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .. ! » فوالله ما اتقيت  
غير الله ، وما شكوت إلا الله ، فكذلك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ،  
فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت أبدا .. ! » (١)

(١) أكناف : جوانب . عطفك : جانبيك ، يمينك وشمالك . مستوسقة :  
مجتمعة مطيعة ، متسقة : معتدلة مساعدة . ابن الطلقاء : إشارة إلى قول النبي  
لكفار مكة - ومنهم آباء يزيد - يوم الفتح : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وإنه  
لتذكير وتبعكيت .. ! أصلحت أصواتهن : الصلح بفتح الصاد والخاء -  
كما فى اللسان - انشقاق الصوت ، وأن لا يكون مستقيما ، يزيد مرة ويستقيم =

٥ - خطبة لمعاوية بالمدينة عام ٤١ هـ :

إني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم (١) بسببي هذا مجالدة : . والله لا أحمل النسيب على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر (٢) أذني ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحققكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فإن أناكم مني خير فاقبلوه . . وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

٦ - خطبة لعبد الملك بن مروان :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمري ، فاستمعجوا قدرى .

اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك .

---

= أخرى ، وأن يكون معه في الصدر حشرة . الأباغر : الجبال . تحذو : ين : تغلقن . يتشوفهن : يتطلع إليهن فيراهن . الشنا والشنان : العداوة والبغضاء . الإحن والأضغان : الأحقاد . غير متسائم : غير خائف من الإثم . تنسك : تنبذ وتضرب . ثنابا : أسنان . المنصرة : قضيب كالعصا يمسكه الخطيب عند حديثه . نكأت القرحة : فشرت الجرح فعاد مؤلما . استأصلت الشأفة : أهلك كل شيء . وشيكا : قريباً . فريت : قطعت . الشعث : التفرق . عترته : ذريته . تنطف : تسيل . يعتامها عسلان القلوات : تفرسها ذئاب الصحراء . لا يرحض : لا يغسل .

(١) أي حاربتم .

(٢) أي وراء : أي لم أصغ إليهم .

٧ - خطبة لزياد بن أبيه يعلن فيها جنوحه إلى معاوية :

أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية  
لكم ، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم  
كالأضاحي ، في كل عيد يذبحون .

ولقد أفنى هذان اليومان ، يوم الجمل وصفين ، ما ينيف على مائة ألف ،  
كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان  
الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة .

كلا ؛ ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .

وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئ بسلامة دينه .

وقد نظرت في أمر الناس ، فوجدت أحمد العاقبتين العافية ؛ وسأعمل  
في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله .

٨ - خطبة للحجاج بعد أن قتل ابن الزبير ، وبعد أن رمى الكعبة

عام ٧٣ هـ :

ألا إن ابن الزبير كان من أبحار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ،  
ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً  
للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له  
ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم  
على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

٩ - خطبة أبي حمزة الخارجي في مكة :

دخل أبو حمزة الخارجي مكة سنة ١٣٠ هـ فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره وروحيه . . ثم تحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم عن معاوية وعن ابنه يزيد ، ثم اقتصر خلفاء بني أمية خليفة خليفة (١) ، فلما انتهى إلى عمر بن عبدالعزيز أعرض عنه ولم يذكره ، ثم تحدث عن الشيعة ، ثم أقبل على أهل الحجاز فقال :

يا أهل الحجاز أتعبرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً . أما والله إنني لعالم بتنابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم (٢) .

شباب والله مكتهلون (٣) في شبابهم ، غصينة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة (٤) وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منعنية أصلابهم على أفراء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها وإذا مر بآية فيها ذكر النار شق شفقة (٥) كأن

---

(١) اقتصر أبو حمزة خلفاء بني أمية خليفة خليفة : ذكر قصة كل منهم ذاماً معدداً .

(٢) الأخذ فوق أيديكم : الضرب عليها حتى تخضعوا وتذلوا ،

(٣) اكتهل : صار كهلاً والكهل من وخطه الشيب .

(٤) أنضاء عبادة : جمع نضو وهو المهزول من الإبل وغيرها وكذلك أطلاح جمع طلع ، يريد أن العبادة أنهكتهم حتى صاروا كالبعران المهازِيل من شدة السهر في وسط الليل وآخره .

(٥) شق شقيقاً وشهاقاً وتشهاقاً : تردد البكاء في صدره .

زفير (١) جهنم بين أذنيه ؛ موصول كلالهم (٢) بـ كلال الليل ،  
قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك  
في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت  
والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتبية بصواعق الموت وبرقت ،  
استخفوا بوعيد الكتبية لو عيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت  
رجلاه على عنق فرسه وتخصبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرع إليه مبيع  
الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير طالما بكى  
صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها  
طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال (أوه أوه  
أوه) ثم بكى ونزل اه .

وأبو حمزة الخارجي : أحد فساك الياضية ، أتباع عبد الله بن إباح ،  
وهم فرقة من الخوارج ظهرت في آخر دولة بني أمية وقامت دولتهم باليمن  
في جنوب الجزيرة واستولوا على الحجاز سنة ١٢٩ أيام مروان بن محمد ،  
وهم إلى أهل السنة أقرب ولا زالت لهم بقية ببلاد المغرب وزنجبار حتى اليوم .  
وأبو حمزة من خطباء الخوارج المشهود لهم بالفصاحة واللسن ، وفيه  
يقول مالك بن أنس الفقيه الأصمعي : خطبنا أبو حمزة على منبر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم خطبة شك فيها المستبصر ، وردت المرتاب ، يريد  
بالمستبصر نفسه ، وما ذلك إلا لما أورده من جيد الكلام وساطع الحجج  
وقويم البيان وسواء المنطق : وله خطب رائعة محكمة النسيج قوية الأسر ،  
طالما عبققت في حلقها وخطرت في مطارفها ، فهزت أعطاف الدنيا ، وملأت  
أسماع الزمن ، ومن ذلك خطبته في وصف أصحابه التي يقول فيها : شباب  
والله مكتهلون في شبابهم الخ .

(١) زفر زفيرا وزفراً : أخرج نفسه بعد مده إياه .

(٢) الكلال : التعب والإعياء .

١٠ - خطبة عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير  
(عام ٥٧١هـ):

صعد عبد الملك المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله  
عليه وسلم ، ثم قال :

أيها الناس : إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا  
الحرب وزبناها (١) ، ففرقناها وألفناها ، فزجج بنوها وهي أمنا .

أيها الناس : فاستقيعوا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ،  
وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تسكفونا أعمال المهاجرين الأولين  
وأتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ،  
ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ؛ فن شاء منكم  
أن يعود بعد مثلها فليعد ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه  
الأنصاري :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة	يصل بنار كريم غير غدار (٢)
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كي لا ألام على نهى وإنذار
فان عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيا ظاهرا عارا
لترجعن أحاديثا ملعنة	لهو المقيم ولهو المدلج السارى (٣)
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها	عندى فإني له رهن بإصحار (٤)

(١) أى دفتنا ودفعناها ، والزبن : الدفع ، ومنه حرب زبون بفتح الزاى ،  
وكذلك منه : اشتقاق الزبانية لأنهم يدفون أهل النار إلى النار .

(٢) الترة والوتر : النار .

(٣) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فقد ادلج ( بتشديد  
الدا ل ) . السارى : السائر بالليل .

(٤) الحوجاء : الحاجة . إصحار : أى لا أستتر عنه ولو فى الأماكن الحصينة ،  
مأخوذ من أحصر القوم : برزوا إلى الصحراء .

أقيم عوجته إن كان ذا عوج كما يقوم قدح النبعة الباري (١)  
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه عندى وإنى لدراك بأوتار

ولقد هدد الزبيرون خلافة بنى أمية تهديدا خطيرا : عبدالله بن الزبير في الحجاز ، وأخوه مصعب في العراق ، لذلك جهدت الخلافة الأموية في الكوفة القضاء على دولة الزبيرين الناشئة ، وكان انتصارهم على مصعب وقتلهم له مشارف فرح كبير لعبد الملك بن مروان . وخطبته بعد مقتله فيها افتخار بشجاعة الأمويين ، وفيها تهديد ووعد لخصومهم وفيما دعوة للجماهير إلى الهدوء والانصراف عن الثورات واللجوء إلى السلام ، وفيها تلخيص لسياسة ذلك العصر البعيد : الشعوب تطالب بالحكم بسياسة الخلفاء الراشدين ومعدلتهم وإنصافهم ، والحكم يحكمون الشعوب بالسياسة لا بالدين الذي كان يلتزمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم .

١١ - وصية أسماء بنت أبي بكر لابنها عبد الله بن الزبير :

وأسماء هي بنت أبي بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، وشقيقة عائشة أم المؤمنين ، وكانت بارة تقية ، راجحة العقل ، كريمة النفس ، تزوجها الزبير ابن العوام ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين إلى الإسلام ، فولدت له عبد الله في المدينة المنورة ، وكان أول مولود ولد بها من أبناء المهاجرين .

وعبد الله بن الزبير بن العوام ، ينتهى نسبه إلى قصي ، الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نشأ باراً تقياً ، متأدباً بأداب الدين الحنيف ، متحللاً بالأخلاق السامية ، والشمال العالية ، وكان خطيباً مفوهاً ، يملك القلوب

(١) العوج بفتح العين : في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والمصا والعود وشبهه ، والعوج ، بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين . وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم منه . القدح : السهم قبل أن يراش ، جمعه قداح . النبعة : واحدة النبع ، وهي شجر القسي والسهام .

بسحر يانه ، وقوة برهانه ، بايعه أهل مكة والحجاز بالخلافة ، بعد قتل الحسين بن علي ، رضى الله عنهما ، وامتد سلطانه إلى العراق والبن ومصر ، واشتد النزاع بينه وبين ملوك بني أمية ، فلما تولى خلافة دمشق عبد الملك بن مروان ، أرسل لقتال عبد الله بن الزبير جيشا قويا ، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ، فسار إليه ، وحاصره في مكة مدة طويلة ، فتفرق عنه أكثر أصحابه ، ولم يرفع الحجاج عن ضرب الكعبة بالمنجنق فتهدم جزء منها ، وكسر الحجر الأسود ، ولما رأى ابن الزبير ما فيه أهل مكة من ضيق ، عزم على قتال الحجاج ، ليفرج عن الناس كربهم ، بانتصار أحد الفريقين ، وقبل خروجه إلى الميدان ، ذهب إلى أمه ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة ، وليسمع نصائحها الثينة في هذا الموقف الرهيب ، فأوصته بملك الوصية الغالية ، التي يجدر بكل أم أن تقف على ما فيها من أخلاق كريمة ، وصفات نبيلة ، وتنشئ عليها أبناءها منذ نعومة أظفارهم ، وقد مات عبد الله شهيدا يوم خروجه ، وصلبه الحجاج بعد قتله في المعركة تشفيا منه ، وإرهابا لأنصاره ، وهذا نص الوصية :

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى ، من خذلانهم ، فقال :

يا أمه اخذتني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فأرايك ؟

ف قالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك ، يتلعب بها غلمان بني أمية .

وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكك نفسك ،



وأهلكك من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ، والله لضربة بالسيف في عز ، أحب إلى من ضربة بسوط في ذل ، قال : إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي ، قالت : يا بني ! إن الشاة لا يضرها ما خها بعد ذبحها ، فدنا منها وقبل رأسها وقال :

هذا والله رأيي ، والذي قت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرة مع بصيرتي . فانظري يا أمه ، فإني مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلى لأمر الله .

فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكرك ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغي ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء أثر عندي من رضائي .

اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي ، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي ، لتسلو عني .

فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ، ففي نفسي حرج ، حتى أنظر إلام يصير أمرك . قال يا أمه ! جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لي قبل وبعد .

فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطل ، فقد قتل على حق ، ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النجيب ،

والظما في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فاثبتني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ، ثم ودعها وخرج ( فلم يعد ) .

## من أعلام الخطباء في هذا العصر

زياد بن أبى سفيان

١ - ٥٣ هـ

١ - أمير عربى ، وسياسى داهية ، وعبقرى ذائع الشهرة ، وكاتب وخطيب ، ومتكلم بليغ .

ولد زياد فى العام الأول من الهجرة ، ويحيط بنسبه غموض كثير ، فأمه سمية كانت أمة للعنات بن كادة الثقفى طبيب العرب المشهور ، ويقال إن أحد زعماء الفرس قد وهبه إياها ، وإنه زوجها لغلالم رومى يسمى « عبدا » كان من موالى ثقف ، فولدت له زياداً ، ومن ثم قيل له : زياد بن سمية ، أو زياد بن عبید . ولما استلحق معاوية زياداً بنسب أبيه عام ٤٤ هـ صار يسمى زياد بن أبى سفيان ، وكان أبو سفيان قد ادعاه فى الإسلام ، وقال : إن سمية اشتملت عليه وأنا على اشرك ، وإني كنت أخشى سطوة عمر بن الخطاب ، وكثير من الباحثين يسمونه زياد بن أبيه .

٢ - نشأ زياد فى شباب الإسلام وعزته ، وسمع القرآن وحفظ الكثير من بلاغته ومن روائع البلاغة النبوية ، وتنقف بالثقافة العربية الذائعة فى بيئته ، ونشأ بليغاً مفوهاً ، وكاتباً وخطيباً مجيداً .

واتخذ المغيرة بن شعبه حين ولى الكوفة كاتباً له ، وكذلك استكتبه أبو موسى الأشعرى لما ولى البصرة فى خلافة عمر ، وشاهد عمر ذكاه زياد ودهاه وسعة عقله ، فعزله وقال : خفت أن يحمل الناس فضل علة . ويروى عن عمر

حين سئل عن ذلك أنه قال : لالخيانة ولا لعجز وإنما كراهية أن يحمل الناس فضل عقله ، وكان عمرو بن العاص يقول عنه : لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، وقد ولاه على عام ٣٩ هـ بلاد فارس فضبطها وحى قلاعها وأعاد الأمن والسلام إلى ربوعها .

ويروى الطبري أن فارس كانت قد امتنعت عن أداء الخراج وأن علياً استشار الناس في رجل يوليه هذه البلاد النائية ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأي عالم بالسياسة لما ولي ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد ، قال علي : هو لها ، وولاه عليها وعلى كرمان ، ووجهه في أربعة آلاف فارس فدوخ بهم تلك البلاد ونشر الأمن في ربوعها ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي .

وظل زياد والياً عليها لعل وللحسن بن علي بعده ، فاغتم به معاوية ، وفكر في أمره فأرسل إلى المغيرة بن شعبة فلما دخل قال : لكل نبأ مستقر ولكل سر مستودع ، وأنت موضع سرى وغاية ثقتي ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين إن تستودعني سرّك تستودعه ناصحاً شفيقاً ورعاً صديقاً ، فما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها وهو داهية العرب ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها ، ويدبر الأمور ، فما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جذعة .

قال المغيرة : أتأذن لي في إتيانه ؟ قال : نعم ، فخرج إليه فلما دخل عليه وجده وهو قاعد في بيت له مستقبل الشمس فقام إليه زياد ورحب به وسر بقدومه وكان له صديقاً ، فلما تفاوضا في الحديث ، قال له المغيرة : أعلمت أن معاوية استخفه الوجل حتى إليك ، ولانعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغنى عنك

معاوية ، قال : أشتر على وارم الغرض الأنصى فإن المستشار مؤتمن . قال :  
أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذنأ صماء وعينأ عمياء ،  
قال يابن شعبة : لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته ، لا أصل له  
يغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل يذبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابها النخل

ثم قال : أرى ويقضى الله . وقدم زياد على معاوية ، ففرح بذلك وسر  
له وولاه البصرة وخراسان وسجستان ، ثم أضاف إليه الكوفة بعد موت  
المغيرة بن شعبة ، فصار والى المصرين ، وهو أول من جمعه . وكان يقيم  
بالبصرة ستة أشهر ، ويقيم مثلها بالكوفة ، وكان العراق في قن مظلمة ، فأقر  
فيه سياسته الأمن والسلام والهدوء ، ثم جمع معارضة له ولاية الهند والبحرين  
وعمان ، وطمع زياد في ولاية الحجاز ، ولكن أجله قد حم فمات عام ٥٣هـ ،  
ودفن بالثوية إلى جانب الكوفة .

وكان زياد يقول : لو ضاع جبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه ،  
وكان مكتوباً في مجلسه أصول سياسته وهي : الشدة في غير عنف ، واللين  
في غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته .

٣ - بلاغته وخصائصها : كان زياد بليغاً مفوهاً ، وخطيباً ساحراً ،  
وفصيحاً لا يجاريه في فصاحته أحد . وحسبك في وصف بلاغته مارواه  
الجاحظ عن الشعبي قال : ماسمت متكلماً على منبر قط فأحسن إلا أحببت  
أن يسكت خروفاً من أن يسيء إلا زياداً ، فانه كلما أكثر كان أجود كلاماً .  
ويقول الجاحظ فيه : كان زياد وابنه عبيد الله بن زياد غايتين في صحة المعاني  
وجودة اللفظ ولهما كلام كثير محفوظ (١) ، ونشأ ابنه عبيد الله في الأساور (٢)  
بالبصرة (٣) .

(١) ٩٦ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

(٢) قوم من العجم نزلوا البصرة قديماً (٣) ٢ : ١١ البيان والتبيين ط الخانجي

وقد نمت هذه البلاغة في نفسه نشأته العربية في ثقيف ، وذكاؤه ومواهبه وملكانته العربية ، وإحاطته علماً بلغات العرب وأساليبها ، وحياته في عصر ازدهر فيه الأدب وفنونه ، ونبغ فيه أعلام الخطباء والأدباء والشعراء . وكان زياد علياً بلغته العرب وأساليبها حتى قال فيه الشعبي كما سبق : ماسمعت متكلماً على منبر قط تسكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً عليه إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً .

ويروى لزياد خطبته الطويلة المشهورة المسماة : بالبراء (١) التي لم يحمد الله تعالى في أولها ، وقد قالها حين قدم البصرة والياً عليها من قبل معاوية ؛ وذلك في آخر ربيع الأول سنة ٤٥ هـ ، وتحتوي هذه الخطبة على روائع الكلم ، وبديع الحكم ، وبيان سياسته في حكم العراق وما جاوره من بلاد فارس ، ولما انتهى منها ، قام إليه عبد الله بن الأهم فقال : أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال زياد : كذبت ، ذلك نبي الله داود ، فقال الأحنف : قد قلت فأحسن أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثني حتى نبتلى ، فقال زياد : صدقت .

وقام أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج : فقال : أنبأ الله بغير ما قلت ، قال الله تعالى : ( وإبراهيم الذي وفى ) أتوزر وأزره وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فأوعدنا الله خيراً بما أوعدتنا يا زياد ، فقال زياد : إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك ، حتى نخوض في الباطل خوفاً .

وهذه الخطبة تمثل النثر في العصر الأموي ، وهي تفصح عن شخصية زياد الطاغية ، وبلاغته العالية .

---

(١) ٧٢ : المرجع السابق .

٤ - نصوص من خطبة زياد البتراء : أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء (١) ، والضلالة العمياء (٢) ، والغنى الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماءكم (٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي (٤) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه للشهوات (٥) ، واختار الفانية على الباقية ، ولاتذكرون أنكم أحدتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير (٦) المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاء تمنع الغواية عن دجل الليل (٧) وغارة النهار ، قريتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه . صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أتم الخلاء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما زون من قيامكم دونهم (٨) حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس (٩) الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض

- (١) جهالة جهلاء : شديدة مثل ليل .
- (٢) الضلالة العمياء : التي لا هدى معها .
- (٣) السفية : سىء الخلق وضده الحليم .
- (٤) السرمدي : الدائم .
- (٥) كناية عن تمكن الشهوات من نفوسهم وانصرافهم إلى متاع الدنيا .
- (٦) المواخير : جمع ما خور ، بيت الإثمة والفحش .
- (٧) دجل الليل : السير فيه ، والمراد سحر والفتك .
- (٨) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم .
- (٩) الكنوس : جمع كانس ، وهو الظبي يدخل في كنانسه أى مأواه ، والمراد أنهم عكفوا على المعاصي .

هدما وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله :  
 لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لأخذن الولي  
 بالمولى <sup>(١)</sup> ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي ، والصحيح  
 بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد <sup>(٢)</sup>  
 أو تستقيم قناتكم <sup>(٣)</sup> ؟ إن كذبة الأمير ببقاء مشهورة فإذا تعلقتم على  
 بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها <sup>(٤)</sup> في ،  
 واعلموا أن عندي أمثاله . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله  
 فيأبى ودلج الليل ؛ فإني لأرتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك  
 بمقدار ما يأتي الخبر السكوفة ويرجع إليكم . وإياي ودعوى الجاهلية <sup>(٥)</sup>  
 فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ،  
 وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً  
 أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً .  
 فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني . ولا تظهر  
 من أحكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني وبين  
 أقوام إاحن <sup>(٦)</sup> فجعلت ذلك دبر <sup>(٧)</sup> أذني ونحت قدمي . فمن كان منكم محسناً

(١) الولي : السيد ، والمولى : العبد ، المراد أنه يأخذ السيد بذنب عبده .  
 وكذا الباقي .

(٢) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين خرجا في طلب إبل لهما ،  
 فرجع سعد ولم يرجع سعيد .

(٣) المراد حتى تستقيموا . وشبههم بالقناة وهي عود الرمح .

(٤) اغتمزوها في : عدوها من عيوب .

(٥) دعوى الجاهلية : كناية عن التناصر بتأثير المصيبة سفيها وجهالة ،  
 وأصلها يا فلان استغاثة .

(٦) الإاحن : جمع إحنة : الحقد .

(٧) أي خلفها : والمراد أني طرحت ذلك .

فليردد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فليزغ عن إساءته . إني لو علمت أن أحكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ حتى يبدى لى صفحته (١) فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأننوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس أيها الناس ؟ إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة (٢) ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بنى (٣) الله الذى خولنا ؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وقيامنا بمناسحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أنصر عن ثلاث : لست محتجاً عن طالب حاجة منكم ؛ ولو أنا نى طارقاً بليل . ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانه ، ولا بجمراً لكم (٤) بعثاً . فادعوا الله بالصالح لا تمتنكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى إليه تأوون .

وهذه الخطبة براها القارىء لها بمثابة إعلان حكم عرفى فى العراق . .  
فأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح فى جسمه السقيم ، أمر ليس جارياً على القانون الشرعى الذى يقصر المسؤولية على المجرم ، وإنما ذلك شئ يلبجأ إليه الطغاة ، وخاصة عند اضطراب الأمن ، لإرهاب الناس وتهديدهم . وقد من زياد فى خطبته عقوبات لم يسنها الإسلام ، فن ذلك ماسنه للجرائم المحدثه كما قال : ومن

(١) صحيفة الرجل : عرض وجهه والمراد حتى يجهر بالعداوة .

(٢) ذادة : حماة ، جمع ذائد أى مدافع .

(٣) النى : مال الخراج أو الغنيمه ويطلق على الظل كناية عن الحمى . إبان الشئ : أوانه .

(٤) تجدير الجند أو البعث حبسهم فى أرض العدو .



نقب عن بيت نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ، . ومن ذلك عقوبته للدجل - أى السائر بالليل - وقوله من أحرق قوماً أحرقناه .. كل ذلك من مظاهر الحكيم العرفي الذى أعلنه زياد فى البصرة ، حتى صار يعاقب على الظنة ، يأخذ بالشبهة ويقسو فى معاملة الخوارج والشيعة والناقين عليه وعلى بنى أمية ، قسوته على المجرمين ، وقد خافه الناس خوفاً شديداً ، فاستتب الأمن ، وهدأت أحوال العراق النائرة ، وسكنت الفتن والثورات ودخل الناس فى طاعة بنى أمية رغياً ورهباً .

ومن ذلك ندرك بعض الخصائص الأدبية لخطبة زياد هذه ، التى تمثل نفسيته وروحه وشخصيته أنهم تمثيل .

فهى مثلاً قوية الأسلوب ، جزلة الألفاظ ، يعتمد زياد فيها على التأثير الخطابى ، وعلى السجع أحياناً ، وعلى قصر الفقرات ، وعلى أسلوب التهديد والوعيد الذى ملئت به الخطبة .

وفى كذا روح النثر الأدبى ببلاغة القرآن الكريم واضحة . ووحدة الخطبة ظاهرة ، فهى فى موضوع سياسى واحد متصل معروف .. وهى وثيقة أعلن بها زياد الحكم العرفي فى العراق ، ثم هى من أولها إلى آخرها تنصب على الغرض الذى قبلت من أجله ، فلا حشو ولا إغراب ولا حوشية ولا ابتذال .

ولأنما هى البلاغة الطيبة ، والفصاحة السلسة ، التى تجرى كما يجرى الماء فى النهر : لينا فى شدة ، وهدوءاً فى ثورة ، واطراداً فى تتابع ، دون التواء أو انقطاع أو استطراد أو عى أو ضعف .. وألفاظ الخطبة ذات تأثير صوتى قوى ، وعلى الجملة فالخطبة صورة لسياسة زياد وسياسة الدولة حيال خصومها والعابئين بالأمن فيها ، فى أول عهد معاوية ، وبده حكم الأمويين .

وقصارى القول أن زيادا كان كما قيل فيه بحق وكما تمثله خطبته : من ذوى  
الاحلام الوافرة ، والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق . كما كان من أقوى  
العمد التى قام عليها عرش بنى أمية ، وكان على ثم معاوية يجسدان فيه اليد  
المصرقة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، وأى أريب أديب داهية كان  
فى جلده ؟ وقد اطمأن له الخليفان : على ، ثم معاوية ، لأنه راض لهما  
الأمور ، وسدت به الثغور ، ولأنه أحكم لهما السياسة ، وقاد الناس بالحزم  
والشدّة حيناً ، وحيناً آخر بالرفق والكياسة ، وقاتله الله من ملك فى ثياب  
عربى ، وحاكم فى زى بدوى ؛ ولولا استبداده ، وأنه من للحجاج وللطفة  
من بعده سياسة البطش والظغيان لكان من أعظم الشخصيات الإسلامية  
فى عصر بنى أمية .

### سحبان وائل

هو سحبان بن زفر بن إباد الوائلى مضرب المثل فى الخطابة والبلاغة .  
نشأ فى الجاهلية فى ( وائل ) قبيلته وقد ظهرت المنافسة فى البلاغة ؛ وقامت  
أسواق العرب تخدم اللغة والأدب ، وكان متوقد الذكاء ، فبرع فى  
التعبير ، ثم ظهر الإسلام فكان من المستجيبين لدعوته ، والكارعين من  
حياضه ، ثم ظهر الخطباء فى الخلاف بين على ومعاوية فقويت مأسكة البيان  
عنده ، والتحق بمعاوية فكان يعدده للناسبات لقوة عارضته وسرعة خاطره ،  
وقد تحدث الجاحظ وغيره أنه قدم على معاوية وفد من خراسان وفيهم سعيد  
ابن عثمان ، فطلب معاوية سحبان فلم يجده فى منزله فافتضب من بعض  
الأمّاكن اقتضاباً وأدخل عليه . فقال له معاوية تكلم . فقال : أحضروا  
لى عصا ، قالوا ماتصنع بها وأنت فى حضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان  
يصنع موسى وهو يخاطب ربه ، فأحضرت فلم يرهم وطلب عصاه .

ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ما تتحنح ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتداء معنى إلا استوفاه حتى دهش الحاضرون ، فأشار إليه معاوية بيده فأشار سبحانه إليه لا تقطع كلامي ، قال معاوية : الصلاة . قال سبحانه : الصلاة أمامك نحن في صلاة وتحميد ووعد ووعد ، قال معاوية : أنت أخطب العرب ، قال سبحانه : والعجم والجن والإنس ، وهذا إن صبح إعجاب وزهر . ويقال إنه كان يتصبب عرقا ، مما يدل على أنه كان يجهد نفسه كثيرا ، والعجب أنهم يذكرون له ذلك كله ثم لا يروون من خطبه ما يليق الضوء السكافي عندنا على مقدار بيانه ولعل ميله إلى الإطالة كان يحول دون الحفظ فالرواية .

وقد نقلوا أنه قال في بعض خطبه :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها جيتهم ، ولغيرها خلقتهم ، إن الرجل إذا هلك قال الناس ماتك ، وقالت الملائكة ما قدم ، قدموا بعضا يكون لكم ، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم .

### الحجاج بن يوسف الثقفي

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي من فصحاء العرب ودهاتهم وساستهم ، وأشهر ولاية بني أمية الذين وطدوا لهم الملك والسلطان ، وكان لسانه وقلبه وسيفه في طاعة الأمويين وخدمتهم ، ولد سنة ٤١ هـ في عهد معاوية ، ونشأ في الطائف وهو بلد تحيط به البداوة ، ويتعلم الناشئ فيه الفصاحة وأخبار العرب وأشعارهم ، وكان الحجاج هو وأبوه يعملان الصبيان بالطائف حينما من الدهر ، ثم لحق بروح بن زنباع الجذامي أحد أعوان الخليفة عبد الملك ، فكان جنديا في شرطته ثم ظهرت كفايته

وإخلاصه للخليفة فقلده أمر العسكر ، وكان أول ما اشتهر من أمره قيادته الجيش الذى وجه لقتال عبد الله بن الزبير ، فحاصره بمكة ثم قتله وعلمه سنة ٥٧٣ ، ثم أرسل إليه عبد الملك عهده بولاية الحجاز واليمن واليمامة ، وبعد ثلاث سنين كتب إلى عبد الملك إلى حرت الحجاز بشمالى وبقيت يمينى فارغة فبعث إليه عهده بالعراق وهو فى غاية الاضطراب فساهم بعسفه وجبروته . وقد طال عهده فى تولى الأعمال وانتهى بأمرين بارزين فى تاريخه : أحدهما محمود والآخر مذموم ، أما المحمود فجمعه الناس تحت راية واحدة لعبد الملك وابنه ، وأما المذموم : فهو إذلاله الأمة العربية وقتله نخوتها ، وهو السبب فى بسط رقعة عبد الملك وابنه مع كثرة الخلاف وتعدد الفرق ، وقد استهان فى ذلك الصدد ببقايا الصحابة وأجلاء التابعين .

ولذا يقال إن الحسن البصرى سجد شكر الله حين أخبر بموته سنة ٥٩٥ .

ولقد كان الحجاج مع جوره وقسوته من حدائته ، شجاعاً فى الحرب كريماً فى السلم يرجع إلى الحق ، ويحب الصراحة ويشجع عليها ويدقق فى اختيار العمال .

أما فصاحته وعلوكه فى الأدب ، فقد بلغ حد الاستفاضة . قال الأصمى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، الشعبي ، وعبد الملك ، والحجاج . وابن القرية ، والحجاج أفصحهم .

وصور أدبه مالك بن دينار فقال : ما رأيت أحد أئين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وإساءتهم إليه وصفحه عنهم ، حتى لا حسبه صادقاً وأظنهم كاذبين . وقد امتاز بوضع النقط والشكل للمصحف لما كثر التصحيف فى العراق .

ومن كلام الحجاج الذى يروى لبلاغته :

لما قدم أميراً على العراق دخل المسجد وقد غطى أكثر وجهه بهامته

نقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لا يتكلم ثم نهض فقال :  
 أنا ابن جلا وطلاع الشايبا متى أضع العمامة تعرفوني  
 يا أهل العراق إني لأرى ره و ساء قد أينعت و حان قطافها ، وإني لصاحبها ،  
 وكأني أنظر إلى الدماء تترقق بين العمام والمحي .  
 ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتد زيم<sup>(١)</sup> قد لفها الليل بسواق حطم<sup>(٢)</sup>  
 ليس براعى لأبل ولا غنم ولا يجزار على ظهر وضم  
 قد لفها الليل بعصلي أروع خراج من الدوى<sup>(٣)</sup>  
 مهاجر ليس بأعرابي  
 قد شممت عن سافها فشذرا وجدت الحرب بكم فجدوا  
 والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد<sup>(٤)</sup>  
 لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتنغاز التين ،  
 ولقد فررت عن ذكاه<sup>(٥)</sup> وفشتت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه  
 نثر كنفاته فعجم عيدا<sup>(٦)</sup> في أمرها عودا وأصلها مكسرا فمر ما كم بي<sup>(٦)</sup> ؛  
 لأنكم طائفا أو ضعت في الفتنة ، واضطجعت في مرافد الضلال والله لأحزمنكم  
 حزم السلية . . . إلى آخر هذه الخطبة البليغة .

- (١) اسم فرسه أو ناقته .
- (٢) جمعها بمن لا يقطع السير .
- (٣) يقول إن الليل جمعها برجل شديد ذكي خراج من الشدائد .
- (٤) في القاموس الوتر مطلق القوس والعرد الشديد والبكر بالفتح الفتى من الإبل .
- (٥) فر الدابة كشف عن أسنانها ليعرف منها .
- (٦) الكنفانة جعبة السهام وعجم عيدانها في الأصل عضها ليختبر صلابتها ولكن المقصود أنه فكر في من حوله من العمال أنهم أقع للفتنة ، ضجع بالفتح وباء التشديد مستعار للملازم للشيء المستقر فيه .

وكتب إلى الوليد :

لولم يكن لكعب من حرمة ما يغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه  
التغفو بظل عفوك الذي تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بي  
إليك فوثقت له منك بمغو لا يخاط سخط لحقق أمه وصدق ثقتي بك تجد  
الشكر وافياً بالنعمة ، فكتب إليه الوليد :

قد شكرت رغبته إليك ، وعفوت عنه لمعوله عليك ، وله عندي ما يجب  
فلا تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك .

### (ب) الكتابة في العصر الأموي

تمهيد :

كان العربي في الجاهلية أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، صناعته حرب يشنها ،  
أو معركة يخوضها ، أو مفاخرة يدلي فيها بمفاخره ، أو منافرة يسعى لها  
بمآثره ، لم يكن يجلس إلى العلماء ، أو يحضر حلقة مؤدب ، أو يتزود بقسط  
من ثقافة .

وفي صدر الإسلام ، أخذت الكتابة تنتشر ، بتشجيع الرسول صلى الله  
عليه وسلم وحلفائه ، للحاجة إليها في تصريف شئون الدولة ومرافقها ، فقد  
عنى بها الرسول صلوات الله عليه عناية فائقة ، منذ دخل المدينة ، وانتصر  
على قريش في بدر ، فجعل فداء الأسير تعليم عشرة من المسلمين الكتابة ،  
وحدث على تعلمها ، واتخذ كتاباً للوحي ، وكتاباً آخرين لإحصاء الغنائم ،  
والإجابة على رسائل الملوك ، وغير ذلك من مختلف الشئون .

ولما اتسعت الدولة ، وأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين ، كثرت العناية  
بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، وكان من الدواوين التي دونها : ديوان الجيش  
لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم ، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات

الدولة ومصرفاتها . وكان عمر يقول لكتابته : « إن القوة على العمل  
ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تذايب عليكم الأعمال ،  
فلا تدرون بأيها تبدأون وأيها تؤخرون ، » .

وكانت الكتابة في ذلك العهد - عصر صدر الإسلام - بسيطة في  
مظهرها بليغة في جوهرها ، يغلب عليها الطبع وترك التكلف والصنعة  
والتعمل ، وتشيع فيها السهولة . ويغلب عليها الإيجاز ، دون أن يبدو فيها  
أثر للتأنق والتعذيب والتنقيح واختيار الأساليب والألفاظ .

#### تطور الكتابة في العصر الأموي :

جاء العصر الأموي ، والكتابة على هذا النحو . فزادت العناية  
بها ، لاتساع أعمال الخلفاء ، وكثرة شئون الحكم ، وتعدد الدواوين فقد  
زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين :

١ - ديوان الرسائل : الكتابة الرسائل التي تصدر عن دار الخلافة ،  
وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني ، وظلت سنة  
الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، وكانت الرسائل التي تصدر عن الديوان  
تفيض بيانا ، وينضجها جمال الأسلوب وسحر البلاغة . إذ كان الخليفة هو  
الذي يتولى إملاء الرسائل بنفسه . فلم تظهر للكتاب شخصية ، إلا في عهد  
سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل ، إذا كان ينوب عن  
الخليفة في الكثير منها ، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها .  
وكان الطابع العام للرسائل التي تصدر من هذا الديوان أو ترد إليه . بساطة  
المظهر ، وعدم التكلف في الخطاب . حتى إن الكاتب ليبدأ بتقديم اسمه  
على اسم من يرسل إليه ولو كان الخليفة . وظلت هذه الحالة مرعية ، حتى  
جاء الوليد بن عبد الملك ، فأنف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه . ومن هنا  
أخذت الرسائل سمى آخر ، يلائم رغبة الخلفاء ، ويرضى كبرياءهم . ولم  
يخرج على هذا النهج فيما بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل .

٢ - ديوان الخاتم : ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مخطوماً ، لا يدري حامله مافيه ، ولا يستطيع أن يغيره . وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه ( الآداب السلطانية ) : أن معاوية أحال رجلاً على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، فضى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصدر منه مخطومة .

٣ - أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة ، حتى تم تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان ، في مصر والشام والعراق ، من القبطية والرومية والفارسية ، على النحو الذي أشرنا إليه .

#### أنواع الكتابة :

ونحن هنا لانغنى بدراسة آثار ديوان الخاتم ، ولا ديوان الخراج أو الجيش ، لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والإحصاء ، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول ، ولا نصيب من جمال الأسلوب .

وإنما نغنى بدراسة ما كان يصدر عن ( ديوان الرسائل ) من الكتب البليغة ، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة ؛ وهي كتابة سياسية في أغلب الأمر .

ويعيننا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة في آخر هذا العصر من ( الرسائل الإخوانية ) . التي كان ينشئها الكتاب البلقاء ، فتعمل مافي قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف الخواج والنزعات ، أو تعبر عما يتردد في نفوسهم من أفكار وآراء . في أسلوب رائق ، ولفظ فائق وتصوير جميل .



فهذان اللوان هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية في هذا العصر ، وهما أبرز ما نغنى بدراسته ، ونهتم بالحديث عنه .

### خصائص الكتابة الفنية :

(١) يجد الناظر إلى الكتابة الفنية أنها مرت بطورين وانقسم بها هذا العصر إلى عهدين :

١ - فالعهد الأول من قيام الدولة عام ٥٤١ هـ ، إلى زمن الوليد ابن عبد الملك . وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها في صدر الإسلام . من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة وقلة التشكف . . وكان أغلبها يملى ارتجالاً ، ويصدر عن ديوان رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاية .

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » (١) ، كانت الرسائل تصدر عن الخلفاء والأمراء في أول أمرها يسيرة سهلة الأسلوب لا تشكف فيها ، ولم تظهر الرسائل الفنية التي تأتق فيها أهلها إلا في أوائل القرن الثاني . . ويروى أن معاوية أملى على كاتبه « لهو أهون على من ذرة ، أو من كلب من كلاب الحرة » ، ثم قال لكاتبه اكتب : « أو من الكلاب » ، كأنه كره السجع .

٢ - والعهد الثاني من أيام الوليد إلى نهاية الدولة ، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج في التألق والصنعة والإطناب وإشراق البيان ، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها ، وكان زمامها في هذا الطور بأيدي الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة ، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العريقة في العلم ، فمنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، وآداب هذه اللغات المتنوعة ، كأبي العلاء سالم

---

(١) ص ٥٢ و ٥٣ من حديث الشعر والنثر .

كان هشام بن عبد الملك ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل ، وصناعة الكتابة<sup>(١)</sup> ، وكجيلة بن سالم كاتب هشام أيضاً وكان يعرف الفارسية ، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة فيقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها ، ونقلها إلى مرحلة جديدة ، احتلت فيها منزلة الرفيعة التى كانت للخطابة .

(ب) ويجعل الدكتور طه حسين نشأة الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وهبقريته اللباجة<sup>(٢)</sup> ، ويختلف الباحثون فى ثقافة عبد الحميد المكتملة لثقافته العربية : فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها وينقل عنها إلى العربية ، ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى »<sup>(٣)</sup> ، وسواه ، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبى هلال العسكري عنه إنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى »<sup>(٤)</sup> ، ويرجح الدكتور طه أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان<sup>(٥)</sup> ، والذى نذهب إليه أن تطور الكتابة على يدى عبد الحميد الكاتب لم يكن إلا أثراً من آثار التطور العقلى والأدبى للأمة العربية لاغير .

#### منزلة عبد الحميد الكاتب :

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتاب ، لما جاءه الله

---

(١) يروى صاحب الفهرست فى صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر .

(٢) ٤٠ و ٤١ - ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٣) ٥٧ : ١ : النثر الفنى .

(٤) ٦٩ الصناعتين ، ٨٩ - ٢ ديوان المعاني .

(٥) ٤٢ ، ٤٤ ، ٦٦ من حديث الشعر والنثر .

من مواهب عظيمة . وصفات جليلة ، وذكاء نادر ، ولأنه تلميذ لسالم مولى هشام ، وكانت ثقافته خليطاً من العربية واليونانية ، ثم كان صديقاً مخالطاً لابن المقفع الذى يجيد الفارسية والعربية . فاجتمع لعبد الحميد أسنى ما فى بلاغة العرب واليونان والفرس .

#### مذهب عبد الحميد فى الكتابة :

استطاع عبد الحميد الكاتب بمواهبه وثقافته أن يتسحر فى الكتابة الفنية مذهبا كان من أهم أصوله ما يلى :

١ - القدرة على الإيجاز فى غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوباً ، وعلى الإطالة فى غير إملال حين يكون الطول مرغوباً فيه ، حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات ؛ ولقد روى أنه كتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة لبنى العباس على لسان مروان بن محمد كتاباً يستميله فيه ، وقال لمروان : لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فالحلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

عما السيف أسطار البلاغة وانتحى

عليك ليوث الغاب من كل جانب

وقالوا : إنه كان لقدرته على الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى مكانه يتخير لكل منهما عمله الذى يناسبه ، فيطلب فى الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، والوعد والوعيد ، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء ، ومن إيجازه قوله موصياً بشخص : « حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورأى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله ، وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبداً أسود ، فكتب إليه : لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته . »

٢ - وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ - كما أطال في البدء والختام وأكثر من تنويعهما حسب المقام ، وأطال في البدء بنوع خاص بعبارات التحميد والثناء بما يعدّ جديداً في هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التحميدات في أماليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتيانها بالحمد لله فاصلاً بينهما بأما بعد .

٤ - تجويد الأسلوب والعناية به<sup>(١)</sup> عناية كثيرة .

#### عوامل نهضة الكتابة في آخر العصر الأموي :

تلك هي منزلة الكتابة في العهد الثاني من عصر بني أمية ، وذلك هو مكانها الرفيع الذي بلغت في ذلك الطور ، ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتي :

١ - اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل ، مما استدعى العناية بالكتابة والكتاب .

٢ - عناية الكتاب بها وجعلها صناعة فنية عتيبة ، مع تعدد ثقافتهم العربية والأجنبية . التي كان لها أثرها في الكتابة ، حتى يقال : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية<sup>(٢)</sup> .

٣ - ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الأعمال ، فقل الحرص على الخطابة ، وأخذت الكتابة في الظهور والذيرع .

٤ - كان للوالي - من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة

---

(١) يقول طه حسين : ربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى واستقامة أسلوب ، فهو أحسن من كتب العربية .  
(٢) ٥٧ : ١ النثر الفني .

والمدينة - أثر كبير في نهضة الكتابة ، وتحولها إلى صناعة فنية ، لها  
مذهبها وأسلوبها وطرق أدائها ، ونظامها في البدء والختام : وكان لأذواقهم  
أثر في اتسامها بالسهولة والوضوح ، وفي البعد عن الغريب والوحشي والتعقيد  
والتنافر وتفكك المعاني والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها :  
وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

وقصارى القول أن الكتابة الفنية بلغت في هذا العصر غاية لا تدرك .  
ومنزلة لا تتال .

#### فن التوقيعات :

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة الفنية ، دون أن ننبه  
إلى لون جديد منها ظهر بوضوح في هذا العصر ، ذلك هو ( التوقيع ) ، وهو  
الكتابة على هوامش الرسائل التي ترفع إلى الخلفاء والولاة وذوى الشأن  
بما يفيد العلم بها ، وإبداء الرأى فيها .

وتمتاز هذه التوقيعات بالإيجاز . ولطف الإشارة ، وقوة الإثارة ،  
وسلامة العبارة ، وكثيراً ما يكون التوقيع آية مقتبسة ، أو حديثاً مروياً ،  
أو حكمة صائبة أو مثلاً سائراً ، أو بيتاً من الشعر .

ويقال إن أول ما عرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ،  
إذ كتب إلى سعد بن أبي وقاص في بنيان : « ابن ما يستر من الشمس ويكون  
من المطر » ، ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيك كما تحب أن يكون  
لك أميرك » .

ووقع سعيد بن العاص في كتاب لزياد بخطب إليه فيه : « كلا إن  
الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ووقع عبد الملك في كتاب للحجاج شكاه فيه أهل العراق : « ارفق بهم ،  
فإنه لا يكون مع الرفق ما تنكره ، ومع الخرق ما تحب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعا على كتاب عامل له يستأذنه في تجديد بناء مدينته : « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

وكتب إليه عامله على الكوفة يخبره أنه فعل في أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أولئك الذين هدام الله فهداهم اقتده » .

ولقد دعا إلى ذبوع التوقعات ، ما تسكاثر في هذا العصر من مظاهر الملك ، وتنوع من شئون الدولة ، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ، وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا في كل ذلك برأى ويشيروا بما لديهم من تدبير ، ومن هنا اضطروا إلى الإيجاز في التعليق ، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيع .

### نصوص من الكتابة الفنية في العصر الأموي

#### ١ - بين الحجاج وعبد الملك بن مروان

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فأنصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك وعاذ به ، تخوفا من الحجاج ، واستدفاعا لضرره وشره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يقول :

أما بعد فإن لوأذ<sup>(١)</sup> المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المسكت بساحتك ، لاستلانتهم دمك<sup>(٢)</sup> أخلافك ، ودمعة عفوك ، كالعارض<sup>(٣)</sup>

(١) لاذبه لوأذا وليأذا ولوذا لجأ إليه وعاذ به .

(٢) دمك دمعا ، كفر فرحا ، فهو دمك : لأن وسهل . والدماعة : سهولة الخلق .

(٣) العارض : السحاب المعترض في الأفق .

المبرق لأعدائه لا يعدم له شائما (١) ، رجاء استمالة عنوك ، وإذا أدنى الناس  
بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق ، مع كل  
ضال ، والناس عبيد العصا ؛ هم على شدة أشد استبقا منهم على اللين ، ولنا  
قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفي استخراجهم منه قطع لطمع  
غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين ، إن رأى ذلك ، والسلام . . فكتب إليه  
عبد الملك ، ردا على رسالته :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك - مع ثقته بنصيحتك - خاطبا في  
السياسة خبط عشواء (٢) الليل ؛ فإن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد  
العصا هو الذي أخرج رجال العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أخرجك  
العامية بعنف السياسة ، كانوا أوشك (٣) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم  
لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر  
منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحى أنوفا ، وأقرب من  
عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، واللين أهون ، والإفراط  
في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة . . والسلام .

#### تعليق على النصين :

يمثل هذان النصان البلاغة العربية وهي في الذروة ، والمماسكات الأدبية  
وهي في قمة فصاحتها وسلامتها ؛ ويمثلان على الخصوص بلاغة الحجاج  
وعبد الملك بن مروان - والثاني خيفة أموى عظيم ، والاول من أشهر  
الولاة لبنى أمية من حكام الأقاليم - تمثيلا قويا واضحا .

وفي نص الحجاج روح الطغيان والاستبداد ظاهرة كقوله : الناس

---

(١) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يخطر .

(٢) العشواء : الناقة التي لا تبصر أمامها ، فهي تخبط بيديها كل شيء .

(٣) أى أشرك .

عميد العصا ، ، لما لم يفت عبد الملك الخليفة الرد عليه ، وتفنيده رأى الحجاج فيه ، وتسفيه سياسته ، ونقد نظام إدارته للعراق .

وفي نص عبد الملك يبدو عقله السياسي في القمة ، وخطته في سياسة الرعية ، ورأيه في حكم العراق خاصة ، والأقاليم العربية عامة ، وهو رأى له بالإسلام صلة وبسياسة العصر الحديث شبه .

## ٢ - رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكاتب

كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب من أشهر الأدباء والبلغاء والكاتب الذين نبغوا في الدولة الأموية ، بل كان شيخ الكاتب ، وأول من أطال الرسائل ونوع في أغراضها وأساليبها ، وتخرج في البلاغة والكتابة على ختته (١) أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره .

لقد كان عبد الحميد الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، فهو أول من مهد سبلها ، وميز فصولها ، وأطالها في بعض الشئون . وقصرها في بعضها الآخر ، وأطال التحميدات في صدرها وجعل لها صوراً خاصة بيدها وختمها ، على حسب الأغراض التي تكتب فيها ، بل هو الذي رقى هذه الصناعة التي كانت من مهن الموالى ، حتى صارت بعده سلباً يعرج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة : وهي مرتبة الوزارة ، وكان لبلاغته عمل يعجز عنه السحر في خلب الأفتدة وجذب النفوس ؛ فيقال إنه لما ظم أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرئ لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل . وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن يك ذلك وإلا فاهلاك ، فبعث به إلى أبي مسلم ، فبادر بحرقه خوفاً من التأثير ببلاغته ، وقال :

عما سيف أسطار البلاغة وانتجى إليك لبوث الغاب من كل جانب

---

(١) الختن : من كان من قبل المرأة كالأب والآخر .



وقد بعث عبد الحميد بهذه الرسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، ويوجههم إلى آفاق كثيرة من صناعة الكتابة ، ويوسع مجال القول أمامهم . . وهذه نصوص منها ، قال عبد الحميد :

أما بعد - حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم - فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب رزقهم . فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم الخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبصالحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم ؛ لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون . فأمتكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم . . وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير الممودة ، وخصال الفضل المذكورة الممدودة منكم . . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإن المكانب يحتاج في نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم ، فهما في موضع الحكم ، مقداما في موضع الإقدام ، محجاما في موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتي من التوازل ، يضع الأمور في مواضعها ، والطوارق في أماكنها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لسكل أمر عدته

وعتاده ، وبهيء لكل وجه هيئته وعادته . . فنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفهموا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ؛ ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها ؛ وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سذبا ودنيا وسفساف الأمور ومخاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ، وارباهاوا بأنفسكم عن السعاية والقيمة وما فيه أهل الجهالات . وإياكم والكبر والسخط والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والتبل من سلفكم .

والرسالة - كما ترى - تمثل أسلوب عبد الحميد وخصائص كتابته الأدبية ، من الدقة في الإطناب والإيجاز واستعمال كل منهما في المقام الذي يناسبه ، ومن وضع صور للبدء والختام في الرسائل ، ومن تخير الالفاظ ذات الجرس القوي والمعنى الفخم ، يصوغها في الأساليب السهلة الرائعة ، مع قوة الحججة وترتيب الفكر ووضوح المنطق ، والميل إلى الإقناع ، ومن تجافى الغريب ، والبعد عن السوق ، وإثارة الجزالة والعدوية . إلى ما في الرسالة من بيان مكانة الكتاب في ذلك العصر ، وهي أشبه بمكانة الصحفيين اليوم ؛ وما اشتملت عليه من الأحلاق التي يجب أن يتحلوا بها ، ومن الثقافات التي يجب أن يتزودوا بزادها . والرسالة وثيقة خطيرة في مقاييس البلاغة والنقد عند الكتاب في القرن الثاني الهجري .

### ٣ - موازنة بين قطعتين من النثر

١ - كتب عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد عهدا إلى ابنه عبد الله بن مروان حين وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني :

استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة ، وتقل العثرة ، وأصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ؛ وتعهد العامة بمعرفة دغائهم ، وتبطن أحوالهم ، واستثارة دقاتهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم ، فإن ذلك من فلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق في العامة ، ويجرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المنتحبة عنك .  
قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والحقول عند مباهاة النسب ؛ وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك ، فاعتمد عليهم مدخلا لهم في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإيالك وتضييعهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيعاً .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مرشداً ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وثبت في مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتتل أنفس الخطوط ، ورغب الشرف ، وتعل درج الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل .  
إلى آخر هذا العهد الطويل البليغ .

ويذكرنا هذا العهد بعهد الإمام علي بن أبي طالب الذي كتبه للأشتر  
النخعي حين ولاه أمر مصر ؛ قال الإمام علي فيما قال :

اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من  
عدل وجور ، وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من  
أمر الولاية قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، إنما يستدل على  
الصالحين بما يجرى الله لهم على السنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك  
ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ؛ فإن الشح  
بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت ؛ وأشعر قلبك الرحمة للرعية ،  
 والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عاينهم سبعا ضاريا تغتنيهم ،  
 فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق ، يفرط منهم  
الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعظمهم  
من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه  
وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ،  
 وقد استكفأك أمرهم ، وابتلاك بهم . ولا تصين نفسك لحرب الله ، فإنه  
لا يدى (١) لك بنقمته ؛ ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ؛ وليكن أحب الأمور  
إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها الرضى الرعية ، فإن سخط  
العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ،  
 وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مثونة في الرغاء ، وأقل معونة في  
البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكرا عند الإعطاء ،  
 وأبطأ عذرا عند المنع ، وأخف صبرا عند مليات الدهر ، من أهل الخاصة .  
 وإنما عمود الدين ، وجماع (٢) المسلمين ، والعدة من الأعداء ؛ العامة من  
الامة . فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

(١) أى لاطاقة لك : مثني يد .

(٢) جماع الشيء : مجتمع أصله .

ب - ونحن هنا نستطيع أن نوازن بين هذين العهدين في إيجاز :

نلاحظ على أسلوب عبد الحميد الميل إلى الإسهاب والترسل ، أما أسلوب الإمام ففيه جنوح إلى الإيجاز مع البلاغة الطيبة المواتية ، وعبد الحميد يعلل بلاغة كلامه بما حفظ من كلام الإمام في أول نشأته ، ونلاحظ أن الإمام عليا كرم الله وجهه قد زود بهذا العهد قائده الأشتر النخعي حين ولاه مصر التي جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور ، والتي كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم عثمان . فكان من الحق أن ينج له القصد ويهديه السبيل . أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا إلى ولي العهد وهو ذاهب إلى الحرب ، وعجب أن يزود القائد وهو غاد إلى القتال برسالة تقع في قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب ، وأكثره مما لاصلة للحرب به ، وما رأينا أحدا من المؤرخين أثبت هذا العهد في هذا المقام ، وما عهدنا في مثل هذا الوطن إلا الإيجاز ، وقد يكون عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له إلا أن يعارض عهد الإمام على كرم الله وجهه . لذلك لا تجد لهذا العهد رباطا يربطه ، ولا مدارا يدور عليه ، بل أكثره جمل مترادفة ، وموضوعات منتزعة ، لا تكاد تجمعها ألفة ، أو تصلها قرابة .

وانظر إليه حين يسوق إلى وليه بعض النصائح التي لا يصلها غرض ولا وشيجة ، كيف ينوء بها في قوله « هذه خصال . . . » ويسوق في هذا التنويه عشرين جملة متتابعة .

أما الإمام على رضي الله عنه فقد دق في ترسله دقة لا يصل إليها أهل الإيجاز ، وذهبت كل فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لا يقوم به غيرها ، وانظر إلى وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه : « وليس أحدم الرعاية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة في البلاء . » رأكره للإنصاف ،

وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء. وأبطأ عذراً عند المنع، وأخف صبراً عند مليات الدهر، من أهل الخاصة .

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد، بل وقع كل منهما على معنى خاص لا بد منه .

ومهما كان فقد تأثر عبد الحميد ببلاغة الإمام على تأثراً كبيراً ظهر في عهده هذا .

٤ - وكتبت السيدة زينب بنت علي عليه السلام إلى الخليفة يزيد ابن معاوية بعد مقتل الحسين :

صدق الله ورسوله يا يزيد: ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزمون، أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى . أن بنا هو أنا على الله وبك عليه كرامة ! وإن هذا لعظيم خطر ! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مسوقة لك ؛ والأمور متسقة عليك . وقد أمهلت ونفست . وهو قول الله تبارك وتعالى ( ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ) . . أمن العدل يا بن الطلقاء تخدريك نسائك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هتكت سنورهن ، ومحللت حدوجهن (١) مكثبات تخدى (٢) بهن الأباغر ويحدو بهن الأعادى ، من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن (٣) القريب والبعيد ، ليس معهن ولى من رجالهن . وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بالشنف والشنآن ، والإاحن والأضغان . أتقول : ليت أشياخى بيدر شهدوا ، ، غير متأثم ولا مستعظم ، وأنت تتسكت ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ، ولم

(١) صحت : انفقت . والحدوج جمع حدج - بكسر الحاء - مركب للنساء كالحفرة .

(٢) خدا البعير والفرس أسرع . (٣) يتشوفهن : أى يجهلن .

تكون كذلك ، وقد نكأت (١) القرحة واستأصلت الشأفة . باهر انك دماء  
ذرية رسول الله محمد ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب . ويردن على  
الله وشيكاموردهم ، ولتودن أنك عميت وبكمت . وأنت لم تقل : فاستهلوا  
وأهلوا فرحاً . اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا من ظلمنا . والله ما قرئت إلا في  
جلدك ، ولا عززت إلا في لحك ، وستردي على رسول الله صلى الله عليه وسلم  
برغمك ، وعترته ولته في حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ، ملبومين من  
الشعث — وهو قول الله تبارك وتعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل  
الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، وستعلم من بؤك ومكنك من  
رقاب المؤمنين . إذا كان الحكم الله ، والنصم محمدأ صلى الله عليه وسلم ،  
وجوارحك شاهدة عليك ، بنس للظالمين بدلاً ، وأيكم شر مكاناً وأضعف  
جنداً ، مع أني والله يا عدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك ، وأستعظم  
تقريبك غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى  
عنا ، وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب  
السمماء ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأبدى تتلف من  
دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى يعتامها  
عسلان (٢) الفلوات ، فلئن اتخذتنا مغنماً ، لتتخذنا مغرماً ، حين لا نجد إلا  
ما قدمت يداك ، تستصرخ يا ابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعاوى ويتعاوى  
بك عند الميزان . ووجدت أفضل زاد زدك معاوية ، قتلك ذرية محمد  
صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتقيت غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ،  
فكدر كيدك ، واسمع سعيك وناصب جهدك ؛ فوالله لا يرخص عنك عار  
ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة ، لسادات شبان  
الجنان ، فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن  
يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير (٣) .

(١) نكأ القرحة : حكها .

(٢) عسلان : جمع عاسل : الذئب ، واعتام الشيء اختاره .

(٣) مضت هذه القطعة في ص ٢٤٣ على أنها خطبة لها أمام يزيد .

## تراجم لأشهر الكتّاب في العصر الأموي

عبد الحميد الكاتب

واضع الأصول الفنية للكتابة في الأدب العربي

١ - عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة في تاريخ التراث الأدبي عند العرب ، وحياته غامضة أشد الغموض . لأن الخلافة العباسية أسدلت عليه سحبا كثيفة من الإهمال والنسيان ، باعتباره الكاتب السياسي الأول لدولة بني أمية ، ولقبه الجاحظ في كتابه المشهور « البيان والتبيين » بعبد الحميد الكاتب أو الأكبر ، ويعظم النقاد العرب من منزلته في الأدب العربي ، فيقولون فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

وكان أبوه يسمى يحيى ، من سلالة غير عربية ، من أهل الشام ، الذين دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية ، ولا يعرف متى ولا أين ولد عبد الحميد في أرض الشام ؛ وإن كان من المرجح أنه ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٨٩٦ م : ٧٠٥-٧١٥ م) ، في دمشق أو قريبا منها .

وكانت الدولة آنذاك للأمويين ، وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق ، التي بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور ، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع ، وأصابها من عناية الأمويين ما صارت به قبة الناس من كل صوب وحذب ، فأتسع عمرانها ، وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم ، وصارت موطننا رفيعا من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي ، ووفد إليها الناس في مختلف شئونهم ، وأصبحت تعد من أعظم مدن العالم وأجملها ، ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء ، ونعمت كل العناصر الأجنبية فيها بالحرية ، وعاملهم المسلمون بالتسامح ، حتى رضوا بسلطان العرب ، وطرخوا المسيحية ، ودخلوا في الإسلام ، وتعلموا العربية كما يقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » .

وكانت الشام أحد الأقاليم الكبرى في الإمبراطورية الإسلامية آنذاك ،



وتشمل : فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين .. وتتصل  
بإقليم العراق ، وإقليم « الجزيرة وأرمينية » ، بصلات وثيقة .

وفي ظلال الأمويين اتصل الفكر العربي بالثقافة والآداب الاغريقية  
والرومانية في الشام ومصر ، وكان الأدب الروماني السائد فيهما قبيل الفتح  
العربي تطورا جديدا للآداب اليونانية في عصرها الاسكندري الروماني ،  
هذا العصر الذي يبدأ بدخول أثينا في حكم الرومان في القرن الأول قبل  
الميلاد ، وينتهي بالفتح الاسلامي لهذه البلاد في النصف الأول من القرن السابع  
الميلادي .. كما اتصل العقل العربي كذلك في مدن العراق بالثقافة الفارسية  
القديمة ، وبخاصة في مدينة البصرة المشهورة ؛ وكان ملوك إيران ، وبخاصة  
سابور بن أردشير في أواسط القرن الثالث الميلادي ، وكسرى أنوشروان  
( ٥٣١ - ٥٧٨ م ) ، قد بذلوا كثيرا من الجهد في نقل الثقافة الاغريقية إلى  
ثقافة بلادهم ، وقام الترجمة السريانيون ، بذلك العبء ، حيث نقلوها أولا  
إلى الفارسية ، ثم نقلوها إلى لسانها السرياني ؛ ونقلوها أخيرا إلى اللغة  
العربية في ظلال العصر الاسلامي وفي عهد الأمويين والعباسيين .

٢ — تعلم عبد الحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب ، وتفوق فيهما ،  
فسلس لسانه ، وجادت لغته ، وظهرت مواهبه في الأدب والبلاغة والبيان  
والخطابة والكتابة وعمل في أول أمره معلما ، وتنقل في البلدان .

وكانت ثقافة الأديب آنذاك مزيجا من الثقافة العربية الإسلامية ، ومن  
التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيام العرب وتاريخ المعجم ،  
وأحيانا يضاف إلى ذلك ثقافة أجنبية أخرى كالثقافة الفارسية أو الاغريقية  
أو الرومانية أو المصرية القديمة أو الهندية ؛ وفي رسالة عبد الحميد إلى الكاتب  
ما يوضح لنا أصول الثقافة الأدبية في عصره .

وقد تتلذذ عبد الحميد في الكتابة على أبي العلاء سالم الكاتب السياسي  
لهشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ٢٥٠ هـ : ٧٢٤ - ٧٤٣ م ) ، ويروي ابن النديم

في «الفهرست»، أن أبا العلاء ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر، وذلك يدل على تضامه في الثقافة والآداب واللغة اليونانية، وكان أبو العلاء أحد الواضعين لنظام الرسائل الأدبية، ولتقاليد الكتابة الفنية وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم، وكان صهر عبد الحميد، إذ كان زوج أخته، وكان جبلة بن سالم الذي تولى الكتابة السياسية في ديوان الرسائل لهشام أيضا صديقا حميما لعبد الحميد الكاتب، وكان جبلة يعرف الفارسية وهو أحد المترجمين منها إلى العربية، كما كان صديقا حميما لعبد الله ابن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ : ٧٢٥ - ٧٦٠ م). وابن المقفع فارسي الأصل، وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللسان العربي كذلك.. وذلك كله يدعنا نرجح أن عبد الحميد إلى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية والفارسية.

فذكرى مبارك في كتابه النثر الفني يرجح أن عبد الحميد كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها، وينقل منها إلى العربية؛ ويؤيد ذلك قول أبي هلال العسكري (١٩٥ هـ : ١٠٠٥ م) في كتابه : «الصناعتين»، و«ديوان المعاني»، إن أبا هلال «استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي»، ويقول ذكرى مبارك : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية.

ويؤيد الدكتور طه حسين في كتابه «من حديث الشعر والنثر»، أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان متأثر بها أشد التأثر في فصوله الأدبية.

٣ - وذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب، وعرفت مواهبه الأدبية، وثقافته الكثيرة، فقربه إليه الأمير الأموي مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينية، هذا الإقليم الغني الممتد الأطراف، الذي كان يشمل : بلاد الموصل، وأذربيجان وولايات أرمينية، وكان مروان قد

تولى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد بن مروان الأموي ولم يلبث الأمير الأموي مروان أن قاد جيشا كثيفا من أبناء الجزيرة وأرمينية ، وزحف به على الشام فاستولى على حمص وقنسرين وسواها من المدن ، ثم زحف على دمشق ودخلها بجيشه ، وتولى أمور الخلافة الأموية ، وبايعه الشعب بخلافة المسلمين في قصر الخلافة عام ١٢٦ هـ : ٧٤٤ م ، وأخذت البيعة لمروان في جميع مدن الشام ، ولما بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : أعل أن كنت معنا فطرت عنا ؟ قال مروان : إذن تطير معنا ، قال : الآن طاب لي السجود وسجد .

كان عبد الحميد يتولى شئون ديوان الرسائل الأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينية ، وصار وثيق الصلة به وازدادت مسكانته عنده ، ووثق فيه الأمير ثقة كبيرة كان عبد الحميد جديرا بها ، وصدرت عنه رسائل سياسية كثيرة في ذلك العهد ؛ ولما تولى مروان الخلافة صار عبد الحميد الكاتب الأول له في ديوان الرسائل بدمشق . وصدرت عنه رسائل أدبية وسياسية ذات شهرة فنية كبيرة .

شاهد عبد الحميد كل الأحداث السياسية التي مرت بالعرش الأموي أثناء حكم مروان بن محمد ( ١٢١ - ١٢٢ هـ : ٧٤٤ - ٧٥٠ م ) ، ورأى الزحف العباسي الكبير الذي بدأ من خراسان ، واستمر حتى نهر الزاب الذي بلغته قوات العباسيين في جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ؛ وبلغته أنباء المعركة الكبرى التي دارت على نهر الزاب بين جيوش الخليفة مروان وجيش المسودة من العباسيين ، والتي انتهت بهزيمة مروان وجيشه في أوائل رجب ١٣٢ هـ ، وهرب مروان إلى الشام فصر ، وهرب كاتبه وصديقه عبد الحميد إلى البحرين ، ودخل العباسيون دمشق واستولوا على قصور الأمويين وكنوزهم ، وجدوا في تشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان ، وعلى أنصارهم في جميع مدن الشام ؛ وكذلك جدوا في البحث

عن مروان بن محمد حتى قبضوا عليه في بلدة « بوسير » من أعمال الجزيرة وقتلوه للياتين بقيتا من ذى الحجة عام ١٢٢ هـ - ٧٥٠ م . وكان مروان قد أمر خادما له أن يدفن في الصحراء خاتم النبي وبردته وعصاه وكان يعتز بها خلفاء بني أمية ويتوارثونها . وذلك حين فاجأته جيوش العباسيين ، ولما قبضوا على الخادم قدم للقتل ، فطلب إليهم أن يضمنوا حياته ليكشف لهم عن مكان هذا الكنز الإسلامي الكبير ، وفعلوا فأرشدوا إلى مكانه فأخذوه وبعثوا به إلى أبي العباس السفاح الخليفة العباسي في العراق ، والذي أطلق عليه لقب السفاح لكثرة ما قتل من الأمويين وأنصارهم . . . وأما بنات مروان وجواريه فقد أخذن بعد قتل أبيهن إلى صالح بن علي فتكلمت أمامه بذته الكبرى « أم مروان » نسأله العفو وأن يلحقهن بجران مدينة مروان المفضلة في حياته ففعل ، فأخذن يبكين مروان عند دخولهن إليها بكاء مريرا كما روى المسعودي في الجزء الثاني من تاريخه « مروج الذهب » . . . وأما أولاد مروان : عبد الله ولي عهده ، وقائده في أكثر المواقع ؛ وعبيد الله ؛ وغيرهما فقد هربوا إلى النوبة فالحبشة في جماعة من الأمويين ، وقتل عبد الله هناك . ونجا عبيد الله كما يذكر الطبري في الجزء التاسع من تاريخه ، ويذكر ابن الأثير أن المقتول هو عبيد الله . . . وأما مزنة امرأة مروان فتظاهر في بغداد عام ١٦٠ هـ في قصر الخليفة المهدي أمام الخيزران في ثوب مرقع ما تستر به جزءا من جسدها إلا انكشف جزء آخر مع الجلال والعظمة وسوء المظهر وشقاء الحال كما يذكر التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » .

بعد معركة الزاب وهزيمة مروان ومعه عبد الحميد بن يحيى السكائب كتب هذا العبقري العظيم إلى أسرته رسالة مؤثرة يقول فيها :

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمسكاره والشورور ؛ فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بناها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها

مستزیداً (١) لها . وقد كانت أذاقتنا أفوايق (٢) استحليناها ، ثم جمعت (٣) بنا نافرة ، ورمحتنا (٤) مولية . فملح عندها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ؛ فلهذا نازحة (٥) ، والطير بارحة (٦) ، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا ، ولإيكم وجدا فإن تم البلية إلى آخر مدتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم زجع إليكم بذل الإسار والذل شر جار . . نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين :

رسالة كلها بكاء ودموع وحيرة ، ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الأحداث إلا القتل أو الأسر ، وهو يودع أسرته فيها وداعا مؤثرا ؛ ولا نعلم من أمر أسرته شيئا ، لأن التاريخ لم يعن بها ولا برها منذ يوم الهزيمة المروعة ؛ هزيمة القائد فى المعركة التى خسر فيها كل شىء حتى حياته .

والح مروان على صديقه عبد الحميد أن يهرب ، فقد ينجو من القتل ، أو أن ينضم إلى أعدائه من العباسيين ، فقد يستطيع أن يقدم خدمة لخليفته المهزوم ، وقال له مروان : إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك ، فاستأ من إليهم ، وأظهر الغدر بى ، فبذلك تنفخنى فى حياتى أو بعد مماتى ، قال عبد الحميد :

- 
- (١) يقول إن الانسان : فى شكايته الدنيا لا ينتصف منها بل كأنه يستزيدها .  
 (٢) الأفوايق : جمع أفواق . والأفواق : جمع فيقة وهى اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين .  
 (٣) جمعت الدابة : غلبت راحبها .  
 (٤) ربح الفرس : رفس .  
 (٥) النازح : البعيد .  
 (٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك إلى مياسرك ومن الناس من يتشام به .

أسر وفاء ثم أظهر غدره فن لي بعذر يوسع الناس ظاهره  
يا أمير المؤمنين إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي ،  
ولسكني سأصبر حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك .

ولما ضاق بهما الأمر دعاه مروان إلى الحرب ، وأصر مروان على رأيه  
فاختفى عبد الحميد هاربا في الأرض ؛ ولكن إلى من يهرب ؟

كان صديقه عبد الله بن المقفع في العراق يكتب لدارد بن هبيرة حاكم  
العراق من قبل مروان ، وكان ابن المقفع يزور دمشق وعبد الحميد الكاتب  
أحيانا ، إذا سار إلى عاصمة الأمويين مع أميره العظيم .. ولما اكتسحت  
جيوش العباسيين العراق ، قتلوا دارد وأهله فيمن قتلهم ، ونجا ابن المقفع  
من القتل بفرااره في ذلك الحين ، وظهر ابن المقفع في البحرين ، ولجا إليه  
هناك صديقه عبد الحميد الكاتب ، وأقام عنده في داره ، ولكن عيون  
العباسيين عرفت مكانه ، ففاجأه الطلب وهو في دار ابن المقفع ؛ وهنا تظهر  
عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين ، الذين ظللا على الأجيال حتى اليوم نقرأ  
للفكر العربي ، قال الجند ، وهم شاكو السلاح : أيكما عبد الحميد ؟ فقال  
كل منهما : أنا ، إشفافا على صديقه ، وأوشك الجند أن يفتكروا بابن المقفع  
لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا ، فإن لكل منا علامات ،  
فوكلوا بنا بعضكم ، وليبض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك  
العلامات ، فلم يجد الجند مناصا من ذلك ، وفعلوا وعادوا بأوصاف  
عبد الحميد كاملة ، فقبضوا عليه ، وقتل عام ١٣٢ هـ : ٧٥٠ م .

وهكذا خسر الفكر والأدب العربي أعظم رجاله ، وأروع شخصية يعتز  
بها تراثنا العقلي على مر العصور .. وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استتم له  
القدر عشرة أعوام ، ثم قتل عام ١٤٣ هـ : ٧٦٠ م في عهد المنصور العباسي .

( ١٩٢ - ١٩٣ )

٤ - كان عبد الحميد عبقرية كبيرة ، وذهنا لماحا ، وذكاء خصباً ، وأدباً  
جماً ، ونبلاً موفوراً ، وملكا في ثياب عربي . . مع ثقافة واسعة ، وعلم  
بسياسة الدولة ورشتى أمورها ، وإدراك لكل مسئوليات الرجل السياسي وواجباته  
مع قدرة فائقة على تملك ناصية البيان ، وزمام التأثير ، وروعة التعبير .

ويروى عنه أنه حين ظهرت الدعوة إلى العباسيين في خراسان بقيادة  
أبي مسلم الخراساني الفارسي زعيم الدعوة ، كتب عبد الحميد إليه على لسان  
الخليفة الأموي مروان بن محمد كتابا يستميله فيه إلى جانب الأمويين ،  
وحمل الكتاب على جمل لكبر حجمه ، وقال عبد الحميد للخليفة : لقد كتبت  
كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فاهلاك ، فلما وصل الكتاب  
إلى أبي مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاة منه :

حما السيف أسطار البلاغة وانتحى إليك ليوث الغاب من كل جانب

وهذا يدلنا على عظمة كتابات عبد الحميد السياسية ، التي كانت بمثابة  
مقالات الصحف اليومية السياسية الذائعة اليوم ، وكان عبد الحميد يقدر على  
تصوير المعنى تصويراً بارعاً لا يقدر عليه أحد من الكتاب . . أهدى وال  
من ولاية مروان إلى الخليفة عبداً أسود ، فطلب مروان من عبد الحميد أن  
يكتب إليه متهكماً ، فبعث إليه عبد الحميد برسالة موجزة أشد الإيجاز  
يقول فيها : لو وجدت لوفاً شراً من السواد ، وعدداً أقل من الواحد ،  
لأهديته . . وبراعته ، أو قدرته على الإيجاز ، مشهورة ، كتب يوصي بشخص :  
« حق موصل كتابي إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً  
لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله . .

إن عبد الحميد كان جديراً أن يعد في عصره وبعد عصره : شيخ  
الكتاب ، وإمام المنشئين والمترسلين في الأدب العربي : فقد كان أمة وحده  
في بلاغة العبارة ، ورصانة الأسلوب ، ودقة المعاني ولطفها ، وعظمة الخيال

وروعته ، وشدة التأثير وامتلاك ناصية البيان ؛ وكان يفصل جملة تفصيلا ،  
ويزينها أحيانا بقليل من السجع ، ويحليها بألوان من الوشى الفنى المطبوع .

هـ - ويرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد أن عبد الحميد هو الذى  
ظهر على يديه النثر الفنى فى الأدب العربى ، وهو الذى أنفأ الكتابة الفنية  
إنشاء فى اللغة العربية ، هذه الكتابة التى يعتمد فيها الكاتب على التحجير  
والتميق ، إذ لم تظهر فى رأيهم فى العصر الجاهلى ولا فى عصر صدر الإسلام .  
وإن كان بعض مقدماتها وعناصرها قد أخذ فى الظهور فى عهد الخلفاء  
الراشدين ، أماهى جملة فقد تأخرت إلى العصر الأموى لتظهر فى رأيهم على  
يدى عبد الحميد الكاتب ، بتأثير الثقافة اليونانية فيه ، كما يقول الدكتور  
طه ، فهو الذى ترك آثارا كبيرة فى نهضة الكتابة ، وحوّلها إلى صناعة فنية ،  
لها مناهجها وأصولها وتقاليدها الأدبية ، ولها نظامها فى البدء والختام ؛ وكان  
لذوقه الحساس أثر كبير فى اتسام الكتابة بالسهولة والوضوح ، وفى البعد  
عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ،  
فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها . وقل الاقتضاب والاعتراض بين  
أجزاء الكلام .

وبرى الأستاذ مرسية الفرنسى ، والمستشرق الانجليزى جب فى كتابه  
« تراث الإسلام » ، أن النثر الفنى ببتدىء بابن المقفع ، وأن القرن الأول  
الهجرى لم يكن فيه نثر يعتمد به ، إنما كان الشأن فيه للشعر ؛ وابن المقفع فى  
رأيهما ورأى تلاميذهما أول يمثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ،  
وأول مؤلف للكتابة الفنية الأدبية .

ولكن جمهرة كبيرة من النقاد العرب القدامى والمحدثين ، ومن بعض  
المستشرقين ، تصر على أن النثر الفنى ظهر فى الجاهلية ؛ واستحكمت نهضته  
بنزول القرآن الكريم ، وبالحديث النبوى الشريف ، وببلاغات البلاغ  
فى صدر الإسلام من خلفاء وقواد وولاة وغيرهم ، ونهج البلاغة مشهور



مقامه في النثر الفنى ، وإن زعم البعض أن الشريف الرضى انتحلّه ، فإن فيه نصوصاً لا يمكن أن يقال عنها إنها منتحلة ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فنى قبل الميلاد بكثير ، كاليونان والرومان والفرس والمصريين القدماء ، فلم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون . ويبعد الدكتور طه القرّآن الكريم عن مجال الاحتجاج في هذه الخصومة الأدبية ، وإن كان القرّآن في الذروة العليا من النثر الفنى . والنثر الفنى في الآداب الأوروبية لم يزدهر بين عشية وضحاها ، بل تطور من عصر إلى عصر حتى بلغ غاية نهضته وازدهاره ، فلم لا يكون كذلك في الأدب العربى ؟ بدليل أن النثر الفنى عند ابن المقفع هو نثر متقدم حتى خلاق ، وليس بدايياً ؛ ونشك كل الشك في أن ابن المقفع كتب هذا النثر الفنى الرفيع دون أن يكون له سابقون في تاريخ الأدب العربى القديم .

فالنثر الفنى وجد قبل القرّآن وصاحب نزول القرّآن وتأثر به تأثراً عظيماً ، ثم اتصل العرب بالآداب الأجنبية الى ظهرت آثارها في كتاباتهم الأدبية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى على يدى عبد الحميد وابن المقفع . والأحوال الاجتماعية الجاهلية التى يرى الدكتور طه أنها لم تكن تساعد على نشأة النثر الفنى ، لا يمكن أن يشترك فيها عرب نجد وعرب الحجاز فى الحكم على حد سواء ، فإذا جاز لنا أن نقول عن العرب النجديين انقدماء إن حياتهم لم تكن تساعد على إنشاء النثر الفنى ، فإنه لا يجوز لنا أن نذهب هذا المذهب ونحكم به على عرب الحجاز القرشيين ، الذين عرفوا الحكومة السياسية المنظمة وطبقوها فى مكة ، والذين عاشوا فى ظلال ترف ورخاء وألوان حضارية من العيش كثيرة . .

٦ - إن عبد الحميد بلا ريب كان ذا أثر كبير فى الكتابة الأدبية فى عصره ، فهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسى ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد الذين كتبوا الفصول الأدبية كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين

كما يقول الدكتور طه ، وهو أول من فتق أكام البلاغة وسهل طرقها ، وفك رقب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة ، فهد سبلها ، ووضح معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة في بدئها وختامها ، والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى ، فكان شيخ الكتاب ، وبحق ما قيل : بدت الكتابة بعبد الحميد . وقد ساعد عبد الحميد على إحداث هذا التأثير الأدبي الكبير الذى ظهر فى صورة مذهب فنى جديد فى الكتابة مايلي :

ا - فضوح الثقافة العربية الإسلامية ، من علوم الدين واللغة والأدب ، وإقبال الكتاب عليها ، وتمثلهم لها ، واحتذاؤهم حذوها .

ب - رواية أصول الأدب العربى ، شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكا وأمثالا وسجعا وقصصا وأخبارا وأنسابا ، والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ، وعلى استظهار الشعر الجاهلى والإسلامى كذلك . وخطب الرسول ووصاياه ، وخطب الخلفاء والصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى عصر عبد الحميد ، وبخاصة خطب الإمام على بن أبى طالب وحكمه .

ج - أثر القرآن الكريم والحديث النبوى فى تهذيب الآسنة ، وترقيق الطباع ، ونضوج الممسكات .

د - اتصال العقل العربى بالأدب الأجنبية ، وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

هـ - عناية لكتاب بكتابة الرسائل ، وجعلها صناعة فنية عديدة .. إلى جانب اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل الذى كان يرؤسه كبار الأدباء والكتاب ، ممن أنشأوا الرسائل البليغة عل أسنة الخلفاء والأمراء . وقد استدعى كل ذلك العناية بالكتابة والكتاب .

وقد استطاع عبد الحميد أن يتصرف فى نثره الفنى تصرفا ذكيا يجمع بين

طرفي الإيجاز والإطناب ، ويراعى شتى الأحوال والمقامات ، وكان لقدرته على الإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه . يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه ، فيطلب : الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، وفي الوعد والوعيد ، ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء .. كما أطال في فوائده رسائله الأدبية وخواتيمها ، بما يعد جديدا في هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التعميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم اتباعها الحمد لله ، فاصلا بينهما بأما بعد وغير ذلك .. وبهذا عد عبد الحميد من أوائل من صنعوا الأصول والتقاليد الفنية في النثر الفني العربي والكتابة الأدبية .

وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، التي ينشئها الكتاب البلاء ، فتحمل ما في قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات ، أو تعبر عما يتردد في نفوسهم من آراء وأفكار ؛ في أسلوب رائق ، ولغة جميلة ، وتصوير مؤثر .

ولعبد الحميد رسائل بليغة ذكر ابن النديم أنها تجتمع في ألف ورقة لم يصل إلينا منها إلا القليل ؛ وفي دار الكتب المصرية رسالة تنسب إليه ، وقد جمع محمد كرد علي في كتابه « رسائل البلاء » كثيرا من الفصول الأدبية التي تروى لعبد الحميد .

وقد ذاعت طريقة عبد الحميد وابن المقفع في توخي السهولة وسلامة التعبير ، مع العناية بإجادة المعنى ، بين الكتاب في عصرهما وفي العصور الأدبية كلها .

وهكذا مات هذا العبقري الكبير ، وذهب الزمان بجمل آثاره الأدبية والفكرية والسياسية ؛ وخسر الأدب العربي بذلك خسارة فادحة (١) ؛ ولمكانته في الكتابة قال إبراهيم بن الصولي : ما تمنيت كلام أحد من الكتاب يكون لي مثل عبد الحميد .

---

(١) راجع عن عبد الحميد : الفهرست لابن النديم - مروج الذهب للمسعودي =

## النقد في العصر الأموي

كانت البلاغة العربية في هذا العصر ملء المشاعر والأذواق ، وكان العرب بطبيعتهم الأدبية يحكمون على الكلام أحكاماً فيها فطنة ودقة ، وإن لم يهتدوا إلى أصول النقد وقواعده .

وكانت جماعات النقاد في هذا العصر تتمثل في الأدباء والشعراء والرواة وفي الخلفاء وفي غيرهم . وعلى أيديهم أصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقا ، وأدنى إلى التحليل والتعليل .

وهذه صور من النقد في عصر بني أمية ، تدل على ذوق ، وتشير إلى فهم لخصائص الكلام ، وتوحي بفهم النقاد لأصول البلاغة في التعبير والمعنى والغرض ..

١ - انتقد عبد الملك ابن قيس الرقيات لضعف قافيته حين أنشده :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعتني وقرعن مروتيه  
وجيئني جب السنام ولم يترك ريشاً في منسكبيه (١)

---

== أمراء البيان لمحمد كرد علي - رسائل البلغاء جمع محمد كرد علي - من حديث الشعر والنثر لطله حسين - الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام وأعلام الأدب في عصر بني أمية ( جزءان ) ومن بلاغة العرب والأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين وهي من تأليف محمد عبد المنعم خفاجي - تاريخ الأدب العربي للزيات ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، والوسيط ، والمفصل . والمجمل في الأدب العربي والأخيران اشترك في تأليفهما طه حسين وأحمد أمين - الفن ومذاهبه في النثر لشوقي ضيف - أدب السياسة للحوفي - فن المقالة الأدبية لمحمد عوض محمد .

(١) جب : قطع .

فقال له : أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيك .

٢ - ودخل كثير عزة يوماً على سسكينة بنت الحسين ، فقالت له :  
أنت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى    يمج الندى جشجائها وعرارها (١)  
بأطيب من أردان عزة موها  
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٢)  
أى زنجية منقنة تبخر بالمندل الرطب إلا طاب ربحها . ألا قلت كما  
قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقاً    وجدت بها طيباً وإن لم تطيب (٣)  
٣ - واجتمع السكيت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا  
بلغ قوله :

أم هل طعائن بالعلياء نافعة  
وإن تسكامل فيها الأنس والشنب (٤)  
عقد نصيب واحدة فقال له السكيت ماذا تحصى؟ قال : خطأ : باعدت في  
القول ، ما الأنس من الشنب ؟ - يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما -

- 
- (١) الحزن : ما غلظ من الأرض . الجشجاء : نبات العرار ، بهار البر .  
(٢) الأردن جمع ، دن كقفل وهو السكم . الموهن : من أول الليل إلى نحو  
نصفه . المندل : العود .  
(٣) قيل لكثير : مالك لا تقول الشعر أجبلت ، قال : والله ما كان ذلك ،  
ولكن فقدت الشباب فإأطرب ، ورزئت عزة فإأنسب ، ومات ابن أيل فإأرغب ،  
يعنى عبد العزيز بن مروان ( ١ : ٣٠ الأمالى ، ٣ : ١٣ العقد ) .  
(٤) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

٤ - واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبي ربيعة فأقبل كثير على عمر ينقد قوله :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمز به يا أخت في خفر  
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد في أثرى (١)  
وقال : إن الحرة إنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لاطالبة.  
٥ - ويروى أن السكيت عارض بائنة ذى الرمة التي مطلعها :  
\* ما بال عينيك منها المساء ينسكب \*

فقال :

هل أنت في طلب الإيقاع منقلب  
أم كيف يحسن من ذى الشبية اللعب  
وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولاً ما يقتدر لإنسان  
أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تنجي به  
ولا تقع بعيداً عنه .  
وامتدح ذوالرمة قصيدة للسكيت بأنه أحسن في ترفيض قوافيها .

٦ - ومن صور النقد قولهم في ابن أبي ربيعة : إن لشعره موقعا من  
القلب وعلوقا بالنفس ، وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه  
يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا : إن جريراً يغرف من  
بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول في عمر بن أبي ربيعة : إنه  
يحيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ما خاطبهن به عمر ، وجرير  
يعترف الأخطال بأنه أشعرهم في وصف الخمر ومدح الملوك وهكذا .

٧ - وقدمت ليلي الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

(١) اسبطرت : أسرعت .

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفها  
شفها من الداء العضال الذى بها  
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ولكن قولى همام .

٨ - وأنشد كثير عزة قوله :

ألا ليتنا يا عزم من غير ريبة      بعيران نرعى فى خلاء ونعزب  
كلانا به عر فنرنا يقل      على حسننا جرباء تعدى وأجرب (١)  
إذا ما وردنا منها هاج أهله      إلينا فلا ننفك نرعى ونضرب  
فقال له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٩ - وأنشد عبد الملك قول نصيب :

أهيم بدعد ما حيت فإن أمت      فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟  
فقال بعض الحاضرين : أساء القول أبحزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال  
عبد الملك لو كنت قائلاً فماذا تقول ؟ قال :

أهيم بدعد ما حيت فإن أمت      أوكل بدعد من يهيم بها بعدى  
فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولاً ، ثم قال الوجه أن يقال :  
أهيم بدعد ما حيت فإن أمت      فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى  
١٠ - أنشد ذو الرمة بلال بن أبى بردة بمدحه :

رأيت الناس ينتجعون غيثاً      فقلت لصيدح : انتجعى بلالا (٢)

---

(١) العر : الجرب .

(٢) أى سمعت هذه العبارة ، والناس ينتجعون غيثاً ، قال المبرد : المعنى سمعت  
هذا اللفظ أى قائلاً ينطق به . . . وصيدح اسم الناقة .

فلما سمع بلال : فقلت لصبيح ، قال : يا غلام مر لها بقت ونوى<sup>(١)</sup> يريد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

ووقف ذى الرمة أمام عبد الملك ينشده :

ما بال عينك منها المساء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب<sup>(٢)</sup>

فقال عبد الملك : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وكان بعبد الملك رمش<sup>(٣)</sup> فلا تزال عينه تدمع فتوهم أنه يعرض به .

١١ - واستأذن جرير على سكةينة بنت الحسين فلم تأذن له ، وخرجت جارياتها فقالت : تقول لك سيدتى : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمى بسلام

قال : نعم ، قالت : أفلا أخذت يديها فرجبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف . فخذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك .

١٢ - وعاب رواة الشعر في العصر الأموي على الشماخ بن ضرار قوله :  
إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين  
وقالوا : كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائها عنها ، فقد قال رسول الله  
الأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة لها ، حين قالت يا رسول الله ،  
إني نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال لبئس ما جزيتها .

وعابوا على ذى الرمة متابعة الشماخ في هذا إذ يقول :

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين عينيك جازر

---

(١) ١٧٨ الموشح .

(٢) كلى جمع كلية أو كلوة بالضم وهي من المزاولة رقعة مستديرة يحرز عليها تحت العروة .. مفرية مشقوقة . سرب الماء كدفع : سأل فهو سرب أى سائل .

(٣) الرمش : تقتل في شعر الأهداب وحرمة في الجفون مع ماء يسيل .



وفضلوا عليهما في هذا المعنى قول عبد الله بن رواحة الأنصاري :

إذا بلغتني وحملت رحلى مسيرة أربع بهد الحساء (١)  
فشأنك فأنعمي وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي (٢)  
وقال الفرزدق في هذا المعنى :

سلام ثلاثين وأنت تحني وخير الناس كلمهم أمامي  
متى تأتي الرصافة تسترجي من الأنساع والدبر الدوامي (٣)  
وجاء أبو نواس بعد ذلك فقال في هذا المعنى وأبدع فيه .  
وإذا المظي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

١٣ - وأخذوا على الفرزدق قوله :

إذا التفت الأبطال أبصرت رجيه مضيقاً وأعناق السكاة خضوع  
فقالوا أساء القسمة وأخطأ الترتيب ، وإنما كان الأجدر أن يقول  
أبصرته سامياً وأعناق السكاة خضوع . . وعابوا على الأخطأ قوله في  
عبد الملك :

وقد جعل الله الخلافة فهم لأبيض لا عاري الخوان ولا جديب (٤)

(١) الحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء  
على ذلك الرمل نزل الماء فنتعته الصلابة أن يفيض ومنعت الأرض السماء أن تتشفه .  
فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء .  
(٢) لا أرجع مجزوم لأنه دعاء فلا هي الجازمة له ومعناه اللهم لا أرجع  
(ص ٦٨ الموشح) .

(٣) الأنساع جمع نسع بالكسر ، وهو سير ينسج عريضا على هيئة أعة النعال  
تشد به الرحال والقطعة نسوة ، والدبرة بكسر الدال وفتح الباء قرحة الدابة والجمع  
دبر بفتح الدال والباء وأدبار .

(٤) الخوان : ما يؤكل عليه .

فقالوا لو مدح به حرسياً لعبد الملك لقصر به .

١٤ - وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل (١)  
فقالتوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فله كما تمدح العامة وإنما تمدح  
بالإغراق والتفضل بما لا يتسع غيرهم لبذله .

١٥ - ووفد عمر بن أبي ربيعة على عبد الملك فقال له أنت القائل :

أترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذا لعبور  
قال : نعم ، قال : فبئس المحب أنت ، تركتها وبينك وبينها غدوة .

١٦ - ولما أنشد عبد الملك قول كثير في أخذه الخلافة :

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بجد المشرفي استقالها  
أعجب به أشد العجب ، وكان الأخطل حاضراً فقال : ما قلت والله يا أمير  
المؤمنين أحسن منه ، قال : وما قلت ؟ فأنشد :

أهلوا من الشهر الحرام وأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غصب  
ثم قال جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً ، قال صدقت ، إقراراً  
منه بصواب ما ذهب إليه .

١٧ - ويروى أن الأخطل حين أنشده قوله :

فإذا تعاورت الأكف زجاجها نفعت فشم رياحها المزكوم  
أعجب به ، وقال للشعبي وكان حاضراً سمعت بمثل هذا يا شعبي ؟ فقال  
الشعبي : أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول :  
من اللأني حملن على المطايا كرجح المسك تستل الزكاما  
فقال : صدقت .

---

(١) مذق الحديث : مخلوط الحديث من مذق كنصر إذا خلطه .

١٨ - ويروى المرزباني (١) أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر . ثم تراضوا بمكيئة بنت الحسين فأتوها وأخبروها . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذي يقول ؟ :

طارقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام  
وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .  
ثم قالت لصاحب كثير : أليس صاحبك الذي يقول ؟ :

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرت  
كأنى أناذى صخرة حين أعرضت من الهم لو تمشى بها العصم زلت  
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت  
خليلي هذا ربع مزة فاعقلا فلو صيكا ثم ابكيا حيث حلت  
فليس شيء أحب إليهن ولا أقر لآعينهن من النكاح أفيحب صاحبك  
أن ينكح قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابها لما فات من عقلي  
فإن وجدت نعل بأرض مضلة من الأرض يوما فاعلم أنها نعل  
خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبل  
ما أرى لصاحبك هوى . . إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهم بدعد ما حيت فإن أمت فواحنى من ذا بهم بها بعدى ؟  
كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال :  
أهم بدعد ما حيت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى  
ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :  
من عاشقين تواملا وتواعدة لـ إذا نجم الثريا حلقا  
بانا بأنعم عيشة وألذها حتى إذا وضع الصباح تفرقا  
قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال : تعانقا .

١٩ - ولسليمان بن عبد الملك حكم حكم به على الشعراء الثلاثة الفرزدق  
وجرير والآخر (١) .

٢٠ - وأشاد الفرزدق وجرير والآخر وذو الرمة في مجلس عبد الملك  
ابن مروان بمزاحم العقيلي وشعره (٢) .

٢١ - وسأل عبد الملك أعرابيا عن أمدح وأهيج وأفخر وأغزل  
وأحسن وأفصح بيت قيل ، فأجابه الأعرابي (٣) .

٢٢ - وجلس الشعراء في مجلس عبد الملك بن مروان ، فأخذ كل منهم  
يقدم شاعرا من الجاهليين (٤) .

٢٣ - وقال مالك بن الأخطل عن جرير والفرزدق : وجدت جريرا

---

(١) ١٨٩ الشعر والشعراء .

(٢) ٢ : ١٥٥ ديوان المعاني ، وراجع أخبار مزاحم في الأغانى ( ١٧ : ١٥٠ ،

٢ : ٤٥ خزائن الأدب ) .

(٣) ٧٦ و ٧٧ : ١ ديوان المعاني .

(٤) ١ : ١٥٢ المرجع .

يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، فقال له الأخطل : الذي يغرف من بحر أشعرهما (١) .

إلى غير ذلك من صور النقد في هذا العصر وهي كثيرة لا تحصى .

ومن مشهورى النقاد في هذا العصر عبد الملك بن مروان ، وسكينة بنت الحسين . يروى أن الفرزدق الشاعر خرج حاجاً (٢) ؛ فلما قضى حجه عدل إلى المدينة ؛ فدخل إلى سكينة بنت الحسين ، فسلم ، فقالت له : يا فرزدق (٣) ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته لمسام  
ومن أمسى وأصبح لا أراه وإطرقنى إذا هجع النيام

فقال : أما والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : أقبوه ؛ فأخرج . ثم عاد من الغد ، فدخل عليها ؛ فقالت يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ فقال أنا ؛ قالت كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار  
كانت إذا هجر الضجيع فراشها (٤) كنتم الحديث وعفت الأسرار  
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

(١) ١٧٢ : ٢ البيان والتميين .

(٢) الاغانى ص ٢٨ ج ٨ ، مصارع العشاق ص ٧٤ ، المحاسن والمساوى .

ص ١٣٣ طبع ابيزج .

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر فنظمه ونبغ فيه ، وتعرف بولاء البصرة ومدحهم وهجهم ، ثم رحل إلى خلفاء بني أمية بالدمام ومدحهم ونال جوائزهم ، مات سنة ١١٠ هـ .

(٤) الضجيع : الزوج ، وهجرها أن يفيب عنها ، يصفها بالعفاف .

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه ؛ فأمرت به فأخرج .  
ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، وحو لها مولدات لها كأنهن النماثيل ؛ فنظر  
الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، وبهت ينظر إليها . فقالت له سكينه :  
يا فرزدق ؛ من أشعر الناس ؟ قال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك أشعر منك  
حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها مرض      قتلنا ثم لم يحيين قتلانا  
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به      ومن أضعف خاق الله إنسانا  
فقال : لئن تركتنى لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه ، فالتفت إليها  
وقال : يا بنت رسول الله ؛ إن لى عليك حقاً عظيماً . قالت : وما هو ؟ قال :  
ضربت إليك آباط الإبل من مسكة إرادة التسليم عليك ؛ فكان جوائى من  
ذلك تكذبي وطردى ؛ وتفضيل جرير على ، ومنعك إياى أن أنشدك  
شيئاً من شعرى ، وبى ماقد عيل منه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ،  
ولعل لا أفارق المدينة حتى أموت ، فإذا أنا مات فرى بى أن أدرج فى كفى  
ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية (١) .

فضحكك سكينه وأمرت له بالجارية ، فخرج بها آخذاً بربطتها (٢) ، ثم  
قالت له يا فرزدق ، احتفظ بها وأحسن صحبتها : فإنى آثرتك بها على نفسى  
بارك الله لك فيها .

---

(١) يشير إلى الجارية التى أعجبته .      (٢) الربطة : الملازمة .  
(٢٠٢ - ١٢)



## القسم الثاني من الكتاب

### الحياة الأدبية في العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٣٣٤ هـ



## العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٥٣٣٤

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح في الكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس في توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسرون على نهجه من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة في جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة في قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لا رأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبي في شئونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لا تزال تأنمر بأمرهم ، وتخضع لمشيتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجبهم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل في شئون الملك يبدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبي مسلم الخراساني وزيره الفارسي ، والمنصور بأبي سلمة الخلال مع أن كلا منهما يعدأ كبير مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتمد بالافشين .

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقييدهم للوالم وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود في سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة في عصر السفاح والمنصور فالمدى فالهادي فالرشيد فالأمين فالأمامون فالمتصم فالوائق فالمتوكل الذي ولى الخلافة عام ٥٣٣٢ ، والذي كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفي عصر المتوكل أخذ الحزب التركي العسكري يتآمر على الخلافة والخليفة، ويحاول التدخل في شئون الدولة، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ. وبذلك ينتهي عهد نفوذ الخلفاء (١)، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة.

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البويهيين لبغداد عام ٢٣٤ هـ. وهذا العصر بعديده هو أزمى عصور الإسلام؛ وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والأدبي للعرب.

ولابدع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة منتهى ما تطمع إليه من المجد والسلطان، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية، وثقافة وعرفان.

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته في العالم المعروف آنذاك، يذكر اسمهم في بينونة أو روما أو الصين، فترتد الفرائص وتخفق القلوب وتنحني الهامات، وتسير جيوشهم المنصورة في كل مكان، وترتفع رايهم في كل أفق، حيث يستظل بظلمها الملايين العديدة من سكان الدنيا، ويدينون لها بالولاء والوفاء. وكان لخلفاء بني العباس ولاية في كل إقليم، وحكام في كل قطر، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين. وخليفة المسلمين - وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت، وتستقر حيثما استقرت.

---

(١) يختلف مؤرخو الأدب في نهاية هذا العصر، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الإسلام ج ١ ص ٦)، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٧ / ٢، وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١)، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ.

وفي هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان ، تثقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس في حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لأمتهم مكانها الرفيع في عالم الفكر الإنساني ، ويؤثرون للحضارة مجدها الزاهي ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

وهكذا يمتاز العصر العباسي الأول بغلبة العناصر الفارسية نحووا من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها في الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعنولة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول في العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والأدب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل في تاريخ لغة العرب .



## قيام الدولة العباسية

لا يذكر التاريخ الإسلامي في ثنياه وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ،  
أمراً أغرب ، ولا حدثاً أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك  
بنى أمية ، وعرشهم الذي رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل  
والسخاء وقوة السلطان وطول البطش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة  
مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع  
مقاييد الخلافة الإسلامية في أيدي العباسيين :

١ - وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات  
الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهون بهم في كل  
مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسي المشهور ، في إحدى  
قصائده حيث يقول :

أحبائى ما عاشوا زاهل ثقاتي	ملاكم في أهل النبي فانهم
لهم في نواحي الأرض مختلفات	لهم كل حين نومة بمضاجع
وأيديهم من فينهم صفرات	أرى فينهم (١) في غيرهم متقسما
وآل زياد حفل القصرات (٢)	فآل رسول الله تحف جسومهم
وآل رسول الله في القلوات	بنات زياد في القصور مصونة
أكفا عن الأوتار منقبضات	إذا وزوا مدوا إلى أهل وزم

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوي ، ممن ينسبون إلى الإمام علي  
ابن أبي طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسي ، مما ينسبون إلى

(١) النوى : الخراج والفنية . صفرات : غاليات .

(٢) حفل القصرات . ضخام الأعناق ، كناية عن سمهم .

العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .  
ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرتهم ، ونفى بعضهم  
من الحجاز ، شاهد على ما نقول .

ولما ازداد عنف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب ساداتهم يؤلفون  
الجماعات ، ويكونون العصايات ، ويعلمون الحروب والثورات على خلفاء  
بنى أمية . وكان الشيعة يرشحون لخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد  
سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية  
ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقبلاً في الحنيفة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث  
أقام على بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسي العريق . وبروى بعض  
المؤرخين أن أبا هاشم - الذي لم يكن له أبناء يرثون دعوته - رشح  
لإمامة الشيعة بعده ابن عمه علياً هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى  
أولاده ، وأوصى أوليائه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بنى العباس ، فصارت  
الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، وهم ضوؤهم بالعبء كابر عن  
كابر ، وماجد بعد ماجد : علي العباسي ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذي ذاعت  
على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في  
الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعاته بأساليب الدعوة . والبلاد التي  
يبتون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث المشرق  
ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ، ، وحيث ضعف سلطان بنى أمية ،  
وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذي حبسه مروان بن  
محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه  
أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحاً باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، في العراق وفارس ، وأخذوا ينازلون الأمويين في هذه البلاد . فطردوا ولائهم في خراسان ، وهزموا جيوشهم في فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق في قبضة المسودة ، أتباع بني العباس ، وشيعة آل البيت .

وفي ربيع الأول من عام ١٣٢ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بني أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيع ، وبهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بني أمية وجنودهم في الجزيرة والشام . وفي معركة « نهر الزاب » قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مدحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسي ، وقبض عليه ، وقتله في آخر العام نفسه .

٢ - وثاني تلك الأسباب التي ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للدوالي عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعراية خالصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرون الموالى احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستعينون في دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهيم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي (١) ، وكان لا يلى الخلافة أحد من أبناء المولدين الذين ولدوا من أمهات أعجميات (٢) ، وكان العربي في جيش الخلافة في فرق

---

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .

(٢) ١٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالي في عداد المشاة، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعربيات بل أبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج، يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني أن رجلاً من الموالى خطب عريية من بني سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى، ففرق بينه وبين زوجته، وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال محمد بن بشير في ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلاً . ولم ترث الحكومة من بعيد  
وفي المائتين للدولى نكال . وفي سلب الحواجب والحدود (١)

ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق، ومعه شيء، فرأى مولى، دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع، ولا السلطان يغير عليه، وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عريية أهرابية (٢).

من أجل ذلك كله فقد الموالى على دولة بني أمية، وأضربوا لها الكراهية والحقدهم والبغضاء. وكان العنصر الفارسي أكثر الموالى حقداً، وأشدهم موجدة، وأكظمهم غيظاً وحنفاً على سلطان الأمويين الجائر، وحكمهم الباطش، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قديماً، وملكا باندأ، وحضارة موروثة، وكان الفرس يحملون باستعادة دولتهم، واستقلال أمتهم، وإحياء حضارتهم، ولهذا كان لهم الفضل الأكبر، واليد الطولى في قيام ملك بني العباس، فالثورة على الأمويين قامت في بلادهم، وكانوا هم جندها والمحاررين في سبيلها وكان منهم القواد السكبار، الذين حطموا خلافة بني أمية وعرشهم، كآبي سلة الخلال، وآبي مسلم الخراساني .

(١) الأغاني ١٥٠ ج ٤ و ٢٥٦ : ٢ الكامل، ٩٣ : ٢ العقد .

(٢) ٢٠٦ ج ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين في بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا دأود بن علي عم السفاح في خطبة له : يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أناح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، ، وقول أبي جعفر المنصور : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا . . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدي فقال : « أوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم . وتكافئهم على ما كان منهم . وتخلف من مات منهم في أهله وولده . .

٣ - وثالث الأسباب في قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبية القبلية ، التي أشعل نارها خلفاء بني أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر ، وهذه العصبية ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيراً وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على البين ، فأنحرفت البين عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تاجيع نيران الخصومات بين القبائل وزعمائها : وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعاً ، وأن يجعلهم يقنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء المضربين ، وجديع بن شبيب السكرماني سيد البائية : وشيبان ابن سلة الحروري رئيس زريعة ، لم يستطع هؤلاء جميعاً الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهر من العراق والشام .

وكان كل عربي شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . .



بما يصوره لك هذه الآيات ، يقول رجل من بني أسد بن خزيمه يمدح  
يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانين كلهم      فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان  
ولولا عريق في من عصية      لفلت : وألفا من معد بن عدنان  
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى      وطابت له نفسى بأبناء قحطان

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بني أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ،  
يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد  
آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان .  
وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين . دخل سديف  
الشاعر مولى بني العباس على السفاح ، فألقى بمجلسه سليمان بن هشام هادنا  
مطمئنا ، لتأمين أبي العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال      إن بين الضلوع داء دويا  
فضع السيف وارفع السوط حتى      لا ترى فوق ظهرها أمويا  
فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهده أمانته . . ودخل شبيل  
عبد الله مولى بني هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بني أمية نحو المائة ،  
فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس      بالهاليل من بني العباس  
طلبوا وتر هاشم فشفوها      يعد ميل من الزمان وياس  
لا تقيلن عبد شمس عثارا      واطعن كل رقلة وغراس (١)

---

(١) الرقلة : النخلة فانت اليد والجمع رقل ورقال .

ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كثر المواسي  
ولقد ساءني وساء قبلي قريهم من نمارق وكراسي  
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا . . وبهذا البطش والتنكيل ، خالص الملك لبني  
العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفتها الكوفة  
ثم بغداد . . وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛  
ويذل من يشاء ...

تولى عرش الخلافة في هذا العصر من بني العباس خلفاء ، دانت لهم  
الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذي اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل  
الكوفة عاصمة للملكة ، وظل في الخلافة أربعة أعوام ( ١٣٢ - ١٣٦ هـ ) .

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من  
عشرين عاماً ( ١٣٦ - ١٥٨ هـ ) ، وطد فيها ملك بني العباس ، وبني بغداد عام  
١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم  
العريقة في الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً في علم الكلام داهية أديباً  
مصيباً في رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن  
الدول رونقاً ، وأوسعها رفعة ، بيد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدي ، الذي ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف  
وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش في رعايته كثير من العلماء  
والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ،  
فتولى بعده ابنه الهادي ، الذي ظل في الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه  
هرون الرشيد ابن المهدي .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تنعج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والمصاحب بن عباد من فحولة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتنى في سياسته آثار جده المنصور ، وفي سماحته آثار والده المهدي ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكسهم نكبة هزت النفوذ الفارسي هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) .

وبعد عهد المأمون درة في تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة في جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم في أيامه ، ونبع فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم في الدولة على أيامه ، وبني ( سامرا ) واتخذها حاضرة للملكة عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

وفي عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداء للشيعية ، واضطهد المعتزلة والاعتزال وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ وبذلك بدأ طور

---

(١) ١٧٠ ج ٣ بقيمة الدهر للثعالب . وحمل الرشيد معه لما سافر إلى الرقة ثمانية عشر صندوقاً من الأسفار ليقطع بمطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ معه الانتخاب بما في خزائنه (٥ : ٦٧ الأغاني) .

جديد في تاريخ الخلافة العباسية ؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذي ظل قريباً من مائة عام أخرى (٢٤٧ - ٥٣٤ هـ) وتولى فيه الخلافة المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكشفي والمقتدر .

وفي فترة نفوذ الخلفاء كان للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة في قصورهم ، وكان بيده مقاليد الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ؛ يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالي في الدولة ؛ حتى كان أكثر من تولى الأعمال المنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثرت استخدامهم بعده ؛ حتى زالت رئاسة العرب وهيمنتهم . وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ؛ فسيطر البرامكة - وهم من سلالات فارسية قديمة - على شئون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ؛ إذ كانوا أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمين فوالله ما أحببتها ولا أحببتي قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناتي وخروجه فتسكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزُب عني ، .

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يشعوا بالعرب فأقصوهم عن الحكم والسلطان وأبعدوهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة في قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية في وصيته لزعيم شيعته ، أبي مسلم الخراساني : « وإن

استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأبما غلام بلغ خمسة أشبار  
تحمه فاقتله .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد في العراق ،  
لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروي في  
الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية في كل  
ناحية حتى في العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان  
والنيروز وسواهما ، وانتشار ثقافة الفرس وعلوهم وآدابهم . . وكثرة  
الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم  
المناصب الكبيرة كالوزارة . . حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية  
الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وحذر  
منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه «ماردة» منهم ، وبني لهم (سامرا) ،  
وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم في الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار  
لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه  
عام ٢٤٧ هـ في قصره «الجعفرى» ، وقتلوا معه وزيره «الفتح بن خاقان» . .  
وكان ذلك مصراعاً دائماً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفي ذلك يقول يزيد  
المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة في رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد      وهل لمن فقدت عيناي مفقود ؟  
ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم      حميتكم السادة المذكورة الحشد  
ويقول البحرى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه      وقوض بادي الجعفرى وحاضره  
تحمل عنه ساكنوه فجأة      فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناء أجد لنا الأسى      وقد كان قبل اليوم يبهج زائره  
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه  
ولاذ ذعرت أطلاؤه وجآذره  
ولاذ صبح فيه بالرحيل وهتكت  
على عجل أستاره وستاره  
ووحشته حتى كأن لم يقم به  
أنيس ولم نحسن لعين مناظره  
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة  
بشاشتها والملك يشرق زاهره  
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها  
وبهجتها والعيش غرض مكاسره (١)  
فأن الحجاب الصعب حين تمنعت  
بهيبته أبوابه ومقاصره ؟  
وآين عميد الناس في كل نوبة  
تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره ؟  
ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته      وأعظم آفات الملوك عبيدها  
بنى هاشم صبراً لكل مصيبة      سبلى على وجه الزمان جديدها  
وصار الأتراك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسي الأول أصحاب  
السلطان في الدولة .

وكان الخلفاء العباسيون في هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :

١ - نشر الثقافة والحضارة في أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية  
بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة  
العربية وتشجيع الفنون والآداب في كل مكان .

٢ - الاهتمام بأمر الموالى ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط

---

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جنح الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال  
فلان طيب المكسر أى محمود عند الخبرة .

النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

٣ - العناية بالمظهر الديني الذي أقاموا عليه دعوتهم ، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاية أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة في الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقواد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بركة النبي وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين ، ويصور البحرى في قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة في عيد فطر ، تصويراً بارعاً رائعاً ، فيقول منها :

فانعم بيوم الفطر عيناً لأنه	يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمجفل	لجب يحاط الدين فيه وينهر
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلت	تلك الدجى وأنجاب ذاك العثير
واقفن فيك الناظرون فأصبع	يوى إليك بها ، وعين تنظر
يحدون رؤيتك التي فازوا بها	من أنعم الله التي لا تنكفر
ذكروا بطلعتك النبي فمللوا	لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لأبسا	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع	لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتافاً تكلف فوق ما	في وسعه لسعى إليك المنبر
ووقفت في برد النبي مذكرا	بالله تنذر تارة وتبشر
صلوا وراءك آخذين بعصمة	من ربهم وبذمة لا تخفر

## الطابع السياسى فى العصر العباسى الاول

- ١ -

يتميز العصر العباسى الاول (١٢٢ - ٥٣٤ هـ) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٣٢ - ٥٢٤٧ هـ)، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شئون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدا كبيرا بعد ذلك (٢٤٧ - ٥٣٤ هـ) .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشان لها فى الدولة بجانب انفرس والعرب (٢) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها . لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم «ماردة» تركية من السغد ، فنشأ معه كثير من طبائع الأتراك ، مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاوهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم

---

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص ٩ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، وه ج ٤ التمدن الإسلامى ، ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص ١ ج ١ ضحى الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصرأ واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للأسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ المفضل) .

(٢) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامى .



الأشياء يبتاعهم بالمال من مواليتهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن  
تفنى إليه الخلافة (١) .

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس  
ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (٢) ،  
فكان ذلك أيضا مما زاد من تقرب المعتصم للجند الأتراك وإيثاره لهم .

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك ، اشترام  
وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٣) ثم ازداد عددهم في  
جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً (٤) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت  
الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا  
على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ،  
وحاضرة للملك ، منذ عام ٢٢١ هـ (٥) ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة  
وجيزة (٦) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية ، وظلت مقر الخلافة حتى  
عام ٢٨٩ هـ (٧) . أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعللون العربية ويتكلمون بها ،  
وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب  
ونفوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله بإسقاط من في دواوينهم من  
العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ، ومنعوا  
الولايات (٨) .

---

(١) ١٦٨ : ٤ التمدن الإسلامي . (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبرى .

(٣) ٢٣٣ : ٢ النجوم الزاهرة . (٤) العصر العباسي للسباعي بيومى .

(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد .

(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام .

(٨) ١٤٤ : ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك (١)، الذين أخذوا يتكلمون بالفرس والعرب جميعاً، وسعوا في قتلهم، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف (٢).

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ واشناش م ٢٣٠ هـ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسوام، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبساتهم وتأيد الخلفاء لهم، حتى إن الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً (٣)، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب (٤). ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ، سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية، فتم لهم ما أرادوا، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم، فزاد طمعهم في الدولة، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم كثيرون الدسائس والمؤامرات، كثيرون الطمع في الأموال، والعبث بالأمن.

ندم المتوكل على ما فرط، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ هـ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق، لكن ذلك لم يتم له، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوهم. ولكنهم كانوا يحكمون تديراً آخر لقتل

(١) ١٧٠ ج ٤ التمدن (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزي.

(٣) ١٣٥ تاريخ الخلفاء.

(٤) ١٢ ج ١١ الطبري.

الخليفة (١) ، وتقدم باغر التركي حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلوه في قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في أواخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بدء مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفي ذلك يقول البحرى :  
أكان ولي العهد أضمر غدره      فمن عجب أن ولي العهد غادره  
فلاملك الباقي تراث الذى مضى      ولا حملت ذاك الدعاء مذاره  
ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد      وهل لمن فقدت عيناي مفتقد  
ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم      حمتكم السادة المذكورة الحشد  
ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعبى م ٢٣٥ هـ في الأتراك حين شكوا المعتصم غدر من اصطنعمهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعمهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول على بن الجهم :  
عبيد أمير المؤمنين قتلته      وأعظم آفات الملوك عبيدها  
بنى هاشم صبيرا فكل مصيبة      سيبل على وجه الزمان جديدها

(١) ٦٥ - ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل المتوكل ومرأى الشعراء فيه في (٢٦٠ - ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه في (٣١١ ج ٢ وما بعدها من السكامل للبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه  
المأساة المؤلمة كانت سبباً في زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمة عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك في عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ،  
ثم في عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه  
وأقاموا مكانه في الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثار منهم لآيئه ، ففي عهده قتل  
وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفي مصرعه يقول البحترى من  
قصيدة مدح بها المعتز بالله (١) :

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه      وكأنهم حلم من الأحلام  
طاحوا فيما بكى العيون عليهم      بدهوعها وضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوجئوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه  
وضربوه بالدابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه في الشمس  
حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقيد بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ هـ ؛  
ثم حبسوه وقتلوه ، ولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده  
وورعه وجهه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ . ومات بعد خلعه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ،  
فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم  
أحد منهم فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ،  
وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا  
على الأتراك وقوادهم ، فكسج غير قليل من جماعهم ، وأثر ذلك فى حسن  
الأحوال قليلاً .

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى .

(٢) ١١٦٢ ج ١ طبرى ، ١٣٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ٢٠ ج ٤ مروج الذهب

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ،  
فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ،  
ولم يحاسبهم على حساب القانون والعدالة ، فاقصص من تركي ارتكب معصية (١) ،  
وقتل قائداً تركياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومي على ذلك (٢) ، وفي  
المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا      وكان نهياً في الوري مشاعا  
وكل يوم ملك مقتول      وغائف مروع ذليل  
وكل يوم شغب وغضب      وأنفس مقتولة وحرب  
وكم فتاة خرجت من منزل      فغصبوها نفسها في المحفل  
ويطلبون كل يوم رزقاً      يرونه ديناً لهم وحقاً  
كذلك حتى أفقروا الخلافة      وعودوها الرعب والخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفي (٢٨١ - ٢٩٥ هـ) في خلافته بسيرة  
والده من الحزم والزم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته ولي الأتراك  
أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم  
وظل خليفة إلى عام ٣٢٠ هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة في هذه الفترة تسير في طريق بعيد عن  
المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في أيدي الأتراك ، الذين لم يبالوا بشيء  
في سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ،  
وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم  
الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم في الدولة جرحاً دائماً يؤلم كل عربي  
صميم ، حتى هجا دعبلي المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

(١) راجع نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ص ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم  
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب  
وهمك تركى عليه مهانة فانت له أم وانت له أب  
ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها  
فما بال عجم الترك تقسم فيتنا ونحن لديها في البلاد شهودها  
فأقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد عميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها  
الجند الشاكرية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء  
الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات  
كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان ، وحاول  
بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والالفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد  
قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها في أيام المعتصم ، ولكنها لم  
تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد في عهد  
المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك  
وبطولتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت  
جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثر نفوذ الغلمان فى هذه الفترة وخاصة فى عهد المقتدر ، الذى كان  
عنده أحد عشر ألف خاد من الزوم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم  
قيادة الجيوش وأم الأعمال فى الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ، الذى تولى قيادة

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤ .

الجند ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء . وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة ، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية : استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر ( ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ ) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر ( ٣٢٢ - ٣٥٣ هـ ) ، وهي تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان ( ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ما وراء النهر ( ٢٦١ - ٣٨٩ هـ ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس ( ٢٥٤ - ٣٩٠ هـ ) ، والدولة الدلفية بكرديستان ( ٢١٠ - ٢٨٥ هـ ) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان ( ٢٥٠ - ٣١٦ هـ ) .

وقد حفل هذا العصر بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجدد أخباره ونتائجه في «مقابل الطالبين» ، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فلقد كثرت اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير ، عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى في تشريدهم ، وأمر في عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء (١) .

---

(١) ٢٧٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (١) ، من حيث كان المأمون يرى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٢) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والوائق لمحبتهم لعلی (٣) وكان شديد البغض لعلی وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته . من الترك وسليمان الأتراك في الدولة . وتاريخ الأتراك ملوء بكرهمم للتشيع والشيعة ، وبالغروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمتنصر كان يقاوم العلويين كأبيه (٤) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته (٥) .

ولكن عهد المتنصر كان عهد خير على العلويين ، فإنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتنفي فهاهم عنه (٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

---

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل على ( ٢٧٩ - ٢٨٦ ج ٢ العقد ) .

(٣) ظهر الإسلام ص ٤١ ج ١ .

(٤) الإدارة الإسلامية لكردي على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

(٥) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .

(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢ ج ١ .

(٧) الأغاني ص ١٤٣ ج ١ .



## الطابع الاجتماعي لهذا العصر

- ١ -

تركز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقيقاً وضعفاً .  
والحياة الاقتصادية في هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى  
إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقرين لدى الخلفاء  
والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين  
حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء  
الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن  
وهب الوزير أمام المهتدي ، وعمت المصادرة وانتشرت بين طبقات الناس  
وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبئس المال (٤) ، وأنشئ لها ديوان  
مخصوص (٥) .

وكانت ضرائب الأتبان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى  
قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث - كما ذكر ابن  
خردادبة - نحو ثلاثمائة مليون درهم (٧) بعد أن كان في عهد المأمون

- 
- (١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .
  - (٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .
  - (٣) ١٥٦ : ٧ مذهب الأغاني .
  - (٤) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامي : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .
  - (٥) ٣٥ : ١ ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .
  - (٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ التمدن .
  - (٧) ٦١ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٦٠ مليوناً (١) ، وفي عهد المعتصم ٣٨٨ مليوناً (٢) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليوناً من الدراهم في العام (٤) .  
قالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة (٥) .  
وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير - ٦٠٠ مليون درهم - وترك الرشيد واحداً وعشرين مليوناً (٧) - وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما تركه من ثروة خاصة .

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ - العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العربى الزهو

---

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٥٣ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام فى دار السلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة فى كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية فى العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً فى العام . يتفق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليوناً والباقى يظل فى بيت المال تحت تصرف الخليفة بصرف منه المرتبات والمكافآت ، ٦٩ و ٧٠ : ٥ التمدن .

(٣) ٣٥٣ - ٣٥٥ : ٣ الخضرى بك .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

٢ - العنصر الفارسي : وكانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم التي كانت لهم في العصر الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس والمؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبية ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ - الأنراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراة في جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأنراك في قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين . وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة في الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثر أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجوارى الروميات والعلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومي اسمه نسيم (٣) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومي م ٥٢٨٣ .

---

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١٠ : ١ - مهذب الأغاني ج ٧ ص ١٩٤ .

وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) وكانت حربا بين الأجناد ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (١)، والنفوذ والثروة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالة في البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء (سامرا) أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفرى وسواه . من المباني التي أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج في الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المستكنى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير ، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه (٢) . وفي تهنته المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

سليت أمير المؤمنين على الدهر      ولا زلت فينا باقيا واسع العمر  
حللت الثريا خير دار ومنزل      فلا زال معموراً وبوركا من قصر  
فليس له فيما بنى الناس مثله      ولا يبناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فن رأى مثل الرباب قصرأ      كم حكمة فيه تخال سحراً  
أبنية فيها جنات الخلد      لكل ذى زهد وغير زهد  
تخبر عن عز وعن تمكين      وحكمة مقرونة بالدين  
ومظاهرات قوة الإسلام      على أعاديه من الأنام

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى

(٢٠ - ٥٩ : ١٠١ ، ٥٠ : ١٢٩) .

(٢) التمدن الإسلامى ص ٩٣ و ٩٤ ج ٥ ، وظهر الإسلام ج ١ ص ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .

وكان من مظاهر الترف في هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور، فكثير نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل، ومجالا للدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها انتشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقيها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد والتلف . وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول علي بن الجهم واصفا قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو	ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا	ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإمام	رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس	ولا الروم فى طول أعمارها

وللروم ماشيد الأولون وللفرس آثار أحرارها  
ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثر أهل الكدية ، إذ  
كانت تدر عليهم أخلاف الرزق .

وحدث امتزاج شديد بين العناصر والأجناس التي تكونت منها الدولة  
وأحدث ذلك آثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين  
الموالى والعرب ، وشبت نيران الشعوية ، وكثر لفظ دعائها ، ممن يسوون  
الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛  
وكانت غلبة النفوذ الفارسي ذات أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فانتشرت  
الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالى إلى أعلى  
مناصب الدولة ، وانتشر الرقيق والغناء ، وكان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية  
وفي ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ،  
وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، ومك قديم ، وحضارة زاهرة ،  
ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقبصر ، وفي أقل من قرن أصبحت  
دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم  
العرب هذه الأنظار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها  
قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة  
في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب  
في السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ،  
وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا  
من آباء عرب وأمهات أعجميات (١) .

---

(١) يقصد بالجمع ماعدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من  
فرس وروم وهنود وسريان وحيش وزنوج وسوام .

وكان العرب قبلهم السادة والحكام ، ويدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأعاجم في منزلة دون منزلتهم . فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالي يرفعون رؤوسهم ويعتزون بكرامتهم ، ويمنون بأيادهم على الخلافة ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطناً ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولائه . . . وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغوا في أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ؛ بل الخلفاء والأمراء ، كانوا من أعجميات : فالهادي والرشيد ابنا الخيزران ، وهى أم ولد من خرشنة - بأرض الروم - ، والمأمون أمه «مراجل» ، والمتنعم أمه «مارد» ، والواثق أمه «قراطيس» ، وهى رومية ، والمتوكل أمه «شجاع» ، خوارزمية ، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى عربية هاشمية - وكان خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم فى أحضان أمهاتهم الأعجميات . كتب محمد بن عبد الله العلوى المنصور : «ولا أعرفت فى الإمام ولا حضنتى أمهات الأولاد» ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول : «وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإمام ، فقد نفرت على بنى هاشم طراً : أولهم إبراهيم ابن رسول الله ؛ ثم على بن الحسين الذى لم يولد فيكم بمسء وفاة رسول الله مولود مثله» ؛ ويقول الشاعر متألماً من كثرة أولاد الإمام :

إن أولاد السراى كثرت يارب فينا  
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وكان للجوارى والقيان اللواتي كثرن في قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير في زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان في قصره ألفا جارية . والمتوكل ضعف ذلك ؛ وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن في الأسواق ، ويهدين كاتهدى الطرف النادرة .

ولقد نشأ عن تقرب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب في الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندججوا في غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة . ومهما يكن من شيء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قربية النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، في حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جليلة في الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفي العقول والأجسام ، وشتى نواحي المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلي :

( ٣م - ٢ق )



١ - انتشرت للعادات الفارسية في المجتمع في هذا العصر، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه، وذلك الامتزاج الذي شرعناه، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى، أو اللهو والغناء. فذاع اللعب بالشطرنج والنرد، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد، واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان، وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموائدهم، ووضع الزهور والرياحين عليها، وفي تنسيق البيوت، وإعداد الحجرات، وفي الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً، ومن بينها عید النيروز ويوم المهرجان، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والمهدايا.

وذاعت الأزياء الفارسية، من قلانس وأقبية، وعمائم، وسواها.

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل، اللهم إلا إشباعاً للنفس، وإرضاء لداعى اللهو واللذة، فلا عجب أن غالوا في مآذهم وحفلاتهم مغالاة شديدة، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بريدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام، وكانت الهبات فيها لا تنتهى. وكذلك فل المأمون في بناءه بيوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ، فقد أعطاها في صداقها ألف حصاة من البياقوت، وأوقد الشموع المائلة من العنبر، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة... وأرلوا بالغناء، وتقنوا فيه، وأبدعوا في ألحانه وجددوا في آلاته، وأكثروا في مجالسه من الملع والعبث والشراب. وكانت بغداد تعجب أصحاب انثراء لسعة عمراتها، وبهجة منظرها، وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادنها وشتى مظاهر الحضارة فيها، قال الشاعر:

أعاينت في طول من الأرض والعرض  
كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد راخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض  
تطول بها الأعمار إن غذاءها مريء، وبهض الأرض أمر أمن بهض  
أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعا، للشقاء والبؤس  
الشديد الذي كانوا يعيشون فيه، قال شاعرهم فيها :

تصالح للموسر لا لأمريء بيت في فقر وإفلاس  
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذا هم ووسواس  
ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً فيقول :

من مبلغ عنى الإما م نصائحاً متواليه  
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه  
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه  
وأرى غموم الدهر را نحة تمر وغاديه  
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه  
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدت العافيه  
ألقيت أخباراً إليك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديداً : فالنفوذ والثراء  
وحياة اللذة والتعظيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالاة في البنيان ، والتنافس في تشييد القصور ،  
حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالاً طائلة ، وأنفق المتوكل على  
بناء الجعفرى ، الملايين من الدنانير ، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق  
والدور والقصور وبيوت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والتعظيم .

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت  
المناصب الرفيعة في الخلافة ، كنصب الوزارة الذى تقلده في هذا العصر  
أفذاذ من الرجال كأبى سلمة الخلال ؛ وأبى أيوب الموريانى وزير

المصور ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشد ،  
وبنى سهل الذين وزروا للمأمون ، وقد مكّن هؤلاء للنفوذ الفارسي ،  
والتقاليد والعادات والنظم الفارسية في دولة الخلافة .

٢ - وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد  
والزندقة التي حاربها المهدى والرشد حرباً لا هوادة فيها ، كما شاعت  
الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل  
بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة في كل مكان ، وكان للقيان والجوراي  
أثرهن في هذا الميدان .

وإن كنا لا ننكر أن الامتزاج قد أكسب العربي سعة أفق ، ورحابة  
صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل  
سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء  
الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار ابن العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثاً  
مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ - وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد في العقول والأفكار ، فالتسعت  
الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحسفت العقول ، وقويت  
المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ،  
يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ،  
الذي دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم  
القديمة من فرس وبونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب  
يتحضرون وينشئون المدارس ويشيدون خزائن الكتب ودور الحكمة ،  
ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف  
سواهم من الشعوب .

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد  
صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ،

ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم (١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحدق في الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات .

٤ - وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة في تهذيب الافكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، ونجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى ليلبس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربى في هذا العصر والأدب في العصور السالفة :

(١) فلقد نشأ - بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالفصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون في الأدب ، كالإغراق والمبالغة في وصف الحمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولاشك أن تفشى هذه الألوان وذوبوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد ، وما يحمل بين ثناياها من شهوات طاغية ، ونزوات طائشة ، ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليله ودمنة من الفارسية إلى العربية ، فرأى العرب طراز القصة في النثر . وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها ، حتى لقد نظمهم أبان اللاحق شعرا ؛ بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة      وهو الذى يدعى كليله دمنه  
فيه ضلالات وفيه رشد      وهو كتاب وضعته الهند  
فوصفوا آداب كل عالم      حكاية عن ألسن البهائم

(١) الابن الذى يوله من أب عربى وأم أعجمية يسمى « هجيناً » ؛ والذى يكون من أب عجمى وأم عربية يسمى « مقرفاً » .

فالحكام يعرفون فضله والسخفاء يشتمون هزله  
وهو على ذاك يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

(ب) وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف في الأدب العربي،  
ونما نمواً واضحاً، واتسع مجاله، وانفسح مداه. فهذه مظاهر الحضارة  
المختلفة من قصور ورياض، وأنهار وبرك وغدران، تتوالى صورها أمام  
أنظارهم، فتلهب شاعريتهم. وتسمو بأفكارهم، وتحلق بأخيلتهم.

وهذه أيضاً عادات العجم وتقاليدهم وأزيائهم، ومواسمهم وأعيادهم،  
ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم، ومرابع جواربهم وغلماهم. كل ذلك  
قد أطلق الألسنة، وفتق الأخيلة، وأيقظ المشاعر، وأذكي الحواس  
فأخذوا يصفون هذه الألوان التي بهرهم بريقها، وأسرهم جمالها، وأخذ  
بالبابهم ما فيها من حسن ونضارة. فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف،  
وعبروا عنها أجمل تعبير.

يصنع الأمين لنزهته في دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات،  
فيأخذ أبو نواس في وصفها، فيقول:

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا مار ككابه سرن برأ	سار في الماء راكباً ليث غاب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها	كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومنسر وجناحي	من تشق العباب بعد العباب (٣)

(١) أي سفينة على صورة الأسد وتسمى الحراقة بالثدييد وفيها مراى نيران  
يرى بها العدو.

(٢) أي فوق سفينته الأخرى التي صنمته على شكل العقاب.

(٣) الزور: الصدر.

تسبق الطير في السحاب إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب  
ويبنى المتوكل قصره ، الجعفرى ، فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :  
وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها  
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة في دارها  
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها  
إذا أوقدت نارها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها  
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها  
ويصف البحتري الربيع وصفا رائعا فيقول :

أتاك الربيع الطلق يحتال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما  
وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما  
يفتقها برد الندى فكأنه يبت حديثا كان قبل مكنما  
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما  
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما  
ورق نسيم الريح حتى حسبته يحىء بأنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت  
بها هذه الحياة المزفة اللاحية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ،  
وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ،  
وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة في آدابهم ، ومأثور أشعارهم ،  
ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى في القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد  
والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعاني الدقيقة ،  
والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

ومما زاد في ظهور هذه الآثار أن كثير آ من شعراء هذا العصر كانوا

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم .

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزتني بجيش من محاسن وجهها	فعبا لها طرفي ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها	يريد اغتصاب القلب قسرا على الحب
ولما نجارحنا بأسياف لحظنا	جعلت فؤادي في يديها على العصب
وناديت من وقع الأسنة والقنا	على كبدي : يا صاح مالي وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر	قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

ويقول إسحق الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها	فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجراني لها عن ملالة	ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأى عقوبة	أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره	فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كن خاف الندى أن يبله	فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه	فطيب تراب القبر دل على القبر
----------------------------	------------------------------

ويقول ابن المعتز في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة	قد أثقلته حمولة من عنبر
------------------------	-------------------------

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن	أتيت ذنباً فغير معتمد
قد تطرف الكف عين صاحبها	فلا يرى قطعها من الرشد

ويصير أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لائماً  
لام ابن الرومي فقال له : لم لاتشبه كتشبيهاً ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟  
فقال له : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله  
في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة      قد أثقلته حمولة من عنبر  
فقال له : زدني ، فأنشده قوله في الأذريون - وهو زهر أصفر  
في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه  
وبفرشه في المنازل :

كان      آذريونها      والشمس فيه      كالية (١)  
مداهن من ذهب      فيها بقايا      غالية (٢)

فصاح واغوثاه ؛ تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف  
ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ! ولكن انظر إذا  
أنا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولي من الناس ! هل لأحد قط قول مثل  
قولي في قوس الغمام :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا      على الجود كنا والحواشي على الأرض  
يطرزها قوس السحاب بأخضر      على أحمر في أصفر لآز مبيض  
كأذيال خود أقبلت في غلائل      مصبغة والبعض أقصر من بعض (٣)

---

(١) كالية : مخفف من كائمة بالهمز أي ناظرة ، من كلاً بصره في الشيء إذا رددته.

(٢) الغالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنه الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهي  
شعار يلبس تحف الثوب .



وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به      يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر (١)  
ما بين رؤيتها فى كفه كرة      وبين رؤيتها قدوراء كالقمر (٢)  
إلا بمقدار ما تنداح دائرة      فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر (٣)  
وقولى فى قالى الزلاية :

رأيتك سحرأ يقلى زلاية      فى رقة القشر والتجويف كالقصب  
يلقى العجين لجيناً من أنامله      فيستحيل شبائيك من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت  
المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول  
أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه      لتخافك النطف التى لم تخلق  
ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم زدما      على ما فيك من كرم الطباع  
وبقول بشار فى محبوبته :

إن فى برى جسمنا ناحلا      لو توكت عليه لانهدم  
ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه      وليس بباق ولا خالده  
فلو يستطيع لتقتـيره      تنفس من منخر واحد

---

(١) دحاه يدحوه : بسطه .

(٢) قدوراء : واسعة .

(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليقات ، العقلية في الأدب : شعره  
ونثره . . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل	ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في ثرى رمسه
وإن من أدبته في الصبا	كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً	بعد الذي أبصرت من ييبسه

ويقول أبو تمام :

ينال الفتي من دهره وهو جاهل	ويكدي الفتي في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا	لمانت إذا من جهل من البهائم

وقال بشار :

هي الشريف يشين منصبه	وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ما حضرت به	ولربما ضرر الفتي كذبه

وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق  
ومن التعليقات الطريفة قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب  
وقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الفتي فالسيل حرب للمكان العالي (١) .

---

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطلا إذا خلا منه ، والعطل : التجرّد من الخلق .

وقال العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيراً      وجزى الله كل خير لسانى  
نم دمعى فليس يمكنكم شيئاً      ورأيت اللسان ذا كتمان  
كنت مثل الكتاب أخفاه طي      فاستدلوا عليه بالعنوان

(هـ) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت في اللغة العربية ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها في الألفاظ . . . وإن كان للامتزاج آثار سيئة ، مثل شيوع اللحن والعجمة واللكنة في الألسنة ، حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لا يحتاج به ، كما كان يحتاج بالشعر القديم .



## الطابع الثقافي للعصر العباسي الأول

- ١ -

في العصر العباسي الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) ازدهارا كبيرا، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العربية وآثارها، في العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء وكتابهم الفارسيين، ونقل المثقفون - من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين؛ وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون، حتى قال ابن خلدون: إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج الجفنين في الحياة الاجتماعية وتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩١ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عني المنصور م ١٥٨ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلاته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار

---

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٢١٣ : ١ البيان والتمييز للجاحظ، ٤٩٧ فهرست لابن النديم .

لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (١)، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢)، وكذلك فعل الرشيد، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك (٣).

وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهي مكملّة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة، فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بيئة (٥). وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً؛ أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية، وليس لهم ثقافة، وبعد أن تعلموا العربية لم ينفخ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان.

وكان الإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر، كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات (٦).

- 
- (١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩-٢٣٣ الأدب العباسي لمحمود مصطفى، ١٧٧ وما بعدها ٢٦٤ و٢٦٨-٢٧٠: ١ ضحى الإسلام).  
(٢) ٢٤١: ٤ وما بعدها مروج الذهب.  
(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون.  
(٤) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمود مصطفى.  
(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد. (٦) ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام.

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معاني الأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل هذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيرا . . وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للنواصب العالية ، والدرجات الرفيعة .

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التي تنفقت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا فضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفصل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسوام - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وغالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجاة والذكاء وسمعه التفكير وخصب الخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحاً منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذي بدأ فيه بناء الحضارة ، وزاغت فيه ألوان الثقافة ، وقامت بقيامه حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول و ظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وفي أوائل العصر العباسي الأول تغلبت نزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل ما يستطيع وفي آخره وهو عصر النفوذ التركي انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة كـ محمد بن أبي الليث في مصر ، وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له (١) .

ومراكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر ، وتفاوتت الشام في الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة في العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والسكندی بهريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ السكندی المشهور ، وأبو موسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهاني مؤلف الأغاني ، وسوام من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخرا بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حائلا

---

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليتيمة للثعالبي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلاسفة . . وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكيك واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، ويشور ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » ، على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصدافته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة	وإلا ببستان وكرم مظلّل
ولست تراه سائلاً عن خليفة	ولا قائلاً : من يعزلون ومن يلى
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة	ينظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب	ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلاً	يقلب في اصطربالابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره	وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهاراً بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعز بهم العقل الإسلامى .

وقد نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسى كثير من أئمة العلماء :

- (١) واشتهر على بن جور الفارسى - وكان كاتباً مترسلاً ذا علم بالنجوم - بادخالها في شعره ( ٢٩٣ معجم الشعراء ) .
- (٢) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها ( راجع ٤٠٢-٤٠٦ ج ١ ضحى الإسلام ) .



(أ) وفي التشريع الإسلامي نبغ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠ هـ ، والكرائسي م ٢٤٥ هـ ، والزعفراني م ٢٦٠ هـ ، وداود الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) ، وإسماعيل ابن إسحاق قاضي بغداد ٢٨٢ هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ هـ ، والحرثي م ٢٨٥ هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨ - ٢٩٧ هـ) ، ومحمد بن داود الظاهري م ٢٩٧ هـ .

(ب) وفي التصوف : المحاسبي ٢٤٣ هـ والبسطامي م ٢٦١ هـ وسهل التستري م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ هـ ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ ، ثم الحلّاج وقتل عام ٣٠٩ هـ ببغداد .

(ج) وفي علوم اللغة والأدب : مصعب الزبيري م ٢٢٦ هـ ، والتوزي م ٢٣٨ هـ ، وأبو العميث م ٢٤٠ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥ هـ ، والمازني م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ ، والزبير بن بكار م ٢٥٦ هـ ، والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرّج م ٢٥٧ هـ ، والأشناندي م ٢٥٧ هـ ، وعمر بن شبة م ٢٦٢ هـ ، وابنه أحمد م ٢٧٢ هـ ، والطلحي م ٢٧١ هـ ، والسكري م ٢٧٥ هـ ، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ ، والمبرد ٢١٠ - ٢٢٥ هـ ، ونعلب ٢٠٠ - ٢٩١ هـ ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧ هـ . وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ هـ ، والزجاج م ٣١١ هـ ، والآخر م ٣١٨ هـ ، ونفطويه م ٣٢٣ هـ ، وابن دريد ٢٢٢ - ٣٢١ هـ ، ثم ابن الأنباري وسواهم .

(د) وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠ هـ ، وثمّامة ابن أشرس م ٢٢١ هـ ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥ هـ) ، وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) ويحيى بن أكثم م ٢٤٢ هـ ، والعلاف البصري م ٢٣٥ هـ ، وابن الراوندي م ٢٤٥ هـ ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) ، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٢ هـ) ، ثم ظهر أبو الأحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٢٣ هـ) ، وقد استمر

المعتزلة في العراق يملكون ويدرسون على يدي الجبائي وتلميذه في الاعتزال:  
محمد بن عمر الصيمري .

(٥) ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطبيب  
م ٢٤٣هـ ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥هـ ، ومحمد بن موسى بن شاكر م ٢٥٩هـ ،  
والكندي م ٢٦٠هـ ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمي وهو مديع  
الحساب الهندي وأرقامه بين العرب ، والفارابي م ٣٣٩هـ ، ثم بعد ذلك  
ابن سينا م ٤٢٨هـ ، والغزالي م ٥٠٥هـ ، والرازي المتوفى ٦٠٦هـ وسواهم .  
ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم  
أثر في الفكر العباسي : حنين بن اسحاق ( ١٩٤ - ٢٦٠هـ ) ، وأبو معشر  
الفسكي م ٢٧٢هـ ، والبلاذري م ٢٧٩هـ ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام  
٢٧٨هـ ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢هـ ، والسرخسي م ٢٨٦هـ ، وثابت  
ابن قرة ( ٢٢١ - ٢٨٨هـ ) ، واسحاق بن حنين م ٢٩٧هـ ، والرازي م ٣١١هـ ،  
وسواهم .

## ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

- ١ -

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكاتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة في العلم ، الأصيلة في الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفشتت بها قرائنهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى لمملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها . ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فاليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفاضل ، كسقراط وأرسططاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم في الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب ، ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كدرسة الرها ، وقنشرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتباً في النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان مابور بن أردشير يبعث البعث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنوشروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاريين من اضطهاد «جوستنيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها . فازدادوا حباً لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحّة في الاستفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسي : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمراً ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما امتلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبية على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعزز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت في اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

- ٢ -

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئاً . اللهم إلا كناش أهرؤن في الطب ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذا ولع بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ، ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذاتمة في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في العصر العباسي الأول فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ - فالطور الأول : يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ ، حتى عام ١٩٣ هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، وانشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يوصله بما لديه من كتب الفلاسفة ، واستنخار لها مهرة الترجمة وكلفهم

---

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتهيين ، ٩٧ فهرست لابن النديم .

ياحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) . ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق ومآثر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزاري ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذهُ طبيباً له .. ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مودهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما في قواه من جهد وعزيمة ، فحضر إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل أسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد دار الحكمة ، التي كانت تحتوى نفائس الكتب من شتى اللغات ، وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور .

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كلمة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطي في الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرؤون هذه الترجمات ، ويتخذون منها أداة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويستخون سخاء قادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان التشجيعهم أبلغ

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودي .

الآثار في ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ - والطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمة العقلي والعلمي لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج الترجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أهبط وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلها ، ويخلو بالحكام ، ويأنس بمحاضرتهم .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون في العرب كبريكليس في اليونان ، وأوغسطس في الرومان ، فأنتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ؛ ومن المترجمين في عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم ، وقسطا ، وحبيش ، واصطفان ، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ - أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بأخلاقه المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فذشت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسماء والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت زوج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزرُوا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

١ — ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للبامون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطي إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني . ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب . ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للبامون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادي شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨ هـ . ومنهم : حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بختيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السيامة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .



٢ - ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقفع، وآل نوحخت، والحسن بن سهل، وجبله بن سالم، وإسحق بن يزيد، وهشام بن القاسم، وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة، من أشهرها: كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خدائنامه، الذي ترجمه كذلك ابن المقفع، وسماه كتاب سير ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير، والأدب الصغير، والدرة البتية، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان . ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً: عهد أردشير؛ وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانة (١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى ابنه سابور ترجمه البلاذري شعرا (٢) إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كليلة ودمنة (٣) . . . وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

٣ - ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منكه الهندي الطبيب الذي عالج الرشيد، وصالح بن بهلة الهندي الذي دخل بغداد في عهد الرشيد أيضاً، ونال شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء . . . ومنهم محمد بن إبراهيم الفزاري، وابن دهن .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسماء . ومما ترجم من كتب الأدب الهندي: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدبا في الحكمة، وكتاب السند هند - أى الدهر الداغر - في الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابراهيم الفزاري .

---

(١) معناه ألف خرافة .

(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست .

(٣) ١٣٦ الفهرست .

٤ - وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والسكندانية . وما نقل عن السكندانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب .. وسواهما من نفائس المؤلفات .

وقد عني المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أم ما ابتكره العقل اليوناني في العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئاً يذكر من آداب اليونانيين .. فإذا قرأنا نبت الكتب المترجمة نجدها تبعد في كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبي يوناني مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة مالمليونان والرومان من آثار أدبية عالية في القصص والنبيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات في علوم قريبة إلى الأدب كالنارخ والاسمار ، فهذا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب للروم في هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، ، مما تحفل به مصادر الأدب العربي ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيواز ، وعيون الأخبار . . . وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيناغورس وسفراط وأفلاطون وأرسطو . يروي ابن النديم أن علي بن رزين النصراني نقل كتاباً في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . : وهذه

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست . (٢) ٣١٦ الفهرست :

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف  
منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافظاً على ترجمة بعض  
ما يؤثر منهما إلى العربية . بعد تجريدتهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلبسهما  
من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف  
العربى ، وليس فيهما ما ينفّر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان  
شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء في البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن  
بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى  
القديم ، كالأساطير والملاحم والتشيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة  
وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلا بآذة هوميروس ، ولا ما شابهها من  
الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً  
عن نقلها الى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى في الترجمة إلى العربية بأن العرب  
كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون  
آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين  
على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ،  
وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل في هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب  
المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم في صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر  
في كتابه الممثل السائر ، أن الشعر والخطابة في الأدب العربى لم يتأثرا  
بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتابته بما  
ذكره علماء اليونان في حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا  
في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به  
صاحب الكلام العربى شيئاً (١) .

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلام كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، في الأدب والشعر ؛ فهم في غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل مام في حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسي على العموم قريب من ذوق العربي كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والآداب الفارسي في مجلته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب « المثل السائر » : إني وجدت العجم يفضلون العرب في الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفرس في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه . وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أنصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر .

ولم يجد المترجمون حائلاً يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانوا يلقبون الكثير من ألوان أن التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أمهم ، التي تمجّد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأجداد وأبطالهم المغاير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتكون مادة للمفاكهة والسمير .

وفي هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليوناني في الأدب العربي . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الأدب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الأدب اليونانية .

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ، ففوق تعريب العرب الأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياة وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات الكاذبة .

فضلاً عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أثراً لها ، أمدت اللغة والآداب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لابد أن يكون لها بعض الأضرار التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ - كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال الكون والبناء للجهول وصوغ المصادر الصناعية ، مثل الكيفية والكمية والذاتية والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية ، وكثرة الفصل بالضمير الغائب ، وسوى ذلك مما أوردت الألسنة لكثرة ، والأساليب عجمة ، والمنطق التواء ، والملكات ضمهفاً ، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً .

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوخ الأسلوب العلبي ، واستحداث أصحاب كل علم لغة تأليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها ، وصعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه.. وهذه المصطلحات كثيرة متعددة : ففي الفلك والرياضة نجد : المرصد والزيج والتعديل والمخروط والدائرة والمثلث والمربع وفي الطب نجد : الصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد والسوداء والصفراء . وفي الفلسفة نقراً : الجوهر والعرض والتصوير والتصديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية والماهية والهوية واللا نهائية .. إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت حتى وضعت لها معاجم خاصة ، منها كليات أبي البقاء ، وكشاف اصطلاحات الفنون ، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ .

## التأثير الأجنبي

### في اللغة العربية وآدابها

كان امتزاج العرب بالعجم ، وما نشأ عنه من آثار ، وما ذاع بسببه من أفكار ، خطره الشديد ، ودو به البعيد ، في البيئة الإسلامية العربية .. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج ، وترتب عليه ، ترجمة العلوم المختلفة ، من شتى اللغات ، إلى اللغة العربية كما فصلنا .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء

والأدباء والشعراء شغلا كبيراً ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليسكونوا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التي تنقفت بها عقول المستعربين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا انضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرنس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وعالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلاً من الزواج بالأمميات ، ويعدونهم عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا في هذا العصر على الزواج منهم ، لما رأوا من وفرة جلالهم ، ونجاسة أولادهم ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون في التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله ، فهاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه وأقبلوا عليه .

فليس عجيباً إذن في هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها في الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحاً منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما في عصر بني أمية فكان أثره قليلاً محدوداً ، لقلة الاختلاط ، وأنفة العربي من الزواج بالأعجميات ، ونفور العربية من الزواج بأعجمي ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان فحول الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لا يزالون يعيشون في بلاد العرب ، أو قريباً من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالي لا تزال تكون نفسها في اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد فضحت بعد مواهبها وملكانها الأذنية .

فلما جاء العصر العباسي ، وبدأ بناء الحضارة ، وزادت ألوان الثقافة . وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهاراً كبيراً في هذا العصر ، سواء علوم اللغة أو الدين أو الأدب أو الفلسفة ، وتلافت بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، تلاقت هذه الثقافات المتعددة ، وكان لكل ثقافة منها شعبة وأفصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها .



## الثقافات الأجنبية وأثرها في اللغة والأدب

### - ١ -

أولى هذه الثقافات الأجنبية هي الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ؛ وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكرسة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم ، لحمايتهم من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية في لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأميرة بن أبي الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالأدب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور - وهو فارسي قديم - تعلم في الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشئ منصب الوزارة وجعل في الغالب وفقاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس في نشر ثقافتهم وآدابهم والتسكين

لمعارفهم في البيئة العربية ، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتسكين من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب ، ويجعله ملحوظ المسكينة مرموق المنزلة . فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم في الحكم وطرائقهم في السياسة ، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه .

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى السكتاب : « واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم » ، وقال الرشيد للسكسائي معلم بنيته : « روناً من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند » .

وأصبح للثقافة الفارسية في بغداد والحواسر العربية مقام كبير ، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والسكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التسكين لها وإشاعتها ، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية .

ويظهر أثر الثقافة الفارسية في لغة العرب فيما يلي :

١ - الألفاظ الفارسية التي عربت ونقلت إلى العربية ، وهي كثيرة لا حصر لها ، مثل الفالودج لما يسمى عندنا « باللودة » ، واللوزينج (١) ، والجوزينج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز ، والسكاخ وجمعه كواخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويحفف ، والطباجة (٢) طعام من يعض وبصل ولحم ، والسكباخ لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكببا وسك بمعنى خل وبابمعنى طعام ... إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة .

---

(١) في اللسان : هي من الحلوى شبه القطائف .

(٢) هو اللحم المشرح في القاموس ، وفي شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : هو السكبا ، وفي اللسان : ضرب من قلى اللحم .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ النمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار لخرقة حلوة ، قال الأخطل : « حمرأ عيونهم من المسطار ، وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور (١) والسنبج ، والخشنشار لطير الماء .

ومثل : الدار صيني ومعناه شجر الصن ، والجلسار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوستان و « بو » معناها راحة و « ستان » معناها موضع ، والكرويا ، والتوت ، والأذريون لنور أصفر معرب أذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاد به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطرلاب (٢) . والزيج لخط البناء ، والمهندز ، والزنبق ، والإكسير ، والمغنطيس ، والزنيخ . وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود ومعناها صدر العود لشبهه به - وبر بمعنى صدر - ولحم الزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت (٣) لما توضع فيه الثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما في شفاء الغليل ، وفي القاموس المحيط : هو الجرة ذات العروة ، والبهارستان لموضع علاج المرضى وبهار معناه مريض واستان موضع . إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية العربية .

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريف موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد ونما في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

---

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين . . وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدولار

٢ - قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ - ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ - كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد السكاك وبني المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد للمولدين في الشعر .. وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير ما في بلاغات العرب والفرس جميعاً من معانٍ وخيالاتٍ وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً لم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى وأروع ما في أدب الفرس من معانٍ وأخيلة فتعددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنق في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والاختزال بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص في هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،

ومثله كثير من أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل  
ابن هارون والفضل بن سهل وسوام ، من كان لهم فضل كبير في رقي الأساليب  
العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعاني  
والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع  
ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعاني الفارسية ترشد العربي إلى أمثل  
طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور  
الفارسية ، كان كسرى أبو شروان مشتهراً بالترجس ، وكان يقول : « هو  
ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة      مركبة في قائم من زبرجد  
كأن بقايا الطل في جنباتها      بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على  
كرسي زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات  
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها      زمرد وسطه شذر من الذهب  
فاشرب على منظر مستطرف حسن      من خمرة مزه كالجر في الذهب

وكان ابن الرومي يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربياً.. ويقول  
بزرجمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تنفى ، وإذا أدبرت عنك  
فأنفق فإنها لا تبقى ، فقال الشاعر العباسي :

فأنفق - إذا أنفقت إن كنت موسراً      وأنفق - على ما خيلت - حين تعسر  
فلا الجود يفي المال والجد مقبل      ولا البخل يبق المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالي  
مشوبة بالمسكاره ، فانتصرت على الخول ضناً بالعافية . فأخذه العتابي فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الاساود (١)  
وكان العتابي الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعاني والأخيلة ،  
وسئل لم كتبت كتب المعجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب المعجم ،  
فالبلاغة لنا والمعاني لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته : « التفضيل بين بلاغتي العرب  
والعجم » : « للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس » .

٢ - هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس  
وانتشار الثقافة الفارسية ، كالآداب القصصية ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ،  
وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لاننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من  
ضعف الملامك ، وكثرة العناية بالبديع الذي يحول دون البساطة والاعتماد  
على الطبع .

- ٢ -

وثانية هذه الثقافات هي الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية  
وانساب جيوش العرب المظفرة في كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم النخعي  
السند في عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٩١ هـ .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من  
الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم  
العربي ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة  
بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التي كانت  
قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

---

(١) الحيات العظيمة .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والآلات  
والنحت ، وبالحكمة ، التي كان الهنود معدنها ، وبالألهيات والرياضيات .

ويقول القفطي في أخبار الحكماء ، (١) : الهند هم الأمة الأولى ،  
كثيرة العدد . نعمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز في  
فنون المعرفة كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة  
وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا ، فلم  
يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكي بعض الأطباء من الهند أمثال منحه .  
ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا في الحرب ووزعوا على  
الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ، كأبي عطاء السندی الشاعر ،  
وكان الأعرابي العالم اللغوي المشهور ، وسواهما .

وللهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في  
البلاغة والأدب . . قيل لبهله الهندي : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في  
ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأتق من  
نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . فترجمت فإذا فيها ما ترجمته  
و أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ،  
ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام  
الأمة ولا الأمة بكلام السوقة . . الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا  
بالهنود في الفلك . .

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير  
الجميل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من نصيدة طويلة :

(١) ص ٢٦٦ المراجع . (٢) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء  
لك مكر يدب في القوم أخفى من ديب الفناء في الأعضاء  
وأظن اقتراسك القرن فالقرن من منايا وشيكة الإرداء  
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء  
تقرأ الدست ظاهراً فتؤدي به جميعاً كأحفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية في لغة العرب كان ضئيلاً يتمثل في هذه  
الألفاظ الهندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والابوس ،  
والبيغاء ، والخيزران ، والاهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات  
والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها في أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص  
والحكم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم في  
الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأنت مهذار  
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار  
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظرة في علم الطبائع لأن الهند تزعم  
أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً .

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود في الفلك قول أبي نواس في الخمر :

تخيرات والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون  
أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك  
وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت  
إليه قامت القيامة .



وظهرت كذلك آثار هذه الآراء في غير الشعر ، يقول ابن قتيبة :  
قرأت في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفع منه ، وشر الإخوان  
الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرى . ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب  
ولا أمن . . »

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

وثالثة هذه الثقافات هى الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية  
فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون  
الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت السكسب الفارسية المترجمة  
الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان  
وعلمهم وفلسفتهم وحكمتهم (١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات  
اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية فى لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة  
عربت مثل : « البرجد ، وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد ، والياقوت ،  
والزمرد ، والقيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللويبا ، والترمس ،  
والجائليق ، والبطريق .

ومثل : إيساغوجى بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهى السكليات  
الجنس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة  
والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون .  
إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التى لا عد لها .

---

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز :  
الاسكندرية - حران بالجزيرة - جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذا أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معاني جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلى في نقل بعض الحكايات والأسفار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعاني الفلسفية فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر .

وبهنا أن نقرر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه لما أسلفنا .

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة في الدولة العباسية استلزمت أن تسند بالعلم ، ومنها الرغبة في استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأفطار المفتوحة ، فكان لابد أن تنقل علوم هذه الأفطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون ..

## الشعر في العصر الأول

تمهيد :

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نصجت معاني الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلي ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن نخنى رأسها للعواصف الجارحة التي تهدم من صرحها الشاهق ، أو توزع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وإن سارت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل (١) ، لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها ، وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني (٢) وطرافة التقسيم .

---

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبي - ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى - ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام - ٢٤٤ الزيات .

(٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيرا من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفا لا يمدو تلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر ، وهذه القصص الهندية التي أروع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككلمة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللحن والمجون ووصف الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيرا بنزعات الفرس ، وعنه نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككلمة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعرا وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعتابي وأبي نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهرا بالترجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوت صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد  
كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)  
وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على  
كرسي زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات  
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

---

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .  
(٢) وينسب البيت الأول لعلي بن الجهم ( ٢٣ ج ٢ ديوان المعاني ) قال  
أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على  
كرسي زبرجد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب  
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجر في اللهب

وأخذ ابن الرومي معنى حكمة إهرام جور (١) فنظمه شعرا (٢). وكان من الفرس كبار الكتّاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) في الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارا واسعة في أغراض الشعر ومعانيه، وأوزانه وتوافيه، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسماهم، مما ظهر أثره في الأدب العربي واضحاً. وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً في المسادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان في عهد بني العباس أثرهم أعمق لافى الأسلوب البياني، بل في التفكير والخيال. وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التناقض في النثر والشعر، وطابت الرفة والدمامة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم وأخبار الزهاد فيه، وبتأليف الكتّاب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكمال والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الزمان بوضوح.

(١) فارسي قديم تعلم العربية في الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازي في كتابه المعجم: إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذ عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر.

(٢) ٢٧٨ هـ وما بعدها زهر الآداب.

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيأ في نفوسهم الشعور القومى ، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعوبية ، تنفس عن غيظها المسكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان ما أثرهم ووزرى على العرب بتللس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخرمى ، ومميار ، وفى السكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والمهشم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد ابن يزيد الأموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصية الجنسية بما عالجها فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر فى اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وبعد ذلك العصر استمر الأدب فى النمو والازدهار على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية فى تشجيع الأباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب .

وانغماس الأدباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهاها الخليع ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع جوانبها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مبادئها الوضيعة ، وملأ شعرهم بالتمحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون فى صراحة مكشوفة ، وعزى فاضح ، وابتدال مهن ، ومن

---

(١) الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى .

شاء فليرجع إلى الأغاني ، أو يتيمة الدهر ، أو دواين كثير من الشعراء ، ليستطلع ذلك في شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، واللبة بن الحباب ، ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وحسين بن الضحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب في الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا في نفث لبعض الشعراء والعلماء ، وفي كثير من شعر أبي العتاهية ، وفي كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال . . وكذلك قسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها في كتب المقامات ، قصصا للكادحين ، بحتالون على العيش بالمسكر والخداع ، وفي أدب المحرومين ، سخطا على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان . واضطراب نظام الحكم ، وفساد أداؤه ، لم يعدم من ينعي عليه ، ويندد به ، أو من يروم علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبهت عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا في الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالي وامتزاجهم على الوجه الذي بيناه ، من ظهور الموالي وقوة نفوذهم . فهم الذين أثروا في المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائلة ، وحضارتهم الزائلة ، وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ، وقد تنبه إلى شيء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه ، وهذا أبو حيان التوحيدي يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين ، وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم في مساورة الملوك وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان . . ألا ترى أن الحال استعالت عجماء كسروية وقيصرية ؟ هذا الريبع - وهو حاجب المنصور - يضرب من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكو ذلك إلى أبي جعفر المنصور ، فيقول : أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله في السنة ، وهي الجامعة للأدب النبوي والأمر الإلهي ، ولكنها العزة بالإثم ، وقد سمو آيين العجم أدبا وقدموه على السنة التي هي ثمرة النبوة .

### تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - كان الشعر - ولا يزال - صورة المجتمع في كل بيئة ، ومرآة الحياة في كل عصر ، وسجل الأحداث في كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا زى الشعر في كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانعكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره ومصره ، فهو في الجاهلية ديوان العرب الذي يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجدة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحاسة وفنوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرأه فتجد في صفحته صورة البادية ، بوغورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة هضابها ، وتري فيه الرمال والكشبان والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما تری أى شيء آخر .

وهو في ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب لدواعيها ، وتتحوّل أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثراً ببيانها الحسّيم ، وتجاوباً مع ما أتيح للدولة من حظ في الحضارة ،



وما استجد من شئون في السياسة ، وما طرأ من عمران وعرفان . فتراه قد غاض في العصية ، وجال في السياسة ، وصال في المدح والهجاء ، وأيد وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد في ميادين المجدين ، وتكشف في محارب الزاهدين ، وتبذل في مواطن الغزل والمجون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيراً عن منهجه الجاهلي ، لأصالة العروبة ، وقرب العهد بالبداوة ، وقلة الخط من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالآعاجم ، والارتفاع عن خلطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ، إلا بمقدار ما سمح به التبغير الطارىء في مناهج الحياة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة . وهو في جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدد الأشجان ، وتنهت العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

٢ - وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المرنح يخلق في آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصرآ ، وينبت من القفر زهراً ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخوصاً وأوانس ، ويصور من البعر المتناثر لآلى وجواهر ... فما بالك به في العصر العباسي ، والحضارة في الأوج ، والمدنية في القمة ، وللطبيعة في جلوة ، والأرض في زينة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر متجددة ، والعمران في عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) في ديار الآعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندججوا فيهم كل الاندماج . ولهؤلاء ألوان من الثقافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق وأشتات من العادات والتقاليد . . فكان لهذا كله أثره في نفوس الشعراء ، كما كان له أثره في نفوس العرب جميعاً . ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة مالم يألوه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

موتقة ، وتلك مجالس مفاكمة وسمير ، ومجالى منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويغذيه ويشيره وينميه ، ويجعله يخلق فى أرحب أفق وأعلى سماء . كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدينة . وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة فى قصورهم . ولهذا رأينا الشعر يخلق فى كل أفق ويفرد فوق كل فنن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحباب ، ويشاكر السمار ، ويساجل الأوتار ، وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال وهكذا انتقل من الصحارى المجردة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض والقصور والزهور ، والجداول المترقرة أو المروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والنعيم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تخرج لهاته خشونة الحياة ، ويخلق شدوه لفح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحاً ، وابتدع أفاين الشدو والغناء وما العصر العباسى إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون فى الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطباع حياة ، ثم يستحير شبابه ، ويكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما : عبث شباب ، وأغانى طرب ومظاهر ترف . . . (١)

وظهر فى هذا العصر تياران فى الشعر لكل منهما خصائصه ومميزات : تيار الشعر البدوى بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر الحضري بما يتميز به من سمات وخصائص . . .  
وستفصل الحديث فى بعض الأسباب لتطور الشعر فى هذا العصر . .

---

(١) الزيات فى تاريخ الأدب العربى ص ٤٧

## عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ - كان الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً ، جرى في عروقهم دم العروبة ، وتواصلت ملكتها ، وسحرتهم بلاغتها ، ورأوا في الشعر مجدهم التليد وغرهم تقديم ، فحرصوا على روايته وإحيائه ، واهتزت أريجيتهم اسماعه وإنشاده ، وخلق أفئدتهم القول الرائع ، والبيان الفائق ، واحتلبت عطاياهم المدح الجيد ، واثناء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء ، وفرضوا لهم في بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلوات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم اكتسب بالشعر للعيش والكفاف ، إلى الثراء الواسع والغنى السابغ واختزان المال ، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيناهم يقشرون الثروات الواسعة . ويسامون الملوك في المنزلة ، ويساون ذوي اليسار في نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور والضياع .

قالوا : إن سلماً الخاسر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغاني أنه كان يأتي باب المهدى على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الثمن ، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبي حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما يصل إليه ، وكان يتساجل في الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريع الغواني ، وكان البحترى ملياً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبيده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لانكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء وما كانت تستدره رقام السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والارتياح لإنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر في ابنه جعفر ؛ فتستبد اللوعة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته في أهل بيته أشد من لوعته في ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبي ذؤيب : « والدهر لا يبق على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع . فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك كان المأمون ، وسياق من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يعرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أخرج المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذي حدث من نقض نفقور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه . فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذي أعطيته نفقور فعليه دائرة البوار تدور  
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أنك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقله وكان الرشيد شاعراً كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا في

النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائله .  
يروون أن الرشيد قال في قينة :

تبدى صدوداً ونحفي تحته مقه      فالنفس راضية والطرف غضبان  
يا من وضعت له خدى فدله      وليس فوقى سوى الرحمن سلطان  
وقال في رثاء جارية :

فارقت عيشي حين فارقتها      فما أبالي كيفما كانا  
قد كثر الكلام وليكتفى      لست أرى بعديك إنسانا  
وقال في جواربه الثلاث : سحر وضياء وخنث :

ملك الثلاث الأنسات عناني      وحللان من قلبي بكل مكان  
مالي تطاوعني البرية كلما      وأطيعهن وهن في عصياني  
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى      وبه قوين أعز من سلطاني  
أما الذي لاشك فيه فهو أنه كان أدق حساً ، وأتقى ذوقاً ، وأصح فهماً  
وبصراً به من سواه ؛ ولقد أنشد النعماني يوماً في صفة فرس :  
كأن أذنيه إذا تشوفا      قادمة أو قلماً محرقاً  
فقال له : دع كان ، وفل نخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشعر نوح بقوله :

أرض مربعة حمراء من آدم      ما بين إلفين موصوفين بالكرم  
هذا يغير على هذا وذاك على      هذا يغير وعين الحرب لم تتم  
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمركة      في عسكرين بلا طبل ولا علم  
ومنزلة مثل بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحترى في عصرهم معروفة  
بما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب  
بنهضته ، بل لقد كان الكثير من الأمراء وأبناء الخلفاء شعراء مجيدين ،

من مثل إبراهيم بن المهدي وعبد الله بن المعتز وغيرهما ، ويفيض الصولي في قسم من أقسام كتابه الأوراق ، في ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من الشعراء ، ويقال إن المهدي حفظ شعر ذي الرمة في صباه ، ولولديه جمع المفضل الضبي مختاراته « المفضليات » .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع الذوق الأدبي باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، مما كان له أثره في زيادة العناية بالشعر والشعراء في هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر ونذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعي (١) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأحمر (٣) يأتیان بشاراً (٤) ؛ فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ؛ فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هي التي بلغتكما ، قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ؛ قالوا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

- 
- (١) عبد الملك بن قريش الإمام في اللغة والأدب ، توفي عام ٢١٦ هـ وتجد الرواية في الأغاني : ص ٤١ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ١٠ وفي المفتاح ص ٧٥ .  
(٢) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفي عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفي في أواخر القرن الثاني الهجري .  
(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفي عام ١٨٠ هـ .  
(٤) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفي عام ١٦٧ هـ .  
(٥) قائد من كبار القواد المشهورين في بدء عهد الدولة العباسية .

بكرا صاحبى قبل المجير إن ذاك النجاح فى التبكير (١)

حتى فرغ منها . اقال له خلف : لو قلت يا بامعاذ . كان : إن ذاك النجاح  
بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بذيتها أعرابية وحشية ، فقلت :  
وإن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح)  
كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ،  
قال : فقام خلف فقبل بين عينيه ، فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر  
من أبى عمرو بن العلاء — وهم من فخرلة هذا الفن — إلا للطف المعنى فى  
ذلك وخفائه ؟ (٢)

ولم تكن السياسة وحدها هى الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به  
والتأدب بأدابه وتعرف أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يدنون مجالس الشعراء  
ويأمنسون بهم فى خلوتهم ويقترحون عليهم نظمهم فيما يحول بخواطهم ويسألون  
العلماء به عما يستغلق من المعانى ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد  
يصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل  
الصعلوك أين مذهبى ، فلم يعرفه أحد وكان الأصمعى مريضاً فأرسل إليه  
إسحاق الموصلى وبعث به ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لأبى  
الغشناس وصدره ( وسائله أين الرحيل وسائل ) من قصيدته :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه  
والرشيد مز أكثر الخلفاء بحثاً فى الشعر ، سأل أهل مجلسه مرة عن معنى  
قول الشاعر :

---

(١) البيت تجده فى الدلائل ص ٢٢١ و ٢٤٣ وفى المطول ص ١٠٢ وفى  
المفتاح ص ٧٥  
(٢) راجع ٩٦ و ٩٧ : شرح الإيضاح للخطيب القزوينى بقلم محمد عبد المنعم خفاجى

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولاً  
فتجادل الأصمعي والسكسائي ولجا بين يديه في الخصومة وكان رأيه الفاضل  
بينهما ... وأعطى الفضل خانما قيمته ألف وستمائة دينار مكافأة على أحسن  
بيت قبل في الذنب .. وكان المأمون على غراره ، ولما ابن الجهم ولاية من أجل  
بيت طلبه فوجده عنده ، وكان المأمون يباليغ في إكرام الشعراء ويعفو عنهم  
وإن تطاولوا عليه ، دخل إبراهيم بن المهدي غضبان فقال للمأمون : ما بك ؟  
فقال نال مني دعبل ، فقال : لك في أسوة أما سمعت ما قال :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد  
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

فقال : زادك الله حلياً يا أمير المؤمنين ، وذهب عن إبراهيم الغضب .

ولم يجتمع على باب أحد من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشد  
من الشعراء ويشبه بهما سيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد ، وإذا  
ذكر المحبون للشعر المثنويون عليه العارفون بمكانته المميزون لجيده ورديته  
فاشد بالبرامكة وآل سهل وآل طاهر .

وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتكمون في أموال الخلفاء  
ويفرطون في الدالة عليهم ، ويشفعون فيما لا زجى الشفاعة فيه ، فيفكون  
رقاب العناة ويجيرون من الموت ويدخلون بين الخليفة وخاصته ، وكتب  
الأدب مليئة بأخبارهم ؛ وقد بلغ من تأثير الشعر في البيئة الاجتماعية أن  
نقصوه على جدران المنازل والأندية وفصوص الخواتم وصدور المجالس  
وطرزوه على الستائر والطنافس ، وعلى الأفداح والكاجات وسائر آنية  
الذهب والفضة والأعلام والمصائب ، وزينوا به أبدانهم فكاتبوه بالحناء  
على الحدود والأقدام ، وكان المجتمع العربي كله أصبح ذا نفس شاعرة ملهمة ..



٢ - وهذه أمثلة لعناية الخلفاء بالشعر :

(١) عناية الخلفاء العباسيين في هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبادلامة أقبل على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدا يا آل عباس  
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكمو إلى السماء فأنتم أظهر الناس  
وقدموا القائد المنصور رأسكو فالعين والأنف والأذنان في الرأس

فهز أريحته ، وأنساء حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شيء نجد أن  
نعينك ؟ قال أبادلامة : تملأ لي هذه الخريطة دراهم ، فملئت فوسعت أربعة  
آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء ببابك وهم  
كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني  
منكم فلا يصفني بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هي دوية متنتة  
تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب .  
فن كان في شعره هذا فلينصرف فانهصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذي  
دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة يبيض من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل  
إذا ما أتى شيئا مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل  
فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .  
وهذا ابنه المهدي (١) يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

(١) كان المهدي يعجب برائية زهير ويقول : ذهب واقه من يقول مثل هذا  
٢٠٨ : ٢٠٨ البيان والتهمين للجاحظ ط الخانجي ،

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله  
لقد بسط المهدي عدلا وثائلا كأنهما عدل النبي وثائله

فقال: أما ما ذكرت من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي غايى هذا .  
وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحديه ، وإنى لأتجرأه جهمدى ،  
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده :

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بنى العباس  
شدت مناكب ملكهم بخليفة كالدهر يخط لينه بشماس  
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده :

أفتى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى  
هذا الخليفة جوده ونواله نفس السؤال وجوده لم يتفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا ، ودخل عليه ابن الخياط فدحه ،  
فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى  
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

فلما بلغ المهدي ما فعل أعطاه بكل درهم دينارا .

ودخل مروان بن أبي حفصة على الهادي فأنشده في مدحه :

تشابه يوما بأسه ونواله فما أحد يدري لايهما الفضل

فقال له الهادي : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفا أم مئة ألف تدور  
في الديوان ؟ قال تعجل الثلاثون ألفا وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان  
لك جميعا ، فحمل له ذلك .

وروى الصولي عن سعيد بن مسلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله لامهـ

بشيء ، رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السعدي ينشده في مدحه :  
ياخير من عقدت كفاه حيزته وخير من قلده أمرها مضر  
فقال الهادي : إلا من ؟ وياك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعنى من أهل  
هذا الزمان ، فذكر الشاعر فقال :  
إلا النبي رسول الله إن له فضلاً وأنت بذاك الفضل تفتخر  
فقال ، الآن أصبت وأحسنيت ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١)

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر  
كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ،  
ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه لحن الملاحين الذين كانوا يتغنون  
في دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو في السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه  
ليصلح من ألسنتهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً في الوعظ والتذكير بتقلب  
الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر  
بإطلاقه من السجن . فكان الرشيد يبكي وينتحب إذا سمع هذا الشعر  
الذي كان منه :

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجروح
هل لمطلوب بذنوب	توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قروح
سبب المرء يوماً	جسداً مافيه روح
بين هينى كل حى	علم الموت يلوح
كلنا في غفلة وال	موت يغدو ويروح
نح على نفسك يامس	كأن إن كنت تنوح

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٦ و ١٧٧

لتموتن وإن عمر ت ما عمر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بها دون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المراث  
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر  
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر  
فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعتة . وأمر له بعشرة من رقيق  
الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلي لما ولي الخلافة واستوزر يحيى بن خالد ، فقال :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها  
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها  
فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدني ثلاثة أبيات في المدح  
والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده في المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أنهى غاية الجود  
وأنشده في الهجاء :

قبحت مناظرهم خين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبس الخبر  
وأنشده في الرثاء :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً ممدحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى  
المتوكل . دخل عليه علي بن الجهم ، ويديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة  
فرمى إليه بكرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهي والله خير من مائة ألف ؟

قال : لا ، ولكنى أفكر فى آيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل      تغرف من بجره البحار  
المملك فيه وفى بنده      ما اختلف الليل والنهار  
يرجى ويخشى لكل خطب      كأنه جنة ونار  
يداه فى الجود ضربتان      عليه كلسهما تغار  
لم تأت منه اليمين شيئاً      إلا أنت مثله اليسار

فرمى إليه بالدرة الأخرى (١) ، ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان  
ابن أبى حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجد      وباجبذا نجد على القرب والبعد  
نظرت إلى نجد وبغداد دونها      لعل أرى نجداً وهيات من نجد  
ونجد بها قوم هواهم زيارتى      ولا شئ أحلى من زيارتهم عندى  
فلما أتم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة  
من الظهر ، حتى أنطقه بالشكر فى قوله :

تخير رب الناس للناس جعفرأ      فلكم أمر العباد تخيراً  
فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عى ولا تزد      فقد خفت أن أطنى وأن أنجبوا  
قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، ولا تبرح أو تسأل  
حاجة ، فسأله ضياعاً كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .  
ودخل عليه البحرى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ،  
فقال له : قل فى هذا يا بحرئى : قال البحرى ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى  
اعتزلت جانباً ، فقالت :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٦

ذات ارتجاس بجنين الرعد      مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)  
مسفوحة الدمع لغير وجد      لها نسيم كنسيم الورد  
ورقة مثل زفير الأسد      ولمع برق كسيوف الهند  
جاءت بها ريح الصبا من نجد      فانتثرت مثل انتشار العقد  
فراحت الأرض بعيش رعد      من وشى أنوار الربا في برد  
كأنما غدرانها في الوهد      يلعبن من حباها بالترد

فقال المتوكل : انظروا ماذا في الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه  
إلى البحرى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

(ب) ولم يكن عطاء الدولة وولاتها وأمرؤها أقل اهتماماً بالشعر، أو بذلا  
للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك  
وسام الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم . فقال بشار :

حذا خالداً في فعله حذو برمك      فجد له مستطرف وأصيل  
وكان ذور الآمال يدعون قبله      بلفظ على الإعدام فيه دليل  
يسمون بالسؤال في كل موطن      وإن كان فيهم نابه وجليل  
فسام الزوار سترأ عليهمو      فاستاره للجدتين سدول

فأمر له خالد لكل بيت ألف درهم . وكان يعطيه في كل وفادة خمسة  
آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء والقواد والرؤساء والعظماء  
والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقي الشعر ،  
وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون باليمن وبالشمال ، ويتخرقون في هذا العطاء

---

(١) الارتجاس : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة  
والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلباً .

حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنعون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا في أخبار هؤلاء ، وتبعنا عطاياهم الجسام ، وصلاتهم التي تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلاً على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف في مثوبتهم ، حتى صارت لهم منزلة لاندانيتها منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إسمائهم ، ويغضون عن أذاهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلاً هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجز      أو مارأى بالأمس رأس محمد  
إن الترات مسهد طلابها      فاكفف لعابك عن لعاب الأسود  
إني من القوم الذين سيوفهم      قتلت أخاك وشرفك بمقعد  
شادوا بذكرك بعد طول نخولة      واستنقذك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد الخزرمي ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أناذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل غر علينا ، فاغتر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلاً ، متى كنت خاملاً ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفي مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي      إمام الهدى والصفح بالناس أجمل  
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة      وعفوك من نور النبوة يجمل  
فإنك خير السابقين إلى العلا      ولا شك في خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدباً ، وأمر بإطلاقه والعفو عنه .  
وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاء الشعر ، وما أعظمه من جاء عند  
هؤلاء الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان  
من أبي تمام حين شفع للوائق عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :  
فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار  
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بدون سوار

### مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الإجلال ، ويحلوهم  
من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه  
المنزلة ، فلا يكتفون بما يسد رمقهم ، أو يغني حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء  
ويغرقونهم بالثراء ؛ ويفعمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم  
لا بد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم  
بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب ترنخ أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهتز  
أريجيتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر - كما كان لغيرهم من رجال الفن  
والأدب - مجالس يتفاكهون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغريب  
من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ،  
ويستجيدون الجيد ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة  
الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ،  
واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل  
والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التي أولاهم  
الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء في هذا العصر .



وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر في هذا العصر :

١ - قالوا إن المنصور ركب يوماً هجينا في وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال لمن حوله : إني قاتل بيتا ، فن أجازته فله جيتى هذه . وقال :

وهاجرة نصبت لها جيتنى      يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)  
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى      على خدى وأفصر واعظاية  
فتزع المنصور جبته وهوراكب ، وأعطاها له ، فباعها بأربعمائة دينار .  
٢ - وعقد المهدى يوما مجلسا لمرwan بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمداً      لرأفته بالناس للناس والد  
على أنه من خالف الحق منهمو      سقته به الموت الختوف الرواصد  
فأشار إليه فأمسك ، فقال يابنى العباس ، هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم ، فأتوه مايسره . فأعطاه موسى ابنة خمسة آلاف درهم ، وأعطاه هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفا ، ثم قال له : وسيايتك منى ما يؤدبك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ما سآزداد به شعرا .

٣ - وكان الهادى مغرما بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو ابن معد يكرب الزبيدى ، عقد مجلسا للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من ييد      ن جميع الأنام موسى الامين  
سيف عمرو وكان فيما سمعنا      خير ما أغمضت عليه الجفون

---

(١) العظاية : دربة صغيرة ملساء تشبه سام ايرص .

أخضر اللون بين حديه برد      من زعاف يمس فيه المنون  
فإذا ماسلته بهر الشمس      من ضياء فلم تكسد تستبين  
مايسالى من انتضاء لحرب      أشمال سطت به أم يمين  
يستطير الأبصار كالقوس المش      مل ما تستقر فيه العيون  
وكان الفرند والجوهر الجا      رى على صفحته ماء معين  
فمنه عشرين ألف درهم .

٤ - وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ،  
لأنه كان عالماً شاعراً أديباً ، ذاحس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب  
وغرام بالشعر ، كما كان أجزل الخلفاء عطاءً ، وأبلغهم تأثيراً وتقديراً ؛  
وهو الذى شق عليه امتناع أبي العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمتيه  
حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح فى رده عن هذه الحال ، أمر بضربه  
ستين عصاً ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ،  
ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد  
وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية فى امرأته :

من لقلب متيم مشتاق      شفه شوقه وطول الفراق  
طال شوقى إلى قعيدة بيتى      ليت شعرى فهل لنا من تلاق ؟

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين حصاً ، ستين ألف درهم .  
ودخل عليه أعرابى فأنشده ، فقال : يا أعرابى أسمعك مستحسننا ،  
وأنكرك متهماً ، فقل لنا بيتين فى هذين - الأمين والمأمون - فقال : يا أمير  
المؤمنين حملتنى على الوعر القرد (١) ، وأرجعتنى عن السهل الحدر ، روعة  
الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافى على البدية ، فقال الرشيد : قد جعلت

---

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض .

اعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ،  
وسهلت ميدن السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبد الله ثم محمد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها  
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تسكن مسألتك دون إحسانك  
قال : الهنيدة (١) يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن إسحق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعي  
والكسائي ، فسأل الرشيد عن بيت الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعي وتهانف (٢) ،  
فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه  
دخل في شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام . فقال  
الكسائي : ماهو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للإحرام ؟ قال الأصمعي : نخبروني  
عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بلبيل محرما فتولى لم يتمتع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم  
يأت شيئا يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي ما نطاق في الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده  
وابسط له في البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ،  
مقصر آ عن غده . فقال الرشيد : يأسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

---

(١) الهنيدة : مائة من الإبل .

(٢) التهانف : ضحك في فتور واستهزاء .

ومن الحديث أصح وأبلغه ، ومن البيان أفصح وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بني لؤى      وأنت اليوم خير منك أمس  
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً      كذاك تزيد سادة عهد شمس  
هـ - ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فهما للشعر ، وبصرأ بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحاً في مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً      بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً  
فلم يطرب المأمون ، ولم يسخ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعامة بن عقيل : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عماره : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إننا لنشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولي . فقال عماره : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، وفي يدها مسابحها ! فن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه      ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أني أخطأت .

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون في سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد - بفتح السين - من هوز ، قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا زوج الرجل المرأة لديها وجمالها كان فيها  
سداد بكسر السين - من عوز ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ،  
وقال يانضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم ، لأن السداد بالفتح  
لحن ، قال أو تلحنى . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال  
فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد في الدين والسديل ، وبالكسر  
البلغة وكل ماسددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟  
قلت : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد نغر

قال المأمون : قبح الله من لأدب له ، ثم أمر لي بخمسين ألف درهم ،  
ودفع لي الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

٦ - واجتمع الشعراء في مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن  
أن يقول مثل قول منصور النيرى في الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع  
إذا رفعت امرأ فاقه رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع  
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفع  
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الجيرى : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر  
فالشمس تحكيه في الإشراق طالمة إذا تقطع عن إدراكها النظر  
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجاً إذا استنارت لياليه به الغرر  
فهش له وبالغ في جائزته :

٧ - وكذلك كان المتوكل في مجالسه ، والبحترى يصول فيها ويجول :

ولقد شهد أبو عنبس الصيمري بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس المتوكل والبحترى ينشده :

عن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتكم  
حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم  
والمجتدى بن المجتدى والمنعم بن المنتقم  
أسلم لدين محمد فإذا سلكت فقد سلم.

وكان البحترى من أبض الناس إنشاداً ، وأشد هم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لي : أما تسمع ما يقول يا صيمري ؟ قلت بلى ياسيدي ، فرني بما أحببت قال بحياتي : اجمه على هذا الروي ، فقلت :

أدخلت رأسك في الرحم وعلت أنك تنهزم  
يا بحترى حذار ويحك من قضاقة ضغم<sup>(١)</sup>  
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم  
فبأي عرض تعتصم وبهتكم جف القلم  
وبحق جعفر الإمام م ابن الإمام المعتصم  
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم  
لجعل المتوكل يضحك ، ويصفق يديه ، وخرج البحترى غاضباً .

---

(١) قضاقة : جمع قضاقر وهو الأسد ، ضغم : جمع ضيغم وهو الأسد .

## المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا في العصر العباسي وتأثروا بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربي وأم أعجمية ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ؛ وقد يطلق لفظ المولدين على ما يطلق عليهم لفظ المحدثين من شعراء العصر العباسي وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد ويختلف المناظر فيه .

والمولدين حسناتهم وسيئاتهم أما حسناتهم فيمكن أن نعدّها فيما يلي :

١ - تدارلوا معاني المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ - واخترعوا معاني جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ - وكسوها أسهل الكلام وأعذبه على اللسان وأخفه في السمع وألصقه بالقلب .

٤ - وفتحوا في الأدب العربي فتحاً جديداً بزيادتهم في أغراضه التي جعلته أدباً رفيعاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عالياً يهذب النفس ويصقل الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ما تضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجالي الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ - ولهم في باب الخيال الشعري الصور الرائعة التي تسحر النفس وتجعل عن الوصف وحسبك أن تستعرض ما مر بك في فن البيان لتدرك بدائع خيالهم وتعلم ما قدمه المحدثون للأدب العربي من حسنات ومن محاسن المولدين .

٦ - براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج لنظام حديثهم وجودة

صنعتهم وعليتهم بأنهم مواطن إذا وفيت حقها من التجويد استمالت الاسماع  
إليها وعطفت القلوب عليها . ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتي على قدر الكرام المكارم  
الرأى قبل ثجاعة الشجعان      هو أول وهى المحل الثانى

على أنهم لم يسلوا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً ترجع إلى  
اللحن فى الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنهم يسهلون كلامهم حتى  
يصيروا به إلى الساقط السوق وأن لهم معانى غامضة متناقضة واستعارات  
بعيدة أو سقيمة ينفو عنها الذوق وأن فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك  
المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والزويق لا تأدية للبراد  
وأنهم قد تدعوهم شهوة الإغراب إلى التشبه بالأعراب فيخلطون بكلامهم  
الراقي العذب وأسلوبهم السهل الممتنع الألفاظ الغريبة ، والحق أن هذا  
تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه الهفوات ولكن العلماء بالغوا فى  
الاحتياط لهم والاعتذار عنهم بضروب من التخرج تكشف عن المقابح  
دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس بين      فإن أطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسمع المتأخرين ما وسمع المتقدمين كنا باغين فى الحكم مجاوزين  
حد الإنصاف وقد يقال إن المتأخرين أهل تجويد وفقه فى اللغة وعرفان  
للطرود والشاذ فكان عليهم أن يجنبوا كلامهم ما يهجنه وللقاتل وجه ولكن  
يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء فى كثير من الأحيان على حكمها .



## ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة : الحضارة ، والغناء ، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية .

١ - أما تأثير الحضارة في ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الواضح ، فقد تغيرت الحياة العربية في هذا العصر الذهبي تغيراً ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة في جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها ، وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون في اللباس ، ويفتنون في الطعام ، ويزخرفون في المسكن ويتصنعون في كل مظهر . فلم يعد مسكنهم بالخيمة التي ترفع عمدتها ، وتشد أطنابها في رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف مزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتقايق بالثريات ، وبالقرب منها ، قصور الخلافة بسقوفها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهاتها العامرة ، ولياليها الساهرة ، وقيانها المفردة ؛ ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه في صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١) ، كما يحلون أواني الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس في قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاير فارس

وكذلك كان تأنيقهم في الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء ، والنساء يلبسها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومي يشبه بها قوس قزح فيقول :

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً  
على الجو دكننا والحواشي على الأرض  
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر لآثر مبيض  
كأذيال خود أقبلت في غلاثل مصبغة والبعض أقصر من بعض  
وكن يحاين الرؤوس بحلى من الذهب، ويزينها بالعصابات المنضدة،  
ويحاكي الفارسيات في صمغ الشفاه والحدود.

هذه الحضارة الزاهية بألوانها، ومظاهرها، وما فيها من جمال وتجميل  
وزخرف ووشى، وصنعة وتصنيع، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة  
الفنية الخاصة، كما يقول ابن خلدون: وعلى مقدار عمران البلد يكون  
جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها، بحيث تتوفر  
دواعي الترف والثروة (١)، وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة، وكان  
الشعر دائماً أكثر تأثراً، وأسرع استجابة المدنية والتحضّر، لأنه المجال  
للظرف والتأنيق، والمصور للحسن والجمال، والمخلق فوق الطبيعة بأجنحة  
الخيال. والموضوع الأول للحن والغناء، ومن مظاهر تأثير الحضارة  
في ألفاظ الشعر وأسااليبه. ما يلي:

١ - رقت ألفاظه وعذبت، ولانت تراكيبه وسهلت، حتى كاد كل  
منهما يسيل رقة حاشية، وأناقة مظهر، وعذوبة مخرج، وسهولة بيان.  
فهجرت الكلمات الغريبة، ووضحت الأساليب، وأشرقت ديباجة الكلام.

قال البحترى:

مخلف في الذي وعد	سيل وصل فلم يجد
وهو بالحسن مستب	سد وبالذل منفرد
يتشنى على قضيد	ب ويفتر عن برد

قد تطلبت مخرجا من هواه فلم أجد  
ضاق صدرى بما أج ن رقبى بما وجد  
وتغضبت أن شكرو ت جوى الحب والسكد  
واشتكأتى هواك ذى ب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام فى وصف الروض :

إن الريع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان  
مصوراً فى صورة الإنسان لكان بساما من الفتیان  
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان  
تختال فى مفوف الألوان فى زهر كالحدق الروانى  
من قاقع وناصع وقان عجت من ذى فكرة يقظان  
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شىء فان

ألست ترى أثر الحضارة فى رقة اللفظ وصفاته ، وسماحة الأسلوب  
وبهائه ، وسجاجة الكلام وإشراقه ؟ . وقد اجتمع مسلم بن الوليد  
وأبونواس وأبو الشيص ودعل فى مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منكم  
أجود ما قال ، فأنشدهم أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم  
أجد الملامة فى هواك لذبة حباً لذكرك فلتنى اللوم

فقال أبو نواس إنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً (١) . ويحدثنا ابن  
رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً  
فقال أبو نواس ، لينشد كل منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، فأنشد  
أبو العتاهية :

يا إخوتي إن الهوى قاتل فيسروا الأكفان من عاجل  
ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنتى في شغل شاغل  
عني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالوا : أمامع سهولة هذه الألفاظ  
وملاحظة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا ننشد شيئاً (١) .

وهكذا لان عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلمهم فرقت عباراتهم .

٣ - وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وما ازدان  
به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس لهو وشدر ، أن  
خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف  
الشعراء عن هذا النحو الذي يذكروهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة  
وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إلياس . ذكروا أنه  
اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ،  
فقال مطيع :

لاحسن من بيد يحاربها القطا ومن جلي طي ووصفك صاعدا  
تلاحظ عيني عاشقين كلامهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما في قوله :  
قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماضر لو كان جلس  
وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجمل صفاتك لابنة الكرم  
وقوله :

تبكى على طلل الماضين من أسد      لادر درك قل لى من بنو أسد  
لاجف دمع الذى يبكى على حجر      ولاصفا قلب من يصبو إلى وتد  
وقوله :

دع الرسم الذى دثرا      يعانى الريح والمطرا  
ألم تر ما بنى كسرى      وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الجملة أثرها فى الشعراء ، فكان منهم من استبدت به  
نشوة الراح ، وصرعته حميا الأفداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم  
من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالغزل ، ومنهم من بهره جمال  
الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشبها  
وروائها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفاتحة موضوعه . وإنا لنرى  
أبتمام بمدح المعتصم ، فيقدم بين يدي هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل  
الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كعروس تلتنى فى حليها ،  
وتتكسر فى زينتها :

رقت حواشى الدهر ففى تمرمر      وغدى اثنى فى حليه يتكسر  
من كل زاهرة ترقق بالندى      فكانها عين إليك تحدر  
تبدو ويحجبها الجيم كأنها      عذراء تبدو تارة وتخفر  
حتى غدت وهداتها ونجادها      فثنين فى حلل الربيع تبخر  
أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال فى وشبها وزينتها ورقتها !

٣ - على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى  
أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمياً آخر غير  
ذلك كله . فجملوا المطلع دالاً على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع  
القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو نخامة ، وسهولة  
أو جزالة . ومن ذلك ابتداء أبى تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعي وإن كان أسما وأصبح مغنى الجود بعدك بلقما

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يقض ماؤها عذر

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء ، باشتماله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٤ - وسرى زخرف الحضارة ووشىها ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر فظهر المحسن البديعي ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك ؛ وقد كان أول أمره ساذجا واضحا في شعر مسلم وأبي نواس والبحترى ، ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غص من جمال شعره ، وما زال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز . ومن ثم حدثت عن الصنعة عند المحدثين في بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من سمي هذه المحسنات بالبديع ؛ كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده يرمى الفوارس والأبطال بالشعل  
(يفتر) عند (افترار) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل  
موف على (مهج) في يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقرا هذا الطباق الذي يعد أهم لون كان يستخدمه البحرى . إنه

طباق لا تعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداعى  
المعانى ، لأمشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر      وفى ذل وفيك كبر  
وما سواء إذا التقينا      سهل على خلة ووعر  
قد كنت حراً وأنت عبد      فصرت عبداً وأنت حر  
أنت نعيمى وأنت بؤسى      وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ،  
يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجاً غريباً  
حتى يكسد الذهن فى فهمه ، ويتعب العقل فى إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من نحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :  
رعته الفيافى بعد ما كان حقبة      رعاها وماء الروض ينهل ساكبه  
فلا تجد طباقاً عادياً بين رعته ورعاها ، إنه يعير يعرى الفيافى وترعاه  
الفيافى ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا      يياض العطايا فى سواد المطالب  
واقراً له فى المشاكلة :

أظن الدمع فى خدى سيدى      رسوماً من بكائى فى الرسوم  
وكذلك كان جناسه يتكىء على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف      وتمثل بالصبر الديار الموائل  
فقد سحبت فيها السحاب ذيلها      وقد أخملت بالنور منها الخمائل  
وكذلك ( التدبيج ) فى مثل قوله :

كان سواد الليل ثم اخضراره      طيا لسة سود لها كف خضر

وهكذا كان أبو تمام يغرب في المحسنات إغرابه في معانيه ، حتى إنها  
لنستنفذ منه جهداً شافاً ، إذ يغرقها في استعاراته وتصويره ، فيجلبها الغموض .

ومن مطرف الجناس قول البحترى :

فإن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه الأحباب فتح وريحك فيه للأعداء حتف

ب - وأما تأثير الغناء في الشعر في هذا العصر فهو أشد وضوحاً . فقد  
كان للغناء - وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة - أثره في انتقاء ألفاظ  
الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندمجة فيها ، وقد استجاب  
الشعراء للمغنين ، فظلموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، ونخروا  
لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة  
القصيرة ؛ وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائى المذهب الرقيق ، واحتفل  
الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل  
مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذي يقول  
عنه صاحب الأغاني : « لولا أن العباس أحقق الناس وأشعرهم وأوسعهم  
كلاماً وغاطراً ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ويجوده » .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون في الغناء الحاناً  
فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذي  
سنحدث عنه فيما بعد . كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً - في شعرهم الغنائى -  
الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثروا  
من البحور المجزوءة التي تلائم الغناء .



ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر في الشعر بوجه عام، غنائياً كان أو تقليدياً، من حيث الموسيقى الداخلية، التي تعني اختيار الكلمات وترتيبها والمشكلة بين أصواتها ومعانيها. ومن الممكن اعتبار البحترى أربع شاعر يصور هذا الجانب. قال الباقلافي: «إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً» (١) . . . وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظاً عذبة، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي (٢). اقرأ له في رثاء المتوكل، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة؛ لأنه نثر غاضب كأن لها قفقهة السلاح؟ وكيف ربط القوافي بالهاء الساكنة. فصورته ينطق بالكلمات والمقاطع، ثم ينخفض لجأة كالنائح المتعب:

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تناوره  
تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادى الجعفرى وحاضره  
تحمل عنه ساكنوه لجأة فعاتد سواء دوره ومقاربه  
ولم أنس وحش القصر لإذريع سربه  
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره  
وإذ صيح فيه بالرحيل فهشكت على عجل أستار وستاره  
واقراء له:

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا وأعاد الصدود منه وأبدى  
يتأبى منعاً، وينعم لإسعا فا، ويدنو وصلا، ويبعد صدأ  
أغتنى راضياً وقد بت غضبا ن؛ وأمسى مولى وأصبح عبداً  
وبنفسى أقدى على كل حال شادناً لو يمس بالحسن أعدى  
مرجى غالباً فأطمع فى الوص ل وعرضت بالسلام فردا  
وتى خده إلى على خو ف فقبلت جلناراً وورداً  
سيدى أنت ما تعرضت ظلماً فأجازى به ولا خنت عهداً

(١) إيجاز القرآن ١٠٦ ..

(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أتراني مستبدلاً بك ما عشت بدليلاً أو واجداً منك ندا  
حاش لله أنت أفتن الحاشية ، وأحلى شكلاً ، وأحسن قدراً

فأنت تراه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق في فن الصوت ،  
فقد كرر الجيم في الشطر الأول ، وكرر الدال في الثاني ، فأحدث في البيت  
الأول توافقاً صوتياً ، وفي البيت الثاني يوفق بين الألفاظ ، فيأتي بكلمة  
( يتأني ) كأنها مشدودة إلى ( ينعم ) بهذا الرباط المحكم ( منعاً ) ، وعلى هذا  
التحوي في شطره الثاني . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويبعد ووصلا وصدا .  
ثم انظر إلى إقبال كل كلمة أختها في البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة  
واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما في الآيات من  
طباق وتقسيم ومقابلة ، وما في قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد  
الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعون بالنطريز ، وهكذا تجد  
الجوانب الموسيقية الممتدة (١) .

ج - أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيراً في ألفاظ الشعر وفي  
أساليبه في هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر  
الأجنبية التي لها ثقافتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها .  
كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره في ألفاظ الشعر إلى جانب  
آثاره في نواحيه الأخرى :

١ - فقد شاعت في الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت  
وصقلت ، وربما كان بقاءها على حالها للتطرف والتفكك ، على نحو ما كان  
يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشى إذا ماشق يرفى

(١) راجع الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ٥٦ .

إن رفاهك هذا أحقق الأمة كفا  
فإذا قابل بالنصـ ف من (الجردق) نصفاً  
أحقق الصنعة حتى لا ترى مغرز إشقى (١)  
ويقول إبراهيم الموصلي :

إذا ما كنت يوماً في شجها فقل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)  
ويقول العماني في وصف من وقف بين الأساد :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد  
آلى يذوق الدهر آب سرد (٣)

أما ما صقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون ، أى لون  
النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول  
ابن المعتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية  
مداهن من ذهب فيها يقايا غالية

وكذلك نيزوز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ - كما شاعت في ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التي كانت  
تجرى على الألسنة في العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية  
ونحو ذلك . قال أبو نواس :

و ذات خد مورد قوهية المتجرد  
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفد  
فبعضها قد (تأهى) وبعضها ( يتجدد )

(١) الجرد في الرغيف معرب كردة : والأشقى المثقب .

(٢) الير لفظ فارسي معناه ملآن وهو بتشديد الراء .

(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها      كتلاعب الأفعال بالأسماء  
ويقول :

هب من له شيء يريد حجابها      ما بال لاشيء عليه حجاب  
فعبير عن العدم بكلمة (لا شيء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذوالجلال من (جوهر) المج      د وصاغ الأنام من (عوضه)  
كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفتية      لأن من لم يكن نداه (عموماً)  
ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن      ومغناطيس أفئدة الرجال (١)

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر في الاقتباس من  
المصطلحات حتى رأينا المتنبي يقول :

إذا كان ماتنويه فعلاً مضارعاً      مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم  
د - وبحمل الأمر أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج أثرت تأثيرها  
في لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعدوبة الكلام ،  
وسجاجة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة  
ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والإكثار منه ، والإكثار من النظم  
في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ

---

(١) الهيولى : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناصب بين أجزاء القصيدة .

قال الخاتمي : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتي انفصل واحد عن الآخر وباينه في محبة التركيب ، غادر الجسم ذاعامة تتخون محاسنه ، وتخفي معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصنائع من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الإتصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم ... » .  
أما الذي هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

### أوزان الشعر وقوافيه في هذا العصر

١ - حمل الغناء الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ؛ وابتداع أوزان أخرى تسير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعلها تليذه الأخفش ستة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التي تناسب الغناء : كالمتقارب والمزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزأوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزانا أوحى بها مزاجهم ، أودعها إليها فن الغناء ، فلمسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يا أيها المعمود قد شفق الصدود  
فأنت مستهام حالفك السهود

(١) راجع كتاب « البناء الفني للقصيدة العربية » ، للخفاجي .

وأخرى مطلعها :

نبيا به الوساد وامتنع الرقاد  
وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادي على جزء واحد :  
موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ؛ وكان  
أبو العتاهية مشغولاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع  
صوت مدقة ، فحكى ذلك فى الفاظ شعره :

للبنون دائرات يدرن صرفها  
ثم ينفقينا واحداً فواحداً

ولما روجع فى هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى  
لا أراه أتانى زائراً منذ ليالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب  
والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى (١) .

مثال المقتضب قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبى العتاهية :

أيا عتب ما يضر ك أن تطلقى صفادى

٢ - أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من  
دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

---

(١) الفصوا : والغايات ١٣٢

فالنوع الأول يشمل ما يلي :

١ - المستطيل ، وهو مقلوب الطويل ( مفاعيلن فعولن مفاعيلن  
فعولن ) مرتين :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ - الممتد ، مقلوب المديد ( فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن ) مرتين :

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حباً زاد مني نفورا

٣ - المتوافر ، محرف الرمل ( فاعلاتنك فاعلاتنك فاعلن ) مرتين :

ما وقوفك بالركائب في الطلل ما سؤالك عن حبيبك قدر حل

٤ - المتند ، مقلوب المجتث ( فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن ) مرتين :

كن لأخلاق التصابي مستمرياً ولأحوال الشباب مستحلياً

٥ - المنسرد ، مقلوب المضارع ( مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن ) مرتين :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداني

٦ - المطرد ، صورة أخرى من المضارع ( فاع لاتن مفاعيلن

مفاعيلن ) مرتين .

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

وأما النوع الثاني ، فته :

١ - السلسلة ( فعلن فعلاتن متفععلن فعلاتنان ) وهو من اختراعات

البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أو جال إلا ورماني من الغرام بأوجال

٢ - الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن ( دو )

بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه ( فعلن

متفاعلن فعولن فعلن ) :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار  
يانار أشواقى به فاتقدى ليلا ففساه يهتدى بالنار  
٣ - القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس  
للسحور في رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نسحر قوما) ، ووزنه  
(مستفعلن فعلان) ، ولغته ماحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه شديد  
ما زال برك يزيد على أقل العبيد  
ولا عدمننا نوالك في صوم وفطر وعيد

٤ - المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائماً وهو على  
وزن البحر البسيط ، وأول من نظم به بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبه  
الرشيد وأمر ألا يرثوا بالشعر ، فرثهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم  
ينوحون عليهم به ، ويكثرون من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الاسم ،  
وهو مشهور بين عامة مصر بالموالى . وهو على أنواع ، فقد يجىء مصراعاً  
كله ، وقد يختلف مصراع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه في  
المواويل البلدية :

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح هم فبن جدودك أبوك آدم وبعده نوح  
دنيا غرورة نجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحر وتروح  
٥ - كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات  
والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان  
للبر تجرى الجوارى فى البحر كالاعلام

٦ - أما الموشح فهو أندلسى النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن  
معاقر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ،  
ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى



ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة . ويسمون المتعدد منها بيتاً ، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي إلى سبعة أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها ( مستفعلن فاعلن فعيل ) :

يا جيرة الأبرق النيان هل لي إلى وصلكم سبيل

ومنها ( فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن ) :

كللى . . . . يا سحب تيجان الربا بالخلي

واجملى . . . . سوارك منعطف الجدول

٧ - وكذلك الرجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسموا هذا النوع الرجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان الأندلسي ؛ ولا حصر لأوزوانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :

الفراق نار والوصال جنة والخلايق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

٣ - ولقد تبع بعض هذه الأوزان - كما رأينا - تغيير طراً على القافية فلم تعد تلزم كما كان معروفاً من قبل ، بل دعاهم الإفلات من قيود الوزن ، إلى الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ما طرأ على القافية هو المسط والمزدوج والخمس .

١ - فالمسقط أن يبتدىء الشاعر بيت مصرع ، ثم يأتي بأربعة أقسمة

---

(١) المقدمة لابن خلدون .

على غير قافيته ، ثم يعيد قسمها على قافية البيت الأول ، وهكذا ، وربما خلا من البيت المصروع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لي شجنا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتها  
بذكر الله والطرب  
سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بخصرها كفل  
ثقل روادف الحقب

٢ - والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من أخرى ، وهكذا ، كقول أبي العتاهية :

حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت  
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا  
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله  
ما زالت الدنيا لنا أذى بمزوجة الصفو بأنواع "تذى  
إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب  
وهذه المزدوجة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة آلاف مثل .

٣ - والخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربعة الأولى ، ويتحد القسم الخامس مع خامس الأولى في القافية :

ورقيب يردد اللفظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا  
ساحر الطرف مذجنى الخدوردا إن يوما لناظري قد تبدى  
فتملا من حسنه تكحيل  
وتصد من خشمه في استباق يمنع اللفظ من جنى واعتناق  
أيأس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه : لا تلاق  
إن بيني وبين لقبك ميلا

## أخيلة الشعر ومعانيه في هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعها : المادى ، والعقلى ، فى أخيلة الشعر ومعانيه فى هذا العصر تأثيراً بالغاً .

١ - فاما تأثير الحضارة المادية في هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء فى مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدداً لا ينفد . وذخراً لا ينضب ، ومعيناً لا ينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانفسح مجال أخيلتهم (١) ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم ، ولابدع فهم يعيشون فى مدن تحفل بمظاهر الأبهة والزرف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ؛ وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالى الطرف والسمر وتشرق بمغافى اللهو والغزل والمجون . . ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض مترقرة الجداول ، هاتفة الأطيوار ، عاطرة الأجواء :

هذه الحضارة المادية خليفة بأن تفتق أكام القريحة ، وتفجر ينبوع الشعارية ؛ عسمة أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال . . ولما تسمتد التشبيهات

---

(١) للخيال شأن كبير فى الأعمال العقلية وفى الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرقى من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ولما كانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل فى تكوين المثل العليا ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيال الشعرى فى : التشبيه والمجاز والكناية وحسن التعليل والمبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد، وتتجدد بتجدد المناظر، وتتعدد بتعدد الصور، وإنما يخلق  
الخيال حين يتبها له الأفق الرحب، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .  
اقرأ أثر الحضارة في التشبيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود  
في حلتي حبر وروض فالتقى وشيان : وشى ربا ووشى برود  
وسفرن فامتلات عيون راقها وردان : ورد جنى وورد حدود  
ومحكن فاغترف الأفاحي من ندى غصن وسلسال الرضاب برود (١)

واقرا وصف أبى نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر  
أو سمر الفارس فيها فانسمر بين رياض مثل موشى الخبر  
مككلات بهار وزهر فانتدبوا في يوم قر وخصر (٢)  
إذ ذر قرن الشمس في غب مطر صوالجاً يصبو إليها من نظر  
فلم يعب طول ولا شان قصر وقد تنادوا فتراموا بالأكر  
أحكمها صانعها لما فطر ألطف بالإشفاء خرزاً إذ دسر (٣)  
فليس للإشفاء بالجلد أثر يحسن تفاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزدد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم  
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأفواء ثوب نعيم  
ولقد كان القدماء يشبهون اللحم بالجبال ويزنونه بها :

(١) أى لما ضحك ظهر أسنانهم كاللؤلؤ وقد امتلأ بالندى ، ندى  
الأسنان وريقها .

(٢) القر : البرد . وكذا الخصر .

(٣) فطر ، شق . الإشفاء . مخرز يشق به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلامنا تزن الجبال رزاة ونغسلنا جنا إذا مانجمل  
ولكن المتحضر غير البدوى، والحلم في بغداد وفي القرن الثالث الهجرى  
غير الحلم في البصرة وفي القرن الأول : فالحلم الحضري هو الذى يتسم  
لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد  
رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضري ،  
حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ماماريت فى أنه برد (١)  
وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها فى تنويع التشبيه ، وتعددا الاستعارة  
وتجديد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ - وأما الحضارة العقلية التى أتت للشعراء العباسيين ، والتى كانت  
نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها  
البالغ فى معانى الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ما امتازت به العقلية الأجنبية  
من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب  
المعاني ، وترتيب الأفكار ، وظهر أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث  
الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب  
والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال  
الخصب ، والفكر العميق . والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من  
التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ،  
ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .  
ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذى يهر المشاعر ،

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنثر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم  
في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول  
فإن للحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المنسق .  
وسوف نعرض بشئ من التفصيل لآم ماطر أعلى معاني الشعر وأخيلته ،  
من مظاهر التأثير بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ - التجديد في المعاني القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معاني  
السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحىه بينهم وحضارتهم ، وما يمل به تفكيرهم  
وثقافتهم ، وهوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإجمال  
والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم  
وألبسوها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة  
كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذروهم في مضمار التنافس  
والسباق .

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لا منجى منه ولا عاصم ؛ فيقول :  
فإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع  
فيجد الشاعر العباسي أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان  
ينبغي أن يأتي النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتي بمعنى مفرد ، وهكذا يقول  
سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حباثله      والدهر لاملجأ منه ولا هرب  
ولو ملكت غنان الربح أصرفها      في كل ناحية مافاتك الطلب  
ويقول البحتري :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن      ينجبهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول في ناقلته :

علام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلمهم وأما  
متى تأتي الرصافة تستريحي من الانساع والدبر الدوامي (١)  
فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الانساع والدبر ،  
أما أبو نواس فإنه يسخر في الجزاء سروراً بقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ،  
ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً  
من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام  
وكان الشعراء من قديم يصفون بمدوحهم بالبأس والظفر في القتال ،  
ويتخيلون أن الطير قد ألقت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم في كل غزاة ، وتخلق  
فوقهم في كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم خماًصاً وتروح بطاناً من  
لحوم الأعداء ، قال الألفه الأودي :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار  
وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب  
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب  
فقال أبو نواس :

تتأبى الطير غزوته ثقة بالشع من جزره (٢)  
فكان في إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شعبها سيكون

(١) الانساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . والدبر بفتح تين : قرح  
الدابة جمع دبرة .

(٢) تتأبى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحم أعدائه بقوله (من جزره) ثم إنه لم يكتف بتخليقها وقت الغزوة ، بل جعلها تتأبى الغزو وتتبعه ، أمام مسلم بن الوليد فإنه جعل مدوحه يعود الطير الشبع ، إنها لتتبعه في كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

قد عود الطير عادات وثقن بها فمن يتبعه في كل مرتحل  
ويجيء أبو تمام فيفصل هذا التفصيل .

وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل  
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقااتل  
فجعلها تنهل في الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقااتل ، وهذه  
زيادات لابد أن تقع في ذهن شاعر كأبي تمام يحلل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو نعيم حسبت الناس كلهمو غضابا  
فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فجعل مدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هي الناس  
كلهم ، على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبي نواس  
أبلغ وأعم وأبعد في المبالغة ، إلى أنه ميق مساق الحكم والكلمات الجامعة .  
ولقد قال المفضل بن غيلان قديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

فجاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سودد ولو برزت في زى عذراء ناهد  
فزاد في تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : « ولو برزت ... » فجدد

(٩٢ - ٢٢)



بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به ، وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة  
التلبد ، وتشعر بحسن تعرف العباسيين في المعاني القديمة ، حتى ليسكادون  
يستقلون بها ، ويستبدون بنفسيتها .

٢ - ابتكار المعاني ودقتها : أما المعاني الجديدة التي ابتكروها ابتكاراً  
واستنبطوها استنباطاً ، وخلفوها خلقاً ، فإنها تعي الحصر ، وتغلب العد .  
ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوعت  
بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ما جد في حياة الشعراء من  
طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية واردة ، وعادات طارئة ؛ ألهمهم  
جديد المعنى ، ومبتكر الخيال وكل ما وقع في أفكارهم من ثقافة وحكمة  
وفلسفة أكسبهم استقصاء المعاني في دقة وعمق تفكير ، ولهذا زخر شعرهم  
وامتلاأ أدبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا المدوح في حاجة إلى تعويذة ؟  
وما تعويذتها ؟ إنها نعمة الطالب ، وسؤال السائل :

تسكاد عطاياه بجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب  
وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ! :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً  
قالوا : بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وما رأيك في هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشر بها  
خوفاً من الخليفة ، كقعدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكما  
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطبق ألا يقبما  
ويقول أبو تمام في فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتغال النار فيما جاورت      ما كان يعرف طيب عرف العود  
ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة في نفوس سامعيه :  
في كؤوس كأنهم نجوم      دائرات بروجها أيدينا  
طالعات مع السقاة علينا      فإذا ما غربن يغربن فينا  
وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشي ، فيأتي بجديد ، ويغرب  
في التفكير :

يا واشياً حسنت فينا إساءته      نجى حذارك إنساني من الغرق  
ولا غرر فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :  
أما الهجاء فدق عرضك دونه      والمدح عنك كما علمت جليل  
فأذهب فأنت طليق عرضك إنه      عرض عززت به وأنت ذليل  
وأخيراً يقول ابن الرومي :

نظرت فأفصدت الفؤاد بلحظها      ثم انثنت عنه فظل يهيم  
قالوت إن نظرت وإن هي أعرضت      وقع السهام ونزعن أليم

٣ - استقصاء المعاني وتحليلها : ويتصل بهذه الدقة في معاني الشعر  
العباسي ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل ما يتصل به ،  
واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء  
إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم في القصائد طويلاً يلفت النظر ،  
ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع  
الافكار ، وتتابع المعاني بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا - وستأتي - أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله  
واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، يتجلى فيه المعنى  
الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها "عين من طول وصلها"      فأهجرها الشهران خوفاً من الهجر

وما كان هجراني لها عن ملامة      ولستكنني أمات عاقبة الصبر  
أفكر في قلبي بأى عقوبة      أعاقبه فيها لترضى فما أدرى  
سوى هجرها والهجر فيه دماره      فعاقبته فيها من الهجر بالهجر  
فكنت كمن خاف الندى أن يبله      فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وكان يكفي أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا : إن المعتصم لا يفتح  
عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ  
يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب      في حده الحد بين الجد واللعب  
يبض الصفائح لاسود الصفائف في      متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون بالبراهين  
والأدلة ، ويعرضونه في صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقبلونه على كل  
وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم  
العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أضعفتهم به الحضارة من وفرة  
المعاني والأفكار .

وما زالت هذه الظاهرة تشيع وتتسع حتى بلغت نهايتها - وقد تم التأثير  
بالثقافة والحضارة - في أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول  
طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعاني بالأدلة ، وعرضها  
في مختلف الصور ، وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومي لترى كيف  
استقرت هذه الظاهرة في شعره .

قال يحسن الحقد ويزكيه :

لئن كنت في حفظي لما أنا مودع      من الخير والشر انتحيت على عرضي  
لما عبتى إلا بفضل إبانة      ورب امرئ يزرى على خلق محض

ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها      بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى  
وخير سجايات الرجال سجية      توفيك ما تسدى من القرض بالقرض  
إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع      من البذر فيها فهمى ناهيك من أرض  
ولا الحقوق المستكنات لم يكن      لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض  
وما الحق إلا توأم الشكر في الفتى      وبعض السجايا ينتهين إلى بعض  
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة      ثم ترى شكراً على حسن القرض

٤ - قوة التصوير وبعد الخيال : وقد وجد الشعراء في الحضارة المادية  
ينبوعاً ثجاجاً للصور ، وأفقاً فسيحاً للخيال ، وأعانتهم الحضارة العقلية  
بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتساويرها الفنية ، على أن يأتوا  
بكل عجيب يهر به براعة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب  
في مطارح الخيال .

يقول بشار في وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى      وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)  
غدونا له والشمس في خدر أمها      تطالعنا والطل لم يجر ذائبه  
بضرب بذوق الموت من ذاق طعمه      وتدرك من نجي الفرار مثالبه  
كان مثار النقع فوق ره وسنا      وأسياقنا ليل نهاوى كواكبه

واقرا هذه الصورة الرائعة للهيئة من جلال الممدوح ، التي صورها  
البحرئى فاستوفى كل عناصر الإجلال والجلال ، وجمع كل ألوان العظمة  
والمجد ، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحدا  
إلا بإذن ، فلما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيئة ،

(١) الحصى : العدد الكثير ، الشوك جمع شوكة : السلاح ، الخطى : الرمح ،  
الثعلب طرف الرمح .

وغمره من جلال ، فانهتد لسانه وبهر جنانه ، ولا ينطقه إلا ما آتته من  
بمناة الممدوح ، وتهلل أساريره ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى  
في يده ، بل في يد امرئ كريم يحياه ، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرجت رجال من الباب الذي أنا داخله  
وأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله  
وسلمت فاعتاقت جناني هيبة تازعني القول الذي أنا قائله  
فلما تأملت الطلاقة وانثى إلى يبشر أنستنى مخايله  
دنوت فقبلت الندى في يد امرئ كريم يحياه سباط أنامله  
وسنقرا كثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة  
التصوير ، فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كأن فؤاده كرة ترامى حذار البين لو نفع الحذار  
يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار  
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنهما قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف ، وسمو  
الخيال . ونزود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما انتقينا واللوى موعد لنا تعجب رأتى الدر حسناً ولاقطه  
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الغموض فى الصور ، والإغراق فى  
التصوير ، والشرود فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الأشباح  
المتجهمة والصور القائمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولابدع فأبو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى  
أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . وإن كان البحترى قد تتلمذ عليه فإن  
طبيعته البدوية لم تسخ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوانب الظاهرة لاند برع الشعراء العباسيون في التصوير وتجسيم الخيال،  
وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى ترى  
الروض يتحدث ؛ والجماد يتحرك . ولكن أباتمام أوغل في ذلك التجسيم ،  
ولم يكتف بذلك ، بل ركب في الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة  
تعتمد على صورة ، والاستعارة تتسكى على استعارة ، وكل ذلك يلتف على  
ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جلل  
الغموض معظم صورته .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا	بدأ قالت الدنيا أنى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى	له تبعاً أو يرتدى الروض بالقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت	بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضاً :

ومعرس للغيث تخفق فوه	رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلها	لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى	وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التى يتلألأ البرق فى أطرافها بالرايات المطرزة التى  
تخفق بالريح . ولكن ماهذه الصورة المركبة فى الشطر الأول من البيت  
الثالث ؟ أمامسك الطل فهو رائحة الروض العطرية التى تكون بعد الطل ،  
وأما كافور الندى فهو الرشاش الذى يكون على أوراق الروض كالسكافور ،  
إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألواناً حسية ملموسة :

كان سواد الليل ثم اخضراره	طيا لسة سود لها كفف خضر
، لا تبعدن أبداً وإن تبعد فدا	أخلاك الخضر الربى بأبعاد

نهض ضوؤه واصبغ الدجنة فانطوى  
راحته غواني الحى عنك غوانيا  
لم يجهتها ثوب الظلام المجرع  
يلبسن نأيا تارة وصوددا  
واقرا هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا  
لدى ملك من أيكة الجود لم يزل  
فيه فغودر وهو فيهم أبلق  
على كبد المعروف من فعله برد  
سلوت إن كنت أدري ما تقول إذن  
جعلت أنمله الأحزان فى أذن  
تطل الطلول الدمع فى كل موقف  
ونمثل بالصبر الديار الموائل  
دوارس لم يحف الربيع ربوعها  
ولا مر فى أغفائها وهو غافل  
وأخبرا يقول فى وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا  
فكانه صبح تبسم عن  
ضحكت حواشى خده الترب  
سحر ضئيل فى ضحى شحب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير اشعري يستكمل  
كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المراتى  
المتعددة والمشاهد المتتابعة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد  
صقلت حسه ، وفتقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير ،  
حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره . وهذا ابن الرومى يسلط عدسة  
تصويره على أحذب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلاً ، وإنما يستوفى  
كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة ، فعنق الأحذب قصير لقصر  
أخدعه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع  
أن يصفع ، وذلك مما يزيد فى انكاشه خوفاً من الصفع بل كأنه صفع قبل  
ذلك ، فذاق ألم الصفع فهو لذلك أشد انكاشاً :

فصرت أخادعه وغاب قداله  
فكانه متربص أن يصفعا

وكأنما صفت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا  
أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ ... إنه فن التصوير عند ابن الرومي ،  
اقرأ تصويره لمغن قبيح الصوت :  
وتحسب العين فكيف إذا اختلفا عند التنغم فكيف بغل طحان  
وتصويره للبخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس بياق ولا خاله  
قلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

هـ - التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة : ومن الظواهر التي نلاحظها  
في الشعر العباسي تأثره في معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات  
المتنوعة التي اصطليح بها هذا العصر ، ولو ذهبنا تتبع هذه الظواهر لاطال  
بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن :  
يقول أبو تمام :

فلوصح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلناك ملهما  
والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .  
ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التي عمادها النجوم والرياضة ،  
في وصف الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار  
يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم  
يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ، ثم  
سيرها من هناك . ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأنت مهذار  
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار  
لا يوجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار



والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحاً في الحكم السكثيرة التي كانت تنقل عن الفرس ، حتى ليقال إنه اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً في الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكرنا من أن كسرى كان يقول في وصف النرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسي ، وقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد  
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خسد مورد

ويقول أبو العتاهية في الزهد والحكم :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا  
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر  
لا نخر إلا نخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر  
عجبت للإنسان في نخره وهو غداً في قبره يقبر  
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهي أعمق أثراً ، وأوسع مدى في معاني الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يراني نصب عيني بمثل بالأماني  
بأبي من ضميره وضميري أبدأ بالمغيب يفتجيان  
نحن شخصان إن نظرنا وروحا ن إذا ما اخترت يمزجان  
فإذا ما هممت بالامر أو هم بشيء بدأته وبداني

كان وفقاً لما كان منه ومنى فكأن حكيته وحكاني

ويقول أبو نواس في الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأها بقايا يقين كاد يذهب الشك

ويقول :

صفت وصفتم زجاجتها عليها كعنى دق في ذهن لطيف

ولقد حكى الأمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف:

وصالكموهجر وحبكمو قلى وعطفكمو صد وسلككمو حرب

وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكم صعب

فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) : ويقسم بشار إلى

على هذا النحو :

وعى الفعال كفى المقال وفي الصمت عى كفى السكلم

وتستمر في هذا التتبع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها

تسرى إلى المعاني ، فتجمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتي

بالغريب العجيب . كيف يهلك الشيء نفسه ؟ . يقول أبو تمام :

صغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب

وماذا تنتظر من أبي تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ،

والصحو مطراً . والمطر صحواً :

بيضاء تسرى في الظلام فيسكتسى نوراً وتسرب في الضياء فيظلم

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يطر

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير  
المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف      ف ولكن يلد طعم العطاء  
فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء  
بدون غاية مألوفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه  
الغربة غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يمجج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا  
إلى البراهين العقلية ، والأدبىة المنطقية ، يدعمون بها المعنى الغريب العميق ،  
ويقرّبونه إلى المألوف

قال بشار يشرح الإغضاء عن هفوات الصديق ، ويرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً      صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه  
فعلش واحداً أوصل أخاك فإنه      مقارف ذنب تارة ومجانبه  
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى      ظمئت وأى الناس تصفوه مشاربه  
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها      كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمر فى سماحة حاتم      فى حلم أحنف فى ذكاء إياس  
فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام  
هذا الدليل :

لاتنكروا ضرى له من دونه      مثلاً شرودا فى الندى والباس  
فالله قد ضرب الأفل لنوره      مثلاً من المشكاة والنبراس  
وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء في الحى مخلق      لدير اجتيه فاعترب تتجدد  
فأنى رأيت الشمس زيدت محبة      إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد  
ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا      إن السماء ترجى حين تحتجب  
ويقول البحتري :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا      فشا أناك انحدار وارتفاع  
كذاك الشمس تبعد أن تسامى      ويدنو الضوء منها والشعاع  
ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها      خلائق أصفار من الحسن خيب  
وحسن درارى الكواكب أن ترى      طوالع في داج من الليل غيب  
ولهذا شاع في شعرهم حسن التعليل ، وكثر في أدبهم كثرة ظاهرة .  
قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ      دى الرزايا إلى ذوى الأحساب  
فلهذا يحف بعد اخضرار      قبل روض الوهاد روض الروابي  
ويقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى      فالسبل حرب للمكان العالى  
وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لكلفهم  
بتحليل المعانى وشرحها ، فنجد ابن الرومى يطالع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل  
الإسهاب في الثناء والمدح هجاء للممدوح ويعلل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن  
المادح يرى أنه لا ينتزع عطاء ممدوحه بسمولة لبخله ، بل لابد من أن يطيل  
الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الحبل إذا استقى من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله      وأطال فيه فقد أطال هجاءه  
لو لم يقدر فيه بعد المستقى      عند الورود لما أطال رشاه  
ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولد  
وإلا فما يبكيه منها وإنها      لاوسع مما كان فيه وأرغد  
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه      بما سوف يلقى من أذاها يهد

٧ - كثرة الحكم والآمال : وقد شاعت الحكم والآمال في شعرهم ،  
اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً  
واستنباطاً ، وقد كان في شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها  
للعجم كما قلنا ، وكان لأبي العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن      برأى نصيح أو نصيحة حازم  
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة      فإن الخوافي قوة للقوادم  
وماخير كف أمسك الغل أختها      وما خير سيف لم يؤيد بقاءم  
وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل      ما يبلغ الجاهل من نفسه  
والشيخ لا يترك أخلاقه      حتى يوارى في ثرى رومسه  
إذا ارعوى عاد إلى جملة      كذى الضنى عاد إلى نكسه  
وإن من أدبته في الصبا      كالعود يسقي المساء في غرمه  
حتى تراه مورفاً ناضراً      بعد الذي أبصرت من يده

٨ - المبالغة والتهويل : وهي ظاهرة تشيع في شعر المولدين من خالطوا  
الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، والفرس غرام بالمبالغة وولع بالتهويل  
والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالاتهم في هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم ، دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاةهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها في المدح بنوع خاص ، طمعاً في جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغي ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو نزاحم المعاني وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحي التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ، وتسابق الشعراء وتنافسهم في ميدان الخطورة والعطاء .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشيء من التعقل والاعتزان ، حتى كان العصر التالي ، فجانب كل إمساك ، وجانت كل مألوف ، واندفع في تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطر بهم إلا التهويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النرى في الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع . الخ  
فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبولسحق والقدر  
وفها يقول :

فالخلق جسم له رأس يديره وأنت جارحتاه : السمع والبصر  
واقراء صف أبي تمام للمعتصم يوم عمورية ، وأعجب واطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفزعهم ، ونفسه وحدها جيش يغنيه عن قيادة الجيوش :

لم يفرز قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب  
لو لم يقد جحفل يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالرب ، وغزا بقوة الروح  
وبسالة العزيمة ، ويقول البحترى في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر  
فتجد مبالغة ولكنها في حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس  
في الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلي	وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يدينها للمعتقى بفنائهم	ثلاث كنقط انشاء من نقط الخبر (١)
إذا ماتن ادوا بالرحيل سعى بها	أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جنتها ملا عبيطاً جزورها	لا خرجت ما فيها على طرف الظفر

ويقول بشار الصنم :

إن في بردى جسماً ناحلاً لو توكت عليه لانهم  
ومهما يكن من شيء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التي  
ظهرت فيما بعد في شعر المتنبي وغيره .

٩ - تمحيص الأفكار وترتيبها : وأخيراً لقد تنبأ لشعراء هذا العصر من  
أسباب الحضارة والوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، ما نبى أذواقهم  
ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم  
محصنة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . اقرأ قصائدهم ولا تجد  
نبوا في الفكرة ، ولا خلا في المعنى ، ولا اقتضاباً في الغرض ، ولا  
اضطراباً في السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحداً وهيكلها سليماً ، وموضوعها  
متلاحم النسيج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيراً من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

---

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كنقط انشاء .

المعاني لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كما يتجلى لك فيها التخصيص والتعذيب من شغفهم بالغوص على المعاني واستيفاء عناصرها وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براعتهم في الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى « حسن التخلص » وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما في رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شروء أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته في مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الأمام وهديه المنتشر  
وكان أبواس يقول :

تقول التي من بيتها خف مركبي يعز علينا أن نراك تسير  
أما دون مصر للغنى متطلب؟ بلى إن أسباب الغنى لكثير  
فقلت لها واستعجلتها بواذر جرت فجرى من جريهن غدير  
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الخصب أمير  
فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الثابتات تدور

وقال مسلم في يحيى وجعفر :

أجذك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر  
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين بمدح جعفر  
وقال البحتري :

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد  
إذا راوحتها مزنة بسكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد  
كان يد الفتح بن خاقان أقبلت عليها بتلك البارقات الرواعد  
( ١٠٢ - ق ٢ )



وكان من مظاهر ذلك : العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام ،  
مشيراً المقصود ، كما في قصيدة « عمورية » ، لأبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب      في حده الحد بين الجد واللعب  
والاهتمام كذلك بختامها ؛ وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمماً  
للمعنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله      وهذا دعاء للبرية شامل  
وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

### أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذي يكتبه ، والافتقار الذي  
يظله ، والبيئة التي تنشئه ، والعصر الذي يعيش فيه . ولا شك في أن لكل  
بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع  
حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره في حياة الناس وأذواقهم  
وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقلب بتقلب  
الآزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، بالجهل  
أو العرفان .

وفي العصر العباسي تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ،  
وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت في المجتمع  
تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه انجهاً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم  
ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ - فمناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تنسق مع

مدنيتهم ، وقد وجدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخرُوا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتبكي الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخرته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً في نشوته وتعمره ، حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخمور يهذى ويسخر ، حيث يقول :

أعرشك الأطلال والمنزل القفرا      فقد طالما أزرى به نعتك الخمر  
دعاني إلى نعت الطلول مساط      تضيق ذراعي أن أرد له أمرا  
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة      وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

٢ - وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحى بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض في الدعابة والمجون ، والرمي بالآبنة والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

---

(١) ومنها نظم أبان اللاحق ( ٢٠٠ هـ ) لكليلة ودمنة ، وبعد كليلة ودمنة - من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويذكر الجاحظ في الحيوان الجزء السابع ما ورد في كليلة ودمنة من أمثال عن الفيل ( ٧ : ٩٢ الحيوان ) .

٣ - أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والثناء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسية والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتمويل . وسوف نعرض لمختلف أغراض الشعر في هذا العصر ...

### الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد - مع أنه عرض قديم - يكون كله إباحياً في هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفان المدنية ، ومقاسد الحضارة ، وتنتشر بحالي اللهو والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه الشبهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغالق الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذرى يموت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبدلوا في وصف المرأة ، وتعمهروا في الحديث عنها ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، وأخشوا في تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سواة . ألم يقل بشار :

أمتى بدد هذا نقبي      وشاحي حله حتى انتثر  
فدعيني معه يا أمتا      علناً في خلوة نقضى الوطر  
أقبلت مغضبة تضر بها      واعتراها بكجون مستعر  
بأبي والله ما أحسنه      دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتتح به القصيد ، اللهم إلا في القليل ، كعمرو بن كلثوم في معلقة التي بدأها بوصف الراح ، وكأبي نواس الذي دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطلول بلاغة القدم      فاجعل صفاتك لابنة السكرم  
وتبعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بمكاظ غومل  
غير الريح رسمه بجنوب وشمال

شهر امرؤ القيس في العصر الجاهلي بغزله واستهتاره وديبه ، وفي  
العصر الأموي عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده ، فهم  
موكلون بالجمال يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به ، كعمر ( ٢٣ - ٩٣ ) ، وهجیل  
وقيس بن ذريح وسواهم . وفي العصر العباسي اشتهر بشار الغزل ، وكذلك  
العباس بن الأحنف (١) ، ولحمدان بن أبان اللاحق قصيدة طويلة في وصف  
الحب (٢) ، وكان البحتری أرق الناس نسيبا وأملحهم طريقة لاسيما إن ذكر  
الطيف ودوالباب الذي اشتهر به ، ولم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن  
التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد (٣) .

وأسلوب الغزل يمتاز بجماله وسلاسته وعذوبته مما لا يصلح شيء منه في  
مواقف الجد وأوصاف الحرب ، وإن كان المتنبى يستعمل ألفاظ النسيب  
والغزل في ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرده به (٤) . . . ويشيع في الغزل  
التهاك وإظهار الصباية .

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر ( ١١٧ : ٣ الرافعي ) ، وكان  
شاعراً ظريفاً مفوهاً منطيقاً مطبوعاً ، وكان صاحب غزل رقيق ولم يكن يمدح  
ولا يهجو إنما كان شعره كله في الغزل والوصف ( ١١٩ طبقات ابن المعتز ) ويشبهه  
بأبي ربيعة ( ١١٩ المرجع ، ٨٣ : ٤ زهر ، ٣٣٥ الشعر والشعراء ، ٦٧ : ١  
العمدة ) وكان شاعراً مجيداً غزلاً ( ٩٢ خاص الخاص ) وأشاد به بشار وأبو  
نواس والعلاف ( ٨٣ : ٤ زهر ) ، وهو من أوائل الشعراء المجيدين ( ٦٧ المثل  
السائر ) ونوه دهل بقوله : هي الشمس مسكنها في السماء ( ٢٦٩ : ١ ديوان المعاني ) .  
( ٢ ) ٥٧ - ٦٢ الأوراق قسم أثمار أولاد الخلفاء .

( ٣ ) ١١٣ : ٢ العمدة .

( ٤ ) ١٦٤ : ١ اليتيمة .

ولابن المعتز مجال كبير في الغزل، والغزل في شعره فن تسرى الجودة والحياة  
والدمانة والرقّة والعذوبة في أعطافه ، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع  
ومملكة موهوبة ، ولا بدع في ذلك فقد أفعمت نفسه بألوان الجمال، وأشربت  
حبه ، وغذيت بمتعته وصباياه ولهوه ولذاذاته ، وكان لطيف الحس رقيق  
العاطفة ملتهب الإحساس والشعور يسقى شبا به الظامى من يذوق الحب  
المتفجر ، ويجد من يئثته وعصره حرية تسمح له بالهيام بالجمال والتبتل في  
معابد السحر والفتنة ، فشدا بالحنانه الساحرة أناشيد ناطقة بما في نفسه  
وعواطفه من حب ووفاء وما امتزج بروحه وسرى في دمه من هيام وشغف  
بألوان الجمال ، وفن ابن المعتز في الغزل يقف بجانب فن امرئ القيس وابن  
أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين في هذا الباب .  
ويقول الصولي : وهو متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا  
في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلون وخاصة من  
عمل في المذكر والمؤنث ، وهو أول من حصل هذا وجعله فنين ، وأضاف  
إليه فنا ثالثاً سماه مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس ، (١) ،  
ومن شعره في الغزل قوله :

يا هند حسبك من مصارمتي      لا تحكى في الحب بالظن  
وقول في شريرة محبوبته :  
وقلت تعالى يا شريرة نمتزج      كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين  
ومن غزله قوله :

بان الخاليط ولم تطاق صبرا      ووجدت طعم فراقهم مرا  
وكانما الأمطار بعمدم      كست الطلول غلانا خضرا

---

(١) ١١٤ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكم سرا  
 إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا  
 فطن يؤدي ما يقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا  
 قالت لأترب خلون بها وبكت قبل دمعها النعرا  
 ما باله قطع الوصال ولم يسمح زيارة بيتنا شهرا  
 حتى طرقت على مخاطرة أطا الصوارم والقنا الحرا  
 باليلة ما كان أقصرها لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتجد روح ابن أبي ربيعة في الغزل والحوار ، والتهاك من المرأة على  
 حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد في فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن  
 الشاعر هو المتغازل المتمازت (١) ، وإنما توصف المرأة بالحياة (٢) ، ولكنك  
 مع ذلك تجد في القطعة جمالا لا يعدله جمال في وصف الرسول .

ويقول :

لا تلوموني على حب هند سحرتني إنما الحب سحر  
 ومن غزله قصيدته :

يا غزال الوادي بنفسى أنتا لا كما بت ليلة الهجر بتا  
 ومنه قوله :

تعاهدتك العماد ياطلل حدث عن الظاعين ما فعلوا  
 فقال لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا  
 فلا تحليت بالرياض ولا النور ومغناى منهم هطل

(١) ١١٨ : ٢ العمدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبي ربيعة والنقاد كثيرا ما نقدوا ابن أبي ربيعة في وصفه  
 لتهاك المرأة على حبه ( ١١١ : ٢ عمدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبي ربيعة ) .

على هذا فما عليك لهم ؟ قلت زفير ودمعة همـل  
وأنتى مقفل الضمائر من حب سواهم ما حنت الإبل  
فقال هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا  
هيات إن المحب ليس له هم بغير الهوى ولا شغل  
تركت أيدى النوى تعودهم وجمتني عن حديثهم تسلى !  
فقلت للركب لا قرار لنا من دون سلمى وإن أبى العذل  
حتى تبدى فى الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل  
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والد مع كلام لنا ولا رسل

وتجد هنا رقة الأسلوب وجمال الحوار المبسك وسحر المعاني ولطفها  
عما يسمو بهن ابن المعز فى الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار فى الغزل ، قوله وقد نهاء الخليفة المهدي عن الغزل :

يا منظر حسنا رأيته من وجه جارية فديته  
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته (١)  
والله - رب محمد - ما إن غدرت ولا نويته  
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته  
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته  
ومخضب رخص البنيا ن بكى على وما بكيته  
ريشوفنى بيت الحبيد ب إذا اذكرت ، وأين بيته ؟  
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلبته (٢)

(١) تسومنى ، من سام يسوم ، إذا أخذ فى الحديث فى البيع أو الشراء ،  
الشباب استعارة بالكناية ، والمراد به نصارته وبهجته وقتوته ، وذلك كله  
كناية عن رغبته فى مغازاته .

(٢) من القلى وهو المهجر ، الإعراض .

ونهاى - الملك الهما م<sup>(١)</sup> عن النساء وما عصيته  
لا بل وفيت فلم أضع عهدا<sup>(٢)</sup> ولا وأيا وأيته  
وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته<sup>(٣)</sup>  
أصفي الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيته<sup>(٤)</sup>  
وأميل فى أنس الندي م من الحياء وما اشتيته<sup>(٥)</sup>

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه ، وافتنانه فى معانيه ،  
وانتهائه جانبا خاصا فى شعره يشبه الجانب القصصى الذى اشتهر به فى  
عصرنا إيليا أبو ماضى وكان بشار شديد الذكاء ، واسع الخيال ، ذا ملك  
قوية فى الشعر يعد من أكبر شعراء عصره ، وزعيم المحدثين كافة ، ومن أصحاب  
المعاني المخترعة فى الشعر العربى ، وقد تصرف فى كثير من فنون الشعر  
ومعانيه .

وكان فارسى الأصل وأبوه فيما يقال من سبى المهلب بن أبى صفرة ،  
وكان ولاؤه فى بنى عقيل من قيس عيلان ، ونشأ بشار فى البصرة نشأة  
عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع فى الأدب ، وكان شاعرا محاورا وخطيبا ،  
واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفى غيره من مجالس المتكلمين

(١) الهام : العظيم الهمة .

(٢) لم أضع العهد : أى لم أخذت به .

(٣) المطل على العدا : المستمر فى إيذائهم . الحمد : الثناء .

(٤) من الدنو وهو القرب . وأصفا الصديق يصفيه مودته : أخلص ووفى  
لعهد أخوته . والخليل : الصديق . ونأى : من التأى وهو البعد والمراد به الهجر  
وقطع المودة .

(٥) النديم : الرفيق والمصاحب ، والشارك فى الشراب والميل فى أنس النديم :  
القيام بمؤانسته . اشتيته : رغبت فيه ، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو  
مضمحل للدم به من المقام .



وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد فتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجأهم واستطار الشريين وبين واصل .

ولقد كان شاعراً مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاء فيما يقول الرواة رغبة في أن ينوه به جرير فيرفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربي النزعة في الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، فلما يميل إلى تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسي قد ترك في شعره أثراً ظاهراً ، فسندحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخالص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجون ، كان بشار صريحاً في غزله قبيح الصراحة أحياناً .

وكان مسرفاً في الرقة إذا تغزل فذمه الوعاظ والقصاص في وعظهم وقصصهم وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهاء المهدي عن الغزل فانتهى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام في الغزل كما ترى في هذه القصيدة ، وما زال به لإسرافه في الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدي فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ .

وفي شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أو هزل ، وفيه جودة المعاني ودقتها وحسن الاستقصاء لها ، والرواة يجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسي في موقف وداع قصيدته :

تعاذتك العهد يا طلل      خبر عن الطاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا  
وقال : هلا تبعتم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا  
وقد مضت آنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قزع على أكف الرياح ينتقل  
حتى تبدى في الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل  
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والـ سدمع كلام لنا ولا رسل  
كم من عداة أبارهم غضبي فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمذكر فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسي ،  
وقد سرى إليهم من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد عجرد ، ووالبة  
ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع  
ابن إلياس ، وغيرهم من الشعراء الإباضيين ، ممن كانوا يلتقون على موائد  
الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن حرام ؛ وسرت  
هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين ، فطغى الغزل بالمذكر على شعرهم ، ولقد هم  
غيرهم حتى شعراء الغزل بالموث فقلبوا ضمير الأنثى إلى ضمير الذكر ؛  
وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتنان فيه ، وقذف الناس  
بالمرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات الكلام ..

وينسكرا الجاحظ أن يكون العرب قد عشقوا الغلمان ، أو تغزلوا بالمذكر ،  
فيقول في رسالته في النساء ، (١) :

لو تعشق العرب الغلمان ، لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسب ، ولنهاجوا  
به وتفاخروا ، ولتنافسوا في الغلمان ، ولجرى في ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت

---

(١) راجعها في رسائل الجاحظ نشر السندوني .

فيه أشعار وأخبار ؛ والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني ،  
وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق  
أو يقرب الأسواق (١) .

ومن الغزل بالمدح أشعار كثيرة عباسية تروى في كتب الأدب العربي  
وفي دواوين الشعراء العباسيين .

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد في غلام له (٢) :

ما هو عبد لكن له ولد	خولنيه المهمين الصمد
شد أزرى بحسن خدمته	فهو يدي والذراع والعصم
صغير من كبير منفعة	تمازج الضعف فيه والجلد
في سن بدر الدجى وطلعت	فشله يصطفى ويعتمد
ممشق الطرف كله كحل	مغزل الجيد حليه الجيد
أنسى ولهو وكل ما ربي	مجتمع لي فيه ومنفرد
مسامري إن دجى الظلام فلي	منه حديث كأنه الشهد
ظريف مزح مليح نادرة	جوهر حسن شراره يقدر
خازن مافي داري وحافظه	فليس شيء لدى يفقد
ويعرف الشعر مثل معرفتي	وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرني القريض وزان	دنانير المعاني الرقاق منتقد
وواجدني من المحبة والراء	فهو أضعاف ما به أجد
إذا تبسمت فهو مبتهج	وإن تنمرت فهو مرتعد
ذا بعض أوصافه وقد بقيت	له صفات لم يحوها أحد

(١) والنص موجود أيضا في ٢ : ٤١٧ و ٤١٨ أمراء البيان لمحمد  
كرد علي .

(٢) معاهد التنصيص للعباسي مخطوطة برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥٥ ب .

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا يا جامع البصر ة لاخربك الله  
وسقى صحنك الغيث من المزن فرواه  
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه  
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه  
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه  
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه  
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه

يقول أبو نواس :

يا بدعة في مثال يجوز حد الصفات  
الوجه بدر تمام بعين ظبي فسلاة  
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة  
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك في غلام يستحم :

وابأبى أبيض في صفرة كأنه تبر على فضه  
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بفضه  
غصن تبدى يثنى على مأكة مثقلة النهضه (٢)  
كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه  
صفاته فاتنة كلها فبعضها يذكرني بعضه

(١) ١٣٠ : ٢ ، اليتيمة ، ٦ : ٣١٧ يا قوت الارشاد ، معجم الأدباء .

(٢) المأكة : اللحمه على رأس الورد وللانسان مأكتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر في المأثث فقال :

يا قرا أبصرت في ماتم يندب شجواً بين أتراب  
يسكى فيذرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب  
أبرزه الماتم لى كارها برغم دايات وحجاب (١)  
لأنبك ميتاً حل في قبره وابك قتيلاً لك بالباب

### المسح

رأينا فيما سبق كيف كان الخلفاء في هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كفهم بإظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقربوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم في نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون في التمجيد ، ويتسابقون في التعظيم ، ليحظروا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة في المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل في الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

ولما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة ، رغبتهم في إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم في أن ينالوا أكبر الجوائز وأسنائها ، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون في العطاء ، ويسرفون في المنح ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النعمى للرشد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذى قال في مدح الحسن بن سهل .

تعظمه الأوهام قبل عيانه ويصدر عنه الطرف وهو محاذر

(١) الماتم : مجتمع الناس في الخير والشر .

به نجتدى النعمى وتستدرك المنى      وتستكمل الحسنى وترعى الأواصر  
قسمت صروف الدهر بأسا      ونائلا  
فمالك      موتور      وسيفك      واتر  
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا      لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله  
وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرى غير هذا لما احتجت إلى  
القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه . كما رأينا أن جلساء  
المعتصم لم يقنعوا بثبنيه أبى تمام له بحاتم فى الكرم ، وعمرو بن معد يكرب  
فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار .

ومن صور المدح قصيدة أبى نواس فى مدح الآمين ويقول منها :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا      فظهورهن على الرجال حرام  
قربنا من خير من وطىء الحصا      فلما علينا حرمة وذمام  
ملك إذا علقت يداك بجبله  
لا يعتريك البؤس والإعدام

فالبهو مشتمل ببدر خلافة      لبس الشباب بنوره الإسلام (١)  
سبط البنان إذا احتبى بنجاده      فرع الجماجم والسيماط قيام (٢)  
إن الذى يرضى الإله بهديه      ملك تردى الملك وهو غلام (٣)

(١) يريد بالبهو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان : ومعنى الشطر الثانى أنه  
أعاد للدين سلطانة .

(٢) السبط : السهل الذى لا خشونة فيه ، والبنان أطراف الأصابع  
وأحدثها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حائل السيف التى يتعلق بها .  
احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجماجم : علاها . سيماط القوم صفهم .  
(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فتى .

ملك إذا اعتسر الأمور مضى به رأى يقل السيف وهو حسام (١)  
داوى به الله القلوب من العمى حتى أفقن وما بين سقام (٢)  
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعقد حباله استحكام (٣)  
فسلمت للأمر الذى ترجى له وتقاعست عن يوك الأيام (٤)

والبيت الأول والثاني شديهان بقول الشاعر :

إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين  
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته فقام بفاس بين واصلك جازر  
وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتني وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء  
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى  
وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحنى وخير الناس كلمهم أمامى  
متى تزدى الرصافة تستريحي من الانساع والدبر الدوامى

- 
- (١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يقل السيف : يثله . والحسام : السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ شديد .  
(٢) عمى القلوب : زيغها . السقام بفتح السين المرض .  
(٣) زبيدة أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهى بنت جعفر ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول : صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، وقوله ( لعقد ) إلى آخر الجملة صفة لقوله أملا .  
(٤) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشياخ وذى الرمة ، سمنع عبد الملك قول الأول فقال : بدست المسكافة حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكانها نحرها وقد قال رسول الله للأَنْصارِية التي نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ في المعنى ردينا الأسلوب يتخذهما النحاة مجالا لكثير من سخف التأويل . فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائها عنها ، دعاها بأن تعيش ناعمة طليقة غالية من الذم لأنها بلغت ما يأمله من الاستشهاد في سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى في ساحة أمير المؤمنين تراخى من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداء ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظهورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية وديننا واجب الأداء ، وكلمة الرجال في بيته تسيء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيد الإطلاق كما أن حملتي وحمت رحلي في الأبيات السابقة حشو جيء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام في بيت أبي نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه إطناب ، وكان يغني عنه أن يقول إذا بلغتني الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هاني ( ١٤٥ - ١٩٨ هـ ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ في البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجناً شراً للخمر وصافاً لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره في وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث في الشهوات وقرض الشعر في أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد في جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف في الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفي سنة ١٩٨ هجرية .



وهذه هي رائية أبي نواس المشهورة في المدح ، قال أبو نواس يمدح  
العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المتناب من عفره      لست من لبلى ولا سمره (١)  
لا أذود الطير عن شجر      قد بلوت المر من ثمره (٢)  
قد لبست الدهر لبس قى      آخذ الآداب من غيره (٣)  
فاتصل إن كنت متصلاً      بقوى من أنت من وطره (٤)  
خفت مأثور الحديث غداً      وغداً أدنى لمنتظره (٥)  
خاب من أسرى إلى بلد      غير معلوم مدى سفره (٦)  
وسدته ثنى ساعده      سنة حلت إلى شفره (٧)

- 
- (١) المتناب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول  
العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . والمعنى : أيها الزائر بعد  
زمان طويل لست من سمارى في لبلى .
- (٢) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التي خاتمتى وستلقى هذا  
المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .
- (٣) أى صاحبت الدهر حتى تعلبت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .
- (٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحيال ، أى اتصل بمن  
تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .
- (٥) المأثور : المروى . أى خفت ما يرويه الناس من الأحاديث السيئة  
في غد ، وإن غداً أقرب .
- (٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلاً . والمدى : الغاية ، والمعنى :  
خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر في العواقب .
- (٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهذا  
تكيل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسد  
ساعده المثنى .

- فامض لآتمن على يدأ منك المعروف من كدره (١)  
 رب فتيا ربأتهم مسقط العيوق من سحره (٢)  
 فائقوا بي ما يريهم إن تقوى الشر من حذره (٣)  
 وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره (٤)  
 كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار في حجره (٥)  
 ورضاب بت أرشفه ينقع الظلمآن من خصره (٦)  
 علنيه خوط إسحلة لان متناه المهتصره (٧)

(١) المن : ذكر المنعم إحسانه ؛ وذلك مفسد للإحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنيعة .

(٢) ربأتهم : حرستهم مخافة أن يدهمهم العدو ، مسقط : وقت مسقوط ( الميوق ) ، وهو نجم يتلو الثريا ؛ يظهر سحراً ، يفتخر بأنه يحرس إخوانه في الشدائد .

(٣) يريهم : يفزعهم ، يقول : اعتمدوا على في دفع ما يحذرون فكنت عند ظنهم .

(٤) كاشفه بالعداوة : أظهره عليها ، والغمر : الحقد ، يقول : أدارى ابن عمي الذي يكنى لي العداوة والبغضاء وأعاشره وكأني لا أعلم بشيء من أمره .  
 (٥) كمن : استتر ، والشنآن : البغض ، أى توارت البغضاء في نفسه كمتوارى النار في الحجر .

(٦) الرضاب : الريق ، والظلمآن : العطشان ، والخصر : البرد ، وينقع : يروى .

(٧) علنيه : سقانيه مرة بعد أخرى ، والخوط : الفصن الناعم تشبه به المرأة ، والإسحلة : مفرد اسم ل شجر عظيم ينبت بأعلى نجد ، والمهتصر : جاذب الفصن ، يقول : سقاني هذا الريق امرأة لينة كأنها الفصن في ثنيتها طيبة لجاذبها إليه .

ثم أدناى إلى ملك يأمن الجاني إلى حجره (١)  
تأخذ الأيدى مظالمها ثم تستدري إلى عصره (٢)  
كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره (٣)  
فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره (٤)  
ملك قل الشبيه له لم تقع عين على خطره (٥)  
لا تغطي عنه مكرمة بربا واد ولا خمره (٦)

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذى قطع الطريق به إلى الممدوح .  
يقول : بلغنى هذا الحصان مسلكا يحمى اللاجئ إليه ، والحجر : حصن  
الانسان .

(٢) تستدري : تلتجىء ، والعصر : الملجأ ، أى ينصف اللذين يقصدونه  
شاكين ، لأنه عادل وسطان محكم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه  
لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هو من نفر رسول الله ،  
فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها .  
والمعنى : لا تؤمل فى خصب يأتيك به مطر السماء فندى العباس خلف من كل  
مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد  
وعدم ، أى لا شبيه لهذا الممدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لا تغطي : لا تتواوى ولا تستتر ، والربى ما ارتفع من الأرض واحدها  
ربوة ، والخمر : ماواراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها  
ولا هنيئة إلا أتمها وأحسنها .

سبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره (١)  
 وإذا حج القنا علما وتراعى الموت في صورته (٢)  
 راح في ثنيي مفاضته أسد يدمى شبا ظفروه (٣)  
 تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره (٤)  
 وترى السادات مائلة لسليل الشمس من قره (٥)  
 وكريم الخال من يمن وكريم العم من مضره (٦)  
 فهم شتى ظنونهم حذر المكنون من فكره (٧)

(١) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهله يلتبس لهم منزلا خصباً ، يقول : إن العباس رائده - أى الرائد منه - يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثاني أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التي تعينه في المعرفة .

(٢) حج : لفظ ورمى ، والقنا : الرماح ، المفرد قناة ، العلق : الدم ، وتراعى الموت الخ : أى ظهر الموت في أشكاله المتباينة ، فطعين بالرمح ومضروب بالسيف وصريع .

(٣) الثنيان : مثنى ثني بكسر فسكون وهو ما كف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شبة وهي حد السيف أو السنان في طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مددعا كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تتأني : تتعمد وتنتظر . والجزر : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التي هي كالشمس على أيه الذي هو كالقمر ، وضميره ( قره ) للمدوح أو لوالده .

(٦) المدوح خاله يمنى وعمه مضرى .

(٧) شتى : متفرقة متنوعة . يقول : إن السادات ، متنوعو الأفكار عما يضره هو بالنسبة لهم وما يقضى في شئونهم ، مخافة منه وإجلاله .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضى أبا عبيدة والأصمعي وأضراهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لا يقل عنهم علماً باللغة وحفظاً لها وهي على ذلك حافلة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعاني النادرة . يبرز ذلك كله في أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم عصائب طيري تهتدي بعصائب  
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجاً بالدماء ، طعاماً لآكلات اللحم من الطير . وأن الطير قد علمت ذلك فهي تتبعه في غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للمدح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكفى عن طمعها في اتساع رزقها عليها بصحبته له في غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناواه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبعاً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه وباختيار ألفاظه فكلمة (تتأني) تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشفرة لذلك متشوقة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها في كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الحملة يصير ينزله الإبل تنحر والحمية تذبج قد استسلمت لاقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلمة « أول غالب » ، في كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن في الاتباع وزاد .

ومما عيب على أبي نواس في هذه القصيدة قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبي نواس قال عندما سمعه يفتش هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع في غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويحك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

وما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لاترام ومفخر  
بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه (١)  
لأمر عليهم أن تم صدوره وليس عليهم أن تم عواقبه (٢)  
على كل موار الملاط تهدمت عريكته العليا وانضم حالبه (٣)  
رعته الفياق بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

(١) أطراف الأسنة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهى كور الجبال التى تشبه الأسنة فى الصلابة والمضاء .

(٢) أى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح .

(٣) الملاط : عضد البعير . والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

إليك جزعنا مغرب الملك كلما

- هبطنا ملا صلت عليك سبابه (١)  
إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآمله غاد عليه فسالبه (٢)  
وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كسائبه  
سما للعلا من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه (٣)  
فتول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه  
وأي بوجه الحزم عنه وإنما مرأتى الأمور المشكلات تجاربه (٤)  
أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت  
مهايعه المثلى ومحت لواحيه (٥)  
ففى كل نجد فى البلاد وغار مواهب ليست منه وهى مواهبه (٦)  
إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبت به بالنجاح مطالبه (٧)

- (١) جزعنا الأرض . قطعناها عرضا ، ومغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان مدوحه بخراسان ، والملا . الصحراء ، وصلت عليه . أننت عليه ، والسباب جمع سبب . الأرض للمستوية .  
(٢) بيضة الملك . حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سالب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .  
(٣) يريد بجانبى العلا الشجاعة فى الحرب والكرم ، والعجاب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه .  
(٤) أين بوجه الحزم أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة المشكلات ومرأتى جمع مرآة .  
(٥) المهايع واللواحب الطرق الواضحة .  
(٦) لما علم الناس الكرم كانت مهايعهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى عليهم .  
(٧) أى من زل عندك وأتى رحله بربعك ضمن نصح مطلبه .

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويشير أريحياتهم ، ويستدر عطاءهم  
وهكذا كان الشعراء يمعنون في المبالغة ، ويهللون في تصوير الممدوح ،  
لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلوات ،  
وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ويهون  
عليهم أمر الدين ، فيدونون من الشرك أو يقعون فيه كما قال أبو نواس :  
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النظف التى لم تخلق  
وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان  
وقد ظل الشعراء يبالغون فى المدح ، ويفرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم  
بعضا فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتوسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها  
فى الغلو والتهويل ، ولقد ذكروا أن المستمعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل  
إلا بمن قال مثل قول البحرى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسمى إليك المنبر  
فقال البلاذرى : قد قلت فيك أحسن مما قال البحرى ، فقال هات ،  
فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن اظن البرد أنك صاحبه  
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه  
فقال المستمعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به ، فرجع ، فبعث  
إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

#### شعر السياسة والعصية

١ - ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصيات  
بين الجمانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطربة ، لا ينجبوا لها ضرام



ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يترشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخر ر قريش وغرنا مستعار  
ذكرت عزها ، وما كان فيها - قبل أن تستجيرنا - مستجار  
إنما كان عزها في جبال ترتقيها كما ترقى الوبار (١)  
أيها الفاخرون بالعز والعز لقوم سواهمو والفخر  
أخبرونا عن الأعز : ألمنـ صور حين اعتلى أم الأنصار ؟  
فلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدهور تجار

٢ - وكان الموالي في العصر الأموي يكتنون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترأ على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية في العصر العباسي ، واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذي عرفناه ، بدأوا يحجرون بالعداوة ، ويعلمون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعراء . وكان من شعراء الموالي الشعوبيين : بشار وديك الجن والخرمى والمتوكلى .

٣ - وكان الشعر السياسي يأخذ مكانه بين هذه العصبيات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبني العباس شعراء يعتمدون عليهم في إذاعة محامدهم ، والاحتجاج

---

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهي دويبة كالسنور .

لهم في استحقاق الخلافة ، وأولوايتهم بها دون بنى علي . ومنهم : مروان  
ابن أبي حفصة وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد . وكذلك كان للعلويين  
شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ،  
ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميري ودعبل الخزاعي ،  
ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبي حفصة يخاطب بنى علي :

خلو الطريق لمعشر عاداتهم      حطم المناكب يوم كل زحام  
وارضوا بما قسم الإله لكم به      ودعوا وراثته كل أصيد سامي  
أنى يكون وليس ذاك بكائن      لبنى البنات وراثته الأعمام ؟  
وقال الحميري وكان علوياً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد      ولا عهده يوم الغدير المؤكدا  
فإنى كن يشرى الضلالة بالهدى      تنصر من بعد التقى وتهودا  
ومالى وتيم أو عدى وإنما      أولو نعمتى فى الله من آل أحدا  
وإن امرأ يلحى على صدق ودم      أحق وأولى فيهمو أن يفندا  
ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع  
عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلسكا      لا أين يطلب ضل بل هلكا  
لأنعجى يا سلم من رجل      ضحك المشيب برأسه فسكى  
يالىت شعري كيف يومكما      يا صاحبي إذا دمي سفكا ؟  
لأناخذوا بظلامتى أحداً      قلبي وطرفي فى دمي اشتركا

فلم يخفف هذا من عصية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية  
حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوهم :  
وليس حى من الأحياء نعلمهم      من ذى يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دماهمو كما تشارك أيسار على جزر (١)  
قتل وأسر ونحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر (٢)  
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر  
أربع بطوس على القبر الزكي إذا ما كنت تربيع من دين على وطر  
قبران في طوس خير الناس كلهمو وقبر شرهمو ؛ هذا من العبر (٣)  
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر  
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له بداه نخذ ما شئت أو فذر

### الوصف :

الوصف (٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية (٥) ، أو هو ذكر  
الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات (٦) ، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء  
حتى يكاد يمثل عيانا (٧) ، وما استوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه  
يصوره لك (٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربي ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

- 
- (١) الأيسار : لاعبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها .
  - (٢) الخزر بفتح الخاء والزاي جيل من الناس ضيقو العميون .
  - (٣) يريد قبر موسى الكاظم .
  - (٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخزيات من باب الوصف ( ٢ : ٢٨٠ ) العمدة
  - ويتابعه في ذلك كثير من النقاد ، ويعدون أيضا شعر الطبيعة من باب الوصف
  - ( ٢٥٢ ) التوجيه الأدبي .
  - (٥) الأسلوب للشايب .
  - (٦) ٧٠ نقد الشعر .
  - (٧) ٢٧٨ : ٢ العمدة .
  - (٨) ١٢٣ صناحتين .

إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى ألوان يبتهم التي عاشوا فيها ومظاهر الحياة التي ألفوها في هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوى والنابعة الجعدي من وصاف الخيل (٢) كما كان طرفة وأوس بن حجر وكعب ابن زهير ٢٤ هـ ، والشمخ من وصاف الإبل (٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيذا في وصف المطر (٤) ، واستمر الأمر كذلك في العصر الإسلامي ، وأنفرد بعض الشعراء بالتفوق في بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصاف الناس للقوس والخمر (٥) ، وكان ذو الرمة أوصاف الناس لومل وماجرة وفلاة وقرادوحية (٦) وأحسن الناس وصفا للمطر (٧) ، ويذكر بعض الباحثين أنه يكاد يكون أكبر شعراء الوصف في العصر المتقدم كله (٨) ، وكان ابن أحر وهو إسلامي قديم وشاعر مجيد وصافا للحيات وعلى قوله احتذت الشعراء (٩) وللتغلي أجود قصيدة قيلت في وصف القط (١٠) ،

- 
- (١) ٢٧٨ : ٢ العمدة : ٢٥١ التوجيه الأدبي .  
(٢) اقرأ وصف الجوارى الخمس لخيل آبائهن ( ١٧٨ : ١ الأمالى ) ،  
ومقصودة أبي صفوان الأسدي في وصف الخيل ( ٢٤٠ : ٢ الأمالى ) .  
(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة . ١٢٥ : ٣ الرافعي .  
(٤) راجع قصيدتيه الخائية والقافية في وصف المطر ( ١٧٣ : ١ الأمالى :  
١٧٨ : ١ الأمالى أيضا ) واجمع وصف الأعراب للمطر ( ١٧١ و ١٧٣ :  
١ الأمالى ) .  
(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢٨٠ : ٢ العمدة .  
(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٥ المرجع .  
(٨) ٢٥٢ التوجيه الأدبي .  
(٩) ٣٧ المؤلف .  
(١٠) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعبيد بن أيوب العنبري إجادة وشهرة في وصف الصحارى والمجاهل  
وما فيه من حياة وكائنات <sup>(١)</sup> ، وكان مزاحم العقيلي ينعت الفلوات فيجيد  
وشهد له بذلك الفرزدق وجريرو والأخطل عند عبد الملك <sup>(٢)</sup> ، وكان الراعي  
أوصف الناس للإبل <sup>(٣)</sup> ، كما كان الفرزدق والخطبة يجيدان صفات الخيل  
والقسي والنبيل <sup>(٤)</sup> ... وفي العصر العباسي هجر الشعراء الأوصاف التقليدية  
في الشعر العربي فدعا مطيع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفار:

لأحسن من يبد تحار بها القطا      ومن جبلى طى ووصفكما سلعا  
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما      له مقلة في وجه صاحبه ترعى  
ودعا أبو نواس إلى أن تفتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم      فاجعل صفاتك لابنة السكرم  
وقال :

ياربع شغللك إني عنك في شغل      لاناقي فيك لو تدرى ولا جمل  
وتابعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أحسن من وقفة على طلل      ومن بكاء في أثر محتمل  
كأس مدام أعطتك فضلتها      كف حبيب والنقل من قبل  
وقال :

أف من وصف منزل      بعكاظ      فحومل  
وكان أبو نواس شعوبيا في مذهبه كما يقول هو :

عاج الشقي على رسم يسائله      وعجت أسأل عن خمارة البلد  
تبكي على طلل الماضين من أسد      ثكلت أمك قل لي من بنو أسد

(١) راجع ٥٠ : ٦ الحيوان .

(٢) راجع ١٥٥ : ٢ ديوان المعاني .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

(٤) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعراب عنده من أحد ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجون في الشعر <sup>(١)</sup> ، ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث في الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما، وينادى بتحضر الشعر وترك روح البداوة فيه ، والنقاد يختلفون في هذه المناهج ، فابن قتيبة يدعو إلى المحافظة على سنن العرب في ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى المدح والممدوح <sup>(٢)</sup> . ويرى ابن رشيق أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازا <sup>(٣)</sup> ، وأن ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والفقر لرغبة الناس في الوقت عن ذلك الصناعات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها والأولى في هذا الوقت صفات الخمر والقيان <sup>(٤)</sup> .

وقد أجاد الشعراء العباسيون في الأوصاف لإجادة بالغة ، وجاءوا فيها بالتشبيه المفرط البعيد <sup>(٥)</sup> ، على حين كان من قبلهم يجرون في أوصافهم على الصدق ويسرون في ظل الحقائق القريبة ، وهذا مذهب من مذاهب العرب في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهده من غير اعتداد لإغراب ولا لإبداع <sup>(٦)</sup> ، وأشهر قصائد الوصف سينية البحرى التى ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعتز <sup>(٧)</sup> ، وبرع ابن الرومى في التصوير وخاصة فيما كان

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضييف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ : ١ العمدة . (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافعى ... والوصف مناسب للتشبيه ومشتمل عليه وليس به ، والفرق بينهما أن الوصف لإخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ الموازنة .

(٧) ٢١٨ : ١ و ٦٤ : ٢ ديوان المعاني ، ٥٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ،

٣٣ رسائل ابن المعتز ، ٧ و ٨ مقدمة ديوان البحرى .

يرجع منه إلى باب التهكم والسخرية ، وكان الحدوني من أصلح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره في طليسان ابن حرب<sup>(١)</sup> ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعتز<sup>(٢)</sup> ثم كشاجم بعده<sup>(٣)</sup> والصنوبري وهو وحيد جنسه في صفة الأزهار وأنواع الأنوار<sup>(٤)</sup> ، وكذلك أبو طالب المأموني<sup>(٥)</sup> (٣٨٣ هـ) وله شعر كثير في الأوصاف<sup>(٥)</sup> ، وكذلك السري الرفاء وعلى ابن إسحاق الراجحي<sup>(٦)</sup> (٣٥٢ هـ) ثم ابن خفاجة وابن حمديس<sup>(٦)</sup> ، ولم يكن المتنبي من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى<sup>(٧)</sup> .

وقد اشتهر ابن المعتز بالإجادة في الأوصاف كلها كما مرء القيس في الجاهليين وأبي نواس والبحري وابن الرومي<sup>(٨)</sup> في المحدثين ، ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفي وصفه رقة وسلاسة ودقة وتفصيل وابتداع في الأسلوب وتجديد في التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمي ملكته في نفسه

---

(١) ١٧٦ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ٢٧٩ : ٢ العمدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المنادمة ( ١٢٦ : ٣ الرافعي ) ، وكان يجيد الوصف ويحققه ( ٢٥٠ رسائل البلغاء ) ، وله كثير من قصائد في الوصف ( راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العمدة ، ١٠٤ : ٢ وما بعدها زهر الآداب ) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلغاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليتيمة - وله ترجمة في اليتيمة ( ١٤٩ - ١٧٩ : ٤ ) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٢ الرافعي .

(٧) ويرد عليه العكبري ذاهباً إلى أنه كان يحسن الأوصاف في كل فن ( ١٦٥ : ٤ العكبري ) .

(٨) ويجعلهم ابن رشيق من الذين أجادوا في كل الأوصاف ( ٢٧٩ : ٢ العمدة ) .

دقة حسه واطف شعوره وامتلاء ذهنه بمشاهد الجبال وروائع الخيال ورواق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه مما صرفه إلى الإجادة في هذا الباب الذى تناول فيه وصف ألوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع ترفه ولطوه ، وأتى في ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التى تستمد صور الأوصاف من صور حياته التى كان يحياها أميراً وولى عهد وشخصية بارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التى أغرقها الترف فى عصره إلى حد بلغ فى ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين فى الوصف وقدرتهم على التصوير . وقد ساعدتهم على الإجادة فيه والسمو بخياله ومعانيه ، مارددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أحكام الشاعرية ، وبنى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد فضجت خواطرهم بكثير من الأوصاف التى تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول على بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	وراحت، الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده	إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته	أومانعاً جفن عينية من السم
بين النديمين والخلين مصرعه	وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الرياح طلعت	إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ربح معطرة	تشقى القلوب من الأوصاب والكبد
لا عذب الله إلا من يعذبه	بسمع بارد أو صاحب نكد

(١٢٢ - ٢٢)



وقال ابن الرومي يصف القيان العازفات على الأعواد :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بذنها حوائى
مطفلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالهن ثديا	ناهديات كأحسن الرمان
مفهمات كأنها حافلات	وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادی الغنى عن الترجمان

ومن أجل قصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفي هذه القصيدة الرائعة يصف البحترى الإيوان بالمدائن، ويرثى دولة الفرس قال :

صفت نفسى عما يدنس نفسى	وترفعت عن جدا كل جبس (١)
وتماسكت حين زعزعى الدهر.	مر التاماً منه لتعسى ونكسى (٢)
بلغ من صباية العيش عندى	طففتها الأيام تطفيف بنخس (٣)
حضرت رحلى المهوم فوجم.	ت إلى أبيض المدائن عفى (٤)
أسلى عن الحظوظ وآسى	لمحل من آل ساسان درس (٥)

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللثيم .

(٢) تماسكت : ثبتت واعتصمت . زعزعى : حركنى بعنف أى حين نالتنى خطوبه . التاماً : طلباً ومحاولة . التعس : الهلاك والشر . النكس : أن يتقلب الرجل على رأسه ، والمراد الهزيمة والسقوط .

(٣) بلغ : جمع بلغة وهى ما يكفى من العيش ولا يفضل . الصباية : البقية . طففتها : نقصتها . البنخس : الغبن والظلم .

(٤) حضرت رحلى المهوم : طرأت على الأحزان . والعدس : الناقة القوية .

(٥) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكسرة الفرس . درس : دارس .

ذكر تذهب الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى (١)  
 وهم خافضون فى ظل عال مشرف يحسر العيون ويحسى (٢)  
 حلل لم تكن كأطلال سعدى فى قفار من البسايس ماس (٣)  
 ومساع لولا المحاباة منى لم تطقها مسعاة عنس وعيس (٤)  
 نقل الدهر عهدهم عن الجد ة حتى غدون أنضاء لبس (٥)  
 فكان الجرماز من عدم الآن س وإخلاله بنية ريس (٦)  
 لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مائما بعد عرس  
 وهو ينك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس (٧)  
 فإذا مارأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس (٨)  
 والمنيايا موائل وأنوشر وان زجى الصفوف تحت الدرفس (٩)

(١) التوالى : المتالية .

(٢) هم : آل ساسان . خافضون : ناعمون . عال : أى قصر مرتفع وهو القصر  
 الأبيض . يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تبين ارتفاعه . يحسى : يؤلم .  
 (٣) الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت . والبسايس : القفار . ملس : خالية .  
 (٤) المساعى : المسكارم . لم تطقها : لم تقدر عليها . عنس وعيس : قبيحتان .  
 (٥) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ، وليس : استعمال  
 أى أبلاها الدهر .

(٦) الجرماز : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بحوار  
 القصر . والرمس : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس : عدم الوضوح .

(٨) أنطا كية : بلد بالشام ضمت إلى تركيا إبان احتلال الفرنسيين  
 اسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الإيوان .  
 ارتعت : فزعت .

(٩) موائل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكامرة .  
 يزجى : يسوق ، والدرفس : العلم الكبير .

في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس (١)  
وعراك الرجال بين يديه

في خفوت منهم وإغماض جرس (٢)  
من مشيح بهوى بحامل رخ ومليح من السنان بترس (٣)  
تصف العين أنهم جد أحيا . لهم بينهم إشارة خرس (٤)  
يغتل فيهم إرتيابى حتى تتقراهم يداى بلس (٥)  
وكان الإيوان من عجب الصندمة جوب في جنب أرعن جاس (٦)  
يتظنى من السكابة أن يبدو لعينى مصبح أو عسى (٧)  
مزججا بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطبيق عرس (٨)  
عكست حظه اللبالي وبات المش ترى فيه وهو كوكب نحس (٩)  
فهو يبدى تجسداً وعليه كلكل من كلال الدهر مرسى (١٠)

- (١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .  
(٢) خفوت : سكون صوت ، الجرس : الصوت .  
(٣) المشيح : الحذر ، المليح : الذى يخاف ويحذر أيضا ، والترس : الجن .  
(٤) تصف العين : يخيل إليها .  
(٥) يغتل : يزيد ، إرتياب : شك ، تتقرى : تتبع .  
(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل .  
الجلس الجبل العالى فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى  
يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق فى جانب جبل أرعن  
وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطنف ، والآيات الآتية توضح  
هذا التشبيه .  
(٧، ٨) يتظنى : يظن ، أن يبدو : وقت أن يبدو ، ومزججا مفعول ثان ،  
ليتظنى : أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزججا بفراقه أليفا أو عروسا .  
(٩) المشتري : كوكب سعد .  
(١٠) التجلد : تكلف الجلد والصبر ، الكلكل : الصدر أى نازلة ،  
مرسى : من الإرساء والنزول .

لم يعبه أن يز من بسط الديج  
 مشمخر تعالوا له شرفات  
 لا بسات من البياض فسات  
 ليس يدري أصنع إنس لجن  
 غير أنى أراه يشهد أن لم  
 عمرت للسروور دهرأ فصارت  
 فلها أن أعينها بدموع  
 ذاك عندي وليست الداردارى  
 غير نعمى لأهلها عند أهلى  
 أيدوا ملكنا وشدوا قواه  
 وأعانوا على ككتائب أربا  
 وأراني من بعد أكلف بالآث

باج واستل من ستور الدمقس (١)  
 رفعت في رءوس رضوى وقدس (٢)  
 هر منها إلا غلائل برس (٣)  
 سكنوه أم صنع جن لإنس  
 يك بانيه في الملوك بنكس (٤)  
 للتعزى رباعهم والتأسى  
 موقوفات على الصبابة حبس  
 باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى  
 غرموا من زكاتها خير غرس (٥)  
 بحماة تحت السنور حمس (٦)  
 ط بطعن على النحور ودعس (٧)  
 راف طرا من كل سنخ وجنس (٨)

- (١) يز : سلب ، والديياج : الثوب سداه ولحمته حرير ، والدمقس : الحرير الأبيض .
- (٢) مشمخر : عال ، ورضوى وقدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من بناء القصر ، يشبه القصر في ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .
- (٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر الباء وضمها القطن أو ما يشبهه .
- (٤) النكس : الضعيف الدنى . (٥) زكاتها : نمايتها .
- (٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحمس : شجعان ، يشير إلى بلاء الفرس في إقامة الدولة العباسية .
- (٧) أرباط : قائد حبشى فتح الين قديماً ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب الفيل وأبناؤه ، ثم طرد سيف بن ذى يزن الأحباش بمعاونة الفرس ، الدعس : الذود والطعن .
- (٨) أكلم : أولع ، السنخ : الأصل والمنبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى الطائى صاحب القصيدة تخرج على أبى تمام ، ولكنه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشئ فى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهراً ، فجاء فى شعره شئ من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جليلة ، والبحرى وصاف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيبكك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، ويبلغ الغاية فى ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا تغزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحرى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ؛ وأثر الحضارة فى الشعر وفى صناعته ، وموسيقاه وعذوبة ألفاظه ، وأسلوبه . مما يضرب به المثل ، ومن ثم قال النقاد : « أبو تمام والمتنبى حكيان ، والشاعر البحرى » .

والبحرى كما يقول عبد القاهر فى كتاب « أسرار البلاغة » : « إنك لانكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحرى ، ويبلغ فى هذا مبلغه » .

وهذه القصيدة فى جهاتها ترشد إلى البحرى وخصائص شعره ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزله فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحرى مجداً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر العربى ، وقد سبق بها البحرى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف الآثار والمدن البائدة .

فهى من أروع ما نظم من قصائد الوصف ورثاء الآثار والدول في الشعر العربى .

ويبدو أن البحترى نظمها وهو فى قمة مجده الشعرى ، وقد ذكرها مرتين فى شعره ، مرة منهما وهو يمدح ابن ثوابه :

قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابه  
ولم يختر يافوت من كل شعر البحترى سوى هذه السينية .

ووحدة القصيدة ظاهرة ، فهى فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، وهى مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها ببعض الآخر . وقد وفق الشاعر فى وصف الإيوان ، ووصف إعجابه به وبينائه وبناته ، وفى رسم شعوره ، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير ، ويخشع لجلاله .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان ، والنقمة على الحظوظ وعلى رضاه بالإقامة فى العراق وتركه الشام وطنه ؛ فرأى أن يرحل إلى مدائن كسرى عساه يجد فيها ما يزيل همه .

ويأخذ الشاعر فى وصف القصر الذى به إيوان كسرى ، فنصوره عاليا شاهقا ، حتى لتضعف العين أن تدبى مدى ارتفاعه . وبين ما كان له من سلطان واسع ، وذكر مجده الفرس القديم ، وحضارتهم التى لا تساويها ما كان للعرب فى صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر وآثار وأطلال دراسة ، ولا يصل إليها ما كان لقبائلهم من أعمال . لكن الدهر لم يبق على حظوظ هذه الآثار ، ولم يحافظ على عهدا ، فصارت هذه القصور وكأنها قبور .

ورقف الشاعر أمام صورة فى هذا القصر ملكة عليه قلبه ، وهى صورة معركة حربية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم ، وقد

أجاد المصور تمثيل الرهبة التي تسيطر على المعركة حتى ليخيل لرائيها أن الموت مائل فيها ، يريد أن يحتطف النفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت علمه الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المتحاربين حتى لسكانهم أحياء حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده يرى صورة هي أم حقيقة .

ويعمى الشاعر بعد ذلك في وصف الإيوان ، فيصوره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لامن صنع الإنسان ، ويتخيله كثيبا أزججه فراق صاحب يؤنسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلبت سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والدهر يريد تحطيمه . إنه جليل في العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى في دهشة مما أحاط به ، وتملكه من جلال روعة صنع هذا الصرح : أهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويعمى البحترى متخيلا ما كان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلأته بالمغنيات يحطرن في أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكأنما قد فارقه السكان أمس أو أول أمس .

ينختم القصيدة بدمعة يذرفها على هذا القصر الذي عمر بالسرور دهرآ ثم صار موطن عزاء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهي : أيادى الفرس على العرب في إقامة الدولة العباسية وثبتت أركانها ، وأياديهم كذلك في القديم في طرد الحبشة من أرض اليمن ، وسبب آخر كذلك هو أن الشاعر رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

### وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالاً وثيقاً .

فالتبيعة توحى للشعراء في كل عصر بكثير من المعاني والآثار الأدبية الرائعة ، وقد اثن بها الشعراء وصوروها في مختلف مظاهرها ورسومها صوراً تجمع غالباً بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هوميروس في إلياذته (١) ، كما صورها الشعراء الجاهليون في قصائدهم وآثارهم التي تشابهت رغم تعددها وخلت من مظاهر التنوع والكثرة وخصوصية التصوير ، ولكنها على أى حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس في معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الغدير ولذاته في نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض في لامبته ؛ وعنزة يصف الذباب وهو يغنى بها في معلقته كما يصف فرسه والمعارك التي خاضها ، وهكذا تجد في الشعر الجاهلي والإسلامي صوراً كثيرة لمظاهر الطبيعة القريبة من نجوم وسماء وأنهار وأماكن وقفار ورمال .

وفي العصر العباسي أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياض وأزهار وأنهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، ورائية أبي تمام في الربيع ، وهائية البحتري في وصف بركة المتوكل وجيمته في الربيع

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليوناني القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهبه في الشعر العربي) .  
ملاحظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه ، والطبيعة : الحى بما عدا الإنسان ، والصامت كالحدائق والحقول والغابات والجبال وما إليها ( ص ١ ) شعر الطبيعة في الأدب العربي تأليف السيد نوفل ط ( ١٩٤٥ )



مثل جيدة اشعر الطبيعة في هذا العهد . وللغزال يحيى بن الحكم البكري  
الشاعر الأندلسي المشهور لامية مشهورة<sup>(١)</sup> وصف فيها البحر ورحلته إلى  
قسنطينة موفداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى  
امبراطور الروم في مهمة سياسية ومنها :

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال  
وتولتنا رياح من دبور وشمال  
فرايتنا الموت رأى العين حالا بعد حال

ولعبد الهمة بن المعذل قصيدة طويلة في روضة جميلة<sup>(٢)</sup> ؛ واشتهر  
السري والسنوبري م ٣٣٤ هـ ، والتنوخي م ٣٨٤ هـ بالروضيات<sup>(٣)</sup> ، ولابن  
وكيع م ٣٩٣ هـ قصائد في الرياض<sup>(٤)</sup> .

وفي الحق أن العباسيين قبل أبي تمام والبحري وابن الرومي وابن المعتز  
كانوا قلوباً يلجأون إلى تصوير الطبيعة التي عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحري  
وأبو تمام إلاماً دون أن يتصلحها بأعماق قلوبهما ، وأقبل ابن الرومي عليها  
يصورها تصوير العاشق المفتون حيث أوقع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها  
حبا جما فلا فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يسكاد ينظر إلى إنسان إلا  
تذكر الروضة والبستان<sup>(٥)</sup> ، وقد علل العقاد ذلك يونانية<sup>(٦)</sup> .

---

(١) ١٤٤ : ١ نفح الطيب .

(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعاني ، وراجع ٤٠ : ٢ المرجع نفسه .

(٣) ٣١ : ٢ المرجع .

(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .

(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ ابن الرومي للعقاد .

(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأي صاحب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،

(٩٩ و ٩١) .

ورائته اليونانية أصل فنه الأدبي عند العقاد، ويضيف إليها طه حسين الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان ينتقها الشعراء في القرن الثالث (١) ، ففيه يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضا إسلامية مكتسبة ففي فنه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لا عنصر واحد (٢) :

وكان ابن المعتز شاعر الطبيعة (٣) ووصافها الممتاز ، وله كثير من الآثار في وصف شتى مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شتى أوصاف الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهائم المتبذل والفنان الشاذي والمصور المفتون ؛ منحها شعوره وشعره وهيامه وفنه أكثر من أى شاعر آخر سبقه وأولع بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويده للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال : كنت أسرح مع ابن المعتز في يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجنة المزخرفة فقال :

حبذا آذار شهر فيه للنور انتشار  
ينقص الليل إذا جا . ، ويمتد النهار  
نقشه آس ونسر ين وورد و بهار (٤)  
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

---

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والنثر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه الصورة قبل كل شيء ، وهو في إخراجه للصور والأشكال يمتثل ويتأنق ويكتفى بالإشارة ويستخدم براعة عجيبة ( ١٨٢ شعر الطبيعة في الأدب ) ، فهو مفتون بالطبيعة يرى فيها صورا جذابة ( ١٨٨ المرجع ) .

(٤) ١٤٥ : ٩ الأغاني .

فكان الروض وشى بالغت فيه التجار

وانظر إليه يصف الروض والأزهار والطبيعة :

والروض مغسول بليل ممطر      جلالنا وجهه اثرى عن منظر  
كالعصب أو كالوثنى أو كالجوهر      من أبيض واحمر واصفر  
والشمس في اضواء جو أخضر      كدمعة حائرة في حجر  
نسق عقارا كالسراج الأزهر      يديرها كف غزال أحور  
نخب عيناه بفسق مضمهر      يعلم الفجور من لم يفجر  
وأبو هلال يعجب بهذه الأوصاف (١) ؛ ومن شعره كذلك في  
وصف روضة :

تضاحك الشمس أنوار الرياض بها      كأنما نثرت فيها الدنانير  
ويأخذ الريح من دخانها عنقا      كأن تربتها من مسك كافور (٢)  
ويقول :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت      مثل النساء تبرجت لزناة  
والريح قد باحت بأسرار الندى      وتنفس الريحان بالجنات  
وهو من قول ابن الرومي :

أصبحت الدنيا تروق من نظر      بمنظر فيه جلاء للبصر  
تبرجت بعد حياء وخفر      تبرج الأثني تصدت للذكر  
ومن روائع شعر الطبيعة قصيدة أبي تمام في وصف الربيع ، ومنها :

---

(١) ١٦ : ٢ ديوان المعاني .

(٢) ٢١٤ : ١ فوات .

- رقت حواشي الدهر فهي تمرمر      وغدا الثرى في حليه يتكسر (١)  
 بذلت مقدمة المصيف حميدة      ويد الشتاء جديدة لا تكفر (٢)  
 لولا الذى غرس الشتاء بكفه      قاسى المصيف هشائماً لا ثمر (٣)  
 كم ليلة آسى البلاد بنفسه      فيها ويوم وبـله منعجز (٤)  
 مطر يذوب الصحو منه وبعده      صحو يكاد من الغضارة يقطر (٥)  
 غيثان فالأنواء غيث ظاهر      لك رجهم والصحو غيث مضم (٦)  
 وندى إذا دهنت به لم الثرى      خلت السحاب أناه وهو معذر (٧)  
 أربيعنا فى تسع عشرة حجة      حقاً فإنك للربيع الأزهر (٨)  
 ما كانت الأيام تسلب بهجة      لو أن حسن الروض كان يعمر (٩)  
 أولاً ترى الأشياء إن هي غيرت      سمجت وحسن الأرض حين تغير (١٠)  
 يا صاحبي تقصيا نظريكما      تريا وجوه الأرض كيف تهور (١١)

- (١) تمرمر : تتمايل ، الثرى : التراب ، الحلى : الزينة ، يتكسر : يتثنى .  
 (٢) بذلت : امتننت .  
 (٣) الهشائم جمع هشيم وهو النبات اليابس المتكسر .  
 (٤) آسى : ساوى أو أنال ، الوبل : المطر ، المنعجز : السائل من المطر .  
 (٥) الغضارة : الخصب والسعة ، يقطر : يسكب الماء .  
 (٦) الغيث : المطر ، الأنواء : تجمع الأمطار .  
 (٧) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهى الأرض مجازاً .  
 خلت : ظننت ، المعذر : الذى نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحين .  
 (٨) الحجة : المرة والسنة .  
 (٩) يعمر : يعيش كثيراً .  
 (١٠) سمجت : قبحت .  
 (١١) تقصيا : تلعبا آخره .

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكانما هو مقمر<sup>(١)</sup>  
 دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هى منظر  
 أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تسكاد له القلوب تنور<sup>(٢)</sup>  
 من كل زاهرة تفرق بالندى فكانها عين إليك تحدر<sup>(٣)</sup>  
 تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفى<sup>(٤)</sup>  
 حتى غدت وهداتها ونجاداتها فتبين فى حل الربيع تبخر<sup>(٥)</sup>

إن الربيع سحر وشباب . وروعة وجمال . ونور ونور . وورد وزهر ،  
 وطبيعة طليقة متفتحة ، وحياة فتية متجددة ؛ والربيع دائماً قد ألهم الشعر  
 روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر  
 العربى الكبير الخالد أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع الجميل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الربيع رقت حواشيه فمى بتمايل ،  
 واثرى امتلاً زهوراً ونباتاً فهو يتمايل بتمايلها .

والربيع قد اشترك فى ميلاده مقدمة المصيف الحميدة ويد الشتاء  
 الجديدة التى لا تكفر . فلولا غراس الشتاء الذى قدم بكفه له بالماء  
 والنماء لما أثمر الربيع زهراً وروحاً وريحاناً ، ولرعى الناس فى الصيف  
 هشائم لا تنبت ولا تنمر .

وكم ليلة أعطى الربيع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

- 
- (١) شابه : خالطه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .  
 (٣) تفرق : تجرى جرياً سهلاً ، تحدر : تسكب الدمع .  
 (٤) الجيم : النبات المغطى الأرض ، العذراء : البكر ، تخفى : تستحي .  
 (٥) الوهدات : المتخفصات . النجاد : المرتفعات ، الفتة : الطائفة ،  
 الحلل : الثياب ، تبخر : تتمايل .

الحياة والناس المطر والماء فتتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر، ومن مطر إلى صحو مشرق فتان نضر يكاد من خصبه يسيل الماء، فالأرض بالربيع في غنين : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفي هو الصحو غب المطر الذى تمتلئ الأرض فيه بالنبات والزهور ، وفي الربيع يتساقط الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفيفا .

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذى صادف بدؤه فى التاسع عشر من ذى الحجة أو فى عام ٢١٩ هـ . فيقول له : إنك حقا للربيع الأزهر المشرق الجميل .

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينهى وحسنه سوف يتبدد ، وجماله سوف ينقص . فيقول فى أسف : إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن الرياض كان دائما أبدا لا يزول ولا يحول .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميما ولكن حسن الأرض وجمالها فى تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى صيف غريف ، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذى تكتمل به الأرض بهجة وجمالا .

ثم يخاطب صديقه المتخيلين فيقول لهما : لو أنكما أمعنتما النظر لرأيتا كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ، والذى يمعن النظر للطبيعة فى الربيع يعجبه . نظر شعاع الشمس الذى يتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربى ، فيبدو النهار وكأنما هو ليل مقمر منير .

وما أروع منظر الدنيا فى الربيع ، إنها قبله دنيا معاش وسعى للناس ، فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمال وبهجة وسرور وممتعة خالصة .

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تختفي تارة أخرى ، وما أبدع ما اكتسبت به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى لتبدو وكأنها فئتان جماعتان تمايلان في حلل الربيع . حيث تأخذ بطونها نخرج على ظهرها الزهر والزرع والنبات الذي تكاد القلوب تنور به ! وأعجب لما تخرجه الأرض في الربيع من زهرة تترقق بالندى فتفتتح ويتساقط من فوقها حتى لنظنها عينا تطار عليك وترنو إليك . وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره في إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتلئ به الدنيا فيه من جمال ونضرة وحسن ساحر .

وفي أسلوب أبي تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتفوق فيه . ولغة أبي تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مشعجر » .

ووصفه للربيع في جملة وصف لمظاهره المادية الخارجية .

والصنوبري ( ٥٣٣٤ : ٩٤٥ م ) (١) في الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة	والأرض مستوقد والجو تور
وإن يكن في الخريف النخل محترقا	فالأرض عريانة والجو مقرر
وإن يكن في الشتاء الغيث متصلا	فالأرض محصورة والجو مأمور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا	جاء الربيع أتاك النور والنور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا	تقرر فقايسه بالصيف مغرور

والصنوبري من كبار شعراء الطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسماء والضياء والهواء ، مع انتطالع إلى أسرارها الجميلة ، وكان كشاجم صديقا له .

---

(١) ٦١ : فوات الوفيات لابن شاعر .

### الصيد والطرْد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثر في العصر العباسي الصيد ووصف افتراسه ، وكان مألوفاً ببساطة في الشعر الجاهلي لأنه كان مألوفاً في الحياة الجاهلية الساذجة ، وفي شعر النابغة مثل كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواء : وفي العصر الإسلامي هجر الناس اللهو وعاشوا حياة كلها جِد وإقدام ونشاط وعمل ، فانصرفوا عن الصيد إلا قليلاً منهم كالشعر دل ابن شريك<sup>(١)</sup> فله في الصيد والطرْد أراجيز حسان<sup>(٢)</sup> .

وفي العصر العباسي نبغ أبو نواس في الطرد وكاد أن يخلق هذا الباب خلقاً جديداً ، فنظم الأراجيز في وصف كلاب الصيد : وآلاته وافتراسه ووصف الرحلات التي كان يقوم بها للصيد واشتهر بالإجادة في هذا الباب وعكف عليه تجويداً وتجديداً ولم يتابعه أحد من الشعراء بعده فيه إلا ابن المعتز الذي اشتهر بالصيد والطرْد شهرة أبي نواس<sup>(٣)</sup> ، ويشيد بطردهما الحاتمي في مناظرته للمتني<sup>(٤)</sup> ، وللناشي م ٢٩٣ طرديات على أسلوب أبي نواس<sup>(٥)</sup> .

وقد وصف "شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلاب وفهود وبزاة وغربان وصقور وسواها من أساحة ، ووصف لذاته به ولطوه فيه ، كل ذلك في قصائد يغلب أن تكون من الرجز ويغلب عليها صبغة الغريب ، وهي مع ذلك

(١) شاعر إسلامي من بني غطفان وكان شاعر فصيحاً وفارساً شجاعاً (٣٦٦ : شرح الحماسة) .

(٢) ١٣٩ المؤلف . (٣) ٢ : ٢٨٠ المدة ، ١٢٥ : ٣ الرافعي .

(٤) ٥٠٩ : ٦ معجم الأدباء .

(٥) ٤٧١ : ١ وفيات الأعيان .



جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المعتز هي  
الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشابه  
الساحرة البديعة مما يرفع من مكانته في هذا الفن الذي لا ينطق فيه إلا القليل  
من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

لما تعرى أفق الضياء      مثل ابتسام الشفة للبياء  
وشمطت ذرائب الظلام      قدنا لعين الوحش والظباء  
داهية محذورة اللقاء      تحملها أجنحة الهواء  
أسرع من جفن إلى إغضاء      ومخطفها موثق الأعضاء  
كأثر الشهاب في السماء      ويعرف الزجر من الدعاء  
بأذن ساقطة الأرحاء      كوردة السوسنة الشهباء  
ذا برثن كمنقب الحذاء      ومقلة قليلة الأقداء  
صافية كقطرة من ماء

ويقول :

لما غدونا بسحر      نأخذ أرضا ونذر  
وقام رام فابتدر      أوتر قوسا وحسر  
إذا رمى الصف انثر      فارتاح من حسن الظفر

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهاة للأمد      لما عدون وعدت خيل الطرد  
فبلغ نهاية الجودة في تشبيهها بالعاصفة ، ويشبهها بزوبعة  
الريح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح      تريك على الأرض شدا عجب

لها مجلس في مكان الرديف كتركية قد سبقتها العرب

وقال في البازي :

يحز أعناق الرياح حزا  
وسامها قبضا ونقدا وخزا  
يطلب في رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير في نهاية الروعة والجودة ، ويقول في كلبة صيد :

وكلبة غدا بها فتیان أطبقهم من يده الزمان  
كانها إذا تمطت جان والنجم في مغربه وسنان  
والصبح في مشرقه حيران كأنه مصبح عريان  
فستجد روعة لا يماثلها روعة في التصوير والوصف .

#### الخريجات :

ومن الوصف شعر الخريجات ، وهو كثير في العصر العباسي ووصف  
الخمر ومجالسها قديم في الشعر العربي ، وكان الأعشى إمام هذه الصناعة  
في الجاهلية <sup>(١)</sup> ، وعن ألموا بوصفها عمرو بن كلثوم في معلقته ، وبعد عهد  
الجاهلية اشتهر بوصفها أبو محجن الثقفي <sup>(٢)</sup> وعمرو بن حسان بن هاني <sup>(٣)</sup>  
ويزيد بن معاوية <sup>(٤)</sup> والوليد بن يزيد <sup>(٥)</sup> وقد ذهب به الشراب كل

---

(١) حلبة الكميث للنواجي . (٢) ١٦٢ الشعر والشعراء .

(٣) ٢٣٢ معجم الشعراء .

(٤) ٣٤٢ و ٩٧ حلبة الكميث ، وله فيها أشعار ( ٣٠ و ٠ : ٤٨ و ١٢٢ و ١٣٩  
حلبة الكميث ) وربما كان ذلك من دعاية خصومه السياسيين .

(٥) ٩٨ حلبة الكميث ، والأغاني .

مذهب (١)، ثم أبو الهندي (٢) . وجاء العصر العباسي وأغرق الشعراء في وصف الخمر ، وبالغوا في ذمها وأسرفوا في الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استهلوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناناً مستقلاً من فنون الشعر . وكان الشعراء يلبون بها إلاماً ، ويتحدثون عنها في غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي من مخضرمي الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يشيد بها ويحض عليها ويزينها للناس ، كما في قوله :

قل للسرى أبى قيس أنهجرنا      ودارنا أصبحت من داركم صددا  
أبا الوليد أما والله لو عملت      فيك الشمول لما فارقتها أبدا  
ولا نسيت حباها ولذتها      ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندماؤه ، فقدموها في المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا في نعتها ما وسعهم الإمعان ، وأغرقوا في مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

ومن فرائده الخمرية :

يا شقيق النفس من حكم      نمت عن ليلي ولم أنم (٣)  
فاسقني البكر أتى اختمرت      بخمار الشيب في الرحم (٤)

(١) ٣٢٨ : ٤ العقد ، وراجع ترجمته في مذهب الأغاني (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذي جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأخبارها وأخبارها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ١٢ و ٩٦ حلبة الكميت ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٣) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر ما يعطوها من الزبد .

ثمت انصات الشباب لها بعد ما جازت مدى الهرم (١)  
فهي لليوم الذي برزت وهي ترب الدهر في القدم (٢)  
عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم  
لاحتبت في القوم مائلة ثم قصت قصة الأمم  
قرعتها بالمزاج يد خلقت للسيف والقلم  
في ندامى سادة زهر أخذوا اللذات من أمم  
فتمشت في مفاسلهم كتمشى البرء في السقم  
فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلم  
فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

ولابن طباطبا (٥٣٥٢) :

أأنك الشرب والأنوار دائمة والطل منها على الأشجار منشور  
والغصن بهز كالنشوان من طرب والورد في العود مطوى ومنشور  
لا، والتي تركتني يوم فرقتها كأنما الرمل في عيني منشور (٣)  
وهذه هي سيفية أبي نواس المشهورة في وصف الخمر، قال أبو نواس في الخمر:  
ودار ندامى عطلوها وأدجلوا بها أثر منهم جديد ودارس (٤)  
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٥)

(١) انصات أجاب . (٢) برزت بالمجهول صبت وسالت .

(٣) ٤٩ المغرب لابن سعيد .

(٤) الندامى جمع ندمان جلييك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل ، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .

(٥) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب الندى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الخزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد باقطلع . وهذا البيت بيان الأثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

حبست بها صبحي وجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس (١)  
تدور علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع التصاوير فارس (٢)  
قراراتها كسرى ، وفي جنباتها مها تدرجها بالقسي الفوارس (٣)  
فللخمر مازرت عليه جيوبهم والساء مادارت عليه القلائس (٤)

دراسة لهذه القصيدة :

أقام أبو نواس أياما في رفقة كريمة عليه يتمتعون في ظل عيش رخي ،  
وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر في كئوس ذهبية فأراك صورة  
الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقي بعضها  
غضا جديدا كهمس السارين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تأق  
صانعوها فزينوها بصورتين يدها جمالا ، فهذه صورة كسرى في قرارة الكاس  
وفي جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر في الكئوس  
وكية الماء فيها .

(١) يريد أنه ألزم من صاحبه هذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب  
وأعادوا العهد على مثل هذا العيش ، وهو حريص على أمثال هذه شديدة الاهتمام بها .  
(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى العسجد أي الذهب ، والمراد أن  
الكأس من ذهب ، وحبها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قراراتها أسفلها ، والمها جمع مائة البقرة الوحشية . وإدرى الصيد ختله .  
والقسي جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس - والمعنى أن الكاس  
محلاة بصورة كسرى في أسفلها ، أما جوانبها فمحلاة بصور فرسان ينتهزون غفلة  
المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلائس جمع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا  
يشربون الخمر مزوجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها  
بالماء حتى تغطي رؤسهم .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبي نواس على القديم فهو فيها لا يبكي طللاً ولا يقف على رسم ، إنما يبكي داراً للهو والمجون قضى فيها أياماً ثم تركها وفي نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها . وقد كان أبو نواس ينعى على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون في حياة حضرية بلغت الذروة في الرقي الاجتماعي والثقافي .

وشاعرية أبي نواس كما تبدو في هذه القصيدة قوية فياضة متأججة الشعور مضطربة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد حريص عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها في شعره في كل شيء ؛ إلا في عرض قصيدته ، الذي كان جله في وصف الخمر ، والدعوة إلى ترك مساواة الأطلال .

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها ، وكان شعره من أقوى مظاهر التجديد في الشعر العباسي ، لذلك عد رأس مدرسة من مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس في شعره خلاصة من معاني شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صوراً جديدة من معانيه المبتكرة ومعاني الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى ، وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين في الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب معانيه : بشار بن برد . وقد كانت أكثر معاني أبي نواس المبتكرة وتشديداته البديعة في الخمريات التي فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقاً أو كذباً ؛ ثم في الغزل بالمذكر ، ولاغربة في ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده . هل أن له في الأغراض الجديدة معاني لم يحم حولها شاعر ، كما أن له فيها وفي غيرها معاني مبتكرة .

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها  
بحذف الوديء والمكرر ، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيوناً .  
فهو من أمثال زهير والخطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة  
قصيرة . وكان إذا مدح أصدقاؤه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين  
: دمايته ولبنه ورقة نسجه . ومهد المديح بزم الديار والأطلال والنوق  
والجمال ، ودعا إلى معايرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغاني ومباكرة  
الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك  
كان يرقق القول في المقطعات والخمرات ، ويسف إلى أن يقارب .

### الحكمة :

الحكمة هي آثار التفكير في الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق  
والأشياء وهي ثمرات العقل الإنساني والإحساس الفكري بالحياة .

والحكمة قديمة في الشعر العربي تجدها في الجاهلية في شعر زهير وأضرابه  
وفي الإسلام في شعر كعب الغنوي (١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث  
بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعراً إذا حكمة في شعره (٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس في الزهد (٣) ، وكان القطامي كثير  
الأمثال في شعره (٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفي جل أشعاره  
آداب وأمثال وأدرك الدولتين (٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

---

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثرة ما في شعره من الأمثال (٢٤١) معجم  
الشعراء . (٢) ١٧٢ المؤلف للأمدى .

(٣) ٩١ المرجع .

(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٥) ٤١ المرجع .

فأكثرها من الحكمة كصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ومحمود الوراق ،  
كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره في الحكمة والأمثال ، وكان  
مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها وله كتاب  
سماه الشكوك<sup>(١)</sup> وكان أبو العتاهية لا يكاد يخلى شعره مما تقدم من الأخبار  
والآثار<sup>(٢)</sup> ، وأكثر شعره في الزهد والأمثال<sup>(٣)</sup> ، وكان أكثر شعر محمود  
الوراق أمثالا وحكما ومواعظ ، وليس يقهر بهذا الفن عن صالح بن عبد  
القدوس<sup>(٤)</sup> . ولأبي تمام كثير من الحكم الاجتماعية في شعره .

وكانت الحكمة في العصر الجاهلي مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه  
الخاصة في الحياة ، وفي العصر الإسلامي كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها  
فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق  
والاجتماع ، وفي بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية  
التي احتذاها الشعراء ونظموها كثيرا من معانيها ، ثم جاءت الفلسفة والحكمة  
اليونانية ، فلقحت العقول بلفاح جديد ظهر أثره في هذا الفن في العصر  
الثاني على يد أبي تمام م ٢٣١ هـ ، وابن الرومي م ٢٨٣ هـ ، والناسخ الأكبر ٢٩٣ هـ  
ثم المتنبى والمعري .

ويصف المتنبى الحياة والناس فيقول في حكمة عالية<sup>(٥)</sup> .

(١) ١٣٢ و ١٣٣ ج ٣ الرافعي .

(٢) ٢٣٨ ج ١ الكامل للبرد .

(٣) ١٢٢ ج ٤ الأغاني .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٥) المتنبى شاهد أواخر العصر العباسي الأول وأوائل العصر العباسي الثاني

فهو مخضرم .



صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عانا  
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا  
ربما تحسن الصنيع لياليه وإمكن تكدر الإحسانا  
وكأننا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا  
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا  
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادي فيه وأن نتفانى  
غير أن اتقى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا  
ولو أن الحياة تبقى لحي لعدونا أضلنا الشجعانا  
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جيانا

### الزهد :

وهو فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف ، والدعوة  
إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ،  
على أن في شعر الزهد جانباً من جوانب الدين الذي يوجب البساطة في كل  
شيء ، ومن شعراء الزهد في هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد  
القدوس ، وأبان بن عبد الحميد الكاتب ، الذي نظم كتاب كليله ودمنة  
للسمر والموعة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون في هذا الباب وإن لم يكن  
لهم فيه مضمار ، كأبي نواس وغيره .

ونماذجه في ديوان أبي العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية في شعره  
من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ،  
فهو يقول في شعره :

رغيف خبز	يابس	ناكله	في	زاوية
وكوز	ماء	بارد	تشربه	من صافية
وغرفة	ضيقة	نمسك	فيها	خالية
أر	مسجد	بمعزل	عن الورى	في ناحية

تدرس فيه دفترًا مستندًا بسارية  
خير من الساعات في في القصور العالية

ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض (١).

ويقول أبو العتاهية يخاطب الخليفة ، مصورا في شعره للغلاء  
في بغداد :

من مبلغ عنى الإمام	نصائحنا	متوالية
لانى أرى الأسعار	أسعار الرعية	غالية
وأرى المكاسب نزرة	وأرى الضرورة فاشية	
وأرى غموم الدهر را	نحمة نمر وغادية	
يرجون رفدك كى يروا	مما لقوه العافية	
من يرتجى للناس غير	ك للعيون الباكية ؟	
من مصيات جوع	تمسى وتصبح طاوية	
من يرتجى لدفاع كرب	ملمة هى ماهية ؟	
من للبطون الجائعا	ت وللجسوم العارية ؟	
يا ابن الخلائف لا فقد	ت ولا عدمت العافية	
إن الأصول الطيبا	ت لها فروع زاكية	
ألقى أخبارا إليه	ك من الرعية شافية (٢)	

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ نصى الإسلام .

(٢) ٣٠٤ ديوان أبى العتاهية .

### الفخر :

١ - يرى ابن رشيق أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه (١) ، ويراها أديب يحدث تاريخاً لفضيلة الفرد والجماعة (٢) ، وفي الحق أن الفخر إشادة الشاعر بنفسه أو قومه وتنويهه بأدبه أو حسبه ، ولا يدعو إليه عاطفة الآثرة والأناية في كل وقت ، بل قد يكون الشاعر مضطراً لأن يساجل خصومه ويسجل على أعدائه ما خفي عنهم من صفاته وآدابه ، أو ما جحدوه من مآثره وفضائله ، وليس من شك في أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جميعاً ، والذي يطالب به الشاعر حين يفخر هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعة التي لا تزكن إلى الخيال بل إلى الواقع نفسه في تصويرها وتصويرها .

وللشعراء المحدثين ، ولابن المعتز من بين المحدثين مجال كبير في الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جميعاً ، فيذكره ابن شرف منوهاً بافتخاراته الملكية وهماة العلوية (٣) ، ويقول الباقلائي : وتجد لابن المعتز في مواقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجد لغيره لأنه إذا قال : إذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار أوقال :

قد ترديت بالمكارم دهرًا وكفتني نفسي من الافتخار  
أنا جيش إذا غدوت وحيداً ووحيد في الجحفل الجرار  
أوقال :

أيها السائل عن الحسب ألا طيب ما فوقه لخلق مزيد

---

(١) ١٣٦ ج ٢ الممددة . (٢) ٩٩ ج ٣ الرافعي

(٣) ٢٤٩ رسائل البلغاء .

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد؟  
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود  
وبقول من قصيدة له :

وأسهر للمجد والمكرمات إذا اكتحلت أعين بالكرى  
فانظره في هذه القصيدة كلها ، ثم في جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ،  
وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم ما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر  
عن سواه (١) .

ولأبي نواس (٢) في عزة النفس وهو من المعاني القريبة من الفخر ،  
والآيات عالية الطبقة في البلاغة ، ويصف فيها أبو نواس انفعالاته النفسية  
وصفاراتها :

ومستبعد إخوانه بثرائه لبست له كبرا - أبر - (٣) على كبر  
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبي وعراً (٤) يزيد على الوعر  
أخاله في شكله ، وأجره (٥)  
على المنطق المنزور (٦) والنظر الشرر (٧)

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إيجاز القرآن .

(٢) من شعراء الدولة العباسية (١٤٥ - ١٩٨ هـ) .

(٣) أبر (فعل ماض) فيكون معناها غلب وقهر ، ويصح أن تكون أفعل  
تفضيل فيكون معناها أعظم قهراً وغلبة . والمعنى من يتخذ غناه وسيلة لاستعباد  
إخوانه ، وتكبره عليهم - فإني ألبس له كبرا يغلب كبره ويقهره ، أو كبرا أعظم  
قهرًا وغلبة من كبره . (٤) صعباً .

(٥) أطلعته ، أو أقطع لسانه . (٦) القليل .

(٧) النظر الشرر ما يكون بجانب العين ، بغضا وإعراضا ، ومعنى البيت  
أني أحالف الغنى المتعجرف في كل ما يكون منه ، وأقطع لسانه وأوذيه ، لما يتكلفه  
من قلة الكلام والنظر الشرر .

وقد زادتني بها<sup>(١)</sup> على الناس أفتى      أراني أغناهم ، وإن كنت ذا فقر  
فوالله لا يبدى لسانى حاجة      إلى أحد حتى أغيب فى القبر  
ولو لم أنل فضلا لكانت صيانتى      فى عن جميع الناس - حسبي من الفخر

### العتاب :

ومن نماذجه قول ابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجى :  
يا أخى أين عهد ذاك الإخوان      أين ما كان بيننا من صفاء  
كشفت منك حاجتى هنوات      غطيت برهة بحسن اللقاء  
تركتنى ولم أكن سبي الظن      أسيء الظنون بالأصدقاء  
يا أخى هبك لم تهب لى من سه      يك حظا كسائر البخلاء  
أفلا كان منك رد جميل      فيه للنفس راحة من عناء  
يا أبا القاسم الذى كنت أرجو      ه لدهرى قطعت متن الرجاء  
لا أجازيك عن غرورك إيا      ي غرورا وقيت سوء الجزاء  
بل أرى صدقك الحديث وماذا      ك لبخل عليك بالإغضاء  
أنت عيى وليس من حق عيى      غصن أجفانها على الأقداء  
ما بأمثال ما أتيت من الأمر      يحل الفنى ذرى العلياء  
بذل الوعد للأخلاء سمحا      وأبى بعد ذاك بذل العطاء  
فغدا كالخلاف<sup>(٢)</sup> يورق للعين      ويأبى الإثمار كل الإباء  
وفى أبيات ابن الرومى السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه فى  
نظم القصيدة ، فهو يعتمد على الحجاج العقلى وكثرة التوليد للمعانى

(١) كبرا .

(٢) هو شجر المصصاف .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقتها . . وهو لا يترك منطقاً معقولاً في عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا باباً من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الرومي هنا عتاب كله حميج وأدلة وأقيسة ، وهذا من باب المذهب السكلامي الذي ذكره علماء البديع في المحسنات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومي عذبة سهلة وأساليبه تليق فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته في تناوله الفني لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلي في آخر هذه الأبيات تشبيه دقيق بليغ ، إذ شبه وعد صديقه الخلاب الخادع بمظهر شجرة الصفصاف الجميل المونق ، الذي ليس وراثة ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومي شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريض في القرن الثالث الهجري ، ويعد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كان من أبطالها : أبو تمام والبحتري وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان لها نهجها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعاني وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفي الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر رومي ، كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويعتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونسج في الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجاءها

يريد أن يأكل ، وظلم أن يريد أن يردى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ،  
وقصد بشعره رجالا الدولة في عصره مادحا فخرموه العطاء ، فعاش ساخطا  
على الحياة والأحياء :

في دراتي أنا مغصوب وفي زمني عودى ظمى بلا رى ولا بلل  
كان شابا جميلا قوى المملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه  
ذلك شيئا في حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التي يحياها في عصره  
كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب  
الذى ذاق ألم اليتيم والشاعر المرفف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس  
وأطرمهم وابلا من أهاجيه ، التي بغضته إلى الكثير وزادت من آلامه  
في الحياة . تزوج فأعقب ثلاثة أولاد فقدهم جميعاً . وفقد بعدهم أخاه ثم زوجته  
وأمه ؛ فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا في هذه الطيرة التي لازمت  
ابن الرومى طول حياته ؛ عاصر المعتصم والوائق والمتوكل المنتصر والمستعين  
والمعتز ، والمهتدى والمعتمد ، وتوفى في عهد المعتضد سنة ٢٨٣ ، أو ٢٨٤ هـ  
كما يقول ابن خلكان .

وكان للدم الرومى وأثر الوارثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبينته ،  
ولمشاعره المرففة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية  
الشاعر وفنه الأدبي ، الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ،  
اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في  
نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ، وأشاعت في فنه هذا  
اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهوفن الهجاء ، الذى امتاز به  
الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذه بشيء ، كما يقول يهجو مغنيا من  
قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقة فإنها نعمة من النعم  
 مجلسه مأتم اللذات والقصف وعرس الموم والدم  
 كآني من طول ما أشاهده أشرب كأسى موزجة بدمي  
 إذا الندامى دعوه آونة تنادموا كأسهم على الندم  
 وكان لبؤسه في الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء ، أثر واضح في إجادته  
 فن الرثاء ، وداليتة في رثاء ابنه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :  
 بكاؤكا يشقى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندي  
 وكذلك جيميته في رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته  
 في رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشغف قلب ابن الرومى  
 بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاتها ، وحياته في مظاهر الحضارة التى كانت  
 تغمر عصره ، وأثر الوراثة في نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين في  
 الشعر العربى ، وقصيدته في وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ،  
 ويقول منها :

يا خليلي تيمتني وحيد	ففوأدى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد	ومن الطي مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها	فشقى بحسنا وسعيد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الأوصال وهي تيمد
مد في شأوصوتها نفس كاف	كأنفاس عاشقها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا	مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة : غناء وحسنا	ما لها فيهما جميعا نديد
هى شىء لا تسأم العين منه	ولها كل ساعة تجديد

(١) زاد عن مقتل لذيذ المنام  
 ، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج  
 شغلها عنه بالدموع السجام  
 طريقان شتى مستقيم وأعوج  
 (١٤٢ - ٢ ق)



منظر، مسمع، معان من اللهـو، عتاد لما يحب عثيد  
وكذلك نونيته في يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومي الجيد  
ومنها في وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتي يحملنها :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بذها حواني  
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان  
كل عود يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران  
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير، كما أجاد في  
وصف الخمر وفي وصف الأخلاق والعواطف، ويبلغ في العتاب الغاية في  
الجودة، كما في قصيدته في عتاب أبي القاسم الشطرنجي، التي مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح نحوز الإحسان والإجادة، ومنها نونيته في أبي  
الصقر، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فبين نوعان تفاح ورمان  
ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان  
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي، فهو يطلب  
صح المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته، كما يقول ابن  
رشيق (١). كان بديع المعاني بعيدا، كثير الاختراع والتوليد فيها،  
والاستقصاء لها، لا يترك فيها بقية لغيره، والقدرة التامة في تشويق المعاني  
وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي، ويقول ابن رشيق

فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني ، أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردى . وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعره أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديته لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كابن الرومي وأبي تمام ، فلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول النفس ، مما لا يجاريه فيه إلا ابن هاني . الأندلسي ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص في تناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لو كانت قطعة واحدة ، « وولفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسى في غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم العقل أحيانا ، ألقى ملسكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي ، أهمله صاحب الأغاني إهمالا ، يعمله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش ، أستاذ أبي الفرج ، ويعمله آخر بأن ابن الرومي كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب ، لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلمه أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض . يقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو في تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهي وافقة تحت ظلمها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ

(١) الرسل : التوادة .

منها (١) ، ويقول ابن رشيق في عمدته : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٢) » . ويقول ابن شرف القيرواني فيه : « وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطراء ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٣) » . ويقول المعري عنه في رسالة الغفران : « وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٤) » . ويقول فيه ابن خلسكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكائدها ، ويرزها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبق فيه بقية » . ويقول المسعودي فيه : « كان من مختلفي معاني الشعر ، والمجودين في القصير والطويل ، وكان لشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدياء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : « إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرد ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألوه ولم يظربوا له ، طريقتهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم (٥) » . وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدته التي يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه	أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحم (٦) والخشب	اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق	رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن	قصر في الشعر ، إنه بشر

(١) ٥٤ وساطة .

(٢) ٢٢٥ : ١ الممددة .

(٣) رسائل الانتقاد .

(٤) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(٥) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد . (٦) قشر الشجر .

### الهجاء والمجون :

كان الهجاء يباعث العصية والخصومات السياسية مألوفاً في هذا العصر، يظهر في باب الشعر السياسي، ويتجلى في ثوب التعصب القبلي، ويستعلن في الأحقاد الشعبية.. وهناك لون جديد من الهجاء لم ندع إليه عصية، ولم نثره خصومة سياسية؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتنادر والتهكم، لإزجاء للفراغ وإظهاراً للبراعة في التقييح وتوليد المعاني فيه.

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد، وذبوع المثالب، وكثرة الفجور؛ كما كان من آثارها ارتفاع الأذواق، حتى لم تعد تسبغ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك.

فلما ضعف الوازع الديني. وتوفرت أسباب الراحة، واتسعت أوقات الفراغ، ولان جانب العيش. وجد الشعراء في هذه السوءات والمثالب والمفاسد، وفي تلك المناظر الشاذة، والعادات القديمة، مادة واسعة للهجاء، ومنبعاً فياضاً يستمدون منه ما يتندرون به في بحال السهم، ويتفككون في أسماهم وما يتسابقون فيه من إظهار البراعة في الوصف والإبداع في السخرية والإضحاك.

ولقد راحوا ينتبعون العورات، ويتقصون العثرات، ويترصدون للعيوب، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك، كما راحوا يذمون اللهى، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة، ويستهمجون أصوات المغنين، ويسخرون من عادات المترممين، وصاغوا ذلك كله في شعر مقدع مضحك، يغريك بالضحك من التصوير قبل أن يغريك بالإشفاق على من قيل فيه.

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه، بسبب المدنية والإباحية وضعف رازع الدين، قالوا إن مطيع بن إلياس مر يبيح بن زياد وحامد

ابن اسحق ، فقال لها : فيم تتحدثان ؟ قالا : في ذنوب المحصنات ، فقال : أفى  
الأرض محصنة تقذفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخيلا :

كأن عبيد الله لم يلق ماجداً      ولم يدرك أن المكرمات تكون  
إذا جنته في حاجة سد بابها      ولم تلقه إلا وأنت كمين  
وقال يهجو المهدي مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :  
بنى أمية هبوا طال نومكمو      إن الخليفة يعقوب بن داود  
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا      خلافة الله بين الزرق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه      يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه  
ويخرجه من كفه فيشمله      ويجلسه في حجره ويخاطبه  
وإن جاءه المسكين يطلب فضله      فقد نكته أمه وأقاربه  
يكر عليه السوط من كل جانب      وتكسر رجلاه وينتف شاربه  
ويقول كذلك في قدر بخيل :

يغص بخلقوم الجرادة صدرها      وينضج ما فيها بعود خلال  
وتغلي بذكر النار من غير حرها      وتنزلها عفواً بغير جمال

ويهجو البحتري الخثعمي بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمي يقل أنفأ      يضيق بعرضه البلد الفضاء  
سما صعداً فقصر كل سام      لهيبته وغص به الهواء  
هو الجبل الذي لولا ذراه      إذن وقعت على الأرض السماء

ولقد قرأنا لابن الروي بعض صوره ( الكاريكاتورية ) الباردة .

رأينا تصويره الأحذب ، فلنشهد هذه الصورة للجحظة المخنى :

رأيت جحظة يخشى الناس كلمه  
نخاله أبدأ من قبس منظره  
كأنه ضفدع فى لجة هرم  
لو كان لله فى تخليدنا قدر  
ويقول فى صلعة أبى حفص :

ياصلعة لأبى حفص برمده  
زن تحت الأكف الواقعات بها  
كان ساحتها مرآة فولاذ  
حتى ترن بها أكناف بغداد  
ويهجو عمراً فيقول :

وجهك ياعمرى فيه طول  
والكلب واف وفيك غدر  
وقد يحامى عن المواشى  
وأنت من أهل بيت سوء  
وجوههم للورى عظات  
مستفعلن فاعلن فعولن  
بيت كمعناك ليس فيه  
ويقول :

لو أن قصرىك يا ابن يوسف كله  
وأناك يوسف يستعيرك إبرة  
إبر يضيق بها فضاء المنزل  
ليخيط قد قبسه لم تفعل  
وهذه ليلة من ليالى أبى نواس الملاجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه  
فلما قرعنا بابه هب عائفاً  
بفتيان صدق ما ترى منهمونكرا  
وبادر نحو الباب ممتكلاً ذعرا  
وقال : من الطراق ليلا فناءنا ؟  
فقلت له افتح ، فتية طلبوا خمرنا

فأطلق عن أبوابه غير هائب  
ومر أمام القوم يسحب ذيله  
فقلت له : ما الاسم حييت قال لي  
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه  
فقلت له جئت لك نبتاع قهوة  
فقال اربعوا عندي الذي تطلبونه  
فقلت فإذا مهرها قال مهرها  
فقلت له خذها وهات نعاطها  
فشك بأشفاء له بطن مسند  
وجاء بها والليل ملق سدوله  
ربيبه خدر راضها الخدر أعصرا  
إذا أخذتها الكأس كادت يريحها  
وما زال يسقينا ويشرب دائبنا

وأطلع من أزراره قرأ بدرا  
يجاذب منه الردف في مشيه الخفرا  
دعاني أبي (سابا) ولقبني (شبرا)  
نجن ولم نستطع لمنطقه صبرا  
معتقة قد أنفدت قدماً دهرها  
قد احتجبت في خدرها حقياً عشرها  
إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا  
فقام إليها قد تملئ بنا بشرا  
فسالت تحاكي في تالائها البدرا  
مدلاً بأن وافي محيطاً بها خبرا  
فكانت لها قلباً وكان لها صدرا  
تخال بها عطراً وما مزجت عطرا  
إلى أن تغنى حين مالت به سكرها

ومن مجونه قوله في تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفاي  
فقلت لها جهلت فليس مثلي  
بذا أوصى كتاب الله فينا  
بفضيل البنين على البنات

غلاما واضحا مثل المهاء  
يجادع نفسه بالترهات

الوفاء :

قال أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجل الخطب، وليقدح الأمر  
توفيت الآمال بعد محمد

فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر  
وأصبح في شغل عن السفر السفر (١)

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس  
لم يكونوا يأملون إلا فيه ، وشغلت الناس الرزية فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

وما كان إلا مال من قل ماله  
وما كان يدري مجتدى جود كفه  
ألا في سبيل الله من عطلت له  
فتى كلما فاضت عيون قبيلة  
فتى دهره شطران فيما ينوبه :  
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة  
وما مات حتى مات مضرب سيفه  
وقد كان فوت الموت سهلا فرده  
ونفس تعاف العار حتى كأنما  
فأثبت في مستنقع الموت رجله  
غدا غدوة والحد نسيج رذائه  
تردى ثياب الموت حمرا ، فادجا  
كان بنى نبهان يوم وفاته  
يعزون عن ثار تعزى به العلاء  
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى  
فتى كان عذب الروح لامن غضاضة  
فتى سلبته الخيل وهو حى لها

وذخر آمن أمسى ، وليس له ذخري  
إذا ما استهلكت أنه خلق العسر  
فجأح سبيل الله ، وانثغر انثغر  
دما ضحكته عنه الأحاديث والذكر (١)  
فتى بأسه شطر ، وفي جوده شطر  
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر  
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر  
إليه الحفاظ المر والخلق والوعر  
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر  
وقال لها : من تحت إخمصك الحشر (٢)  
فلم ينصرف إلا وأكفسانه الأجر  
لها الليل إلا وهي من سندس خضر  
نجوم سماء خر من بينها البدر  
ويسكى عليه البأس والجود والشعر  
إلى الموت حتى اشتشهدا هو والصبر  
ولكن كبرا أن يقال : به كبر  
وبزته نار الحرب وهو لها جمر (٣)

(١) يقول : إنه ما من قبيلة دحرت في الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها .

(٢) يريد أنه قد ثبوت الموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزه ثوبه وابتزته ، سلبه .



وقد كانت البيض المآثير في الوغى      بواز ، فهي الآن من بعده بتر (١)  
 أمن بعد طل الحادئات محمدأ      يكون لأثواب الندى أبدأ نشر  
 إذا شجرات العرف جذت أصولها      ففي أى فرع يوجد الورق النضر؟  
 لئن أبغض الدهر الختون لفقده      لعهدى به بمن يحب له الدهر  
 لئن غدرت في الروع أيامه به      فما زالت الأيام شيمتها الغدر  
 لئن ألبست فيه المصيبة طينا      فما عريت منها نعيم ولا بكر  
 كذلك ما تنفك نفقد هالكا      يشاركنا في فقده البدو والحضر  
 سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر      وكيف احتمالى للغيوث صنيعة  
 معنى طاهر الأثواب لم تبقر وضة      يأسقائها قبرا ، وفي لحده البحر  
 ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى      غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر  
 عليك سلام الله وقفا فإننى      ويغمر صرف الدهر نائله الغمر  
 رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب  
 ابن أوس الطائي ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة  
 التي تؤثر المعنى وتحتفل به وتعتمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة  
 الشعر في عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه في ميدان  
 وحسبك أن البحتري سئل عن نفسه وعن أبي تمام فقال : إنما أكلت  
 العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من  
 الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فكان يسقى الماء بجامع عمرو وكان المسجد

(١) المآثير : جمع مآثور ، والسيف المآثور القديم المتوارث ، وبواز :  
 جمع باثر وهو القاطع . وبتر : جمع أبتر ، أى مقطوعة .

إذ ذاك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يروها  
ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ في قرض الشعر ،  
ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتصم ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب  
صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاه الحسن يريد الموصل فأقام بها إلى أن مات  
سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وقصيدته هي في الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالا وأحفل أبواب  
الأدب بالحكمة ، وأخرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السائر والموعظة  
البالغة ، والمرثي قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميدا ورجع مظفرا  
منصورا ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسي من بني نبهان قبيلة من طيء  
التي ينتسب إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لمحاربة بابك الخرمي رئيس الطائفة المنسوبة إليه  
الخارجة على الخلفاء ، والتي ملأت الأرض فسادا ، وامتدت ثورتها من  
عهد المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يحالف الحظ القائد في هذه المعركة فقتل  
سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التي لا تقنى ماء  
شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس في كل ناحية  
وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهدا فسهل موته السيل  
إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفرا منصورا فأطلق أسنة  
الشمراء بالثناء عليه وترك وراءه عيوننا دامية تبكي قتلاها وتنعي موتها ،  
وأن هذا المرثي قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن  
فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذي الغنى      ويوم رقاب بوكرت لحصاد  
ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات

القتال فتثلت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة  
والهرب من الموت ممكناً ، ولكنه أثر جميل الذكر وحسن الاحدوثة  
مابقى الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة في ساحة  
الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فن العجز أن تموت بجباناً

لقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط في ساحة  
المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء في دار الخلود . ثم  
أقبل على عشيرته الأفرينين يواسيهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى  
إن الفضائل تندبه وتبكي عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذهابه  
ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضى حياء  
وتواضعا .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعراً ، ومن الفوارس كيف تقتك  
بجاميها ، وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر في الحروب  
مزيها ، وأن الكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ،  
ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشياً تذروه الرياح ، ثم وصف العيش  
بعده بأنه مر لا يطاق . والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ،  
وقد كانت في أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس في ظلالها ويتساقون كؤوس  
السعادة في جنباتها . لكنه الأيام لا تؤمن فجعتها ولا تدوم حيرتها . ثم ذكر  
أن الفجعة عمت العرب جميعاً فهم مأجورون فيه ومعزون به ، ولا تزال المنايا  
تختار من يعم رزؤه ويحل مصابه . ثم سأل الغيث أن يتعمد قبره بالسقيا ،  
ولكنه عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن في القبر البحر الذى تنشأ عنه هذه  
الأمطار ، وسأل الله في ختامها أن ينزل رحماته عليه ، وتأس بأن عادة الموت  
أن ينزل بالكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام مأخذ كثيرة : منها رداءة مطلعها  
وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء في خيالها . ذكروا  
أنه أخذ قوله :

كأن بنى نيهان يوم وفاته

من قول صافية الباهلية :

كننا كأنجم ليل يدينها قر

وقوله :

أمن بعد طى الحادثات محمدا

من قول أبي نواس : « طوى الموت ما بيني وبين محمد ،

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طىء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيتة فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمي يرثي ذفافة :

روى الأغانى قال قال محمد بن موسى كنا عند دهب فذكرنا أبا تمام  
فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دفترأ فإذا فيه : قال مكنف  
السلمي يرثي ذفافة العبسي :

ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خلى مكانه	فلا حملت أثى ولا مسها طهر
ولا أمطرت أرضاً سماء ولا جرت	نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القعقاع يوم وفاته ، نجوم سماء خر من بينها البدر  
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح في شغل عن السفر السفر  
يعزون عن ثار تعزى به العلا ويبيكى عليه المجد والبأس والشعر  
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا

وذلك إسراف منهم في النقد ، وتحامل لا يقوم في بعضه على أساس ،  
فإن هذه المعاني مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ،  
ولا ننسى أن دعبلا كان منافساً لأبي تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة  
ما يدعونا إلى الشك في خبره ، وأبو تمام شاعر وراويته من للناس طريق  
اختيار الشعر وحفظ منه ما لم يحفظه أحد ، فإذا جرى في شعره على معاني  
المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع  
الصور في شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة ألجأه إليها جدد في تفكيره أو إملاق  
في لغته . . وأبو تمام الرجل الذي يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته  
المبتكرة ويأني بالنائي البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسرا في  
بلوغ مرامه لكنه على كل حال لا تعوزه المادة ولا تشعر باستجدائه  
وقصور باعه لكن ذلك لا يعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونقله  
إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه له وأخذه  
منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عن سبقه من الشعراء في قوله : رأيت الكريم  
الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتبدد

وقال الحماسي :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا كذاك الروح يكلف بالكريم

وقال الخارجي : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو في قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم  
ويسلم الناس بين الحوض والعطن  
فالماء ليس عجيباً أن أعذبه يفنى ويمتد عمر الآجن الأسن  
فرفع التمثيل من شأن المعنى وبوأه من النفوس موضعاً مرضياً ،  
واحتج لذلك احتجاجاً مقبولاً . وكـم كان من الحرى بأبى تمام أن  
يتحدث في قصائد الرثاء إلى الناس في سهولة ويسر ، وأن يعدد  
مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف في التماس وجوه البديع ،  
وكان ينبغي أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن  
تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة  
فائقة وحذق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال .  
فاضت العيون دماً . ضحكك الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت .  
يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمداً . شجرات العرف .  
سقى الغيث غيثاً . في لحده البحر . يحيا به الثرى . والطباق في مثل : بكت ،  
وضحكك ، وطى ، ونشر ، وأبغض ، ويحب ، وألبست ، وعريت ، وبدو ،  
وحضر ، وحر ، وخضر .

والجناس في مثل : انشغل الثغر ، مضرب سيفه من الضرب . بواتر وبتر .  
إلى غير ذلك من ضروب البديع الذى كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان  
يخرجه أحياناً إلى التسكاف : كأنشغل الثغر مثلاً ، أراد أن يجانس فوقع  
في هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشترت

بالأشترين عيون الشرك فاصطالما

وفي القصيدة يقول أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده      إليه الحفاظ المر والخلق الوعر  
ونفس تعاف العار حتى كأنما      هو الكفر يوم الروح أو دونه الكفر

وهو شبيه بقول الحماسية :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم      وأن يرتقوا من خشية الموت سلماً  
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة      ولكن رأوا صبرا على الموت أكرماً

ومما لا ريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محمول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت ؛ ومحصول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت بهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وعلم النجاة بأيديهم والفرار لآثار فيه لأنهم أعذروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومي يرثي ابنه محمداً :

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي	فجودا فقد أودى نظيركما عندي (١)
ألا قاتل الله المنايا ورميها	من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي	فله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته	وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضخى مزاره	بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبته	فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله	إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد (٢)

(١) بكاؤكما : الخطاب لعينييه ، ولا يجدي : لا ينفع ، وأودى : هلك .

(٢) الجادى : الزعفران ، وهو أصفر .

وظل على الأبدى تساقط نفسه

ويذرى كما يذوى القضيبي من الرند (١)  
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له  
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد  
وما سرتني أن بعته بثوابه  
ولو أنه التخليد في جنة الخلد  
ولا بعته طوعا ولكن غصبه  
وليس على ظلم الحوادث من معد (٢)  
وإني وإن تمتعت بأبني بعده  
لذا كره ما حنت النيب في نجد (٣)  
وأولادنا مثل الجوارح أيها  
فقدناه كان الفاجع البين الفقد  
لكل مكان لا يسد اختلاله  
مكان أخيه من جزوع ولا جلد  
هل العين بعد السمع تكفي مكانه  
أم السمع بعد العين يهدي كناهدي  
لعمري لقد حالت بي الحال بعده  
فيا ليت شعري كيف حالت به بعدى  
ثكلت سروري كله إذ ثكلته  
وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد  
أرجحانة العينين والأنف والحشا

ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي  
ماسنيك ماء العين ما أسعدت به  
أعني جودا لي فقد جدت للثرى  
وإن كانت السقيان من الدمع لا تجدى  
كأنى ما استمعت منك بضممة  
بأنفس مما تسألان من الرفد  
ألام لما أبدى عليك من الآسى  
وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدى  
محمد ما شىء نوحم سلوة  
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد  
أرى أخوبك الباقيين كليهما  
يكونان الأحزان أوري من الرند  
إذا لعبا في ملعب لك لذعا  
فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد

(١) الرند : نبت طيب الرائحة له زهر أصفر يسمى الزينب ، وقد يسمى به الآس وهو نوع من الریحان .

(٢) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان .

(٣) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .



والرثاء من أهم موضوعات الشعر ، واشتهر بالإجادة فيه أوس (١) والأعشى وأبو زيد الطائي وليبد م ٤١ هـ ، ومتمم بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الربب وكعب بن معد (٢) ، وانفردت به الخنساء ، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والسكيت في مرثيته للعلويين ودعبل في مرثيته معاهد العلويين ، ثم أبو تمام وهو من المعدودين في ذلك ، (٣) ، ومثله ذلك الجن وهو في هذا أشهر من حبيب (٣) ، وللبحتري في الرثاء آيات رائعة ومنها مرثيته في المتوكل ، وكذلك ابن الرومي كما في مرثيته لولديه « بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي » .

#### الشعر الحماسي :

ومن روائعه قصيدة أبي تمام في فتح عمورية .

وكان أبو تمام صاحب مذهب في الشعر ، وأميرا في دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجري حتى وفاته ، كان يتخير ألفاظه تخيرا شديدا ، ويجهده في الصناعة البديعية ويدقق فيها غاية التدقيق وخاصة في الجناس والطباق وبالغ في تجويد صياغته مبالغة شديدة ، دقق في معانيه أشد التدقيق ، وتكلف تجويدا أشد التكلف ، وأهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر وأحيانا حتى أفسدته العناية ، وتكلف البديع إلى حد شديد ، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع ، ويجعله صناعة فنية عتيقة ، وقد أكثر في شعره من ضرب المثل ، ومن الحكمة ، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

- (١) ومرثيته : « أيتها النفس أجلى جزعا ، عند الأصمعي لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتدائها ( ٣٤ : ٣ الآمال ) .  
(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائيته في أخيه أبي المغوار ( ١٧٨ : ديوان المعاني ) .  
(٣) ١٤١ : ٢ العمدة .

وعمورية إحدى مدن الروم في آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية  
حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

- السيف أصدق أنباء من الكتب      في حده الحد بين الجد واللعب (١)  
بيض الصحائف لاسود الصحائف في  
متونهن جلاء الشك والريب (٢)  
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به      نظم من الشعر أوثر من الخطب (٣)  
فتح تفتح أبواب السماء له      وتبرز الأرض في أنوارها القشب (٤)  
يا يوم وقعة عمورية انصرفت      عنك المنى حفلا معسولة الحلب (٥)  
أبقيت جد بني الإسلام في صعد      والمشرकिन ودار الشرك في صيب (٦)  
تدبير معتصم بالله منتقم      لله مرتغب في الله مرتقب (٧)

(١) الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق بما تضمنته الكتب ،  
وكان المنجمون يحذرون المعتصم من فتح عمورية في هذا الأوان ، وقالوا له : إنا  
نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا في وقت نضج التين والعنب فلم يستمع المعتصم لهم .  
(٢) الصفائح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة :  
القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيوف البيض هي التي تجلو الشك وتزيل  
الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عمورية ، وكانت عزيزة على الروم ، حصنة غاية  
التحصين ، ودافع عنها جيش الروم دفاع الأبطال . وكانت ذات موقع استراتيجي عظيم .

(٤) تبرز : تظهر القشب : جمع قشيب أى جديد .

(٥) المنى : ما يتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها .  
الحلب : الحلبة من اللبن . معسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهي حافلة  
بالسرور لتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ . صعد : صعود . صيب : انحدار .

(٧) التدبير : تقدير الشيء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب (١)  
ولم يقدر جمحفا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جمحفل لجب (٢)

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي طويلة اخترنا منها هذه  
الآيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، وتمتاز بوحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة  
الشاعر فيها ، وبقوة التصوير . وروعة النسيج ، ودقة معاني الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالمعتصم الخليفة ويحيشه وبالانتصار الذي أحرزه  
في هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية ودك حصونها ، وتشيت شمل  
المدافعين عنها ، وبالتحكم بعد ذلك في آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكري  
الروماني ضد العالم العربي الإسلامي آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سينه وهو الذي  
يحل المشكلات ؟ لانبوءات المنجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهو ، ثم  
يتحدث عن عظمة هذا الانتصاح وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن  
نثر النثرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمانى فهى به في عيد جديد ، وأنه  
جعل حظ المسلمين في صعود حظ والكافرين في هبوط .

وأنه كذلك أثر لحنسكة المعتصم وتدير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذي  
نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب ، والذي  
يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش الكشيقة والجنود الباسلين .

وهنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحية بانتصار المسلمين  
ملتهبة ، وخيال الشاعر يقظا مشبوبا ، ومعانيه كثيرة عليها مسحة من ثقافة  
عالية وذهن خصب ، مع المبالغة في المعاني ، ومع الحرص على صناعة  
البيدع ، من سجع وطباق وجناس ومقابلة ومبالغة وسواها .

- 
- (١) نهد الرجل : نهض . الرعب يسكون العين أى الفرع والخوف .  
(٢) الجمحفل : الجيش العظيم . الوغى : الحرب . اللجب : الكشيف .

## نماذج أخرى من الشعر

١ - لأحمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيم وكان فى بخارى فى  
أواخر القرن الرابع الهجرى (١).

تلم على ترك الصلاة حليلتى	فقلت: اعزنى عن ناظرى، أنت طالق
لماذا أصلى وأين باعى ومنزلى؟	وأين خيولى والحلى والمناطق؟
وأين عبيد كالبدور وجوهم؟	وأين جوارى الحسان العواتق؟
أصلى، ولا فتر من الأرض يحتوى	عليه يمينى ! إتنى لمنساق !
بلى ، إن على الله توسع لم أزل	أصلى له ملاح فى الجو بارق
فإن صلاة السبيء الحمال كلها	مخارق ليست نحتن حقائق

٢ - ويقول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله	خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه	إلا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين وإن أبى	آب وحاد عن الطريقة حاند
فصل القضية أن هذا قائد	زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد	بتسلب الدنيا وهذا واعد
ينهى التديم عن القبيح بلحظة	وعلى المدامة والسباع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سمية	أبد فإنك لاحالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه	ما فى الملاح له سمي واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما	بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما	شها بوالده فذاك الماجد
أين الحدود من العيون نفاسة	ورياسة لولا القياس الفاسد

(١) ٢ : ٨١ الإرشاد لياقوت ، ٢ : ١٢ القيمة :

وفي هذه القصيدة صنعة لطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الرومي على قلب طرفي التشبيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما اطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل النرجس ووضعه في منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها، فصار يتوب من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميرة المستهزئ. ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط حتى يصير كالهزء بمن قصد بها، ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر في سحر البيان، مارأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له وعماهو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة، ويأحق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري:

زعم البنفسج أنه ككذاره      حسنا فسلوا من قفاه لسانه  
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به      فلشد مارفع البنفسج شأنه

٣ — علي بن الجهم يتحدث عن الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أحبه      حسن الرياض وصوت الطائر الغرد  
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها      وراحت الراح في أنوابها الجدد  
وقابلته يد المشتاق تسنده      إلى الترائب والأحشاء والكبد  
كان فيه شفاء من صبايته      أو مانعا جفن عينيه من السهد  
بين النديمين والخلين مصرعه      وسيره من يد موصولة بيد  
ما قابلت طلعة الرياح طلعتة      إلا تينت فيه ذلة الحسد  
قامت بحجته ريح معطرة      تشفي القلوب من الأوصاب والكمد  
لا عذب الله إلا من يعذبه      بمسمع بارد أو صاحب نكد

٤ — مروان بن أبي حفصة يحتج للعباسيين بأنهم عصابة النبي فهم ورثته،

وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له في مدح المهدي :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً	دون الأفارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم	قطع الخصام ، فلات حين خصام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبنى البنات وراثة الأعمام (١)
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم	حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم	ودعوا وراثة كل أصد حامى

٥ - مسلم بن الوليد يفاخر قريشا ، وكان من شعراء البائية :

فاخرتنا بما بسطنا لها العذ	ر قريش وغرنا مستعجار
ذكرت عزها ، وما كان فيها	قبل أن تستجيرنا مستجار
إنما كانت عزها في جبال	ترقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز	لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمه	صور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش	وقريش تلك الدهور تجار

٦ - دعبل الخزاعي في رثاء الشباب :

أين الشباب وأية سلكا ؟	لا أين يطلب ؟ هل ، بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكي
يا ليت شعري كيف يومك	يا صاحبي إذا دمي سذك
لا تأخذنا بظلامي أحدا	قلبي وطرفي في دمي اشركا

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعمام .

(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

## رواية الشعر

في العصر الأيوى نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلى وروايته وتلقيه شفاها من أفواه الأعراب والعجائز وشيوخ القبائل وحكايتها ومعمريها . وقد اشتدت حركة الرواية في العصر العباسى عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بها كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نحلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبة .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذى يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يخزنون فيها ما عرفوا ، ويحتقبون بين ثناياها ما يتردد بينهم من ألوان المعارف . ففي ذاكرة العربى ما يعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثور وقائعها ، كأنه مسطور في كتاب ومدون في صحائف ، لا يند عنه شيء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواة العرب وسعة حفظهم مما يعدة بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الآخيلة . ولكنها القدرة البارعة التى لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربى كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلا يغيب عنه شيء ولا يتسرب الخطأ إلى شيء مما روى .

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، ويجمع أحداثهم وقائعهم ، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لكل شاعر رواية خاص يتلمذ عليه ويروى عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه ويذيع أشعاره ، فامرؤ القيس كما يقولون رواية أبي دؤاد الأيادي ، وزم سير رواية أوس بن حجر ، والأعشى رواية المسيب بن علس . والخطيئة رواية زهير وابنه كعب .. وهكذا .

وفي عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة ولاستعينوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سموه وعظمته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربي والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعتزون بأحداثه ، ويفاخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ، ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة في رواية غرائب الشعر تعدل القدرة في إنشائه ، والحفاوة بالرواية في قصور الخلفاء ومجالس الولاة لا تقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والفحول المبرزين - وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد ، وكانوا متحرجين في روايتهم ، متبئين في كل ما يصل إليهم ، فلا يأخذون إلا من صحت عربيتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبي ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التي جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لحم وجذام لأنهما جاوروا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،



ولا عن ثقيف لمخالطهم تجار البن ، ولا عن قضاة وغسان حلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين مامعهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ما شجعهم على الرواية والانتطاع لها .

ولقد جرت الرواية في عصر بني العباس على سنتها في عصر بني أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقى الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة لبيع ما عندهم من أشعار . وعرض ما يختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانثت ألسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، ففقت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هواية نفوس ألفتها ورغبت فلوب أحبها وسجبت عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ما راعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتشجج بإحساسه ، الذي لا يسيره غرض ، ولا تطفئ عليه منفعة ، أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع .

ولما وضحت الرغبة في الرواية فيما عندهم ، وقوة الحرص عليها ، وكثر ما أغدق على الرواة من العطايا والمنح أخذوا يعملون عليهم مهنة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح . وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغبة كسب ، فقل فيها بعض الشيء الاعتصام بالأمانة ، والحرص على الصدق ، والمبالغة في تحرى الصواب . وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا ، وإلى انواقع خيالا ، وإلى الحادثة أحداثا .

كل ذلك لأن مهمهم الكسب ، ووكدهم أن يروج ما اخترعوه ، ويسير في الناس ما وضعوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصيبهم ما أملوا من كسب . وأسباب الانتحال في الرواية كثيرة ، فمنها :

١ - كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب ، وسبب الاجتلاب الرزق فيفقدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال . فإذا نفذ ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع . ويحدثنا محمد بن سلام الجبجي أن ابن داود بن متم بن نوبة ، قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقاماله بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفذ شعر أبيه متم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متم والوقائع التي شهد بها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله . ويقول الأصمعي عن أعرابي اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين ..

٢ - حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية ما تطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها في القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال : ما أطرفتني شيئا . فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيفة مدحاً لأبي موسى الأشعري . فقال : ويحك ، بمدح الحطيفة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطيفة ولكن دعها تذهب في الناس .

وصاحب الأغاني يروي أن حماداً تقرب إلى خالد بن عبد الله القسري

باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الخداديّة يمدح بها أسد بن كرز حين نزل  
به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء - قال  
على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخى ثقة      كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا  
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً      يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا  
كم من ثناء عظيم قد تداركه      وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا  
يقول أبو عمرو الشيباني : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله .  
والتوليد فيها بين جدّاً .

٣ - عدم تخرج بعض الرواة من الكذب والاختلاق ، لشهوة تحسبها  
أنفسهم ، وشقاء لداً يتغلغل في صدورهم ، ورغبة في إظهار السبق  
والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين : حماد وخلف  
الأحمر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من  
حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقل له : وكيف ذلك ؟ أخطيء في روايته  
أم يلحن ؟ قال لبته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب .  
ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم .  
فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ويحمل ذلك  
عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم  
ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدي وهو ولي للعهد بما زاده من  
عنده في شعر زهير بن أبي سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن في الناس أنه  
يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس بيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك في آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقوه أحد . واعترف هو للأصمعي بأنه وضع أشعاراً . وقبل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شراً رويت في الحماسة .

٤ - على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويلتبس لديهم المتقارب في المعنى أو في الوزن أو المتفق في الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى نسبوا الآيات الآتية إلى ابن الدمينه وإلى نحو أربعين شاعراً وهم :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى      ويجمعنى والهم بالليل جامع  
نهارى نهارى الناس حتى إذا بدا      لى الليل شاقتنى إليك المضاجع  
لقد ثبتت فى القلب منك محبة      كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥٥ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٨١ هـ ، وأبو عمرو الشيباني ، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعي م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢١٣ هـ ، وسوام ، وقد ختمت طبقة الرواة بالمبرد ( ٢٨٥ هـ ) وثعلب ( ٢٩١ هـ ) ، فإليهما انتهت الرواية ، وبهما ختمت ؛ وحركة رواية الشعر فى هذا العصر هى التى حفظت لنا أشهر القصائد القديمة ، وهى التى جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء ، وجمع شعر القبائل المختلفة كهذيل وغيرها ، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالاً جليلة فى البعث الأدبى وفى إحياء الشعر القديم ، وكانت مقدمة لحركة النقد والتحريض التى تلت حركة الجمع والرواية والتدوين .

## طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسي الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية والاجتماعية والفنية :

١ - فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبي حفصة وكان عباسي الهوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتز ، من حيث كان دعبل شيعي الهوى والنزعة .

٢ - وهناك شعراء تغلب عليهم النزعة الاجتماعية ، وفي مقدمتهم أبو نواس شاعر اللذة ، وابن الرومي شاعر الهجاء في عصره ، والبحترى شاعر المجتمع بأوسع ما نتصوره من دلالة .

٣ - وهناك شعراء شهروا بمذاهب فنية وهم شعراء الصنعة الذين سنتحدث عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ - الطبقة الأولى من العباسيين وهم مخضرمو الدولتين كابن هرمة (١٥٠ هـ) ، وأبي دلامة (١٦١ هـ) ، والحسين بن مطير الأسدي ، وأبي حية النيزي ، وسديف بن ميمون ، وأبو الهندي ، وبشار (١٦٧ هـ) وهو إمامهم ويعتد إمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ هـ) وحامد مجرد (١٦٨ هـ) ومطيع بن إياس (١٦٩ هـ) والسيد الحميري (١٧٣ هـ) ، ومروان بن أبي حفصة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا في صدر الدولة العباسية ، ومنهم أبو نواس (١٩٨ هـ) وهو إمامهم ، ووالبة (١٧٥ هـ) ، وسلم (١٨٦ هـ) ، والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) ، وأشجع السلي (١٩٥ هـ) وأبي العتاهية (٢١١ هـ) ، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وسواهم .

٣ - والطبقة الثالثة طبقة أبي تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وابن الرومي (٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٩٦ هـ) وهي طبقة طارت شهرتها في كل مكان .

## الطبع والصنعة عند المحدثين

١ - بين القداحى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، وكان صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد فى معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى فى تحديد معناها أن نجمع بين الرأيين الذين يتلافيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى "صوغ أو استجداء لترف الأسلوب و"صناعة ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحببه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفنى بها ، وقصده لإبها ، وتعمره لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ويستأهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطفى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابعة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الخطيئة - وهو شاعر إسلامى مشهور - عبد لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستوياً لمكان الصنعة والتسكف والقيام عليه ، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعدده العقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر .

ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأني به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتتابع ، فتتثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسجراً وجمالاً ؛ كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتتثال عليه الألفاظ انثيالاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى مجبراً الحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوي كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة : إن امرأ القيس أيضاً كان ينقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأيادي ، وكان يلوذ به في شعره ويتوكل على

معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرئ القيس ينفي عنه الصنعة والتصنيع ،  
وفرق بين أن يحىء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون  
مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد :  
عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع  
الحوليات على وجه التثقيف والتهديب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره  
فيها - خوفاً من النقد والنقاد - بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة  
أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها  
الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة  
أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار  
تلاميذه زهير على نهج أستاذهم كالخطيئة الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصنيع -  
أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كمكافئ وسواه بالحكومة  
الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما  
كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذ وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين  
على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والالطاف من ممدوحهم ؛  
وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد  
والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كثيراً بين آثار  
أصحاب الطبع والبديهة كطرفه وامرئ القيس ومهلل وآثار الشعراء  
المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية  
وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملامك ، كلها من آثار  
( ١٦٢ - ق ٢ )



الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة  
أمرى القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولطوه ، ومعلقة عمرو بن  
كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر  
وتغلب ، ، ومعلقة عنزة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ،  
ومعلقة زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لأهوالها وويلاتها ،  
ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن  
الصنعة وآثارها الفنية ، وشتان بين هذه المعلقة وبين بائنة النابغة وكليتي لخم الخ  
أو يذنها وبين قصيدة زهير وصحا القلب عن سلبى ، لبعده ما بين الأثر  
المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصنعة بعد العصر الجاهلي ، يظهر في شعر الخطيئة  
والراعى النمرى وغيرهما حتى جاء العصر العباسى .

٢ - كان الشعراء المحدثون - وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية  
وفي ظلال الامتزاج الذى حدث بين العرب والامم الأخرى - يقصدون إلى  
ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة  
وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن  
تعليل وسوى هذه الألوان ، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ،  
وبحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها . وكان  
الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع في شعره (١) .

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن في  
المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما  
العتابى والنمرى ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابى يذهب شعره في البديع (٥) ،

---

(١) ٣ : ٣٤٢ البيان (٢) ١ : ١١٠ العمدة (٣) ١ : ٥٥ البيان  
(٤) ١ : ١٩٠ العمدة (٥) ٣ : ٢٤٢ البيان

وكان يحتذى حذو بشار في البديع (١)، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنخري ومسلم وأشباههما (٢)، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٣)، وكانت تقيان طبقات شعره فيصعد كبيرها وينبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٤)، وكان أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صلب على قوالبه وجرى في مضماره. حتى قال الجاحظ فيهما: هما واحد والعدة اثنان ١ بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبي نواس (٥)، وكان أبو نواس يشبهه بالنابغة (٦)، وكان أمير المحدثين شعرا (٧). والصنعة واضحة بشكل ملموس في ميميته:

وذى رحم قلبت أظفار صنغنه بجلى عنه وهو ليس له حلم (٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا للشعر ومذهبا جديدا ما ثورا إلا على يد المحدثين عامة (٩)، وعلى أيدي مسلم وأبي تمام على الخصوص، فسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الأشعار المحدثنة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطيء في صنعته ويجيدها (١٠)، بل هو فيما زعموا

(١) ١ : ٥٥ البيان . (٢) ١ : ٥٤ البيان .

(٣) راجع ٢ : ٢٠ الأغاني ، ١ : ١١٠ العمد ، ١٣ : ٢ زهر ، ٢٥٠ موشح ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعي يقول هو خاتمة الشعراء (٣ : ٢٣ الأغاني)

(٤) ٢٦٣ رسائل البلقاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسي للاسكندري .

(٦) ١ : ١١٠ العمد . (٧) ١٧٣ : ٣ العمد .

(٨) وهي في ديوانه ، وتنسب لعن بن أوس خطأ .

(٩) ١٧٣ : ١ العمد . (١٠) ١ : ١١٠ العمد .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع واللاطيف<sup>(١)</sup>، وأول من أفسد الشعر بالبديع<sup>(٢)</sup>، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب<sup>(٣)</sup>، كان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا، فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعايره كما يقيم المثالون تماثيلهم، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لاتعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان<sup>(٤)</sup>.

٣ - وعمت موجة التصنيع بعد مسلم، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى. فكأننا يطلبان الصنعة ويولمان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى الأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام يسلك منه دنانير وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة<sup>(٥)</sup>، كان لآبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء<sup>(٦)</sup>، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها<sup>(٧)</sup>، ولا يجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمها<sup>(٨)</sup>، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريح

(١) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨ الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ زهر الأدب .

(٤) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه . (٥) ١٠٩ : ١ العمدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مذهب الأغاني . (٧) ٩٦ إعجاز القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الغفران .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتھا طرقا سابلة وأكثرهما منها في أشعارهما تكثيرا سهلا عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشئ التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة ، وتصوير وأضاف إليها شيئاً آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صيغ التدييج وقد امتزج بالفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجمله الغموض في كثير من جرائبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى أخذ به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصوراً جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد وجانب الغموض والمعاني العويصة في شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبرز من مذهب البرناسيين، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداماً معقداً يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحرى يتشبه بأبي تمام وينحونحوه ويحذو حذوه في البديع (٤) .

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام (٥) ويقل التصنع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقيًا، وتصنعه للطبقة كثير حسن وتعمقه في

- 
- (١) ٣٠٥ الرحانة للشهاب من ظلامة أبي تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى في ريجاته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفها الخالدى على لسان أبي تمام يشكو فيها الطاقى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره .
- (٢) ١١٠ : ١١٠ العمدة . (٣) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١
- الفن ومذاهبه في الشعر العربى . (٤) ١٨٣ : ٧ مذهب الأغاني .
- (٥) أى من إسراره فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة (١) والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق ، كان بدويا أعرايا فظلت أدوات الصناعة عنده ماذجة بسيطة (٢) ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلاني ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلوة (٣) .

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٤) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٥) ، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكنه هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين (٦) ، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى في شعره ، ولكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم الطباق والجناس في شعره ، وهو يشبه البحترى في ذلك إلا أن البحترى يكثر

---

(١) ٩٦ إيجاز القرآن .

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه .

(٣) ٣٥ طبقات ابن المعتز ، والآمدى يفضل ابتداءاته ( ١ : ٥٥ العمدة ) وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح ( ٤١ إيجاز القرآن ) ، ويفضله الجرجاني بمجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة ( ١ : ٢٠٥ العمدة ) .

(٤) ١٠٦ : ١ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للعانى ( ٢٣٢ العمدة ) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة ( ١٦١ رسالة الغفران ) .

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٦) ٩٥ المرجع .

من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صيغ التدييع (١) .

٤ - وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٢) ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به ، وكان في العباسيين كالوليد في الأيوبيين ، وكان متكلفا مجيذاً في تكلفه كما كان الوليد مطبوعاً مجيداً في طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين (٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى اللطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطالها في هذا الباب (٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصناعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة في صناعته ما يروع القارىء . ويد تبدع إعجاب المنصف من النقاد ، وكان أبو تمام متكلفاً للبديع وكان البحتري وابن المعتز يجريان مع الطبع ، وكان مسلم ينهج نهجاً وسطاً (٥) . . . ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى في الحياة . وقد استمر مذهب الصناعة بعد ابن المعتز منهجاً فنياً لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

---

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى في أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم في القافية (١٣٧ و ١٣٨ : ١) العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العمدة . (٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة . (٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

تراجم للشعراء :

ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر

حياته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز في شعبان سنة ٢٤٧ هـ ، أو ٢٤٩ هـ كما يقول ابن خلكان ، في بيت الخلافة ، وولي والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاث سنين ، قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان يبدعهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لشكبة والده أثر عميق في حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاهر بألوان العلوم والثقافات والآداب ، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، وسواهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتثلت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان . وله مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول النمايل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جزأين في مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين هم : المهتدي ( ٢٥٥ - ٢٥٦ ) ، والمعتضد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ ) ، والمعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ ) ، والمكشفي ( ٢٨٩ - ٢٩٥ ) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو في نفسه ناظم على الحياة التي ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول في شعره :

من يشتري حسبي بأمن نخول من يشتري أدبي بحظ جهول ؟  
ولمات ابن عمه الخليفة العباسي المكتفي بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولى  
الأثرak ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً ، فنار الناس في بغداد ،  
وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام  
٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده  
القوة الحربية في الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن  
الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء  
العربية الممدودين .

#### بيئته :

عاش ابن المعتز في بغداد وسر من رأى ، في البيئة العامة التي امتاز بها  
القرن الثالث ، والتي حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات  
والآداب ، كما عاش في بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ،  
في قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح في شخصيته  
وشاعريته .

#### شاعريته وخصائصها :

١ - أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ووجدانه  
ولاحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملصكات (١) .  
ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، وما يختلج في  
صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة .  
فشعره صورة لحياته الخاصة أولاً ، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللانجماها  
العليا في السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة

---

(١) ويروى عن ابن مجاهد (٥٢٢٤) : من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب الشافعي ،  
ودوى شعر ابن المعتز فقد كل ظرفه (٢ : ١٠٣ طبقات الشافعية للسبكي) .



الفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضا خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ — وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثير تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرود مجيداً مبدعاً ، يقتفى فيه آثار امرئ القيس ، وأبى نواس . . . . . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمنى ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر لرضا لنفسه ، وتصويراً لحسه ، بما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلاً ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحتري ، وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ — ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق

---

(١) ١٦٣ ١٣٠٠ المملة .

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حيناً ، ومقلد أحياناً أخرى .

٤ - وخياله الشعري خيال واقعي ، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ؛ ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالروفق والعذوبة . في جزالة تشبيع في أعطافه حيناً ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحياناً ، مع جمال في ترف البيان وألوان البديع ، بما حذا فيه حذو بشار ومسلم وأبي تمام . وتشبيع في أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحاً وحياة وموسيقى ووضوحاً ، في قرب مأخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلى . حاجة وأمسلا

#### منزلة الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التعمية في الشعر العربي القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه في طبقته أبا تمام والبحترى ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبا تمام والبحترى حاملى راية الطبقة الثالثة في المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومي

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء (١) ، .  
ويقول: وليس في المولدين أشهر اسما من أبي نواس ثم حبيب والبحترى  
ثم تبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار  
كأبي نواس في المحدثين ، وامرئ القيس في القدماء (٢) ، .

#### المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز ، هي مدرسة المحدثين ، التي قاد  
زمامها أبو تمام والبحترى ، والتي امتازت بميزتين :  
الأولى : هي التعمق في المعاني واستنباطها ، مما يتجلى لك في شعر أبي  
تمام وابن الرومي واضحا ملموسا .

والثانية : هي الصناعة الشعرية المتأنقة ، التي تطلب ألوان الجمال في الأداء ،  
وتعتمد على الزلف البياني في الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه  
واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - لا تنظر في  
أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ،  
أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام  
وجزائته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا  
النوع فمن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى فصنع  
زهير الحوليات على وجه التنقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين  
بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم ، والعتابي ، والنري ، وأبو نواس ؛  
واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . . فانتهى علم البديع والصناعة  
إليه ، وختم به (٣) .

---

(١) ٨٣ ج ١ العمدة . (٢) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٣) ١٠٨ - ١١٠ ج ١ العمدة .

فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتسكفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليأمو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفاً مجيداً فى تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعاً مجيداً فى طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكل ولا أعجب تصنيفاً من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تنكاد تظهر فى بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى اللطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعاً وافتناناً ، وأقربهم أوزاناً وقوافى ، ولا أدرى ورائه غاية لطالها فى هذا الباب ، <sup>(١)</sup> .

ويقول الجرجاني فيه : « وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين <sup>(٢)</sup> ، وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : « هو وإن كان فيه رقة الملوكة ، وغزل الظرفاء ، وهلملة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تنصرف عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البید والمهامه ، والطبى والظليم ، والناقة والجل ، والديار والقفار ، . والأصفهانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالباً عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

(١) ١٠٩ ج ١ المدة .

(٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

ويقول ابن شرف القيرواني في رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

#### فن ابن المعتز في التشبيه :

طارقت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية في باب التشبيه ، وأتى في ذلك بما سحر الناس وخلد في صفحات الشعر والأدب . وسار المثل في القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصويره لفنه ، وفي الحق أننا لانجد التشبيه ملصكة من المملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه السكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعتز يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففرض الله في (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة في باب التشبيه ، يقول البافلاقي : وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع من هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول النعالي : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل في الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه في شعره فقد جاءك الحسن والإحسان ولما كان غذى النعمة وريب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة

---

(١) ١٤٦ ج ١ معاهد التخصيص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف للبستاني ، ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببغروت وينسبها الرافعي لذى الرمة ( ٢٥ ج ٢ آداب العرب للرافعي ) ، وهو غير صحيح .  
(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للبافلاقي .

نهياً له من حسن التشبيه ما لم يتهياً لغيره ممن لم يروا مارآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات (١) .

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير أو شبيه (٢) : ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات (٣) ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومولد فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٤) ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناوّلها كان المعتز فى التشبيه (٥) ، ويقول الحصرى : وليس بعد ذى الرمة أكثر افتناناً وأكبر تصرفاً فى التشبيه من ابن المعتز (٦) ، ويقول الدميرى : هو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره (٧) . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين (٨) وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والتقدّر وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة ونمرىات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح

(١) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التنصيص .

(٤) ٨٢ ج ١ الممددة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ الممددة .

(٦) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٨) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط . ٢٤ العصر العباسى السباعى ييوى

٢٤٩ رسائل اللغاة .

البحترى وتشبيهات ابن المعتز لم يخرج إلى الشعر فالأول به .. ويقول بعض المحدثين : فبن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس بخمرياته (١) .

وقد قلده الشعراء في فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم ابن المعتز يحتذى حذو ابن المعتز في التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه (٢) . وكان العقيلي أبو الحسن علي بن الحسين من أئمة المدرسة التي تعنى بالتشبيه ونجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبي نواس وابن المعتز في الخمر وتوليد المعاني (٣) . وكذلك احتذاه في تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ هـ وأبو نواس والوأراء (٤) ، وابن خفاجة ، وسواهم .

ترجع بواعث هذه المأسكة المصورة في نفس ابن المعتز وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيه بعضها ببعض إلى ذهنه الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ومشاعره المرفهة ، وهيامه الفني يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التي عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذي آثره ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه في فن ابن المعتز ، تصويراً واضحاً ، على نمط من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتي :

أولاً : كثرة التشبيهات في شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من

---

(١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ ج ١ زهر .

(٣) ٢١٤ ج ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر .

(٥) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ ج ٢ فوات الوفيات) .

قصائده ، ولاقطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملمكة القوية ظاهرة ملموسة في فن ابن المعتز في سائر شعره ، وشئ أغراضه ، وإن كثرت ظهورها في أوصافه وخمرياتة وغزله وطرده ، وهو في هذا يبذل جميع الشعراء ، الذين لم يكدر التشبيه في شعرهم هذه الكثرة ، فقد عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، بإخراجها في مظاهر حسية يستمدّها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشئ ألوان الحضارة المادية ، في صور لها سحرها وجمالها الفني الرائع . وتلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى وجمالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس في الحياة ، وفاضت صناعته - كما يقول بعض المحدثين (١) - بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم يغص في بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها وأجلها . بما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكان هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وغالطها ابن المعتز . بما فيها من مدهن التبر ، وأوانى الفضة ومخاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، والآلىء النادرة حتى لينخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ - مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف - قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفردّه في هذا اللون . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ، ولابن المعتز فن مستقل في تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسبأنى كثير من مثل

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبغ البديعى في اللغة العربية - مخطوط .



ذلك في شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ،  
استمد صورها من المظاهر الحسية في غالب الأحيان ، فيقول :

رددت إلى التقي نفسى فقرت كما رد الحسام إلى القراب  
أو يقول :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله  
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله  
أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحكمو غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز في تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة  
شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هوفى في  
تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذى يقدر الأشياء ، ويقدر  
الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله فى كل خصائصه التى  
أرادها الشاعر ، وصوره من أجلمها . ثم هو لم يجب أن يمثل عواطفه فى  
تشبيهاته ، لثلا تخرج عن حقائق الأمور التى تمثلها أمام العقل ، وفى رؤية  
البصر ، ثم هو يظهر لك إصباغ صورته كلها دون أن يمزجها ببعضها ببعض ،  
أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى فى تشبيهات ابن المعتز هى دقة التصوير التى امتاز  
بها وبلغ فيها منتهى الإجادة ، وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين .  
فإنه كان يوضح الشبه بين الشئين توضيحا بالغاً مهما اختلفا فى الجنس  
وتباعدا فى الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات فى ربة .  
وبعقد بين المتباينات معاهد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف  
النظر ونفاذ الخاطر ، وما يعطيه الناقد فى كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملمم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه ،  
وأسمى من بعده عيالا عليه ، وتبعاً له .

فالبنفسج زهر غرض يرف ، تبصر فيه زرقه أوراقه وحرمة ساقه ، يشبهه  
ابن المعتز لا بزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبهه بلهب نار  
لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق  
فى التصوير ، ونظر نظرة خاصة غريبة ، فشبهه بزرقه النار ، أول ما تشتعل  
فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، ومملك زمام الإجابة ، حين يقول :

ولا زوردية تزهر بزرقها بين الرياض على حمر اليراقيت  
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعا يشبهه ابن المعتز  
بأشخاص الغربان ، ولكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل  
الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ،  
فيبدع فى ذلك كله غاية الإبداع حين يقول :

كأننا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غرابا ذا قوادم جون<sup>(١)</sup>

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن  
جعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى  
ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى  
قوله : " نظير غرابا ، دون أن يقول غراب أو غراب بطير ، وذلك لأن  
الغراب وكل طائر إذا كان هادئا واقفاً فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه  
كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك  
إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من  
مكانه الأول .

---

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس في تموج شعاعها وفي إشرافها واستدارتها يشبهها ابن المعتز  
بتموج نور المرآة ، ولا يفتن بذلك بل يحمل المرآة في كف الأشل فيقول :  
والشمس كالمرآة في كف الأشل ، . . . ويصور أشعة الشمس في تلاؤمها  
ولإشرافها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول  
في إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صورته في التشبيه ظل حياته المنرفة  
المفعمة بألوان النعيم . فيشبه الأذريوتة بكؤوس الذهب التي يحفظ فيها  
الطيب وفيها بقية منه ، ويشبه النرجس بكؤوس الدراتي في حشوها العقيق ،  
ويشبه العنب بمخازن البلور . . إلى آخر هذه الأوصاف التي استمدتها أشاعر  
من حياته وبيئته .

#### أثر حياة ابن المعتز وبيئته في شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المنرفة أتم تمثيل ، ففيه  
صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر الكريمة وحياة الملوك  
ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلاً يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول في ابتداء  
ونجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور  
إلا ضياء في ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوساً من بياض ، محاطاً  
بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود  
والزورق حين يكون مثقلاً بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح الماء إلا جزء  
صغير أشبه مايكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليكون الجزء البادى منه فوق  
سطح الماء أبيض متألثا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر  
حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطرافتها ، وذلك  
حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة      قد أثقلته حمولة من زهر  
ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر  
الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس  
الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لا يستعمل إلا فى الحصد ،  
ولذلك تم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور  
الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى السكون ، فيقول ابن  
المعتز فى إجادة بارعة فى وصف الهلال :

كنجل قد صيغ من فضة      يحصد من زهر الدجى نرجسا  
ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر  
المحروم لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره  
مثلا يتحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة  
الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

وشارق يضحك من غير عجب      كأنه صب على الأرض ذهب  
ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بن يضر من اللهب  
يشبعنه من فحم ومن حطب  
برفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لأحد لجالها ، وهى جديدة التصوير .

### موازنات أدبية :

١ - يقول البحتري في وصفه العناق :

ولم أفس ليلتنا في العنا ق لف الصبا بقضيب قضيا  
أخذه ابن المعتز وزاد عليه في المعنى وفي جودة التصوير ، ودقة  
التعبير ، فقال :

فلو ترانا في قبض الدجى حسبتنا في جسد واحد  
وهنا نرى ابن المعتز يرق في الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد في  
التصوير إجماعة بارعة .

٢ - وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأهناق المطى الأباطح  
أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير  
فقوله : سالت عليه شعاب الحى ، يقابل الشطر الثانى كله من بيت  
كثير . فهو أوجز ، على أن سالت عليه شعاب الحى ، أبلغ في التصوير  
من قول كثير .

٣ - وقال أبو نواس في الراح :

كان صغرى وكبرى من فقاقمها حصباء درعلى أرض من الذهب  
أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كيت كأنها أرض تبر في نواحيه لؤلؤ مغروس  
ف نجد ابن المعتز يعقد الصورة تعقيداً فنياً واضحاً ، ويرسمها بإجادة دون  
أن تهتز اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبى نواس  
شرف سبق وبساطة الأداء .

٤ - والعامة تشبه الورد بالحد والحد بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه حدود أضيفت بمضمن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدح بها إبراهيم بن المهدي ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار في ثلثي الفراش ، وقال : يا فتى شهبوا الحدود بالورود وأنت شبهت الورد بالحدود (١) . على أن في بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بمضمن إلى بعض .

وقال ابن المعتز في هذا المعنى ، يصور يياض الورد وما في جوانبه من احمرار :

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود

فأبدع في التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجاني في وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة في جوانبها يياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل (٢) ، قال عبد القاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الورد ، فشبه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض في وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجاني غلطا في التشبيه (٤) .

٥ - وقال أبو نواس في الراح :

إذا عاب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب . (٢) ١٥١ وساطة .

(٣) ١٧٢ أسرار . (٤) ١٧ ج ٢ العمدة .

كأنما نصب كأسه قر يكرع في بعض أنجم الفلك  
وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منهما :  
فكانها وكأن شاربها قر يقبل عارض الشمس  
وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :  
وكانه وكأن الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق  
وهو أحسن ما رصف به كأس على فم .

٦ - ولما كان ابن الرومي هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ،  
فستوازن هنا في إيجاز بين قصيدتين للشاعرين في موضوع واحد ، لئرى من  
هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لاتعطينا حكماً  
حاسماً على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتي أحد الشاعرين بمعان في  
موضوع القصيدة لا يأتي بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ،  
اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما في الخيال ، ووحدهما في  
الموضوع ، فوق وحدثهما في الوزن . قال ابن الرومي من قصيدة في وصف  
مجلس الراح :

شمس من الحسن في معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها  
في وجنات نحر من خجل كأن ورد الريح حرها  
يسمى إليها بكأسه رشاً أنشه الله وذكرها  
في كفه كالشهاب لاح على ظلماء ليل دجت فنورها  
إن برزت للهواء غبرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز في مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن تشبهه جن به مزهر ومزمار  
وزانه من بنى العباد رشاً بالجيد والمقتلن سحار

قد ركب كفه مشعشة إريقها في الكأس هدار  
يلع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار  
فظلت في يوم لذة عجب وافي به للسعود مقدار  
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار

١ - ففي هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفي قطعة ابن الرومى  
زيادة وصف القينة التى تغنى في مجلس الراح .

٢ - وصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومى نور الراح في الكأس ، بالشهاب في ظلام الليل ،  
أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس  
يأخذ من نورها ويمتار .

٤ - وصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء والطف من الهواء ،  
ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ - ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦ - وابن الرومى في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات  
ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يعتمد لمزج تلك الأصباغ  
بعضها ببعض ، بل يزوجها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ - وابن الرومى يفوته أحيانا ما هو أبلغ في الوصف . وأروع في  
أداء الغرض . من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز . كما رأينا في وصف ابن  
الرومى للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومى تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر  
الترف والملوكية في حياته . . ويروى أن لا تما لام ابن الرومى ، وقال له :  
لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تنشدنى شيئا من  
قوله ، الذى استعجزتني عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال :



انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر  
فقال زدني ، فأنشده قوله في الآذريون ( وهو زهر أصفر في  
وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ) :

كان آذريونها والشمس فيها كالية  
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون  
بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت  
ما أعرف ، أين يقع قولي من الناس ، هل لأحد قط مثل قولي في  
قوس الغمام :

يطررها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر لآثر مبيض  
كأذيال خود أقبلك في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض  
وقولي في صانع الرقاق :

ما أنس لأنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبحر  
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر  
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

وقولي في قالي الزلاية :

رأيت سحرا يقل زلاية في رقة القشر والتجويف كالقصب  
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبائكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز :

أولا : يأخذ بعض الكتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد في صورته الفنية  
على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر في تصويره عن خلجات  
نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال بزورق من فضة أثقلته حمولة من

عنبر ، لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن في نقل نسخة تامة الشبه بالحلال ، ويكفى أن تتصور الهلال في خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذى يحصد من زهر الدجى نرجسا ، ففضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا فى الشكل الخارجى ولا صلة بينهما فى الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا فى الدجى ، وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والإحساس أو إدراك شيء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلى :

١ - أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ - أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه .

٣ - أنه فى تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد عن الوضوح .

١ - وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه هوجو الشاعر الفرنسى الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا يعلمون بما أتى به ابن المعتز .

٢ - وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز فى التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يسابر الفن الخالص ، لئلا تبعد الصور التى رسمها عن حقائقها المرسومة ، وأى ضير على الفنان فى ذلك ، وهل انتفى النقد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخالص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار في طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحده مظاهر يستثير  
العاطفة والوجدان .

٣ - وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء في الأدب ،  
لا تزال محل بحث النقاد للآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين  
كان ينادى بالوضوح والإفهام ، وبأن البليغ من الكلام ما كان معناه إلى  
قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم في  
تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانتها من كل ما أدخل بالدلالة ، وعاق دون  
الابانة ، ولم ير أن خير الكلام العامي المرذول . والقاضي الجرجاني لم  
يحاسب المتنبي في وساطته على عمقه في التفكيك والتصوير ، لأن ذلك سمة  
عامة في شعر المحدثين ، وعيد القاهر في أسرارها يقسم الغموض إلى ما سببه  
التعقيد في الأداء فيرده ، وإلى ما سببه الدقة في المعنى فيشيد به ، ويرى أن  
المعاني الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، وردت إلى سابق ، ورأى  
بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض في فن المتنبي هو سر عبقريته  
الشاعرة ، التي ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانيا : ومن ردى الشعر قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس  
فالجح بين الليل والناس ردى . وقد وقع هنا باردا ، كما يقول  
أبو ملال (١) :

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله في وصف كتاب قد  
شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

لأنه مدح الكتاب يجعل سطره شوكا ، وإن كان لاحظ الشبه انتم  
في صورته ، لكنه بالذم اشبه (١) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

### نماذج لشعر ابن المعتز

١ - من شعره في الغزل :

قف خليلي نسأل لشرة (٢) دارا	أو محلا منها خلاه قفارا
ألبستني سقما أقام وسارت	واستجابت قلبي إليها فطارا
لي حبيب مكذب بالآمانى	جعل الدهر موعدا وانتظارا
أيها الركب بلغوها سلامي	وانقوا أخذ طرفها السحارا

٢ - وله في وصف الخمر .

يامن يفندني في اللهو والطرب	دع ماتراه وخذ رأبي خصبك بي
أفى المدامة تلحاني وتعذلي	لقد جذبت جوحا غير منجذب
وقد يباكرني الساقى فأشربها	راحا تريح من الأحزان والكرب
مازال يقبض روح الدين مبزله (٣)	حتى تغلغل سلك الدر في الثقب
وأمطر الكأس ماء من أبارقه	وأنبث الدر في أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا	نورا من الماء في نار من العنب
لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح	يقيمه الظن بين الصدق والكذب

٣ - وقال في الذخر :

أيها السائل عن الحسب الأطيب ، ما فوته لخلق مزيد

---

(١) ٢٥٢ طراز الجالس

(٢) اسم محبوبه كان يتغزل بها الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا  
فينطق به : شر ، وشريرة

(٣) المنزل المثقب الذي يشق به ختم الدن ، والمصفاء أيضا

نحن آل الرسول والعتره الحق وأهل القرى فساذا تريد ؟  
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود  
وملكنا رق الإمامة ميرا ، فن ذا عنا بفخر يجيد ؟

٤ - وله كذلك في الفخر والشكوى :

خليلي إن الدهر ماتريانه فهبرا، وإلا أى شيء سوى الهبر ؟  
سألتك يا الله ما تعلمه سألني ولا تسكتها شيئا فعندك خبري  
أرفع نيران القرى لعفاتها

وأضرب يوم الروع في ثغرة النحر ؟  
وأسأل نبلا لا يجاد بمنله فيفتحه بشرى ويختمه عذرى ؟  
ويارب يوم لا يزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النهر  
فسبحان ربى ما القومى أرى لهم كوامن أضغان عقاربها تسرى  
إذا ما اجتمعنا فى الندى تضاءلوا

كما خفيت مرضى السكواكب فى الفجر  
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى  
وأعوان دهرى إن تظلمت من دهرى

## النثر الفني في العصر العباسي الأول

نهض النثر الفني في هذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك في عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الالفاظ ، وعمقت المعاني ، وسمت الأخيصة ، وتعددت الأغراض ، واتسقت الأفكار . وذلك كله بما نهباً للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف <sup>(١)</sup> الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي ، وقد أسهم مع عبد الحميد الكاتب في دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدي ، وأبو الريح محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والمهادي والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون <sup>(٢)</sup> ، وبجي بن برمك ، ثم ابنه : جعفر بن بجي ( ١٤٢ - ١٩٧ هـ ) وأخوه الفضل ، والحسن ابن سهل <sup>(٣)</sup> ، وأخوه الفضل <sup>(٤)</sup> ، وأحمد بن يوسف <sup>(٥)</sup> ٢١٢ م ، وعمر بن

---

(١) راجع بلاغة بني العباس في البيان والتبيين للجاحظ ( ٣ : ٢٦٦ - ٣٨٧ ط الحانجي ) .

(٢) راجع : ٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ زهر ، ٢٦٠ : ٣ زهر الآداب أيضاً .  
(٣) يشيد به الجاحظ ( ٨٤ : ١ البيان ) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ : ١ زهر .

(٤) تبناه بجي البرمكي وضمه إلى المأمون ( ٧٤ المسكافة ) وأشاد المصري ببلاغته ( ١٦ - ١٩ : ٢ زهر ) .

(٥) له ترجمة في الأوراق قسم أخبار الشعراء ( ٢٠٦ - ٢٣٦ ) وكافعال =

ابن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابي م ٢٢٠ هـ (١) ، ومحمد بن يزداد وزيد المأمون (٢) .

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفني منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطعن فيها سواها مما شكك منه النقاد (٣) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى الخ ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبتدئ ويحذر وينذر ، (٤) . والإطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ ، يقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتاباً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص

== الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر) ، وكان ممن نبأوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح المكتبة في التهانق بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعاني) .  
(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : « والناشيء من الكتاب إذا وطئ مقعد الرئاسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأييده وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأي ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب الكاتب

وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامة وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يحفل الكتاب في أوائل العصر العباسي الثاني بالبديع ، والتأنيق الكثير في الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ ، (٢) ، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتاب عصره ، كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد ابن حميد وأحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالجاحظ هو التوحيدى ( المتوفى عام ٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م ) ، وقد ذاع في النثر في هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهمك والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ،

- 
- (١) ٤ ج ٢ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخنيس ( ١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط ) .  
(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .  
(٣) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن .



والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ؛ وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للججاحظ ، وأدب الكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدي الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الحافل .

ولسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر في هذا العصر ، مبينين العوامل التي أثرت فيه ، والظواهر التي جددت عليه .

## (١) الخطابة في العصر العباسي الأول

صور من الخطابة :

١ - خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ،  
جهنم يصلونها وبئس القرار ، نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان ،  
يتسكعون بكم في الظلم ، ويتهورون بكم في مداحض الزلق ، يطأون به حرم  
الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماءكم غداً ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا  
فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، : إذا يقول الله عز وجل : ولكل ضعف  
ولكن لا تعلمون . »

أما أمير المؤمنين فقد انتدب بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ، وبسط لكم  
الإقالة ، وعاد بفضلته على نقصكم ، وجلبه على جهلكم . فليفرخ روعكم<sup>(١)</sup>  
ولتطمئن بكم داركم ، ولتعظمكم مضارع أولئكم ، فتلك ييوتهم خارية  
بما ظلموا . »

٢ - وخطب سليمان بن علي عم أبي العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون  
إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ، قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل .  
الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين  
اتخذوا الكعبة غرضاً<sup>(٢)</sup> ، والقي إرثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن

---

(١) يقال أفرخ روعه : أي خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ،  
ومعنى الروح القلب ، أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .  
(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بني أمية من هدم وتدمير في فتنة الزبير .

عضين<sup>(١)</sup>، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأن ترى من أثر معطلة وقصر مشيد<sup>(٢)</sup> ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ، .

٣ - وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

« أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة : فإنه لم يسر أحد قط منكرا إلا ظهرت في آثار يده ، وفلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجزرناه خبيء هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكس بنا فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه .

٤ - ومن خطبة للمنصور :

يا عباد الله لا تظالموا ، فإنها مظلة يوم القيامة ، والله لو لا يد خاطئة ،

---

(١) العضة . الفرقة ، وجمعها عضون ، والعضة د بالهاء الكذب وجمعها عضون أيضا . فغنى جعلوا القرآن عضين ، جعلوه أجزاء ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال آخرون هو سحر ، وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذبا .

(٢) المشيد : المطلى بالشيء وهو الجص ، والمشيد د كسكرم ، المطول

وظلم ظالم ، لمشييت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر مني لأنيته حتى أدفعه إليه (١) .

٥ - ومن خطبة للسفاح في الكوفة حين بويع بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ؛ ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأنتم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا (٢) .

٦ - خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخراسان قتل أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أيها الناس إني جعلت لله نفسي ، إن استرعاى أمورك أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا إلا نخله حدرده ، وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثانا ولا نحلة (٣) تحرم على ، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان في الله وله ، جعلت كله لله عمدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا .

إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير (٤) مستأهلا ، وللنكال (٥) ،

---

(١) ٣ : ٢٣ جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ شرح ابن أبي الحديد

(٣) نخله أعطاه والاسم النحلة

(٤) الغير : الأحداث

(٥) النكال : العقاب

معرضنا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته<sup>(١)</sup> .

وهذه الخطبة في مناسبة معروفة وموقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يبأيعون به بالخلافة ، وفيها يعلن المأمون سياسته نحو رعيته ، وهي أنه سوف يلتزم ما ألزمه الله به في معاملة الشعب ، ويعلن احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم بهواه في رضا ولا غضب ، وأنه يلزم نفسه العمل بما ألزمه به الله عز وجل ، وينفي بعده مع الله رغبة في زيادة نعمته ، ودفعاً لحسابه ومسألته . . ويؤكد المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئاً منه وإلا كان للخطوب والعقاب مستحقاً ، ثم يتموز بسخط الله ويرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يباعد بينه وبين معصيته . . وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعة الفائقة ، مما يدل على علو منزلة المأمون في البلاغة ، وثبات قدمه في الفصاحة .

هـ - خطبة داود بن علي على منبر الكوفة :

كان داود بن علي بن عبد الله بن عباس خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم ، نشأ هو وإخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلاً - في قرية الحبيمة من أعمال عمان<sup>(٢)</sup> ، وكان الوليد بن عبد الملك أجلى على بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفاً من وثوبه إلى الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته عليهم وأدبهم عن أبيهم على حبر قریش وابن حبرها

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جمهرة خطب العرب لأحمد صفوت

ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهي الآن مقر إمارة شرقي الأردن

وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا  
الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لحم وجذام وتوخ وغسان وقيس  
فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم  
والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات  
الحضر من الانغماس في الترف والملاذات والعكوف على الملاهي .

وكان داود أحد النابغين من إخوته في هذه الصفات ويزيد عليهم أنه  
كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم في وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطيع  
سلطانه في الدولة . ولأه أبو العباس - عقب يبعثه بالكوفة - ولاية الكوفة  
وسوادها ، ثم ولأه إمارة الحاج في هذه السنة ، وولأه معها ولاية الحجاز  
والين واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية في مكة والمدينة في هذا  
العام ١٣٢ هـ - وهو أول موسم ملاسكة بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية  
بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفي بها بعد شهرين من قدمه  
إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بليغة خطبها يوم بيعة أبي العباس السفاح على منبر  
الكوفة ، وهي . الحمد لله ، شكراً شكرياً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم  
نهرأ ، ولا لنبنى فيكم قصرأ ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخي  
له من خطامه حتى عثر في فضل زمانه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها  
وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك في نصابه في أهل بيت النبوة  
والرحمة ، ( والله لقد كننا نتوجع لكم ونحن في فرشنا ) ، أمن الأسود  
والأحر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم  
ذمة العباس ، لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لانهج  
منكم أحداً .

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرامي يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب في هذا المقام ، وكل ما كان يجب أن يقوله هذا الثائر العظيم في هذه المناسبة .

وقد اشتملت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفي أن يكون العباسيون قد قاموا بثورتهم لغرض شخصي ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مطالب الأمويين ومساوئهم في الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخلافة إلى أهلها وأصحابها من آل النبي الذين خرجوا ليقتصروا للشعب الإسلامي الثائر ؛ ثم أمن داود بن علي الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقاليد الخلافة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة ، وبالإيجاز ، مع ما فيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل الملامك العربية السليمة في هذا العصر .

٦ - ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه فقال :  
« أي بني ، إني مؤد حق الله في تأديبك ، فأد إلى حق الله في الاستماع مني ، أي بني . كف الأذى ، وارفض البذاء (١) واستغن عن الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشيا ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بني أن رأيك إذا احتججت إليه وجدته نائما ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عافته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تنجي عليك » .

---

(١) البذاء : السفه والالغاش في المنطق .

٧ - وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان مما قال :

« أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجيز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه . فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا الموت فقد أظلمكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فاندبهوا ، وعللوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجذيرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحذوه الجديدان الليل والنهار لجذيرة سرعة الأوبة ، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ،

٨ - وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاه أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ،

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجذك لا تفعل ، بكسر الجيم استخلاف بالحقيقة ، وبالفتح استخلاف بالبعث ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل ، فتح لا غير .

(٢) أصل العصا الاجتماع والاتلاف وشقوا العصا أى شقوا الاجتماع والاتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فاذا فرقهما الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب لكل فرقة .



فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجأون ، وعدتكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلسم الله عليه ، واللجنة الحصينة ، التى أمركم الله بلباسها ، غصوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائرهم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، أيدكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنصر » .

#### ٩ - حوار بين المأمون وإبراهيم بن المهدي :

لما ظفر المأمون بعمة إبراهيم بن المهدي <sup>(١)</sup> أمر بإدخاله عليه ، فجىء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلامك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى النار محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه  
نخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه  
إن لم أكن فى فعلى من الكرام فكفه

---

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوه من الخلافة وبايعوا بها عمه إبراهيم بن المهدي فأسرع إليه المأمون فهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به .

فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه فقال : إنني شاررت أبا إسحق والعباس في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ؛ فإن غير فآله يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله . ثم استعبر با كياً ، فقال له المأمون : ما يسرك ، قال : جذلاً ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإناعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرى يبلغ سفك دمي فإمر المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعاة الإفرا بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيضة ، والتدم توبة ، وعفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس مالنا في العفو من اللذة لتقرؤوا إلينا بالجنايات ، لا تريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تتصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه .

١٠ - دخل معن بن زائدة الشيباني على المنصور وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن . قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال هي لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

١١ - ومن أقوال الوعاظ ما يروى أن ابن السماك دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا واقف بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكي الرشيد حتى اخضلت لحبته ، فأقبل الفضل بن الربيع

على ابن السماك فقال: سبحان الله ! وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مهزوف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فائق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

## تطور الخطابة في هذا العصر

### أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلاباً خطيراً من المشاعر ؛ وأثار الخواطر وأهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدعوات ، وحض الناس على التشيع لبني هاشم ، وإعلان السخط والإنكار على بني أمية ، وسياسةهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبوه من منكرات .

ولاشك أن حدثاً جليلاً مثل هذا الحدث ، لابد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحسيس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاة ، ويثبتوا الخطباء في كل مكان يعلنون بالحجة الساطعة حقهم في خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين .

كما كان من شأنهم أن يعنوا عناية بالغة بالمواسم الدينية ، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون في مواكب رائعة وجويع حاشدة ، ويسرون بين الصفوف المرصوفة ، حتى يصلوا إلى المسجد ثم يدخلون في خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤدون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ العظات ، ورائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الإمامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة فى عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقيا فى مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر النحى واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد فى مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى (١) أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليسكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتتميقه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماح ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فإيلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما

(١) ١٣٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ - الطبعة الثانية - نشر التجارية .

عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهارهما وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما .. الخ .

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون في البادية ، حيث الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحججة وشدة العارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناع والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تمض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعى الأصمعي لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصلي بالناس في يوم جمعة ، فاختر له خطبة ، وحفظه إياه ، لحفظه عشرا ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة في الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا الممتدى بالله ( ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ ) ، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم (٢) ؛ وفي عام ٢٧٩ هـ صلى المعتضد بالناس صلاة الأضحية ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا في الأعياد (٤) ؛ ولما عزم المطيع لله

---

(١) ٢٠ و ٢١ : ٢ الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : ٢ المسعودي .

(٣) ٩٧ : ٢ تاريخ أبي الحسن .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء ( ٢٧٧ و ٢٨١ : ٢ الخطاط للمقرئ ) ، وكان الحاكم يخطب في جامع عمرو جمعة زفي جامع ابن طولون جمعة وفي الأزهر جمعة ويستريح جمعة ، فلما بنى الحاكم الجامع انتقلت الخطبة إليه ( ١٣٨ : ١ حسن المحاضرة ) .

(٢٣٤ - ٣٦٢ هـ) على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختر له دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده في عيد الأضحى (٣٦٣ هـ) خطبة قصيرة (٢) . وفي البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفي آخر العصر العباسي الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار في الكتابة وقد تنوعت أماليها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظهرها الديني ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الرضا (٣١٢ - ٣٢٩ هـ) (٤) .

#### أنواع الخطابة :

والخطابة في هذا العصر تنوع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسي ، ومن الخطب الاجتماعية ما كان يلقي في مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة في مختلف المقامات الأدبية التي كانت تحدث في هذا العصر ، والتي أدت إلى نشأة فن المقامات .

---

(١) ٣: ٣٤٩ معجم الأدبا. لياقوت .

(٢) ١٠٦ ب المنتظم - مخطوط .

(٣) ١٠٣: ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة .

(٤) راجع ٢١٢ الأدب العربي للزيات ، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسي لمحمود

مصطفى ، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسي للسباعي بيومي .

### دواعيها وموضوعاتها :

وقد تعددت دواعي الخطابة في عصر نفوذ الخلفاء وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها .

١ - فقد كانت الحاجة ماسة إليها في تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بني العباس لها ، أو في مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشجيع على نبي أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساوي . وفي إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحسيس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنصر ونحو ذلك .

٢ - كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك في المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص في قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسوارى ، وأبو علي الإسوارى ، وكان يقص في فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم في قصصه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الضرير ولم يدرك في القصص مثله ؛ وصالح المري ، وكان صحيح الكلام ، رقيق المجاس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه . وهذا ليس قاصاً ، هذا نذير .

٣ - كما كانت لسان الوفود الذين يفسدون على دار الخلافة ، تأييداً لسياسة ؛ أو إظهاراً لمحبة ، أو طلباً لحاجة أو شكاية من مظلة .

٤ - وعما يقرب من الخطابة في روعة أسلوبها ، وشدة تأثيرها ، وسمو بيانها ، الحوار الذي كان يدور بين البلغاء والفصحاء ، من خاصة القوم ، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

### خصائصها :

امتازت الخطابة في هذا العصر بجمال أسلوبها ، ونخامة ألفاظها ،  
وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما تمتاز بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطبائها بصبغة الدين  
وتأثيرها بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقتباس  
من عظمائه والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحجاج ،  
ومعاني الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد ، والامتنان بالنعمة ، والشكر  
على كريم الهمة ، وجليب المودة .

على أن الحضارة التي غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة في المعاني ووفرة  
في المادة وروعة في الأساليب ، ودماثة في الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد  
في بهائها ورونقها .

### أشهر الخطباء :

وقد نبغ في هذا العصر أعلام من الخطباء المصانع وفحول من البلغاء  
المقاول ، ممن نشأوا نشأة عربية قوية ، وورثوا ملكات البلاغة والخطابة  
من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأو البعيد ، من  
أمثال بني العباس وبني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وعظماء القواد من العرب ،  
ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار  
والقصص والأسفار واللغة والأدب والنقد . ومن ولاية الدولة وخصوصها ،  
من خوارج وعلويين وشعوبيين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمنونهم في الصلاة ، واستمر ذلك بعد

( م ١٩ - ق ٢ )



هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذي كان آخر خليفة عباسى  
خطب على المنبر . ويصف البحترى فى رائية بليغة له خروج المتوكل  
لصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ؛ وخطبته فهم ، فيقول فيما يقول :

أيدت من فعل الخطاب بحكمة      تنبى عن الحق المنير وتخبر  
ووقفت فى يد النبى مذكراً      بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى  
والرشيد والأمين والمأمون ،

ومن الأمراء : داود بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله  
وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ؛ ومنهم : سليمان بن على ،  
وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. من يصفهم الجاحظ فى كتابه  
« البيان والتبيين » ، فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن  
لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقرىش والدولة ،  
وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ؛ والنفوس الشريفة ،  
والأفئدة الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا  
يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك » (١) .

ويقول الجاحظ فى داود بن على : « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالاً  
واقضاباً للقول ، ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير  
معروف محفوظ » (٢) .

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن  
وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

(١) البيان والتبيين الأول ص ٢٦٥

(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون  
وصهره ، وجعفر البرمكي .

ومن الخطباء : مهمل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون<sup>(١)</sup> ، وطاهر  
ابن الحسين ، وعبد الله بن طاهر - ومنهم : العتابي الذي يقول فيه الجاحظ :  
« ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل  
الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابي ، ومنهم : خالد بن صفوان ،  
وشبيب بن شيبه المتوفى عام ١٧٠ هـ الذي يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها  
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجب من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فحول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة .

وقد ظهرت في العصر العباسي الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا  
يعتمدون على الخطابة في قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين  
أسماء طائفة كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ في هذا العصر ،  
ومن بينهم : أبو زكريا الرازي ( ٢٥٨ هـ )<sup>(٢)</sup> ، وعلى<sup>(٣)</sup> بن محمد المصري  
( المتوفى ٣٢٨ هـ )<sup>(٤)</sup> .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبلغاء المفلحين . .

---

(١) كلام الجاحظ عليه في البيان والتبيين ٥٩ : ١ .

(٢) ذبذة الفكر ١٩ ب - مخطوط . (٣) ١٨١ المنتظم - مخطوط .

(٤) ظهر في العصر العباسي الثاني من الوعاظ : ميمونة البغدادي ٣١٣ هـ

(٩٣ تاريخ أبي الحسن ) ، وأبو الحسين بن سميون ٣٠٠ - ٣٨٧ هـ ( ٢ : ٣١٩ )

معجم الأدباء لياقوت ) ثم محمد الشيرازي ٤٣٩ هـ ( ١ : ١١١ تاريخ بغداد ) ، ومن

الخطباء ظهر في العصر الثاني : ابن نباته ( المتوفى عام ٣٧٤ هـ : ٩٨٤ م ) ، وعبد

الواحد بن عبد الكريم ( ٤٩٤ هـ ) بنيسابور ( ٢٨٤ : ٣ طبقات الشافعية للسبكي ) .

## (٢) الكتابة في هذا العصر

صور للكتابة في هذا العصر :

١ - كتب عبد الله بن المقفع في وصف أحد إخوانه .

« إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يتشهى مالا يجد ولا يكسر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ربيعة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأمر عند نعمة . ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو اللبث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوة ولا يشارك في مرأه . ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجهه إلا إلى من يرجو عنده البره ؛ ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى . وكان لا يتقم على الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتم - ولن تطبق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٢ - وكتب يحيى بن خالد البرمكي وهو في الحبس<sup>(١)</sup> إلى هرون الرشيد:

(١) كان البرمكي قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها . وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في ملكه ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها =

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ؛ وخليفة رب العالمين  
من عبد أسلمته (١) ذنوبه ، وأوبقته (٢) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه  
صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فحل في الضيق بعد السعة ،  
وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد  
الهجود . ساعته شهر ، وليته دهر ، فقد عين الموت ، وشارف القوت ،  
جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك ، لأعلى شيء  
من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا في يدى عارية  
والعارية مردودة .

أما ما أصبت به من ولدى فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره ،  
ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سنى ، وضعف قوتى ، ورحم شيعتى ، وهب  
لى رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ،  
وإنما أعتذر إليك بإقراره . يجب به الإقرار حتى ترضى عني ، فإذا رضيت  
رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاظملك بعده  
ذنب أن تغفره ، مد الله لى فى عمرك وجعل يومى قبل يومك .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ - ومن رسالة لسهل بن هارون وجه بها إلى محمد بن سباعة القاضى :

= وصورتها ، فوزم على نكبتهم . حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة  
١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلاً فى طريقه . وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .  
(١) أسلمته : خذله ، فأسقطته من علياء مرتبته . أو أسلمته إلى السجن  
والعذاب .

(٢) أوبقته : أهلكته .

إني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة  
ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في  
رأيه ، ولا بمظنون في حسبه ، إن أوثمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد  
مهما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تقعده الرزاة ويسكته  
الحلم ، تكفيه اللحظة وترشده السكينة ، قد أبهر خدمة الملوك وأحكمها ،  
وقام في أمورهم لخدم فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع  
العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان  
غده ، يكاد يسترى قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . وقد أثرتك  
بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأنيك (١) .  
وهذه الرسالة تشبه رسالة ابن المقفع السابقة في وصف أحد إخوانه .

٤ - رسالة لعمر بن مسعدة :

كتب إلى المأمون وقد تأخرت أرزاق الجند :

كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبل من قواده وسائر أجناده في الانقياد  
والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختات  
لذلك أحوالهم (٢) .

وكان عمرو بن مسعدة من بلغاء الكتاب في العصر العباسي الأول ،  
وكان كاتب التوقيعات بين يدي جعفر البرمكي وزير الرشيد ، وتوفي عام  
٢١٧ هـ ، وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزاً (٣) .

---

(١) ٢٤٩ : الأمل .

(٢) ٢٣٤ أدب الكتاب للصولي .

(٣) ٨١ : ٦ معجم الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلكان ، ٥ : ٥٠٢ الوافي  
بالوفيات - قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومجلة الجمع العلمي =

وكانت بلاغة عمرو بن مسعدة مضرب الأمثال ، ولما وقف أحمد بن يوسف على هذه الرسالة الموجزة البليغة الرائعة أعجب ببلاغتها ، وقال : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ومضمون الرسالة شكوى وطلب إلى الخليفة المأمون بإرسال مرتبات الجند المتأخرة ، وغواها لإخبار بحالتهم مع طي الطلب والشكوى . . وهذا من غير شك مما جعل لها أهمية في نظر بلغاء العصر العباسي ، ويضم إلى ذلك إيجازها الشديد البليغ الذي جعله أحمد بن يوسف من أسباب بلاغة الرسالة .

وفي رأي أن هذه الرسالة لا تستحق هذا الاهتمام وذلك التقدير ، لأنها لا تثير فينا إحساسا . ولا تجعل الذوق يلتفت إليها . وليس فيها رأي قارئها الخاص ، بله العادي ، جديد ، وجملة ، اختلت أحوالهم ، أشبه بالذم منه بالمدح ، ولو قال بعد المقدمة : « على أحسن ما تكون عليه جند يذبون عن الخلافة ، ويتعرضون فوق ذلك لآلام الجوع والنصب ، ويقاسون الحرمان من تأخر وصول أرزاقهم ، واختلال أحوالهم من أجل ذلك ، لكان أروع وأبلغ من كلام ابن مسعدة السقيم ، مع اتحاد المضمونين ، وتوافق الأسلوبين في أغلب التراكيب .

---

= العربي بدمشق من بحث الأستاذ محمد كرد علي ، ٣ : ٥٩ عصر المأمون ، والحياة الأدبية في العصر العباسي .

### فصل للجاحظ في الحسد (١)

الحسد - أبقاك الله - داء يهلك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فداويه في غناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة » فقال بعضهم : « صاحب ليل » ، إنما هم أن يصبح ، فقال : « إنه لكذا » ، وليس كذلك ، فقالوا له : « فاخبرنا بأقل الناس غفلة » ، فقال : « الحاسد » ، إنما هم أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلا يغفل أبداً . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الخطب اليابس » . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم » .

فنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنهج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلفاء ، يكمن فى الصدر كونه النار فى الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنقص عمره ؛ وكدر نفسه ، ونكد عيشه - إلا استصغاره نعمة الله عنده ، ويخطه على سيده

---

(١) من رسالة الجاحظ فى الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه - لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان لديهم في القياس مظلوماً . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصود . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات وأول معصية حدثت في الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويهاً ، وموه على قلبه تمويهاً ، نسي به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقى وغوى . وأما في الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه وأنكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدرد العقوق ، إذا ألقي الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنياً - أن يوبخه على المسال ، فيقول : « جمعه حراماً ، ومنعه أيتاماً ، وألب عليه محاييج أقاربه . فتركهم له خصماً ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروءك ، وأظهروا في الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظليلاً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أودعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال إنه يجب أن يعاد ولا يمرد ، ويرى عليه القعود .



وإن كان المحسود عالماً قال: «مبتدع لرأيه لا متبع، حاطب ليل، ومبتغى نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، فأقبل على الحيل. وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو ليوصي إليه، ويحج ليثني عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر الفسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليروجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته. وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخويص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستئفال لحديثك، والخلاف لرأيك.

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسيج وحده، لجودة رأيه، وبعد همته ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسيادة، وإذعانهم له بالرياسة، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه، وتبين لهم عقله، وفقد بينهم جهله، ورأوه لذلك أهلاً لما أطاق له حملاً.

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم، وقدم المدينة، ورأى «عبد الله» عز رسول الله، شتمخ بأنفه، فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتى صار حسوداً، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً، فحق بعد اللب، وجمل بعد العقل، وتبوأ النار بعد الجنة. ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار، فقالوا: «يا رسول الله لا تله، فإننا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لتوجه.

ولو سلم للخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمسكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده، وأظهر نفاقه. ولذلك قال القائل:

طال على الحاسد أحرانه	فاصفر من كثرة أحرانه
دعه فقد أشعل في جوفه	ماهاج فيه حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة	من لذة المال لحزانه
فارم على غاربه حبله	تسلم من كثرة بهتانه

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود »، التي ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيلة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى لترى فيه رقة الالفاظ وسجاجة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور العبائية ، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف ، وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ ، أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك .

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود » ، يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفاياه ، ويكشف نفسية صاحبه كشفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وقد ولد الجاحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت فى عنفوان الثورة العلمية والأدبية ، فأخذ عن علمائها ، وأدبائها ، كالأصمى والأخفش والنظام المعنولى الذى تخرج عليه فيما بعد ، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم وله من الشهرة وذبوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله ، وشدة عارضته ، وخلابة منطقته وسحر بيانه ، وكثرة جمعه للمسائل ، وإحاطته بالعلوم ، وليس يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نواذر التاريخ ، وثروة ضخمة فى اللغة والأدب ، ولأسلوبه فى الكتابة مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، ونسبت إليه ، منها :

أولاً: الإطناب الذي لا تحس فيه مللاً ، ولا تشعر منه بسأم ، ولا تود معه أن ينقطع بك حبل الحديث ، لأنه بمنزلة جده بهزله ، ويستطرد إلى الملمح والنوادر والطرف ، استجلاباً للنشاط ، وإيقاظاً للتفكير ، مستعيناً بالترادف ، والاستقصاء للمعاني ، والإيفاء للموضوع .

ثانياً : الاهتمام باختيار الألفاظ ، وتنسيق الجمل ، وترابط الأسلوب : واعتماده على المنطق القوي ، والفكر السليم .

ثالثاً : تقطيع الجمل إلى فقرات ، والتزام السجع حين يريد اقتياد العواطف وامتلاك زمام الوجدان .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات في أسلوبه في هذا الفصل ظهوراً واضحاً ليس فيه خفاء .

والجاذب صاحب باع طويل في صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ، كاد ينفذ به إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ، ويناجي العواطف ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلبه المصقول ، وبيانه القوي ، إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ما ساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى ، ولغاياته حين يقصد ، لا يستعصى عليه شامس ، ولا يتأبى عليه صعب .

٦ - وكتب أحمد بن يوسف يهنئ بمولود :

« أما بعد . فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب على من حقه ، وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغت أن الله وهب لك غلاماً سريراً ، أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سروري بذلك ، وأكثر حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك . »

### وكتب في الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك . ولا مستودعاً أقل زكاء ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك في حسب ذنى : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه ، وفي وليه أن تكفر به . »

٧ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال :

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ( كذا ) فأنكره ، ولا تخلصوا إحدى منزليين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أنلت من عظيم العشرة . يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام . »

٨ - وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ؛ ورجح في قلبك إثارة الأناة ، فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق السفهاء ، وبجانبه سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أسي وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد  
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجترى. إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المسكاةة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أرهبنى فائقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لاتهب عقابى - أيدك الله - لخدمة ، فهبه لأيدىك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الاحدثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفودون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كوز بن صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك .. واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ - وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ، ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى ، وكأن خرابها ينشر . وقد وكلت إلى المهجر نواحيها ، واستحثت باقيا إلى فانها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها بمحو الآثار ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهارة إرجاف ، وسروره أحلام . ليس له زاد فيرحل ، ولا مرعى فيرتع . فخالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم أردية السيوف ، وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوهول ، ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنقع سائرهما ، قد نشرت فى وجوها غررا كأنها

صحائف البرق ، وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ، في جيش يتلقف الاعداء  
أوائله ، ولم ينهض أو اخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روائح  
النصر ، يصرفه ملك يملأ العين جمالا ، والقلوب جلالات . لا تخلف خيلته ، ولا  
تنقض مربرته ، ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا  
اللهو سفر الشباب ، قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ، ولا  
يتشظى عصاه ، ولا تطفى جمرته ، في سن الشباب لم يحن مأثماً ، وشيب ولم  
يراهق هرمأ . قد فرش مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجها بالعواقب  
الظنون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقرأاً للحلم ويندله ،  
قادراً على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطمأنت بهم  
سيرة لئمة الخواشي ، خشنة المرام ، تطير بها أجنحة السرور ، ويهب فيها  
نسيم الحبور ، فالأطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تخب مطايا  
الغير ، وتستقر وجوه الحذر . وما زال الدهر ملياً بالنواب ، طارقاً  
بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها - وإن جفت - معشوقة السكني ، وحبيبة المشوى ، كوكبها  
يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها مسك  
أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مرى ، وللبقاع  
دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء .  
والهم إلى فرجة ، ولشكل سائلة قرار ، وباقه أستعين وهو المحمود على  
كل حال :

غدت سر من را في العفاء فيالها      قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل  
وأصبح أهلوها شديهاً بجالها      لما نسجتها من جنوب وشمال  
إذا ما مرو منهم شكاً سوء حاله      يقولون : لانهلك أسى وتجمل

١٠ - - ولاحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى نداك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جدواك ، جمعا الوفود بياك ،

يرجون نائلك المعمود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بخدمة ، وقد أجهف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعمشهم بسببه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فغل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ - ولابن قتيبة يقدم كتابه ( عيون الأخبار ) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمها لمغزل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائنس الناس ومسومهم مؤدبا ، ولبلوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفها أبوابا ؛ وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والسكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وحلية الأدب ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف .

١٢ - ومن رسائل أبى اسحق الصولى على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه ؛ وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه عما قوم به من أود وعدل به من زيغ ولم به من منشور ، استعمال ثلاث يقدم بعضهم على بعض : أولا هن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير ونخوف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا ؛ فإن لم تغن أغنت عزائمه وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :

وكتبت وقد بلغت المدية المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتسكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرى خوفا منك ، وبادر إلى العدو تقربا إليك .

(١) ١٦٩ : ه معجم الأدباء لياقوت - طبع القاهرة .

١٣ - وقال أبو يوسف في كتابه الخراج ، الذى كتبه للرشد :

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ، يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما رزقوا على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح . أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به ، وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به إلى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة الموجبة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف ، وخيانة لك فى رعيتك ، واحتجان شئ من الفئ ، أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك ، أو تشركه فى شئ من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة .

### حالة الكتابة فى هذا العصر

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتعذيب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحاً وإعجاباً ، وتبعث فيها نشوة وهزة ، وهو ما نسميه الكتابة الإنشائية أو الفنية أو الأدبية ، التى يتألق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشدة فى الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ؛ وغذاء للروح .

( ٢٠٢ - ٢٠٣ )



## أنواع الكتابة وموضوعاتها :

وللكتابة الفنية في هذا العصر ألوان عدة :

١ - فنها الرسائل الإخوانية التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض في تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعاة أو عتاب ، وما إلى ذلك ، وهي أوسع ميداناً وأكثر افتتاناً ، وأعذب بياناً ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعمهم .

٢ - ومنها الرسائل الأدبية المطولة التي يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعين لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويج عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ مما يتجلى في السير والاسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخميس التي كان يكتبها البلغاء في هذا العصر ، لتقرأ في خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ، وكتب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلاً عن اصطناع الكتابة في فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التي كانت وفقاً على الشعر .

٣ - ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التي تصدر من ديوان الرسائل بنوعيه ( الخاتم والتوقيع ) ، في شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة في هذا الديوان بخلافها في الدواوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق في الأسلوب والجمال في العبارة والبراعة في إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة .

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعاً ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفوذ الفرس في الديلة ، وسعة سلطان الخلافة في المشرق والمغرب ؛ فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التي تقوم بانجاز الأعمال المتعددة ، وخصوصاً كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام السكسري في الإدارة وطبقوه في دولة الخلافة . . ومن الدواوين التي كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان الضياع والإقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعادن ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذي يقلد منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد في جيش الخلافة وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أنيراً لدى الخليفة ، موثقاً به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأي ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور . وكل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف في شئون الحرب ، كالفضل بن سهل ، الذي وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ؛ ولقبه الخليفة « ذا الرياستين » ، وكان له علم على سنان ذي شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله أشرط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أدبياً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكاً ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب في اختيار وزير : « إني التفت لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلانقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أوتيت على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ؛ يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه

اللغة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ؛  
إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان  
غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صفوة الناس وأعلام  
أدبا وخلقا وكفاية ودراية وذكاء وفهما : كآبي سلمة الخلال وزير السفاح ،  
وأبي أيوب المورياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ،  
ويحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه  
الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسوام ، ممن كانوا درة في جبين الدهر ،  
وغرة في وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة  
ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولولة  
الآقالهم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالى كرمان داود  
ابن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتتاب ممن نبتوا من أصول  
فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتتاب .

#### (١) ٢١ الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة في اشتقاق كلمة الوزارة على قولين :  
أحدهما : أنها من الوزر وهو الحل فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ،  
وهذا قول ابن قتيبة ، والثاني أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الجبل الذى  
يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذى يعتمد عليه الخليفة  
والسلطان ويلتجئ إلى رأيه ، وهو قول أبي إسحاق الزجاج د ٢٢٩ : ١ .  
وفيات الأعيان .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هى مأخوذة من  
اللغة الفهلوية من كلمة فيشير ، ومعناها الأمر أو التقرير .  
ولم يكن لقب الوزير موجوداً في الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل  
الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتباً ومشيراً .

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب  
الكتاب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولي ، وكتاب الكتاب لابن  
درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى ، وكتاب الأحكام  
السلطانية وسواها ، وألف القلقشندي المصري أخيراً كتابه المصنوع وصح  
الأعشى في صناعة الإنشاء . وحول ثقافة الكتاب وشخصيته يقول أبان  
ابن عبد الحميد : أتلاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد  
مستهمجاً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون في حاشيته . وقائماً بخدمته (١) :

أنا من بغية الأمير وكبر	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب	ناصر رائد على النصاح
شاعر مقلد أخف من الريد	شدة إما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد	أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين لله	لم بقول منور الإفصاح
وظريف الحديث فى كل فن	وبصير بنرات الملاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد	لغدر دعيت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثوبه	ولا الماجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال . وتنوعت بتنوع مطالب  
الدولة ، بيد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط  
الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاة وتصريف  
الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل فى الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

---

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أتاه  
بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما فى نفسه وأحسن .  
فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ،  
فخسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

في ذلك كله مجال لبراءة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبي بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فأما الكتابة في ديوان الرسائل فهي التي تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، ونزد إليه ، ولذلك تولاه فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب ، المحيطون بشتى الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلاً أعلى في الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء في صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها: طبقة السكتاب ، الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين اتسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم في نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقتون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخين لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتز المعنزي م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشراً مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليسكون رجلاً من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحاً

واطلوا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتنميته في أصول  
البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى  
هشام بن عبد الملك وعبد الحميد السكاكيب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٢) ؛  
وعبد الله بن المقفع وسهل بن عارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل  
وبجي بن خالد وجعفر بن بجي وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد  
ابن عبد الملك الريات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة سعدوا  
بفهم وبلاغتهم إلى أرقى المقاصب في الخلافة الإسلامية .

هذه هي الكتابة الفنية التي عرفت في هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التي هي كتابة التأليف والتدوين ، والتي تحفل  
بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدي إلى  
النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتي تعتمد أكثر ما تعتمد على  
الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسحاق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر في هذا العصر ، لأن  
العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك في بداية التدوين .  
حاشا كتب الأدب التي كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب  
التي ترجمت في هذا العصر في مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمات  
التأليلية الذي ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

#### نهضة الكتابة في هذا العصر :

بلغت الكتابة الفنية في هذا العصر من الرقي والسمو ما لم تبلغه  
في أي عصر من العصور . وذلك اعظم ورائع آثار الثقافات الأدبية والفكرية ،  
ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويروى أن  
رجلا سأل ابن المقفع : ما الذي يمكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع

يعنى به الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتابة باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافظاً على تجويدها والتأنق في أساليبها .

ولئن كانت الكتابة في آخر عصر بني أمية ، قد صارت صناعة عتيقة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمثلهم في البلاغة والفصاحة والحدق والبراعة واللفظ وشرف الصناعة ، حتى بذوا فحول الشعر في عظمة الجاء ، وسعة النفوذ والسلطان .

#### خصائص الكتابة في هذا العصر :

(١) تمتاز الكتابة الفنية في هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة في الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ - سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعاني ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة المترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق في أدلتها والإقناع بها .

٢ - التأنق في الألفاظ وحسن تخييرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة .

٣ - أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الرصف ، وحال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع في تخير الأساليب ،

في جزالة حيناً ، وعذوبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات في أوائل الرسائل المطولة ، وفي بعض المنشورات والعمود ؛ وإلى توبيع عبارات البدء والختام في الرسائل ؛ وكانوا يبالغون في الإيجاز حيناً وفي الإطناب حيناً آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات ؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصي به ، ولكنه لم يكن السائد في أسلوب كتابة الرسائل في هذا العهد ، ويرى عن جعفر البرمكي أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

٤ - وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أورع مآراقهم منها من تهويل في الخطاب وتعدد الألقاب ، وإفراط في استعمال طرفي الإيجاز والإطناب ، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعاني واختراعها ، والمقدمات التي كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عهودهم ومنشوراتهم .

(ب) ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والفتيح والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذي قوى في هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب وعبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملاً للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطاك وإلا صر فناك عن عمالك » ، فأعاد الإمامان في أسلوبه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت فذلك في صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » ، لأن كرامة النساء دقنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب . فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد » . ومن دقنهم في ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع



بك ، بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد  
ابن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة ، وأمتع  
بك ، ، فكتب إليك عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك      أم نلت ملكاً فتهت في كتبك ؟  
أم قد ترى أن في ملاطفة الـ      إخوان نقصاً عليك في أدبك ؟  
أكان حقاً كتاب ذى مقمة      يكون في صدره (وأمتع بك) ؟  
أنعبت كفيك في مكانتي      حسبك ما قد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى      وكل شيء أنال من سيبك  
أنكرت شيئاً فلست فاعله      ولن تراه يخط في كتبك  
إن يك جهل أذاك من قبل      فعد بفضل على من حسبك  
فاعف فذلك النفوس عن رجل      يعيش حتى الممات في أدبك

وكذلك جعلوا ، أطال الله بقاءك ، أرجح وزناً من قولهم ، أبقاك الله  
طويلاً ، ، قال ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب  
عنها ، والصدور المستوحش منها ، في كتب السادات والملوك ، على اتفاق  
المعاني ، مثل ، أبقاك الله طويلاً ، وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم ، أطال  
الله بقاءك ، وبين قولهم ، أبقاك الله طويلاً ، ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً  
وأنبه قدراً في مخاطبة ، كما أنهم جعلوا ، أكرمك الله وأبقاك ، أحسن منزلاً  
في كتب الفضلاء والأدباء من ، جعلت فداك ، على اشتراك معناه ، واحتمال  
أن يكون فداءه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءه من الشر . . على أن  
كتاب المسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاوراتهم ،  
وجعلوها هجيراً في مخاطبة الشريف والوضيع » .

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له :  
« قوى الله ضعفك ، فقال : لو قوى ضعفي قتلتني ، قلت : والله ما أردت  
إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتني ما أردت إلا الخير ، قل : « قوى الله  
قوتك وضعف الله ضعفك » .

وهذه الدقة الماثورة عن الشافعي يؤكدتها ما روى عنه أنه قال :  
« أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك في المصائب » ، لأن معناه أكثر الله  
مصائبك ليعظم أجرك » .

#### طبقات الكتاب :

١ - الكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

أ - فالطبقة الأولى : هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ،  
ويحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حمزة ، وأبي أيوب المورياني .  
من كتبوا للمنصور .

ب - والطبقة الثانية : طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود  
وزيري المهدي ؛ ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم من كتبوا للمهدي  
والهادي والرشيد .

ج - والطبقة الثالثة : طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل  
ابن صبيح ؛ والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمر و  
ابن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحمول - من كتبوا للرشيد والأمين  
والمأمون .

د - والطبقة الرابعة : الطبقة التي ربيت في عصر المأمون وجمعت بين  
الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ،  
ولم ينها انتت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبذا أعلامها تحول الشعر

في عظمة الجاه والرياسة ؛ مثل : الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم  
ابن العباس الصولي ، وسعيد بن حميد . والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ؛  
وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

٢ - ويجعل بعض الكتّاب<sup>(١)</sup> هذه الطبقات طبقتين ؛ الأولى : رئيسها  
ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة . وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين  
الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهّد في السجع ؛ وقد  
حدّ البلاغة فقال : « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، وقال  
لبعض الكتّاب : « إياك وتبغ الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة  
فإن ذلك هو العي الأكبر » ، وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ  
مع التجنب لألفاظ السفلة » .

والثانية : رئيسها الجاحظ . وطريقته أشبه بالأولى في سهولة العبارة  
وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلّة ؛  
وزيادة الإطناب في الألفاظ والجل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ؛  
وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجل  
الدعائية .

وهؤلاء الكتّاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن  
ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت  
كتابتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعاني ،  
وحسن الابتداع في الأخيلة ، مع الازدواج حيناً ، والسجع حيناً آخر ..  
إلى غير ذلك من الخصائص والميزات التي أفصنا في شرحها .

### أشهر الكتاب في هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب في هذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٢٣ هـ (١) ، وإبراهيم بن العباس الصولي م ٢٤٣ هـ (٢) ، وسعيد بن حميد م ٢٦٠ هـ (٣) ، والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥ هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ (٦) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب م ٢٧٧ هـ (٧) ، والمرثدي وكان يكتب للدوق (٨) ؛ ونطاحة الكاتب أحمد من إسماعيل بن الحبيب الانباري كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ؟ وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢ هـ (١٠) ،

- 
- (١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٢٥٠ معجم الشعراء ، ٢٧٨ : ٣ وما بعدها عصر المأمون ، ٢٧ : ١١ وما بعدها الطبري . ٣٩ : ٤ مسعودي ، ٤٣ الرسالة العذراء .  
(٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودي ، ١٧٣ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغاني وما بعدها ، ٢٠٠ : ١ الفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق ، ٩٩ خاص الخاص .  
(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٥٤ - ٥٧ : ٢ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ : ٤ : ١٢٢ : ٤ زهر ، ٩١ : ٤ المسعودي ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق .  
(٤) راجع : ١٧٧ فهرست - ٥٠٦ سمط اللآلي - ٢٤٨ ابن الرومي للعقاد - ٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .  
(٥) وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات في آخر خلافة المتوكل .  
(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومي - ١٧٧ فهرست - ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغاني - ٥٠٦ : ١ سمط اللآلي - ٨٥٠ معجم الشعراء ، ٣٨٦ - ٣٨٨ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .  
(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٢٦ - ٥١ : ٢ معجم الأدباء .  
(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب للصولي .  
(٩) راجع : ١٨٠ فهرست - ٢٧٧ ج ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولي كثيراً جداً في أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .  
(١٠) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء .

وإبراهيم بن المدرم ٢٧٩ هـ (١) ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وعلى ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين (٢) ، وعلى بن العباس التوبختي م ٣٢٧ عن سن عالية (٣) ، وابن المعتز م ٢٩٦ ؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي م ٣٣٦ (٤) وهو الذي جمع ديون ابن المعتز (٥) ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ (٦) وحفيد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ هـ (٧) ، وأبو الحسن جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (٨) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد (٩) .

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة في الأدب العربي والتأليف فيه ،  
ومنهم :

(١) الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام .

---

(١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح .

(٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .

(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ ج ٢ زهر .

(٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالباء ومقدمة أدب الكتاب .

(٥) ١٧٥ ج ٢ زيدان .

(٦) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد .

(٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .

(٨) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرست .

(٩) ١٨٨ فهرست .

(ج) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ (١)، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

(د) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفي وله كتب كثيرة (٢) .

(هـ) ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤-٢٨٠ هـ) (٣)، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء واختيار المنظوم والمنثور (٤) .

(و) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ هـ) (٥) .

---

(١) ١١٥ وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢ وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٢٥١ الموشح ، ٢١١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : ١ معجم الأدباء ، ٤٨ و ٩٣ و ٩٤ : ١ ديوان المعاني .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط هي : الحادي عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر ، والثاني عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولاً من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودي - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ - ٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٢٢ : ١ زهر ، ١٧٠ نكت الهميان - ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ : ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧ معجم الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سمط اللآلئ ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمالي المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعراء لابن المعتز

### (٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه ، يبداء الرأى فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

وللتوقيع في اللغة معان متعددة: جاء في اللسان: وقع <sup>(١)</sup> ظنه على الشيء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصا به . وتنظر الأمر ، وتوهم الشيء؛ ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع . أى أن فيه تأثير أخفياً من الحبال التي تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحي ، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون في آخر الكتاب المرفوع . ووقعت <sup>(٢)</sup> الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكان الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من الترقيق الذى هو مخالفة الثانى للأول . قال الأزهري : توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر <sup>(٣)</sup> ظهر البعير . فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي ، ووجد في الأدب

---

(٢٩) بتشديد القاف .

(٣) الدبر بفتح الدال والباء القرحة في ظهر البعير .

العربي منذ عصر صدر الإسلام ، و يروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء فوق له عمر : « ابن ما يكتنك من المواجر وأذى المطر » . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية . . . ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى في عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب والفن والبلغاء ، وروى منه الكثير كذلك الخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر . وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحيانا مثلاً أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مانوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر . وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

#### نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حليمك أفسد علمك ، وتراخيك أثر في طاعتك ، فخذ لي منك ، ولك من نفسك .  
ووقع المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيتك واعتبت فأعتبتك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .  
ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكريك من الفساد يعطيك النيل القيادة .  
ووقع في قصة فقير : سل الله من رزقه . . . ووقع المهدي في قصة رجل حبس في دم : ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب .



ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : دار جرحك لا يتسع .  
ووقع في نسكبة جعفر البرمكي : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .  
ووقع المأمون في قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفني هذا الرجل  
وإلا كفيته أمرك .  
وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأطلته فأخذ المأمون  
من بين يدي وكتب : قد كثرت شاكوك . وقل شاكروك . فإما اعتدلت وإما  
اعتزلت . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكي أيضاً .  
ووقع المأمون في كتاب لابراهيم بن المهدي : القدرة تذهب الحفيظة  
والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله .  
ووقع جعفر البرمكي في قصة محبوس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .  
ووقع يحيى البرمكي لمظلوم : طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً .  
ووقع طاهر بن الحسين في قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت  
من الكاذبين .

---

## تراجم بعض الكتاب

### ابن المقفع

١ - ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره في النثر الفنى وفي تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصولها الفنية ، وكان بعض منهم يعرفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجبل بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية<sup>(١)</sup> ، وعبد الحميد الكاتب أحد أعلام النثر الفنى وأئمة ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى<sup>(٢)</sup> . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية<sup>(٣)</sup> ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة فى الترسىل وعنه أخذ المترسلون<sup>(٤)</sup> .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية<sup>(٥)</sup> ، وهذا مما لا يوافق عليه باحث ، ويصف ابن عبدربه فى العقد

---

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صليح ، ١٩ : ٢ ديوان المعانى ، وهما لأبى هلال العسكري . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لوكى مبارك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١٠ مقدمة نقد النثر لقدامة وهى بقلم طه حسين .

الفريد عبد الحميد الكاتب بأنه أول من فتن أكام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر (١) .

ولقد تأثر ابن المقفع ببلغاء عصره وفي مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد المترجمين من الأدب الفارسي والثقافة الفارسية (٢) ، ولا شك أن ابن المقفع كان إمام الكتاب والمثقفين في عصره ، وقد آخى في أسلوبه بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية ، ويعد من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة في الأدب العربي . . . ولغته وتركيب جملة أدنى إلى البساطة والوضوح من كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تليغا وإشارة .

وبلا ريب أحدث في الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : في المنهج والأسلوب وطرق الأداء ، وفي نظامها في البدء والختام . . . وفي تكرار التحميد في فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفي تضمينها الكثير من المعاني الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية التي لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له فضل كبير على النثر الفني .

ولا شك أن نثر ابن المقفع الأدبي هو مظهر من مظاهر انثرانفي في العصر العباسي الأول ، الذي تأثر بالمؤثرات الجديدة ، وبتقافات الأمم القديمة العريقة ، كل التأثر .

٢ - وقد عاش ابن المقفع ستة وثلاثين عاماً ، هي كل عمر هذا الفني

---

(١) ٥ : ج ٢ العقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذى أودع الفكر العربى أسى روائعه ، وأثنى كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هى مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الرفيعة ، والآداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هى كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب لمعمر بلغ المائة أوجازها لكان كثيرا عليه ، ولما كان دليل عبقرية فذة ، ومواهب فائقة ..

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء وحصافة المسكات ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ، واجتمع الخليل وابن المقفع ، فسكننا مدة يتجاذبان أطراف الحديث . فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : « ما شئت من علم إلا أن عليه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ما شئت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير » .

ويعد ابن المقفع من أفضا الأدياء والمفكرين فى تاريخنا العقل .

فهو من الجانب الأدبى قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة فى الأفكار والمعانى والأغراض ، بل وفى الأساليب أيضا ، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربى أن يمنحها إياه ، من ثراء فى الأداء والتعبير ، وغنى فى التخيل والتصوير ، وسعة فى المعانى والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حللا رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التى حفظت على العربية شبابها ورواءها . ويذهب لقيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسى موسى ، إلى أن النثر الفنى مدين فى وجوده فى أدبنا العربى لابن المقفع ، فهو فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية . ومهما كان في هذا الرأي من مغالاة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي . وقد آخى في طريقته بين التشكير الفارسي والبلاغة العربية ، واستخلص من الأدبين الفارسي والعربي اللذين كان يجيدهما طريقة عرفت به ، وأخذت عنه . وتظهر ميزته في ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمها ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى تبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان . . ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه ، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديرا واعيا . وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزائته وجماله وسحره يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها ، هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها .

وكان يتجنب الغرابة والحوشية ، ويقول : إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر . . وفي حرصه على الإيجاز ما يبرر قوله : الإيجاز هو البلاغة ، إن ابن المقفع من الجانب الأدبي يعد أمة وحده في البلاغة ورصافة القول ، وشرف المعاني ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . . وله فضل كبير في تطور فن انقصة في الأدب العربي ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكاتب أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكري فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتآليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ماقرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي ، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة .

نجد في كتابه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » - اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق

والآداب وتربية النفس وسياسة الملك - كان يحاول أن يرسم خطوطا عريضة لمجتمع قوى ، تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والهدأة . وفي الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الساسانية في الحكم . وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهي منقولة من الفرس ، الذين تأثروا - فيما تأثروا - بالمذاهب اليونانية . ويرجح كثيرون أن كتابه « الدرة البهية » هو نفس كتاب « الأدب الكبير » .

وكتاب « كلية ودمنة » ، كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية في عهد كسرى أنوشروان ، وأضاف الفرس عليه أبوابا ، مثل « باب بعثة برزويه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأضاف عليه فصولا جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمنة » ، و « باب النامك والضيف » ، و « باب البطة ومالك الحزين » ، ويرجح بعض المستشرقين ومنهم « هرقل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة علي بن الشاه الفارسي المتوفى عام ٥٣٠ هـ . وفي هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعي ، التي انطوت عليها جوائح ابن المقفع هي التي دفعته إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربي ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامقة في الفكر الإنساني .

ومن الكتب المفقودة ، التي ترجمها ابن المقفع : « خدائنا » ، أي سير ملوك الفرس وتاريخهم ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلسفة اليونانية التي ينسب إليه ترجمتها ، فترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ، وليست من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذي كان ميلاده ، بخوزستان بفارس في قرية تسمى « جور » ، من أبوين فارسيين ، عام ١٠٦ هـ - ٧٢٤ ميلادية ، وكان أبوه قد سماه « روزبه » ، وكان والده « داذويه » ، يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضر به حتى تقفعت يده ،  
فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه في  
البصرة ، يستظلل بولاء آل الأهم ، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة ،  
وتلقى ثقافته الأدبية في بيئة البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق  
المربد . وعمل في كتابة الرسائل لولادة بني أمية على بلاد فارس ، فكتب  
لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية في ١٣ ربيع الأول ١٣٢ هـ -  
٣٠ أكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن علي عم الخليفة العباسي  
أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٢٣ هـ ، وأسلم على يديه ، وكتب  
بعده لسليمان بن علي أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ هـ ، ثم  
ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتباهه لأعمال  
الخليفة ، الذين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام  
١٤٣ هـ - ٧٦٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربي ،  
وأمثلة رفيعة يحتذيها البلاء والأدباء في كل عصر وجيل . مات المفكر  
العظيم ، الذي جمع بين عقل الحكيم وتفكيره وطبع الأدب وذوقه ،  
والذي كانت حياته مثالا رفيعا للإنسانية وللسمو النفس والخلق . مات  
هذا الشاب الفارسي الأصل العربي اللسان . ولكن ذكره لم يمت لأن آثاره  
الأدبية لا تزال حية ، باقية لن تموت .

٣ - ويهنا أن نعرض هنا نصا لابن المقفع من كتاب كلية ودمنة ،  
وليكن هذا النص هو باب الحماية والتعليب ومالك الحزين .

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كلية ودمنة وهو آخر أبواب  
هذا الكتاب الخالد ، الذي أثرى به عبدالله بن المقفع الأدب العربي ، وقدم  
للفكر الإنساني - في مختلف مراحل - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليله ودمنة من الفهلوية إلى العربية . لما احتوى عليه من أعظم الأصول في سياسة الملك ، وفي دعائم الحضارة والاجتماع . وكان الفرس قد ترجموه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن عجب أن تفقد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الخالد ، ولا يبقى إلا الأصل العربي الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب في كل مكان ، وطار اسمه في كل ناحية . يقول ابن المقفع :

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل <sup>(١)</sup> ، فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

قال الملك : وما مثلن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء ، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسمقها <sup>(٢)</sup> .

وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا

---

(١) هو ما ذكره في الباب السابق ، باب د ابن الملك وأصحابه ، من أن الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل البلاء والضرر .

(٢) أى علوها ، وهو بمعنى السموق ، وفي الأصل : سمقها ، أى بعدما وذلك لارتفاعها .



انقاض (١) وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهد (٢) ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها (٣) أن يرقى إليها أو تلقى إليه فراخها . فتلقبها إليه .

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذا أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كثيفة حزينة شديدة ألهم قال لها : يا حمامة مالى أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يا مالك الحزين إن ثعلبا دهيت به كلما كان لى فرخان جاءنى يتمددنى ويصبح فى أصل النخلة فأفرق (٤) منه فأطرح إليه فرخى . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولى له : لا ألقى إليك فرخى ، فأرق (٥) إلى وغرر بنفسك (٦) فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخى طرت عنك ونجوت بنفسى .

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر ، وأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لها : أخبرينى من عليك هذا ؟ قالت : علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالى ، قال : فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يمينى أو خلفى ، قال : فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحى ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ما أراه (٧) يتبها

- 
- |                        |                       |
|------------------------|-----------------------|
| (١) أى خرج منه الفرخ . | (٢) أى تفقد وعرف .    |
| (٣) أى تهددها .        | (٤) أخاف .            |
| (٥) أى اصعد .          | (٦) أى عرضها للهلاك . |
| (٧) أى ما أظنه .       |                       |

لك ، قال : بلى ، قال : فأرني كيف تصنع ؟ فلعمري يامعشر الطير فقد فضلكم الله علينا ، إن كنتم تدرين في ساعة واحدة ما تدرين في سنة وتبلغن مالا نبليغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فمئيتا لكن فأرني كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فمزمه (١) همزة دق عنقه ، ثم قال : يا عدو نفسه زى الرأي للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ، ثم قتله وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعي دروس الحياة كاملة ، وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو غيره من شرهم ، وأن يكون عميق الإدراك بعيد الفطنة ، لا يغتر بكلام محتمل مخادع ، أو ما كر متلطاف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتعثر في أداء مضامينه ، لأن الترجمة للمعاني الفلسفية الدقيقة لا يكاد يقوم بها أسلوب بليغ مهما دقت بلاغته ، وعلت منزلته في الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة ، فالأسلوب مفسكك غير متلاحم الأجزاء مع ضعف نسجه ، وقلة روعته ، وفي آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرني كيف تصنع ، مرتين .

والنص قصة من قصص كتاب كليله ودمنة ، وهي كأغلب قصص الكتاب قصة على لسان الطير والحيوان يرويها الفيلسوف الهندي بيدبا للمليكة دبشليم مرشدا وموجها ومعلما ، وتبتدى كل قصة بسؤال من الملك للفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلاً ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

---

(١) أى كمره .

السابق ، فاضرب لي مثلاً في شأن كذا . فيرد عليه الفيلسوف قائلاً : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويستمرسل من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهي تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعي والفكري فائدة جميلة لما فيه من التسلية والمتعة والبهجة والتشويق والطلاقة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل في روعته وحكمته ، ومما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماماً كبيراً ؛ وفي القرآن الكريم قصص خالدة على ألسنة الطير مثل قصة الهدد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على ألسنة الطيور والحيوانات كان وقعها في النفس أعظم ، وأثرها في القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومتعته بها أجل .

وقد ألف الكتاب قصصاً على ألسنة الحيوانات والطيور لتعليم الحكمة عن طريق القصة استجماماً للنفوس وترويحاً للقلوب ، وليكون الجد في صورة متعة تجتذب إليها العامة ، ويتسلى بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : في هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) .

والأصل الهندي للكتاب هو كتاب « بنج تنرا » (٢) ، ويذكر أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » في تعليم أبنائه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، فأشار أحد المقربين إلى الملك عليه باستدعاء كاهن برهمي حكيم

---

(١) مقدمة كلية ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس رسائل .

اسمه ، وشنوشرما ، لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعليم أبنائه فوضع السكاك لهم هذا الكتاب ليحببهم في المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٢٠٠ ق م .

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكيم الهندى الذى ألف الكتاب « بيدبا » وقد وضعه للملك دبشليم لتعليمه سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغيان ، وقد استعان بيدبا فى تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى فى التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى فى « الشاهنامة » فى سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملك أنوشروان سمع من برزويه الطبيب أن فى بلاد الهند عسبا يحى الموتى فبعث أنوشروان برزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويحجوب البلاد فى طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء فى الهند فأرشدوه إلى كلية ودمنة لأنه بأدابه يحى القلوب الميتة . فنسخه وقدم به على أنوشروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك فى عهد أنوشروان ( ٥٢١ - ٤٧٤ م ) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية فى حكم المنصور فى القرن الثانى الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحدهما كلية وللآخر دمنة .

وكان لكليلة ودمنة صدى عميق عند كل الناس فى عصر ابن المقفع وبعد عصره ؛ حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة » .

## الجاحظ شيخ الأدباء في العصر العباسي

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

١ - عاش الجاحظ في العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٢٣٤ هـ) وأدرك سنوات من حكم المنصور ، والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، ولقب بالجاحظ الجعوظ عنده .

وقد نشأ بالبصرة فقيراً حائراً ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان (١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما في البصرة وبغداد ، ويتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد ، ويسمع من الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذامع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ما وقع يده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكثرى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح علماً ذائع الشهرة في هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفاً ، ويصور ذلك ماروي عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصده وأقت عليه عشرين سنة . »

وقد انفرد الجاحظ بآراء في التوسيع صارت مذهباً من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرسائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق وأهدى إليه كتابه « الحيوان » ، ولما قتل ابن عبد الملك في بدء خلافة

---

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال : والله ما علمتكم إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة معدنا للساوى . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيديك الله ، فوالله لأن يسكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن من أن أحسن قسىء ، وأن تغفو عنى فى حال قدرتك أجل من الانتقام منى . فقال له ابن أبي دؤاد : قبحك الله ما علمتكم إلا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيئوا بجداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عنى أوليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجىء بالجداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فاطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم وعمل يوم فى ساعة وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى وليس بجذع ولا ساجة (١) ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال يا غلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تحت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » . . .

واتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن خاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها فى كتابه « البلدان » ، كما أنه دخل أنطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه فى العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج فى أعقاب عمره وكان ذلك فى أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بأمرى . ليس بطائل ، ذى شق مائل ، وعقل حائل .

---

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفي في آخر خلافة المهدي وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعار الجاحظ في طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول مازك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقوله أيضا : « كلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمره مرة » ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف في الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً في كل منها .

٢ - ويقول المرزباني فيه رواية عن أبي بكر أحمد بن علي : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبجر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل وقد تدارها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدرة في الممتزلة وغير المعترلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب في سياسته وبقضته ، والثاني الحسن البصري فلقد كان من درارى النجوم علماء وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيوخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سبحانه  
البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ، وإن جد خرج في مسك عامر  
ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ،  
وشيوخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشمرة ،  
الخلفاء ثغره ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة  
تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين  
الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت  
حكيمته وظهرت خلته ، ووطئ الرجال عقبه ، وتمادوا أربه ، وافترخوا  
بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاعتداء به ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة ،  
أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة  
والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدي ( ٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م ) كتاباً في تقرير  
الجاحظ . وقيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ  
بمخنقك ؟ فقال أمثلي يمدح عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنية أنفي  
لما أمنت إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت  
في ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، في النصف الأول من القرن  
الثالث ؛ وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى في كل  
أفق ، ويرن صدهاء في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه في البلاغة والفصاحة  
واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التليذة عليه شرفاً لا يمدله  
شرف ، ومجداً يدينهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات  
( ٢٢٢ م - ٢٢ ق )



الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فآلفوا الكتب في الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقرّيب الجاحظ - وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرّة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والأدب والبيان ، وكان غرّ الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتشققون بثقافتها ، ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسممهم بسم الخنزير والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جوده منهم فكان هدفاً لسخريته الماذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتممة - الترييع والتدوير ، وحسبك أن الماسمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجيدها (١) .

٣ - ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد يوأه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروماً من كل شيء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصبو إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام الماسمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق في الحياة العامة الذي منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاها ابن شهيد عليه في رسالته الزوابع وانترايع ، ، وما جعله يخطئ من يذهب إلى تقديم الجاحظ على

---

(١) ٢١١ ج ٢ البيان للجاحظ نشر السعدوني - ط ١٩٢٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضللا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمايته وإفراط جموح عيذه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ولذلك أخذ يذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل ، وقد نجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة فذلك ما زده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاء سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح وأما أن دماية الجاحظ كان لها أثر في هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عريبا في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بجبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذي أهدى له كتاب ، الحيوان ، وكافاه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد

شيئا من وراء هذه الصداقة ؛ وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذي سيق إليه الجاحظ مغلولاً لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقاً منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لانس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعت مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكاناً علياً ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما خلق في أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولاً وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المنفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ، ومضمها وعاصرها زهاء قرن ( ١٥٨ - ٢٥٥ هـ ) ، وكان له في صدر شبابه غفر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام وفي التفكير والمنطق ، كما كان له غفر صداقة رجال الفكر والسياسة في الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجاً كبيراً في عقلية وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره لا بطلاً من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

٤ - وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بشتى ألوان الثقافات المختلفة التي مارجت ثقافة الإسلامية في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من طراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة

لا تقف عند غاية. وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري ؛ وعقاية الجاحظ البعيدة التفكير لانشك في أنها أفادت ذلك من أسناده النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ ، ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته ، وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة وجامعها العلمية ، وتلذذته على كثير من أساندة الثقافة العربية في شتى مناحيها كآبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتمددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر (المذهب السكلامي عند البديعيين (٣) ) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذي ذكر أنه خرج في أسلوب سقيم ، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر بالخطابة ، لأرسطو (٤) ، وذلك ما أراه ، وأنكر باحث

(١) ٤٠: ١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧ ج ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة ( ١٥ ج ٣ البيان ) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين ، ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

آخر أن يكون كتاب البيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلساماً واسعاً ، ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففي البخله يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلاً زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كرا ز و سئت بارون بيا ئى نشناسم » (٣) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتيبه وفي مؤلفه البيان ، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضاً في الحيوان وفي كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بأراء لأرسطو فيه (٤) وكان مصدراً كبيراً له في كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكى اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٦) ، ويذكر تعريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ، ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معياراً للثقة - كبير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٩)

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

(٢) ٣ مقدمة نقد النشر .

(٣) ص ١٩ البخله ، ١٩ الجاحظ لمردم بك .

(٤) ١ : ٦١ البيان .

(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان .

(٦) ١٥ : ٣ البيان .

(٧) ٧٥ : ١ البيان .

(٨) ٧ : ٣ البيان .

(٩) ١٦٥ : ٢ البيان .

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وإيسافلاسفهم في الخطابة ذكر<sup>(١)</sup>، وأقسام الدلالة عند الجاحظ<sup>(٢)</sup>، هي من تفكير أرسطو. ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها واليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة<sup>(٣)</sup>، وللجاحظ رسالة في نقد الكندي<sup>(٤)</sup>.

ويذكر الجاحظ في البيان، صناعة الكلام، ويعني بها حينا علم الكلام<sup>(٥)</sup>، وحينا آخر البيان<sup>(٦)</sup>، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق<sup>(٧)</sup> وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا أصحاب الخطابة والبلاغة<sup>(٨)</sup>.

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحش والسوق<sup>(٩)</sup> له نظير عند أرسطو الذي دعا إلى هجر الألفاظ الخسيسة التي لا يستعملها إلا العامة<sup>(١٠)</sup>، وقال: ينبغي ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد في المتانة مبلغ الأمر

---

(١) ١٥ : ٣ البيان، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابهم

(٢) ٦١ : ١ البيان، وهي في ٤ الرسالة العنبرية، ٩ نقد الفتر

(٣) ٧ : ٣ البيان

(٤) ٢٢ الجاحظ لمردم بك

(٥) ٦٩ : ١ البيان

(٦) ١٠٨ : ١ البيان. ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ زهر)

(٧) ٧٩ : ١ البيان

(٨) ١٨٣ : ١ البيان

(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(١٠) راجع الشفاء لابن سينا، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهي

منقولة من الشفاء

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا نحوج إلى السكفة المشنومة ، ،  
ودعوة الجاحظ إلى الوضوح<sup>(١)</sup> لها نظير عند أرسطو حيث يذكر ، حسن  
الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمنع في  
الإغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط  
الجمهور ، ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة<sup>(٢)</sup> موجود في خطابة أرسطو  
حيث يوجب أن ، يكون اللفظ فصيحاً للحن فيه ، ، ويذكر الجاحظ  
استعمال المبسوط في مواضعه والمقصود ( المحذوف الموجز ) في مواضعه<sup>(٣)</sup>  
والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب<sup>(٤)</sup> ، ، وأرسطو أول من  
أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما .  
وعلى أى حال فرجع هذا التشابه في الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ  
كثيراً عن الذين ألوا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد وعلى الأخص  
الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يحمل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسطو في  
كتابه ، ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو<sup>(٥)</sup>

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه ( ١٤١ )

و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان )

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه

وللإطالة مواضعها ( مقدمة أدب الكاتب )

(٥) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات ( حروف العطف ) وأنها تجعل الكلام  
الكثير كالواحد ، وللجناس وسواء ، ونظرية أرسطو في الوصل هي التي يفيض  
عبد القاهر في شرحها في الدلائل ، ونصيب في نقده للكيميت في قوله ، تكامل فيها الأنس =

لا يشير إليها الجاحظ في بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابي أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على ترجمات لكثير من آرائه في السكتاين ، ولانشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرا ، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو .

هـ - وللجاحظ في البيان العربي آثار كثيرة : كرسائله في تفضيل النطق على الصمت (١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان أول كتاب ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه (٢) ، ويشيد به أبو هلال (٣) ، ويعد ابن خلدون من أركان الأدب (٤) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ، ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمفكرين ، وآثارهم الأدبية . وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٥) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلاً من تصحيف الجاحظ فيه (٦) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين (٨) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان ، كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه

== والشنب ، لأن الشاعر باعد في القول ( ١٣٤ ج ١ الأغاني ، ٣٣٥ : ١ : السكامل) . وليس أمامنا ما يدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجددها في (١٤٨ - ١٥٤ رسائل الجاحظ) .

(٢) ٨٠ العصر العباسي للاسكندري . (٣) ٧٠٦ الصناعتين .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٢٢٧ : ١ العمد

(٦) ٥٤٥٣٠ التصحيف والتعريف (٧) ١٩٨ : ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفني .



وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة<sup>(١)</sup> . أو كما يصورها بشر بن المعتز<sup>(٢)</sup> ، أو كما راها ابن المقفع<sup>(٣)</sup> ؛ وهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، وتعطينا صورة بجملة انشأته<sup>(٤)</sup> .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة<sup>(٥)</sup> ، ويتكلم على السجع<sup>(٦)</sup> ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم<sup>(٧)</sup> ، والاستطراد ، والكناية<sup>(٨)</sup> ، والأمثال<sup>(٩)</sup> والاحتراس<sup>(١٠)</sup> والقلب<sup>(١١)</sup> ، والأسلوب الحكيم<sup>(١٢)</sup> ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامي بهذا الاصطلاح<sup>(١٣)</sup> ؛ ويبي الجاحظ أن البلاغة في النظم لافي المعاني قال: والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما انشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك<sup>(١٤)</sup>

- 
- |   |                              |
|---|------------------------------|
| (١) ١ : ٧٩ البيان   | (٢) ١ : ١٠٤ وما بعدها البيان |
| (٣) ١ : ٩١ البيان   | (٤) ٣ مقدمة نقد النثر        |
| (٥) ١ : ١١٦ البيان  | (٦) ١ : ١٩٤ البيان .         |
| (٧) ١ : ١٧٠ و ١ : ٩١ و ٢ : البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين . |                              |
| (٨) ١ : ١٨٠ و ١ : ٢٩ و ٣١ و ٨٥ : ٣ البيان .   |                              |
| (٩) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ : ١ : ٢٢٤ ، ٢ : البيان .  |                              |
| (١٠) ١ : ١٦١ وما بعدها البيان (١١) ١ : ١٨٠ البيان .   |                              |
| (١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ : ٢ : البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ ، الغز في الجواب ، ( ١١٦ : ٢ : البيان ) .           |                              |
| (١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٢ : العمدة .   |                              |
| (١٤) ٤٠ : ٣ الحيوان   |                              |

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون<sup>(١)</sup> ، ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً<sup>(٢)</sup> ، وفي البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لاداعى إلى ذكره هنا خوفاً من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً في بيانه<sup>(٣)</sup> ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأرجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف »<sup>(٤)</sup> ، ويحث على ترك الوحش والسوقي وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتعذيب في صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبي وعلى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربي لا يتجدد ، ويعدّه ابن خلدون من السابقين في التأليف فيه<sup>(٥)</sup> .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال<sup>(٦)</sup> فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان وهي التي أوجت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان<sup>(٧)</sup> ، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب ومحرّم

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ ملكة الجلال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ١ : ٥ الكامل للبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلاء طه حسين الذي يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربي حقاً ( راجع ص ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين ) .

في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لأسباب المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميته إلى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلاً بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ نثر التلمذة والرواية - في كتابه - عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وابن العاصي

وكبارهم بن السندی وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر  
وكتامة والنظام ، وسوى هؤلاء هؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء  
الأدب والبيان الذين جاؤا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه  
وعلى كتابه « البيان » : كابن قتيبة وقدامة وأبي هلال والقاضي الجرجاني  
وعبد القاهر الجرجاني وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربي في كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين  
خاصة ، فهو أظهر من أفرد به بالتأليف وأسبقهم ، فوق ما جمع من مختلف  
الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار  
والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها وإذا  
قرأت كتب الجاحظ لاسيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ  
في هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في  
مذاهبها وعناصرهما في كتابه « البيان » ، على الخصوص ، له وراء ذلك فضل  
خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته  
واستمدتها من عقله وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين  
في البيان العربي وقواعده .

٦ - ولقد عاش الجاحظ في عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل  
لواءه طوائف عدة :

١ - طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والكوفيين والبغداديين ،  
الذين كانوا يروونه لإشباعا لنهم فطريهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ،  
من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نعيم وعمرو بن  
كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١)

(١) ١٠٦ : ١ : البيان والتبيين .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة السكرية، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (١).

٢ - ويجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبي عبيثة وبجي بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٢). ويجوار هؤلاء هؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى على وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٣).

٣ - طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوماً مثل طريقة في البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً (٤)، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٥)،

---

(١) ٢٢٤ : ٣ المرجع .

(٢) ٥٤ : ١ المرجع .

(٣) ١٠٦ : ١ البيان .

(٤) ١٠٥ : ١ البيان .

(٥) ٢٢٥ : ٣ المرجع .

وحكم مذهبهم في نقد البيان (١) ، وكان جملهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسرريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يتحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاه الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقتون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخين لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها: إن بشر امرئ إبراهيم ابن جبلة بن مخزومة وهو يلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشعا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته ، وهي في أصول البلاغة وعناصر البيان (٢) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم وولي هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمر بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين سعدوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرق المناصب في الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التي توائم ذوق ييئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا في كتاب البيان والتي لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

(١) ٢٤٠ : المرجع

(٢) ١٠٦ : المرجع

(٣) ١٥١ : المرجع

وللجاحظ مذهب أدبي كامل دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لاسمياً الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقلية وثقافته وبيئته، وهو المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين .

ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاوم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحدق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر وإيجاز، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه وأوزيه، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه، ومع مساندة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته، ومع الحرص على إثارة نشاط السامعين والقراء والاحتياال على ذلك: بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلقى في روع السامع والقارئ روح الهبة والإعجاب بهم وبالمؤلف، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارئ متطلعين مساهرين للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشي ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام .

ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشرم القارئ بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابه . ولا أجيلك في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه، فافقرأ أى صفحة

منه ؛ وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البدواة التقليدي في الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهي من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبالوان الحضارة في العيش والتفكير ، فقال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتبه البيان كله دعوة إلى هذا الرأي ، فهو حيناً يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم في البيان ، وحيناً يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسيرة الذوق والطبع ، وحيناً ينقد مذاهب الصنعة في الشعر ، وحيناً يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتعقير وإثارة الأساليب السمجة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب في حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومرسل ومؤلف وناقد ، وليس شاعراً مع أن له شمرأ ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزماني الهمداني فيه : « هو من أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف (١) » ، فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب ولا يفيض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه .

ولكن البديع يبدو أنه كان يتحامل على الجاحظ تحامل من يريد أن يروج من طريقته كل من لم يقدم في الأدب والبلاغة ليظل هو العلم في هذا المجال على

---

(١) ٨٢ المقامة الجاحظية - مقامات البديع .



من العصور ، ولذلك نجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه ، بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معنائه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة <sup>(١)</sup> .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين <sup>(٢)</sup> : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأنوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يزغ عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تنكاد نجد مؤلفاً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبدد الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعمما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أفواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

---

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لخليل مردم .

في عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضري المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الراهبرمزي حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضاً : « الأمدى مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمل من الكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتاب ترسم خطاه في الإنشاء بل تقتبس جملة ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس . قال القاضي الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة .

٧ - و شخصية الجاحظ في مؤلفاته وأدبه تطالعك من كل جانب وناحية ، وهي شخصية رجل الفكر الواصل بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته في مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يفن شخصيته في شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يحبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم في أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ تغيب في جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جو هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة أفكارها وجلال بيانها ، وترتك صريعاً في معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلبه

البليغ فيها عصا الساحر المتحدى التي تسترعى السمع والبصر . وتبهت  
الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سمة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيراً  
من لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتباً لاشخصية له ، تطمس شخصيات من  
يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ  
لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس  
آثاره بينهم .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه  
وفي بحثه وتأليفه ، فإذا فكّر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم  
ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ يستمسك بفائدته  
ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحاً بشمرة الفهم ، ولذلك كان كتابه البيان ،  
موقوفاً على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدى فلا نفع له  
من كتابته ، كما كان ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن  
يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب  
لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية  
على طريقة كتاب الموسوعات (١) وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن  
يفهمه إلا رجل مثله في فكره وإنجازه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا  
الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون  
مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجداً وخلود  
ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

٨ - وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

---

(١) راجع ٤٩ : ٢ النثر الفني لزي مبارك .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور البيان والتبيين ، ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيها حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب البيان ، ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذبيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارىء . وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له ، والجاحظ حين يعمل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكروا في كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيراً منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحياناً روحاً توأمت بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطردى جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطردى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الانقسام ، فهو يعنون فصولاً بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضمها إلا للتغريب بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

ويقول بعض العلماء : فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سديويه ، وكتاب العين للخليل .

( ٢ ) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب البيان والتبيين ، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزييات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف في موضوعه ، وقد طبع في سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون ، وما قالته العرب فيه من الشعر فضلاً عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفي استطراد الجاحظ الكثير في هذا الكتاب ، يقف القارىء في أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغت في القرن الثالث . فهناك أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آي القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس مما ترجمه العرب وما تسوق إليه المناسبة في ذلك الكتاب ، فضلاً عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة في القرن الثالث .

( ٣ ) كتاب البخل : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخل ونوادير الأشياء ، وصدره رسالة سهل بن هرون في البخل وهي من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب في هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من نكاهات ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة في الاقتصاد والتدبير .

( ٤ ) كتاب المحاسن والأضداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعاً متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلاً يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت ، وجميع المواضع التي عالجها ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضداها . وقد صرح الجاحظ في المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألني أحد صنعه ، والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تنسيقاً وترتيباً وأشدّها مراعاة لحسن التبويب وضم كل معنى إلى مشابه . وقد جرى على سنته البيهقي فآلف كتاباً سماه « المحاسن والمساوي » .

( ٥ ) كتاب التاج في أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمر الملوك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومخادتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم في الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

( ٦ ) الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيد الله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماءها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيع والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن ، وفيه بحث عن خلق القرآن ، كتاب الرد على النصاري ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الإمامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان ، كتاب الشارب والمثروب ، كتاب الإمامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

(٧) ثلاث رسائل للجاحظ هي : الرد على النصارى التى مر ذكرها مع  
الفصول المختارة ؛ ذم أخلاق الكتّاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت فى مصر ذكر أكثرها فى الفصول  
المختارة وما لم يذكر منها هو : نحر السودان على البيضان ، كتاب  
الوكلاء والموكلين .

(١٠) رسالة فى بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من  
الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم وأسلوبه  
عال ولكنّه بأسلوب الحكماء أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم  
القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ،  
كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصناعة ، كتاب  
آى القرآن ، كتاب حانوت عطار ، كتاب الثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب  
جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة  
اليتيمة ، رسالة فى القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ،  
كتاب العالم والجاهل .

---

## (٩) ألوان من نثر الجاحظ

### الكلام البليغ:

ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قننا بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه من تأويل الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائنين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخييراً من جنسه ، وكان صليحاً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتعمم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الأفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعمل الرخيص . ومن أعاده من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، خبت إليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

### كلام الرسول:

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التعمير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، ومجرى الغريب الوحش ، ورغب عن المهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائاه عن إعادته ، وقلة



حاجة السامع إلى معارضة ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يبذ  
الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتزم أسكات الخصم إلا بما يعرفه  
الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين  
بالخلافة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهزم ولا يلز ، ولا يبطئ ولا يعجل ،  
ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعـدل وزنا ،  
ولا أجل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا  
من كلامه صلى الله عليه وسلم .

### جوامع كلمه :

يجب للرجل أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير ، شجاعا لا يبلغ الهوج ،  
محترسا لا يبلغ الجبن ، ماضيا لا يبلغ القحمة ، قوالا لا يبلغ الهذر ، صموتا  
لا يبلغ العي ، حلما لا يبلغ الذل ، منتصرا لا يبلغ الظلم ، وقورا لا يبلغ  
الظلم ، وقورا لا يبلغ البلادة ، نافدا لا يبلغ الطيش . ثم وجدنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله : « خير الأمور  
أوماطها » ، فعلينا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وعلم  
فصل الخطاب .

### سحر البيان :

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشاؤم والتعق ،  
ويبغض الإغراق في القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء  
الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض  
للسامع من الافتتان بحسن ما يسمع : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج  
الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه

المتكلم قولاً متعشقا، صار في القلب أحلى، وللصدر أملاً. والمعاني إذا كسبت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وعلى حسب ما خرفت. والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى، ومدخل خدع الشيطان خفي.

#### بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فسر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أرحين أن يمتح على رأس بثر أو يحدو ببعير أو عهد المقارعة والمناظرة أو عند صراع أوفى حرب. فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني ارسالا وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً ثم لا يقبده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتعم بصدورهم واتصل بعقولهم. من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب، وإن شيئاً الذي في أيدينا جزء منه، لبا المقدار الذي لا يملئه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون.

ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز، ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج، فعننا العلم

على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة السكرية ، والرواق العجيب ،  
والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان  
أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير والنبد القليل ، ونحن لانستطيع أن نعلم  
أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة  
غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله  
وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل  
ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخالص ،  
ومعدن الفصاحة الثامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم  
أن الذى قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فماذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عنى - فهمك الله - ما أنا قائل فى هذا ،  
واعلم أنك لم تر قوما قط وأشق من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ،  
ولا أشد استهلاكا لعرضه . ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنا ، من أهل هذه  
النهضة . وقد شفى الصدور منهم طويل جنوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد  
نار الشتان فى قلوبهم ، وغيلان تلك المراحل الفائرة ، وتسهر تلك النيران  
المضطربة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعلمهم فى اختلاف  
إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهياتهم ، وما علة كل شئ من ذلك ، ولم  
اختلقوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤونتهم على من  
خالطهم .

#### الكتاب :

الكتاب وعاء مليء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شخ مزاحا وجدا ،  
إن شئت كان أيين من سبحان وائل ، وإن شئت كان أعبي من باقل ، وإن شئت

ضحكت من فواده ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك  
طرائفه ، وإن شئت أشجنتك مواعظه . ومن لك بواعظ مـله ، وبزاجر  
مفر ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس .

ومنى رأيت بستاناً يحمل فى ردن ؟ وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً  
ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ،  
ولا ينطق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ،  
وأحفظ للوديعه من أرباب الوديعه .

ولأعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً  
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة  
وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مرأ من كتاب .

ولا أعلم تناجاً فى حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان  
وجوده ، يجمع من التداير العجيبه والعلوم الغريبه ومن آثار العقول  
الصحيحه ومحمود الأذهان اللطيفه ، ومن الحكم الرفيعه والمذاهب القديمه  
والتجارب الحكيمه ، ومن الإخبار عن القرون الماضيه والبلاد المتنازحه  
والأمثال السائرة والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكتته وبلغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك  
فى حال شغلك ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجميل له  
والتدميم منه .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشهد طبعك ،  
وبسط لسانك وجود بيانك ونغم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك  
ومنحك تعظيم العوام ، وصداقه الملوك . وعرفت به فى شهر ، مالا تعرفه  
من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن

الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقاً ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء .

قال ابن الجهم : ، إذا غشي النعاس في غير وقت نوم - وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة - تناولات كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازي للفوائد ، والأرجحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشي وكل سروري .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألد عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في المكتب ألد عنده من عشق القيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رصياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ المكتب إيثارة الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه .

#### سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيى في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب في تديره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضاً ،

وشر منه من كان شره صرفا ، ولكن اخلاط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطاع والإعاقبة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجو وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان بمزوجا ، وشر الشر ما كان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده . لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحجوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيرا ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن في العوافب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

#### الصوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجيب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حائق وذلك مثل هذه الأغاني المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنعو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملهنة ، وليس يعتربرهم ذلك من قبل المعاني لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون ، وقد بكى ما سرجويه من قراءة أبي الخوخ ، فقبل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكاني الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادى وتزداد نشاطا

وتزيد في مشربها . ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعضي معهم ويعططون فتقبل أجناس السمك شائعة الأبصار ، مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطساس الأسد وقد أقبلت فتروعا تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصفيير والغناء ، والصفيير تسقى به الدواب ، وتنقر به الطير عن البذور .

#### العرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من أسنة الموازين ورءوس المكييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلًا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتزينة العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلط ؟ ولا العفن ولا النخم ، أذهان حديدية ، ونفوس منكورة ، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتمام بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيال والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ومهمهم أرفع وهم من جميع الأمم أغر ولا يأمهم أذكر .

---

(١) الغمق : الفساد من كثرة الانداء . واللثق : نحوه .

## ألوان من رسائل الجاحظ

### رسالة في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة  
الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بملك ، من لم يستشفع إليك بغيرك .  
ولاني بمعرفتي بمبلغ حلك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من ذاتها عندك ،  
وقد مسنى من الألم ما لم يشفه غير مواسلتك .

### رسالة أخرى في الاعتذار :

#### قال الجاحظ :

تشاغلنا مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبني محمد بن عبد الملك  
الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلي مع الحسن بن وهب فتنكر لي  
وتلون على فيكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف  
ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد  
خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزع السفهاء ، ومجانبة  
سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

/ وإن امرأ أسمى وأصبح مالمأ من الناس إلا ما جنى لسعيد  
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل  
فإن كنت اجتزأت عليك - أصلحك الله - فلم أجتري - إلا لأن دوام  
تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من  
المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر  
كان خيرا لي منك ، أرهني فاتقاني ، وأعطاني فأغثناني » .

( ٢٤٢ - ٢٤٣ )



فإن كنت لاتهب عقابي - أيدك الله - لخدمة ، فمبه لأيديك عندي ،  
فإن النعمة تشفع في النعمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ،  
وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداث ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون  
ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد .  
وتتجافى عن عقاب المصير ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه  
نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإيناع إلى منك ، هجمت عليه بالعقوبة .  
واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كزين صفحك عني ، وأن موت ذكرى  
مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك ، واعلم أن لك فطنة  
عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

#### رسالة في الشوق :

ما أضاء لي نهار ولا دجائل مذفارقتك إلا وجدت الشوق إليك قد حز  
في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدي .  
فأنا بين حشا عافقة ، ودمة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح  
قد أبلت بما تكابد ، وذكرت - وأنا على فراش الارتماض ، ممنوع من لذة  
الاغتماض - قول بشار :

إذا هتف القمري نازعني الهوى      بشوق فلم أملك دموعي من الوجد  
أبي الله إلا أن يفرق بيننا      وكنا كما المزن شيب مع الشهد  
لقد كان ما بيني زمانا وبينها      كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجري في مودتنا إليه ، في شعره  
هذا . وذكرت أيضاً ما رماني به الدهر من فرقة أعزائي من إخواني  
الذين أنت أعزهم ، ويمتحنني بمن نأى من أجبائي وخلصائي الذين أنت أحبهم  
وأخلصهم ، ويحمر عنيه من مرارة نأيمهم وبعد لقاءهم ، وسألت الله أن يقرن  
آيات سروري بالقرب منك ، ولين عيشي بسرعة أوبتك ، وقلت أيباناً تنصير  
عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبي وهي :

بجدي من قطر الدموع ندوب      وبالقلب منى مذ نأيت وجيب  
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا      ورجع حنين للفؤاد مديب  
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها      يخبر عنى اننى لكئيب  
كانى لم أجمع بفرقة صاحب      ولا غاب عن عيني سواك حبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولا رأيت شيئاً هو أنفذ  
من شماتة الأعداء ولا أعلم باباً أجمع لحصول المكروه من الدل . ولكن  
المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى مادام يجد من يرثى له فهو على سبب  
درك، وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقة مصمتة قد فتحت  
أنفها وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى  
حسن النية بينى وبينك ، لامشت الهوى ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى  
دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ،  
وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب  
من أكابر العلماء ، وغرور الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان  
محباً للجاحظ ، معجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلاً  
للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فألف له رسالته المشهورة فى مناقب  
الترك وعامة جند الخلافة ، ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية  
البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصاح على  
يديك ، وجعلنا وإياك بمن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل  
ما فيه مما قد يصد عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، درن

الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ، والصبر على المحافظة في أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت في تحقيقه لديهم . فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليسكنوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل عليهم ليعملوا وبين لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع في المضار ، والتورط في المهالك ، طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة في المنفعة احتملوا نقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال مافيه معجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرقاً ، والعدو عليه متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح (١) ومن معجب برأيه ذى خطل في بيانه ، مولع بهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع المتصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطغنه الحرمان . ومن لئيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطل قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

---

(١) المتصفح : المقلب لوجوه الأشياء عله يعثر على ما يوجب المؤاخظة والانتقاد .

لجمله بقدره ، واضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه للسالفه عليه . لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قدغره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة حامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في المهرج ، قد أقصاه عن السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيب لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشنى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون مرتاب ، وخارص (١) لاخير فيه ، وخالف لا غناء عنده . يريد أن يسوى بالكفاة ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، وإلحسان كان من غيره . وليس بمن يرب (٢) قديماً بجديث ، ولا يحفل بدروس (٣) شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها ؟

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناب أنصار خليفتك ؛ وإياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكافئة لأهل الحق . وقد استدلت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكرائك وتفقدك لأخاير الأعداء ، وبحثك عن مناب الأولياء . على أن ماظهر من نصحك أمم (٤) في جنب ما بطن من إخلاصك ، فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعاذنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

(١) الخارص : الكذاب المختلق للأباطيل . (٢) يرب : يزيد ويصلح .

(٣) الدروس : المحو والابلاء . (٤) أمم . قريب ظاهر .

## النقد في العصر العباسي الأول

انقسم نقاد الأدب وعلماءه في هذا العصر إلى طبقات :

١ - فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وتزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملامكات ، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تتقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا ب زاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلام م ١٥٤ هـ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعي عشرين سنة فما سمعه يحتج بيت إسلامي (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً (٢) » . وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للبتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليماً للعرب .

ومنهم ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول في شعر أبي تمام : « إن كان هذا شعراً

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠٤ ، أخبار أبي تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشده ابن الطوسي أرجوزة لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها (٢) ، وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعراً له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره (٣) ، وكان يستشهد في كتابه الزوادر بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بأبي هريرة (٥) ؛ وكان الأصمعي يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينهر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم (٩) ، فتعصب على أبي نواس (١٠) ، وطعن على أبي العتاهية (١١) ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبي تمام ١٧٥ ، ص ٤٥ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠ ، وراجع ٥٥ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ٢٨٩ : ١ زهر

(٤) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧

(٥) العمدة ٧٣ : ١

(٦) البيان ١٩٧ : ٣

(٧) الأغاني ٢٣ : ٣

(٨) الموشح ٣٠٤

(٩) أخبار أبي تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح ، الأغاني ٢٨ : ٣

(١١) الموشح ٢٥٨ .

وكان لا يعتد ببشار ويقدم مرواناً عليه<sup>(١)</sup>، وسمع أبي تمام يشد شعرأ له فقال يا هذا لقد شددت على نفسك<sup>(٢)</sup>، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسّن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما<sup>(٣)</sup>، ولم يكن تعصب اسحاق للقدمات في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنسكّر تغيير الغناء القديم وتعظم الأقدام عليه<sup>(٤)</sup>.

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية<sup>(٥)</sup>. ودخل عليه أبو تمام في زى أعرابي فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حاتم فانم حمام

فقال المأمون: الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبك بدويًا ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم، فغضب به ذلك عنده<sup>(٦)</sup>.

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى. فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم الناذج التي يجب أن

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٣

(٢) الموازنة، وترى برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)

(٣) الوساطة ٥٠، والموازنة ١٠ (٤) الأغاني ٣٥ : ٩

(٥) ديوان المعاني ٣٦٢ : ١

(٦) ديوان المعاني ١٢٠ : ٢

تدرس ليلاً ونهاراً ، فإن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .  
واعتذر الباقلاني عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يميلون إلى الذي  
يجمع الغريب والمعاني (٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة  
نقدهم بما يأتي به المولدون (٣) .

ب - وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي وحده في الشعر  
وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن  
قتيبة والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين  
لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى (٦) ، ويشرح  
الجزجاني والباقلاني مذهبهم في النقد (٧) .

ج - وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في  
نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا في نقد الشعر ومناججه  
ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله  
أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد في نقد الشعر كان الشعراء يتشددون في طلب  
العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموا من شعر عليهم كما فعل ابن

---

(١) قواعد النقد الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، العمدة

١ : ٧٤ (٥) أخبار أبي تمام ١٧٤ وما بعدها ، رسائل ابن المعتز ١٤

(٦) العقد ص ٤٠٣ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣



مناذر م ١٩٨ : فقد أنشد أبا عبدة قصيدته في رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب  
النقفي (١) :

كل حي لاق الحام فودى ما لحي مؤمل من خلود

وهي التي عارض بها قصيدة أبي (٢) زبيد الطائي :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأمل طول الخلود

فقال : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادماً الزمان  
وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين ، واحكم لافضلهما  
وأجودهما (٣) .

( انتهى الكتاب )

- 
- (١) راجعها في الكامل للبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ : ٣ ، والبرد شديد الالهجاب  
بها ، ٢٢٨٨ : ٢ الكامل  
(٢) راجعها في ( ٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب )  
(٣) ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز

## خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، نحمده ونشكره ونسأله التوفيق  
والهداية إلى أقوم طريق ، وبعد فهذه هي خاتمة كتابنا ، الأدب العربي  
وتاريخه في العصر الأموي والعصر العباسي الأول ، الذي اشتمل على قسمين  
كبيرين : الأول في آداب العصر الأموي ، والثاني في العصر العباسي وحركة  
الأدب العربي في ظلاله .

ويتميز هذا الكتاب بالدقة والعمق والاستقصاء والشمول ، بجانب  
الجدّة في بحوثه ودراساته ، واشتغاله على كثير من نصوص الأدب في العصرين  
مع دراسات واسعة لهذه النصوص . . وكذلك يعد هذا الكتاب أوفى مرجع  
في الأدب العربي وتاريخه في هذين العصرين ، ونحمد الله على مزيد فضله ،  
وجليل توفيقه ، وهدايته لنا في الطريق الذي رسمناه لأنفسنا في هذا  
الكتاب .

إنه ولي الحمد ، وواهب الخير ، وهو أجل مأمول ، وأكرم مستول ،  
وما توفيقنا إلا بالله ؟

## فهرست الكتاب

### القسم الأول من الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٤	مجالس الأدب في هذا العصر	٥	تمهيد
٥٦	صور من العناية باللغة والأدب	٦	القسم الأول من الكتاب
٧٦	خلاصة	١	الحياة الأدبية في عصر بني أمية
٧٧ - ١٧٦	الشعر في عصر بني أمية	٢ - ٣٢	الحياة السياسية في العصر الأموي
- تمهيد		٩	الأحزاب السياسية وآثارها في الأدب
٧٩	نهضة الشعر في العصر الأموي	١٣	تلخيص
٨٢	بيئات الشعر في العصر الأموي	١٤	عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها
٨٣	المؤثرات العامة في الشعر الأموي	١٦	ذبول اللغة وقيامها بمطالب الحضارة
٨٦	التطور والتجديد في الشعر الأموي	١٩	ظهور اللحن والعمل على مقاومته
٨٦	أغراض الشعر الأموي	٢٢	الحفاظ على العربية ووضع النحو
٨٨	الشعر السياسي	٢٦	وضع الشكل
١٠٠	شعر الشعوبية	٢٧	وضع النقط
١٠٢	الغزل	٢٩	بدء تدوين العلوم
١٠٣	الغزل التقليدي	٣٣ - ٥٣	الحياة الثقافية في ظلال الأمويين
١٠٨	الغزل القصص	٤٤	سوق المربد وأثره الأدبي
١٢٢	الغزل العنري	٤٩	الموال في خدمة الثقافة واللغة
١٣٩	أغراض أخرى - الوصف	٥١	اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية
١٤٣	شعر الحماسة		
١٤٩	الهجاء		
١٥٣	التفاضل في عصر بني أمية		
١٥٥	الفخر		
١٥٨	وصف الانفعالات النفسية		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
النثر الأموي	٢٢١	المدح	١٥٨
الخطابة في العصر الأموي	٢٣٢	الثناء	١٦٠
نماذج للخطابة	٢٤١	أساليب الشعر الأموي وأنماطه	١٦٧
من أعلام الخطباء : زياد	٢٥٣	المعاني والأخيلة	١٧٠
سبحان	٢٦١	طوائف الشعراء الأمويين	١٧٣
الحجاج	٢٦٢	الفرزدق شاعر العصر	١٧٧
الكتابة في العصر الأموي	٢٦٥	الأموي	
نصوص من الكتابة	٢٧٣	الأخطل شاعر بني أمية	١٨٥
عبد الحميد الكاتب	٢٨٣	الكيميت الأسدي	١٩١
التقد في العصر الأموي	٢٩٥	مسكين الدارمي	٢١٦

القسم الثاني من المکتب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٦	أغراض الشعر	١	الحياة الأدبية في العصر العباسي
١٤٨	الغزل		الأول
١٥٨	المدح	٢	العصر العباسي الأول
١٦٦	شعر السياسة والعصية	٥	قيام الدولة العباسية
١٧٢	الوصف	١٧	الطابع السياسي في العصر العباسي الأول
١٨٥	وصف الطبيعة	٢٦	الطابع الاجتماعي لهذا العصر
١٩٣	الصيد والطرود	٤٥ — ٧٥	الطابع الثقافي للعصر العباسي الأول
١٩٥	الخرجات	٥٢	ترجمة العلوم والآداب الأجنبية
٢٠٠	الحكمة	٦٣	التأثير الأجنبي في اللغة وآدابها
٢٠٢	الزهد	٦٦	الثقافات الأجنبية وأثرها في اللغة والآداب
٢٠٤	الفخر	٧٦ — ٢٧٠	الشعر في العصر العباسي الأول
٢٠٦	العتاب	٧٦	تمهيد
٢١٣	الهجاء والمجون	٨١	تطور الشعر في العصر العباسي الأول
٢١٦	الرثاء	٨٤	عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء
٢٢٦	الشعر الحماسي	٩٧	مجالس الشعر والآداب
٢٢٩	نماذج أخرى من الشعر العباسي	١٠٤	المحدثون والمولدون
٢٣٧	رواية الشعر	١٠٦	ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر
٢٣٨	طبقات الشعراء	١١٨	أوزان الشعر وقوافيه
٢٣٩	الطبع والصنعة عند المحدثين	١٢٤	أخيلة الشعر ومعانيه
٢٤٨	ابن المعتز العباسي		
٢٧١	النثر الفني في العصر العباسي الأول		
٢٧٥	الخطابة في العصر العباسي الأول		
٢٧٥	صور من الخطابة		

الصفحة	الموضوع
٢٨٤	تطور الخطابة في هذا العصر
٢٩٢	الكتابة في هذا العصر
٢٩٢	صور الكتابة
٣٠٥	حالة الكتابة في هذا العصر
٣٢٠	فن التوقيعات
٣٢٣	ابن المظفر
٣٣٤	الجاحظ
٣٧٤	النقد في العصر العباسي الأول
٣٧٩	خاتمة الكتاب

ملاحظة :

لايفوت القارىء تصوير بعض  
الأخطاء المطبعية ، وفي صفحة ٢ سطر  
١٤ من القسم الثانى ذكر اسم أبى  
مسلم وأبى سلة الخلال كل مكان  
الآخر ؟

